تيسير التفسير

لقطب الأئمّة

الشيخ الحاج محمد بن يوسف أطفيّش

(ت: ١٣٣٢هـ/١٩١٤م)

(الجزء الثامن)

تحقيق وإخراج

الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي

بمساعدة لجنة من الأساتذة

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م

وضع التراجم وتخريج الأحاديث

الأستاذان: كروم أحمد وبازين عمر

الفهرسة ومتابعة الطبع

الأستاذان: مصطفى اشريفي ومصطفى طلاي



﴿ قل نزّله روح القدس من ربّك بالحقّ ليثبت الذين ءامنوا وهدًى وبشرى للمسلمين ﴾ .

(سورة النحل ءاية ١٠٢)



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾

مناقشة عقائد المشركين، وأعمالُهم القبيحة

﴿وَقَالَ اللهُ﴾ عطف على «وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ»، أو على «أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ» ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ لا تعبدوا ﴿إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ نعت «إِلَٰهَيْنِ»، أو لا تجعلوا إلهين اثنين معبودا، أو لا تصيِّروا اثنين إلهين، فـ«اثْنَيْنِ» مفعول أوّل و«إِلَٰهَيْنِ» ثان.

وذكر «اثْنَيْنِ» مع لفظ «إِلَٰهَيْنِ» للاثنين إيماء إلى أنَّ المراد بالذات نفي التعدُّد لا جنس الأُلوهِيَّة، وإلى أنَّ الاثنانية تنافي الأُلوهِيَّة، لأنّا لو فرضنا تعدُّد

الواجب وتبايَنا بالتعيين وما به المباين، فكلٌّ منهما مركَّب من جزئين، والمركَّب ممكن، والإله واجب غير ممكن.

﴿إِنَّمَا هُوَ﴾ أي الإله هكذا، أو الله ﴿إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لفظ «إِلَهٌ» للوحدة، ومع ذلك ذكر لفظ «واحد» ليدلَّ على أنَّ المراد بالذات إثبات الوَحْدَانِيَّة، وعلى أنَّ الوحدة من لوازم الأُلوهِيَّة، و«اثْنَيْنِ» و«وَاحِدٌ» توكيدان لفظيَّان، وما ذكرته في بيان الإتيان بهما لا ينافي أن يكونا توكيدين لفظيين في اصطلاح النحو، فلا تهم. ﴿فَإِيَّايَ﴾ لا غيري ولا مع غيري ﴿فَارْهَبُونِ﴾.

(نحو) ياء المتكلِّم المدلول عليها بنون الوقاية حتَّى كأنَّها مذكورة هي شاغلة عن أن يكون منصوبا بـ«ارْهَبُونِ» فهو منصوب على الاشتغال، والتقدير: فإيَّاي ارهبوا فارهبون، وزعم بعض أنَّه فُصل وقدِّم وبقيت النون، وهو غلط، والفاء الثانية لزيادة تأكيد الارتباط والتفريع، فإنَّ ما تقدَّم من الوحدة يوجب الرهبة ففرَّعها عليها بالفاء تصريحا بطريق التكلُّم بعد صيغة الغيبة، وكأنَّه قيل: أنا الله الواحد، وأنا ذلك الواحد إله فارهبون وحدي، إذ لا مشارك لي في وصفٍ مَّا.

والترهيب أبلغ منه من الغائب، ولذلك انتقل الكلام عن الغيبة إلى التكلُّم. وقدَّر بعضٌ: إن رهبتم شيئا فإيَّاي ارهبون.

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ عطف على «إنَّمَا هُوَ إِلَهٌ» أو على «إِلَهٌ» من تقديم الخبر المفرد على الجملة. و«مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ» شامل لهما وما فيهما، كما تقول: ملكت ما في عبدي، أي: أجزاءه، فهو مالكهما وما فيهما بخلقه لهما ولما فيهما، وتصرُّفِه فيهما وفيما فيهما.

﴿وَلَهُ الدِّينُ﴾ العبادة، أو الجزاء ثوابا وعقابا ﴿وَاصِبًا﴾ حال من المستتر في «لَهُ» ومعناه: لازما، فإنَّ عبادته لازمة لا تنقطع، ما دام الإنسان مكلَّفا بها، لأنَّ كلَّ ذي وصف يزول عنه وصفه بموت أو غيره.

(أصول الدين) والله لا يزول وصفه بالأُلوهيَّة وسائر صفاته المستحقِّ هو بها أن يعبد، وكذلك ثوابه وعقابه لا يزولان في الآخرة، إلاَّ أنَّ اقتضاء كونه واحدا كون الجزاء له ﷻ إنَّما هو بمعونة كون العبادة مختصَّة به؛ أو معناه: دائما، ومأصدق اللزوم والدوام واحد؛ أو معناه: واجبا، وكلُّ ذلك وارد في اللغة، ومعنى وجوب جزائه أنَّه موعود به لا يتخلَّف.

أو معناه ذا وصب أي تعب، وعليه فهو للنسب كـ«لاَبِن» و«تَامِر»، فالمعنى: وله العبادة ذات كلفة، وفي التكليف أتعاب، وأمَّا الجزاء فلا يوصف بالتعب، إلاَّ إن أريد به الثواب، فإنَّه يكون بالتعب. وشاع في «وَاصِب» معنى اللزوم والدوام، وذلك أنسب بالمقام، وكذا معنى الوجوب.

﴿أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ﴾ توبيخ وإنكار لأن يكون عبادة غيره صوابا، مع أنَّه الإله الحقُّ لا غيره، المتفرِّد بالوحدة الذي لا يملك الضرَّ ولا النفع سواه، كما قال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ لا من غيره فلا عبادة إلاَّ له تعالى. والواو للحال: كيف تتَّقون غير الله والحال أنَّ نعمكم من الله؟ أو للعطف على «إِلَه». وقدَّم «غير» لأنَّ المُنكَر تقوَى غَيْرِ اللهِ تعالى لا مطلق التقوى فأُولِيَ الهمزة لذلك لا للاختصاص، فضلا عن أن يقال: إنكار تخصيص التقوى بغيره سبحانه لا ينافي جوازها، بل يجوز [أن نقول:] إنَّ التقديم لاختصاص الإنكار لا لإنكار اختصاص. ودخل في النعمة إزالة الضرِّ بعد وقوعه، ودفعه قبل وقوعه.

(تمجيد اللّه) **الحمد لله** الذي لا ينسى من ذكره، و**الحمد لله** الذي لا يخيب من رجاه، و**الحمد لله** الذي من وثق به لا يكله إلى غيره، و**الحمد لله** الذي يجزي بالإحسان إحسانا ويجزي بالصبر نجاة وغفرانا، و**الحمد لله** الذي يكشف ضرَّنا بعد كربنا، و**الحمد لله** الذي هو ثقتنا حين يسوء ظنُّنا بأعمالنا، و**الحمد لله** الذي هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عَنَّا.

و«مَا» إمَّا شرطيَّة يقدَّر فعل الشرط بعدها هكذا: وما يثبت بكم من نعمة، والباء للإلصاق أو بمعنى مع، وفي ذلك حذف فعل الشرط بلا اشتغال، مثل حذفه بالاشتغال في قوله تعالى: ﴿وَإِنَ اَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (سورة التوبة: ٦) وإن زيدا ضربته، وبلا تقدُّم "إن" ، ولا مِثْلَ قوله:

[فطلِّقها فلست لها بكفء] وإلاَّ يَعْلُ مفرقك الحسام

وَإِمَّا موصولة، و«بِكُمْ» صلتها، ويقدَّر فعل الاستقرار وقد ناب عنه «بِكُمْ» ولا نائب عن فعل الشرط.

(نَحو) والموصولة أولى هنا، والفاء في خبرها لشبهها بالشرطيَّة في العموم، لكن لا يتوقَّف الخبر على صلتها لأنَّ النعم من ا لله كانت معهم أو لم تكن، والجواب متوقِّف على الشرط، ويجاب: بأَنَّ الآية جيء بها لإخبار قوم لهم نعم جهلوا معطيها أوشكُّوا فيه، أو ذهلوا عن أنَّ لها معطيا، أو علموه ولم يعملوا بمقتضاه، فاستقرارها مجهولة أو مشكوكة سببٌ للإخبار بكونها من ا لله سبحانه، وأيضا اتِّصَالها بهم سببٌ للعلم بأنَّها من ا لله.

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ﴾ ثمَّ للترتيب في الرتبة بمعنى: إنَّ جؤاركم أي تضرُّعكم إلى ا لله وحده حال لحوق الضرِّ بكم ينافي ويناقض جدًّا عبادَتكم غيرَه. و«الضرُّ»: الفقر والجدب والمرض. والجؤار: رفع الصوت

بالدعاء في التضرُّع والاستغاثة. وكان الشرط «إذَا» لا «إن» للجري على ما اعتيد عندهم وعند غيرهم من وقوع الضرِّ، كما أنَّه اعتيد كشفه فجيء بـ«إذَا» في قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ﴾ أزال ﴿الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ «ثمَّ» للترتيب الرتبي، بمعنى: إنَّ رجوعكم إلى الإشراك بعد تضرُّعكم إلى الله وزوال الضرِّ مناقض جدًّا لتضرُّعكم إلى الله في كشف الضرِّ.

وذلك الفريق هم كفَّاركم، والخطاب للمؤمنين[1]، و«مِن» للتبعيض لاتِّفاق المؤمنين والمشركين بالنسب والبلد، كما أضيف الكُفَّار إليهم لهذه الملابسة، وإن جعلناه للمشركين فهي للبيان، أي فريق هم أنتم، أو تجريد للمبالغة، أو للتبعيض باعتبار البعض، كقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ (سورة فاطر: ٣٢). والخطاب في بكم للمؤمنين وَالكُفَّار، فإنَّ المؤمنين أيضا لا يعبدون ولا يحمدون حقَّ العبادة وحقَّ الحمد.

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ اللام للعاقبة، كأنَّهم قصدوا بشركهم كفران النعمة بإضافتها إلى أصنامهم.

(بلاغة) لَمَّا صار شركهم مؤدِّيا إلى كفران النعمة صار كفرانها كأنَّه غرض لهم مطلوب بإشراكهم، وذلك تشبيه لعاقبة الشيء بعلَّته الباعثة، وذلك استعارة تبعيَّة، ويجوز أن تكون للسببيَّة، أي يشركون بسبب كفرهم النعمة بعدم شكرهم، أو الكفر اعتقاد أنَّ النعمة ليست من الله سبحانه.

ويجوز أن يكون لام الأمر للغائب تهديدا، وعليه يكون قوله: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ على طريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، على أنَّه أمر تهديد باجتماعهم على عبادة الأوثان، معطوف على «لِيَكْفُرُواْ» ويجوز أن يكون فعلا ماضيا عطفا

١- في نسخة ب: والخطاب للمؤمنين والكافرين.

للماضويَّة على المضارعيَّة، وهو «يُشْرِكُونَ» فيكون قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمركم تبعا للخطاب في «تَمَتَّعُوا» على أنه أمر، وعلى أنه ماض يكون على طريق الالتفات إلى الخطاب من الغيبة، وذلك كلُّه من الله.

وقد يجوز أن يكون من كلامه ﷺ على تقدير القول: قل لهم يا محمَّد ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة الإشراك وكفران النعمة، ولا داعي إلى هذا، وعلى الأمر باللام وأمرية «تَمَتَّعُوا» يكون هنا ثلاث وعيدات، وأغلظها الثالث إذ لا يدرك كنهه بالكلام بل بالإصابة، وهو ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تَعَقَّبَهُ بما يعيبه عليهم دينا وعرفا أدنى عاقل اعتبر، إذ قال:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ﴾ «مَا» واقعة على الأصنام ورابطها محذوف، والواو للمشركين، أي ويجعلون للأصنام التي لا يعلمونها آلهة تحقيقا ولا شافعة ولا ضارَّة ولا نافعة ولو توهَّموها آلهة، أو لأصنام لا يعلمونها آلهة ولا ضارَّة ولا نافعة ولا شافعة، فيجوز لما لا يعلمونها ولما لا يعلمونه، مراعاة للفظ «مَا» ومعناها؛ أو الواو لـ«مَا» تنزيلا للأصنام منزلة العقلاء اعتبارا لِمَا عندهم، فالرابط الواو، أي للأصنام التي لا تعلم شيئا.

أو «مَا» مَصدَريَّة فالمفعول الثاني محذوف، واللام للتعليل، أي ويجعلون لعدم علمهم ﴿نَصِيبًا﴾ لِمَا لا يضرُّ ولا ينفع ولا يشفع جزءً من الأنعام والحرث، ونصيبا لله يتقرَّبون به إليه، ﴿هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ (سورة الأنعام: ١٣٦) أو النصيب: البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، أو كلُّ ذلك ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من ذلك، متعلِّق بـ«يَجْعَلُونَ» فـ«مِنْ» للابتداء؛ أو بمحذوف نعت لـ«نَصِيبًا» فـ«مِنْ» للتبعيض.

﴿تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ﴾ سؤال توبيخ، خطاب بعد لفظ الغيبة تشديدا عليهم في الوعيد والتوبيخ ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ من أنه أَمَرَكُم بجعل نصيب للأوثان

﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ يعتقدون أو يثبتون باختيار ﴿لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ تجعل كنانة وخزاعة وطائفة من النصارى الملائكة بنات الله، مع كراهتهم للبنات، فلم ينزّهوا الله عنها، ولا عن التجسيم ولا عن الجهة والحلول وغير ذلك، قال الله ﷻ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ, وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ (سورة الأنعام: ١٠١)، ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ﴾ (سورة الصافات: ١٥٢) ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ (سورة الصافات: ١٥٨).

وقيل: لا يعتقدون بنوّة الملائكة بل يشبّهونهم بالبنات المستورات إذ لا يرونهم، مع أنّهم في مكان لا تصل إليه الأغيار، كبنات الرجل يسترهنّ في محلّ أمين ومكان مكين، والجنُّ ولو استتروا ليسوا على هذه الصورة، ومع ذلك المذكور من أَنَّهُم لم يريدوا حقيقة البنوّة يصفهم الله بالإشراك، لأنَّ ذَلِكَ لفظ إشراك يوهم الولادة، كما يروى أنَّ عيسى يقول: «الله أبي» أي سيّدي. وَلَمَّا كان لفظ إشراك سمّاه الله إشراكا وهو محرَّم عن عيسى وغيره لأنّه يوهم الولادة.

﴿سُبْحَانَهُ,﴾ نزّهوا الله أيُّها المسلمون عن ذلك تنزيها، أو تنزّه عن ذلك تنزُّها، أو نزَّه نفسه تنزيها، وذلك متضمِّن للتعجُّب، ﴿وَلَهُم﴾ عطف على «لِلَّهِ» ﴿مَّا يَشْتَهُونَ﴾ من الذكور، عطف بتلك الواو على البنات عطف معمولين على معمولي عامل.

(نحو) وفي ذلك عمل عامل في ضميرين لمسمًّى واحد، وذلك جائز في باب "علم وظنَّ وفقد وعدم ورأى الحُلمية"، ولو بلا حرف جرّ، ويجعل من باب "علم وظنَّ" لأنَّ معناه: يعتقد، والضمير الأوَّل الواو، والثاني الهاء، ولم يجيزوه في غير ذلك ولو بحرف جرّ، [قلت:] وعندي يجوز في غير الباب إذا كان أحدهما بالحرف، مثل ما هنا، إذا فسَّرنا ﴿يَجْعَلُونَ﴾ بـ: يثبتون لكثرته في القرآن، مثل: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ (سورة البقرة: ٢٦٠) ﴿وَهُزِّي

إِلَيْكِ﴾ (سورة مريم: ٢٥) وقد يجوز هنا ولو عندهم على أنّه يغتفر في الثواني ـ ومنها المعطوف ـ ما لا يغتفر في الأوائل. أو «لَهُمْ» خبر لِمَا بعده، والجملة حال من الواو، ولا يصحُّ الاستئناف فلا تهم.

وأتبع ذلك مشاكلة بقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثى﴾ ولدت له أو بولادة الأنثى له، لأنَّ التبشير موضوع لِمَا يُشتهى ويسرُّ به، استعمل في مجرَّد الإخبار لعلاقة الإطلاق والتقييد، أو أحدهما، وذلك لأنَّهم لا يحبُّون ولادة البنات فضلا عن أن يقع لهم التبشير بهنَّ، بل يكرهونهنَّ جدًّا كما قال:

﴿ظَلَّ وَجْهُهُ, مُسْوَدًّا﴾ أسودَّ وجهه في النهار كلّه اغتماما بها، وكآبة وحياء من الناس، وكانوا يعيِّرون بالأنثى، و[معنى] ذلك أنَّه ينحبس الروح إلى داخل القلب فلا يبقى له أثر ينوَّر به الوجه، بخلاف ما إذا سُرَّ فإنَّ الروح تنبسط وتصل الأطراف ولا سيما الوجه، فيستنير.

ويجوز أن يكون ذلك كناية عن الحزن لأنَّ الاسوداد من لوازمه، وخصَّ النهار بالذكر لأنَّ أكثر الولادة قيل بالليل فيؤخّر الإخبار إلى النهار، أو لأنَّه يظهر تغيُّر الوجه فيه، أو المراد عموم الزمان ولا نسلّم الأكثريَّة واطّراد التأخير. ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء غيظا على زوجه أو سريَّته التي ولدت البنت، كأنَّها ملكت أمرها في بطنها فاختارت جعله أنثى، والقويَّة القلب تقول: ما عليَّ، إنَّما ولدت ما وضعت في بطني. والجملة حال من «وَجْهُهُ» أو من المستتر في «مُسْوَدًّا» وذلك من أشنع ما يكون.

ولدت امرأة بنتا وهجرها زوجها فقالت:

ما لأبي الذلفاء لا يأتينا ... غضبان في البيت الذي يلينا
يحرد أن لا نلد البنينا ... وإنَّما نأخذ ما يعطينا

وفي رواية: «ما لأبي حمزة».

﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ﴾ يعالج الاختفاء أو يبالغ فيه عن الرجال، و«مِنْ» بمعنى: عن، أو للتعليل، أو للابتداء والجملة مستأنفة، وهذا أولى من كونها حالا من المستتر في «كَظِيمٌ» أو في «مَسْوَدًّا».

﴿مِن سُوءِ﴾ «مِنْ» للابتداء إن لم تجعل الأولى له، وللتعليل إن جعلنا الأولى له، والمعنى: من قبح أو ضرٍّ ﴿مَا﴾ عبَّر بـ«مَا» لا بـ«مِنْ» إهانة للأنثى كأنَّها غير إنسان من الحيوانات ﴿بُشِّرَ بِهِ﴾ أي أخبر به على حدِّ ما مرَّ، وأصل التبشير إظهار أثر الفرح على البشرة، أي جلدة الوجه، ببسط الروح عكس ما إذا غمَّ فإنَّ الروح يذهب إلى القلب إلاَّ قليلا فيصفرُّ، والدم تابع للروح، وهذا التبشير تابع للأوَّل في المشاكلة.

ويجوز أن يكونا على ظاهرهما فلا مشاكلة، بأن يكون مراد المخبر بالأنثى التبشير، وفيه ضعف لشهرة كراهتهم البنت، أو بأن يكون الولادة ولو للأنثى مِمَّا يسرُّ به عند الله ولو كرهوها، فيكون ذمًّا لهم بجعلهم الخير شرًّا.

وفي التواري للحياء تلويح إلى التفكُّر فيما يفعل كما قال ﷻ: ﴿أَيُمْسِكُهُ﴾ أي مفكِّرا أو محدِّثا نفسه: أيمسك ما بشِّر به وهو الأنثى، فالجملة مفعول لحال محذوفة معلَّقة بالاستفهام ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ ذلٍّ للبنت أو للأب الممسِك، حال من الهاء أو من ضمير «يُمْسِكُ»، كما قال ابن عَبَّاس: ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾: مع رضاه بهوان نفسه، وعلى رغم أنفه. ونقل الأوَّل أيضا عن ابن عَبَّاس، أي أيمسكها مُهانة ذليلة، وهو أولى لمناسبته لمقام كراهة البنات ﴿أَمْ يَدُسُّهُ﴾ يخفيه ﴿فِي التُّرَابِ﴾ بدفنه فيه حيًّا، وكانوا يدفنون البنات في حفرة الولادة في حين الولادة، أو بعد ذلك

بقليل، أو كثير، وبعض يغرقها وبعض يذبحونها، وبعض يلقيها من عال وبعض بغير ذلك.

روي أنَّ رجلا قال: يا رسول الله والذي بعثك بِالحَقِّ ما أجد حلاوة الإسلام منذ أسلمت، وقد كانت لي في الجَاهِلِيَّة بنت أمرت امرأتي أن تزيِّنها وذهبت بها إلى واد بعيد القعر وألقيتها، فقالت: يا أبت قتلتني، فكلَّما ذكرت قولها لم ينفعني شيء، قال ﷺ: «**ما في الجَاهِلِيَّة يهدمه الإسلام، وما في الإسلام يهدمه الاستغفار**»[1].

وَلَمَّا كان كلٌّ من ذلك يفضي إلى الدفن في التراب عبَّر بالدسِّ في التراب، وقيل الدسُّ في التراب كناية عن الإخفاء عن الناس، حتَّى كأنَّها لم تولد، والصحيح ما ذكر.

وكانوا يفعلون ذلك خوفا من نكاح غير الكفء والزنى والسرقة، وعيب من العيوب وعدم جمالها، وللفقر، قال ﷺ: «**من ابتلي بشيء من البنات فأحسن إليهنَّ كنَّ له سترا من النار**»[2]، وقال ﷺ: «**من عال جاريتين حتَّى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين**» وضمَّ أصابعه[3]، رواهما مسلم، وهما ترغيب في المحافظة عليهنَّ مخالفة للجاهليَّة، وقوله: «بشيء من البنات» يشمل الواحدة.

١- أورده **الألوسي** في تفسيره: ج٥، ص١٦٩، بدون إسناد ولا تخريج.

٢- رواه **مسلم** في كتاب البرِّ والصلة والآداب (٤٦) باب فضل الإحسان إلى البنات، رقم ١٤٧ (٢٦٢٩). من حديث عائشة.

٣- رواه **مسلم** في كتاب البرِّ والصلة والآداب (٤٦) باب فضل الإحسان إلى البنات، رقم ١٤٩ (٢٦٣١). من حديث أنس.

﴿أَلاَ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ساء حكمهم هذا، وهو نسبة ما يذمُّونه ويتنزَّهون عنه ـ وهو البنات ـ إلى ا لله مع تنزُّهه عن الولادة مطلقا، وعلوِّ شأنه؛ أو ساء ما يحكمون من القسمة الضِّيزى، [قلت:] وكم امرأة خيرٌ لأهلها من غلام، وقضاءُ ا لله للمرء خير من قضائه لنفسه، أخبرنا ا لله بذلك لنجتنبه.

﴿لِلذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِالاَخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ صفة السوء كالعجز والبخل والفقر المؤدِّيات إلى دفن البنات؛ ومنها دفن البنات مع احتياجهم إليهنَّ في النكاح، وتربية الأولاد، والقيام بأمر البيت؛ ومنها الاحتياج إلى الولد الذكر استظهارا به، وا لله لا يحتاج؛ ومنها الموت، وا لله لا يموت وما يلد يموت.

﴿وَ لِلهِ الْمَثَلُ﴾ الوصف ﴿الاَعْلَىٰ﴾ وهو الموجود الذي لا يتقدَّمه عدم ولا يعقبه، والغنى المطلق عن كلِّ شيء كالولد الذكر، والجود الفائق، والقدرة التامَّة، والنزاهة عن صفات الخلق، والاختصاص بالأُلوهِيَّة، ولا إله إلاَّ ا لله وليس كمثله شيء، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في ملكه المنفرد بكمال القدرة، لا يردُّ عمَّا أراد ﴿الْحَكِيمُ﴾ في قوله وفعله، المنفرد بكمال الحكمة.

﴿وَلَوْ يُوَاخِذُ ا للهُ﴾ في الدنيا يهلك أو يعاقب، والمفاعلة للمبالغة لا للمفاعلة بين اثنين، كما زعم ابن عطيَّة: أنَّ العبد يأخذ حقَّ ا لله بمعصية وا لله يأخذ منه بمعاقبة لضعفه، بأنَّ المأخوذين متغايران بخلاف التضارب فإنَّ في جانب كلٍّ منهما إيلاما بالضرب، ولأنَّ نسبة أخذ حقِّ ا لله بالمعصية مع كونه مجازا تنافي حسن الأدب ﴿النَّاسَ﴾ الناس الظالمين، لذكر تعليق الحكم بالظلم بعد في قوله ﴿بِظُلْمِهِم﴾ لأنفسهم ظلما للغير، أو لأنفسهم فقط بالذنوب الكبار، فخرج غير الظالمين، ولا بأس بتأخير القرينة بقدر ما لا يفسد اعتقادا ولا عملا، أو الناس عموما بظلم الظالمين منهم.

(أصول الدين) ولا بأس بنسبة الظلم إلى العموم باعتبار أنَّ الظالمين فيهم، ولا يوهم أنَّ الأنبياء غير معصومين كما احتجَّ بهذه الآية ونحوها، على أنَّهم غير معصومين، وقد قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ (سورة فاطر: ٣٢) فذكر الظالم وذكر المقتصد والسابق، فهما لا يطلق عليهما اسم ظالم إلاَّ ببيان التوبة، أو قيد، ويجوز أيضا أن يراد بـ«النَّاس» المعهودون المذكورون والمثبتون البنات لله سبحانه.

﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ غير مهلَكة، والهاء لـلأرض، دلَّ عليها المقام، لأنَّ الظالمين كغيرهم في الأرض، فكلٌّ من بني آدم والدوابُّ على الأرض، فذكر الناس والدابَّة دليل على الأرض دلالة التزام، والحقُّ جواز تأخير القرينة قدر ما لا يحتاج إلى البيان في الأحكام، فكيف في غيرها ؟ وكالدابَّةِ الحوتُ، ومرَّ أيضا إدخاله في الدَّابَّة.

[قلت:] وإهلاك غير الظالم بالظالم حكمة من الله، ولا عقاب إلاَّ على الظالم، كما يصيب الناس القحط والطاعون والجدب بأسبابها من بعض الناس، كحكم الجور، والزنى ومنع الزكاة، قال ابن مسعود ﵁: «كاد الجعل يهلك في جحره بذنب ابن آدم». وفي مسند أحمد: «**ذنوب ابن آدم قتلت الجعل في جحره**» وسمع أبو هريرة رجلا يقول: إنَّ الظالم لا يضرُّ إلاَّ نفسه، فقال: بلى والله، حتَّى إنَّ الحبارى تموت هزالا بذنب ابن آدم[1]، وذكر ابن الأثير هذا حديثا.

والمؤاخذة في الآية الضرُّ بما شاء الله من منع القطر، ومن الصاعقة، وما شاء من المهلكات، **واختار بعض** أنَّ المراد منع القطر.

١- أورده **ابن الأثير** في النهاية، ج١، ص٣٢٨، من حديث أنس.

ويقال: الدوابُّ خلقت لانتفاع الناس بها فلو هلكوا لم يبق لها فائدة، وفيه أنَّها تعبد الله سبحانه وجَلَّ جَلاَلُهُ أيضا، وإنَّ منها ما لا ينتفع به ابن آدم اللهمَّ إلاَّ باعتبار بها، وأمَّا ﴿وَهُوَ الذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الاَرْضِ جَمِيعًا﴾ (سورة البقرة: ٢٦) فالمراد به ما يتوصَّلون إليه.

وخصَّ الجعل بالذكر لأنَّه من أخبث شيء لا يترك بلا هلاك فكيف ما هو عظيم، والحبارى لأنها أبعد الطير نجعة، لأنَّها تذبح بالبصرة وتوجد في حوصلتها الحبَّة الخضراء، وبين البصرة ومنابتها أيَّام.

ومن معنى الآية: ﴿لاَ تُصِيبَنَّ الذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ (سورة الأنفال: ٢٥) . والقائل: لا يضرُّ إلاَّ نفسه، يريد إنَّما إثمه عليه، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ (سورة يونس: ٢٣) ولعلَّ ابن مسعود يرى أنَّ المذنب عليه إثم ما هلك به. وقيل: المراد بالدَّابَّة خصوص الظالمين، أي من دَابَّة ظالمة، أي من أحد ظالم ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِندَ اللهِ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ (سورة الأنفال: ٥٥) . والظاهر عموم الدَّابَّة كما مرَّ، حتَّى إنَّها تشمل الجنَّ.

(فقه) ولو يؤاخذهم لم تبق دَابَّة في الأرض، كالتمجُّس بحفِّ اللحى ومخالفة رسوله في أمر الله إيَّاهُ بإعفاء اللحى، وإحفاء الشارب، ولا تقبل شهادة من يفعل ذلك، ويجوز حلق أعلى الحَلْق لا ما فوقه من اللحيين باطنا وظاهرا أسفل مِمَّا يلي العنق، وفوق ما يلي الوجه، ولا تقبل شهادة من يفعل ذلك، أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عنه ﷺ: «**لو أنَّ الله يؤاخذني وعيسى بن مريم بذنوبنا** -وفي لفظ: بما جنت هاتان الإبهام والتي تليها- **لعذَّبنا ما يظلمنا شيئا**»[1].

١- أورده ابن حبَّان في كتاب الخوف، باب ذكر الأخبار عن ترك الاتِّكال على الطاعات... رقم٦٣٥، من حديث أبي هريرة.

(أصول الدين) فلا بأس بتفسير الناس بما يشمل الأنبياء، ولو كانوا لا يسمَّون باسم ظالم كما تقول الله خالق كلِّ شيء، ودخل القردة والخنازير في ذلك ولا تقول خالق القردة والخنازير، وكما نقول الله في كلِّ مكان ولا نقول الله في الدار.

[قلت:] والأولى أن يراد بالناس العموم، والظلم مصروف إلى أهله؛ وصاحبُه فيهم يؤخذ بظلمه، وغيرُه بشؤم الظالم، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً...﴾ (سورة الأنفال: ٢٥) ﴿وَلَكِنْ يُّوَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معيَّن عند الله، أجل لأعمارهم وعذابهم، وتوالدهم، وسائر ما قضى الله في الأزل، ولو هلك الآباء لذنوبهم لم تكن الأبناء، فلا تبقى الدوابُّ لأنَّها خلقت لهم على حدِّ ما مرَّ.

﴿فَإِذَا جَآءَ اجَلُهُمْ لاَ يَسْتَاخِرُونَ سَاعَةً﴾ ولو أقلَّ من لحظة ﴿وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ عطف على «إِذَا» وما بعدها، لا على جوابها لأنَّ التقديم بعد المجيء مستحيل، فلا يتعرَّض لنفيه إلاَّ أن يعطف عليه، لا لبيان انتفاء التقدُّم مع إمكانه في نفسه كالتأخُّر، بل للمبالغة في انتفاء التأخُّر بنظمه في سلك المستحيل عقلا؛ أو المراد بمجيء الأجل قربه، وقرب الشيء يقبل التقديم فيما بعد ذلك القرب، لا في نفس القرب أو قبله.

﴿وَيَجْعَلُونَ للهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ لأنفسهم وهو البنات والشركة في الرئاسة، أثبتوها لأصنامهم مع الله، وهم يكرهون أن يشاركهم فيها أحد، وإهانة الرسل وهم يكرهون إهانة رسلهم، وإعطاء أرذل المال لله وهم يكرهونه لأنفسهم، ولأصنامهم، وكانوا إذا رأوا ما جعلوه لله سبحانه أزكى بدَّلوه لآلهتهم، وكما عاب عليهم ذلك الجعل عاب عليهم الكذب بقوله:

﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ فهم جمعوا بين الجعل والكذب ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ في تأويل المصدر بدل من الكذب مطابق، أو يقدَّر الباء، أو خبر لمحذوف أي هو أنَّ لهم، والأوَّل أولى، والمراد بالحسنى الجنَّة على سبيل فرض البعث والتقدير، كقوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهُمَا مُنقَلَبًا﴾ (سورة الكهف: ٢٦) ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيَ إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ (سورة فصِّلت: ٥٠) بعض ينكر البعث، وبعض يجيزه ويشكُّ فيه، وبعض يقرُّون به، حتى إنَّ أحدهم ليربط البعير النفيس على قبر الميِّت ويتركونه إلى أن يموت، ويقولون يحشر عليه صاحب القبر، فهؤلاء أقرُّوا ببعث الناس والحيوانات، ويدَّعون الاشتراك مع المؤمنين في نعيم الآخرة، كما اشتركوا في نعيم الدنيا، قال الله عَجَلَّ: ﴿أَمْ حَسِبَ الذِينَ اجْتَرَحُواْ السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (سورة الجاثية: ٢١) ، ومنهم من يقول: النار للمؤمنين والجنَّة للمشركين، لكثرة أموالهم ونعمهم، فتكون الآخرة كذلك، وتحتمله الآية بجعل تقديم الظرف للحصر.

فكذَّبهم الله عَجَلَّ بقوله: ﴿لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ لا للمؤمنين، وتقدَّم معنى ﴿لاَ جَرَمَ﴾ ومنه أنَّ «لا» نفي لِمَا قبل، أي لا حسنى لهم، أو لا يصحُّ ما قالوا، و«جَرَمَ» بمعنى حقَّ، و«أَنَّ لَهُمُ...» فاعله، والجواب بـ«أَنَّ لَهُمُ النَّارَ» يقوِّي تفسير ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ بالجنة، وقد يقال: ﴿الْحُسْنَىٰ﴾: العاقبة الحسنى.

﴿وَأَنَّهُم مُّفْرِطُونَ﴾ مجاوزون الحدَّ في المعاصي، ووصف ألسنتهم بالكذب مبالغة في وصف كلامهم بالكذب، كأنَّ حقيقة الكذب كانت مجهولة وألسنتهم تصفها وتعرفها، وسلَّى الله سُبْحَانَهُ رسوله ﷺ بقوله:

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

عادة الأمم في تكذيب الرسل ومهمَّة النبيء البيان وإقامة الحجَّة

﴿تَا للهِ لَقَدَ ارْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ فأصرُّوا على قبحها وكفروا بالمرسلين، وكذَّبوا، وأهلكوا دنيا وأخرى، ونجا المرسلون ومن تبعهم من سخط الله في الدنيا، وفازوا في الآخرة، وكذلك أنت يا محمَّد ومن آمن مع أمَّتك الذين لم يؤمنوا.

﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ وليُّ الأمم **﴿الْيَوْمَ﴾** هو الدنيا، أو هو حين التزيين حكاية للحال الماضية كأنَّها حاضرة، أو هو يوم القيامة كأنَّه حاضر لتحقُّق الوقوع بعد، ويجوز عود الهاء لكفَّار قريش، الشيطان يليهم بالغرور في الدنيا حين التزيين، أو الضمير للأمم على تقدير مضاف أي وليُّ أمثالهم، والأمثال قريش، أو لقريش والأمثال الأمم، والوليُّ المقترن بهم في الدنيا بالإغواء والغرور، وفي الآخرة بالاجتماع في النار، وشدَّة ضيق النفس بالاجتماع بهم، والقرن في حديد واحد، ونحو ذلك. **﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾** (سورة التكوير: ٧) **﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾** (سورة الزخرف: ٣٨)، أو الوليُّ في الآخرة الناصر على التهكُّم بهم، أو لا وليَّ لهم يتوهَّمونه يوم القيامة إلاَّ هو، وهو لا ينصرهم لعجزه عن نفسه فكيف بهم؟ **﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾** يوم القيامة.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا محمَّد **﴿الْكِتَابَ﴾** القرآن **﴿إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾** أي للناس الذين في زمانك، ودخل بالأولى قومه، أو المراد قومه وقدّم التبيين على الهدى والرحمة لتقدُّمه في الوجود، وهذه الآية تقوِّي أنَّ [المراد بـ] الناس قبل هذه

الآية المشركون من قومه المعهودين، لكـن لا مـانع مـن أن يـرادوا هنـا ولـو عـمَّ هنالك، فيرجع الضمير إليهم لقرينة التبيين، فإنَّه إنَّما يبيِّن لمن في زمانه فيتَّصـل البيان لمن بعده بالنقل عنه ﷺ لا لمن قبله.

﴿الذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ أي خالفوك فيه من الافتعال الذي بمعنى المفاعلـة، أو اختلفوا فيه معك، وذلك هـو التوحيـد والقـدر والقضـاء والبعـث وأحـوال يـوم القيامة والفرائض والمحرَّمات وسائر الأحكام.

﴿وَهُـدًى وَرَحْمَـةً﴾ نصبـا على التعليـل والعطـف علـى محـلِّ «تُبَـيِّنَ» لاتِّحادهما مع الإنزال زمانا وفاعلا، ولَمَّا كان التبيين له ﷺ لا لفـاعل الإنـزال جرَّ باللام، ووجهه أنَّ مجرور الحـرف مفعـول بـه وصـل إليـه بـالحرف، فمحلُّ مجرور هذه اللام النصبُ على التعليل، والأولى نصبهما بـ«أنزلنـاه» مقـدَّرا، ولا يجوز في الفصيح: مررت بزيد وعمرًا، بنصب عمـرو. ﴿لِّقَوْمٍ يُومِنُـونَ﴾ بـه، خصَّهم بالذكر لأنَّهم المنتفعون والمعتبرون، وكذا في ﴿لِقَـوْمٍ يَسْـمَعُونَ﴾ ونحـو ذلك في محالِّه.

﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْارْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْانْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْاعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ الْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

مظاهر النعمة على الناس ومن دلائل القدرة الإلهيَّة

﴿وَاللهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً﴾ السماء على ظاهره، أو السحاب، قيل: أو الفلك ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ شبَّه عدم إنباتها أو يبسها بالموت أي عدم الحياة مطلقا، أو بعد الحياة وإنباتها بالإحياء، وذلك إنبات بعد يبس، ففي الآية استعارتان تبعيَّتان، والمراد إنبات مثل ما يبس لا إعادة ما يبس، والفاء للسرعة فإنَّ النبات يسرع الخروج من الأرض عقب المطر، والموجود منه يسرع النموَّ بالمطر.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الإنزال والإحياء ﴿لأَيَةً﴾ دلالة على البعث، وكمال قدرته تعالى، ووحدته ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع فهم وقبول.

(بلاغة) ولم يقل: يبصرون، لأنَّ ما ذكر وإن كان من المبصرات لكن هذا القول المبين المذكور من المسموعات، فكان ختم الكلام بما يناسب الابتداء مناسبة في الذروة العليا إذ قابله، فيكون كالجمع بين الإبصار والسمع، وفي ذلك إحياء قلوب القابلين كما أحيى الأرض بالماء.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ انتقالا من جهل إلى علم.

(لغة) والعبرة العبور، وأصله المشي في الماء من جانب إلى جانب، أو على نحو قنطرة مجاز في غير ذلك، وَقِيلَ: حقيقة في الكلِّ، ولا شكَّ أنَّه ليس في الأنعام نفس انتقال الناس إلى العلم إلاَّ توسُّعا، أو على التجريد البديعي، وليس في الأنعام نفس العبرة بل هي نفسها عبرة فبولغ في ذلك حتَّى ولد منها ما هو عبرة، هذا كلُّه قبل قوله: ﴿نُّسْقِيكُم﴾ إلخ، ولك أن تقول: أطلق المسبَّب وهو العبور على سببه وهو ما به العبور، وهو السقي من لبن فيها من بين فرث ودم، فقوله: ﴿نُسْقِيكُم...﴾ مستأنف للبيان، كأنَّه قيل: ما هي؟ فقال: نسقيكم، أو

بيان للنكرة بالمعرفة التي هي مصدر مؤوَّل مـن «نَسْقِيكُم» على تقدير حرف المصدر الذي حذف، ورفع الفعل بعد حذفه أي سقيا لكم، أو ينزل مرفوعا منزلة الاسم كما هو قول في المثل: «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه»، وما ذكرته من الإطلاق مجاز في الأصل وهو حقيقة عرفيَّة في اللغة لا حقيقة في أصل اللغة ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ أي بطون الأنعام.

(صرف) وذكّر ضميره وأفرد لأنّه اسم جمع كرهط، وما كذلك يذكّر باعتبار اللفظ ويؤنّث باعتبار المعنى، كما في «قد أفلح»[1]، ولو كان جمعا كما هو قول لتعيَّن التأنيث هكذا: «مما في بطونها»، وقيل: ذكّر باعتبار ما ذكر على أنّه جمع «نَعَم»، وقيل: باعتبار معنى البعض وهو الإناث، فإنَّ ذكورها لا لبن لها، أو باعتبار الواحد فإنَّ العبرة في كلِّ واحد على حدة، وهذا الواحد الحيوان الذي هو أنثى من الأنعام.

(لغة) والذي في كتاب سيبويه أنَّ الأنعام اسم مفرد على وزن أفعال كأخلاق وأسمال للثوب البالي، وأكياش للثوب المخصوص الذي غزل غزله مرَّتين، وفي المثل: عليك بالثوب الأكياش فإنّه من ثياب الأكياس، وأعشار لبرمة مركّبة من حجارة، وقال الكسائي: أفرد لتأويل ما ذكّر، وذكر بعض أنَّ جَمْعَ غيرِ العاقل يجوز إفراده، وتذكيرُه بتأويل الجمع، وتأنيثه بتأويل الجماعة.

﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ «من» الأولى للتبعيض، لأنَّ اللبن بعض ما في بطنها، وإن جعلت للابتداء كالثانية فالثانية ومدخولها بدل اشتمال من الأولى ومدخولها والرابط محذوف أي من بين فرث ودم فيه ﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا

١- يشير الشيخ إلى الآية رقم ٢١ من سورة المؤمنون: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الاَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾.

لِلشَّارِبِينَ﴾ فلا يختنق أحد باللبن، ولو اختنق لم يشكل لأنّه في الجملة سائغ، والفرث ما أكلته الدّابـّة وهضم ما دام في البطن، وإذا خرج فروث، وقبل الخروج روث بمجاز الأوْل، وبعده فرثٌ بمجاز ما كان عليه الشيء.

(نحو) و«مِنْ» للابتداء متعلّق بـ«نَسْقِي». و«لَبَنًا» مفعول ثان لـ«نَسْقِي».

ومعنى ﴿خَالِصًا﴾: لا يخالطه بعض فرث أو بعض دم بنفسه أو لونه أو ريحه أو طعمه، مع أنّه بينهما ولا شيء من الأجزاء الكثيفة بتضييق مخرجه.

(فقه) وإن وجد فيه الدم غالبا نجس اللبن.

سئل شقيق[1] عن الإخلاص فقال: تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من بين فرث ودم. ومعنى ﴿سَآئِغًا﴾ سهل المرور في الحلق.

(شيء من عظيم قدرته تعالى) وإذا هضم الطعام فصافيه يجبذ إلى الكبد، والكثيف ينزل إلى الأمعاء، وما جبذ إلى الكبد يصير ماء بهضم ثان، ويخلط بصفراء تذهب إلى المرارة، وبسوداء تذهب إلى الطحال، وبزيادة المائية تذهب إلى الكلية، بين الكبد والضرع عروق ينصبُّ الدم منها إلى الضرع، فيقلب الله ﷻ الدم إلى لون الضرع، وذلك هو معنى: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ وإلاّ فلا يرى أحد في الكرش مثلا دما ولا لبنا، فمعنى البينية التولّد منهما، لا كما قيل: إنَّ معنى الآية أنَّ الثلاثة في موضع واحد أسفل والدم أعلى واللبن بينهما، ولو تولّد الدم في أعلى المعدة لكان الحيوان يقيء الدم، إلاّ أن يقال: يستحيل الدم إلى لون القيء عند خروجه، فتبقى الآية على ظاهرها، وهو أولى،

١- هو شقيق البلخي بن إبراهيم بن علي الأزدي، زاهد صوفي من مشاهير المشايخ في خرسان، استشهد في غزوة «كولان» بما وراء النهر سنة ١٩٤هـ. الأعلام للزركلي، ج٣، ص١٧١.

ألا ترى أنَّه يذبح الذكر ولا توجد نطفة في بيضته ولا يوجد الدم فيمن مات حتف أنفه في لحمه، كذا قيل.

أو يقال: المراد إنَّ أوسطه يكون مَادَّةَ اللبن وأعلاه مَادَّةَ الدم وذلك أنَّ ذلك لا يجتمع في الكرش أو المعدة، بل الكبد يجد صفاوة الطعام ويمسكها حتَّى تهضم فيها هضما ثانيا، فتحدث أخلاط أربعة معها مائية، فتميِّز القُوَّة المميِّزة تلك المائية بما زاد على قدر الحاجة من الصفراء والسوداء، ويدفعها إلى الكلية والمرارة والطحال، ثمَّ يوزِّع الباقي على الأعضاء بحسبها فيجري إلى كلٍّ واحد حقُّه على قدر ما يليق بقدرة العزيز الحكيم، وإن كان أنثى زاد أخلاطها على قدر غذائها لاستيلاء الرطوبة والبرودة على مزاجها، فيندفع الزائد أوَّلا إلى الرحم للجنين، فإذا انفصل انصبَّ الزائد أو بعضه للضرع فيبيضُّ بمجاورة لحومها البيض فيصير لبنا أبيض، والمنفذ ينطبق من الإنسان والحيوان فحين كمال الهضم انفتح المخرج لخروجه[1].

وأمَّا ما قيل من أنَّ بعض من يوثق به شاهد خروج الدم بعد اللبن في مبالغة الحلب فلا دليل فيه، لإمكان إن يكون لحصول الجرح بالحلب الشديد. والتثنية على ظاهر الآية مجازية بمعنى أنَّه يحصل اللبن بهما.

﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالاَعْنَابِ﴾ متعلّق بقوله: **﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾**. و«مِنْهُ» توكيد لفظيٌّ لقوله: ﴿مِن ثَمَرَاتِ﴾ بتأويل ما ذكر أو تأويل الثمرات بالثمر، كأنَّه قيل ومن ثمرات النخيل والأعناب تتَّخذون من ثمراتها، أو بـ«نَسْقِيكُمْ» محذوفا، أو بالمذكور بواسطة العطف، أو الهاء للعصير

١- لا تغفل أنَّ ما ذكره الشيخ هنا وما قبله من عملية الهضم وتمثل الغذاء كان اعتمادا على معلومات الأقدمين، وفي عصرنا معلومات جديدة ارجع إليها في مضامنها.

المحذوف على أنَّ المعنى: ومن عصير ثمرات...الخ، أو الثمرات بمعنى التمر، أو للنخيل، أو للجنس، أو للبعض، أو للمذكور، أو عطف «مِن ثَمَرَاتِ» على «في الاَنْعَامِ»، والتقدير: وأنَّ لكم في الأنعام ومن ثمرات النخيل والأعناب لعبرة، فأخّر. و«تَتَّخِذُونَ» للبيان، كما أنَّ «نَسْقِيكُمْ» للبيان، أو خبر لمحذوف منعوت بـ«تتَّخذونَ مِنْهُ»، أي: ومن ثمرات النخيل والأعناب تمر تتَّخذون منه سكرا وهو الخمر، سمِّيت بالمصدر بردِّ الهاء إلى تمر المقدَّر.

[قلت:] وإنَّما امتنَّ الله بها قبل تحريمها إذ حرِّمت بالمدينة بعد "أُحُد" أو قبلها، والسورة مكّيَّة، وعلى فرض أنَّ الآية مَدَنِيَّة بعد تحريم الخمر يكون المعنى على أنَّه عابهم بالجمع بين الخمر والرزق الحسن، أو جمع لهم بين المنَّة والعتاب، أي أحللناها لكم قبل تحريمها ولم تشكروها.

(لغة) وَقِيلَ: هو من أسماء الخمر، وقيل: السكر الخلُّ بلغة الحبشة ينطق بها العرب، وقيل: اسم للعصير ما لم يحمض تسمية له بما يؤول إليه، وقيل: النبيذ، وقيل: الطعام كقوله:

جعلت أعراض الكرام سكرا ....[1]

أي طعاما واستظهر بعض أنَّه في البيت الخمر، وقيل: السكر في الآية ما يسدُّ الجوع من السَّكْر بفتح فإسكان وهو سدُّ الشيء كسددت الكوَّة كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتَ أَبْصَارُنَا﴾ (سورة الحجر: ١٥).

والرزق الحسن: التمر والزبيب والدِّبسُ، وهو عسل النخل بالخاء المعجمة، والخل إن لم تفسَّر السكر به، أو الرزق الحسن ما ينتفع به من أثمان ذلك، **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾** يستعملون عقولهم بالتأمُّل

١- أورد الشطر في اللسان ولم ينسبه لأحد، نقلا عن أبي عبيدة.

فيما أوحى الله، وفي الدلائل. ختم الكلام بـ﴿يَعْقِلُونَ﴾ لِمَا تقدَّم من ذكر العبرة، لأنَّه إنَّما يعتبر أولو العقول.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ ألهمها، شبَّه الإلهام بما وضع له الإيحاء وهو الكلام الخفيُّ، كما أخرج اللبن من بين الفرث والدم كذلك أخرج العسل من النحل، وزعمت الصوفية المبطلة قبَّحهم الله أنَّ لسائر الحيوانات أنبياء ورسلا، ووحيا من الله عز وجل بالملائكة إليها، وكذا زعم بعض الحكماء، أنَّ لها نفوسا ناطقة ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ «أَنْ» تفسيريَّة، لأنَّ في الإيحاء بمعنى الإلهام معنى القول دون حروفه، فإنَّه يفيد ما يفيد القول فلا تهم.

(من عجيب خلق الله في خليّة النحل) والمراد بالإلهام خلق الميل إلى الموحى به، أو مصدريَّة مع باء الملابسة، أي بأن اتخذي من الجبال بيوتا مسدَّسة، من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض، بحيث لا يحصل فيها خلل ولا فرجة ضائعة، وبيوتا مثلَّثة ومربَّعة ومخمَّسة، وألهمها أيضا أن تجعل على أنفسها أميرا أعظمها جثَّة لا تعصيه، ويسمَّى يعسوب النحل أي ملكها، وأن تجعل على باب كلِّ خلية بوابا لا يمكِّن غير أهلها من دخولها، وأن تخرج للمرعى وترجع إلى بيوتها، ولا تضلَّ. ويقال: تبنيها بالشمع وتلقي العسل داخلها، وإذا نفرت عن وكرها ارتدَّت بالطبل والموسيقى والأصوات الحسنة. و﴿مِن﴾ بمعنى في، وليست تبنيه بحجر الجبال فلا حاجة إلى جعله للتبعيض، ولو أمكن باعتبار أنَّ موضع بنائها بعض من الجبل وعلى كلِّ حال المراد جنس الجبل لا الجبال كلِّها، ولا الجبل كلّه. تبني في الجبل وفي الشجر في غير العمران كما قال الله عز وجل:

﴿وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي وفيما يبنى لها في العمران لتأوي إليه وتبني فيه بالشمع من كرم أو سقف، وذلك أمر تكوين إذ لا قدرة لها على

العروق، أو أمـر على ظاهره وليس في مضمونه ما يترتّب عليه من دخول العروق، وإلاَّ لم تأو، فذلك ثلاثة أنواع سمِّيت بيوتا استعارة لأنّها بناء، وتأوي إليه وتتردَّد إليه كما يتردَّد الإنسان إلى بيته، كلُّها متقنة كأنّها عمل مهندس ماهر بالدَّابد ونحوه من الآلات، بل أعظم من عمله، وقولهم لو بنتها مثلّثة أو مربَّعة لكان فيها فضاء بلا نفع غير مسلَّم.

يقدَّر بيوتا بعد «يَعْرِشُونَ»، أو «بُيُوتًا» المذكور شامل لها، كأنّه قيل: أن اتّخذي من الجبال ومن الشجر وَمِمَّا يعرشون بيوتا، وعلى كلِّ حال أخّر وفصل بـ«مِن» للفاصلة، ولمغايرة الاتّخاذ فيه لنوع الاتّخاذ في الأوَّل.

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ التي تشتهيها حلوة ومرَّة، النوار والأوراق، ويأتي عسلها كلُّه حلوا، و«الـ» للاستغراق العرفي، تقول: جمع الأمير العلماء والصاغة، تريد: ما يتعارف له منهم لا علماء الدنيا وصاغتها كلّهم، وليس المراد أنّها تأكل من ثمر الدنيا كلّها، لأنَّ الأمر هنا للتخلية والإباحة، بمعنى كلي مِمَّا شئت كما قيل: المراد ثمرة تشتهيها، وقِيلَ: تأكل النوار، ولا يخفى أنَّ النوار ثمرة تولَّدت من الشجر إلاَّ أنّه غير معروف، وكذلك لا يعرف أنَّ الأوراق ثمرات، فالمراد بالثمرات الشجر.

وذكر المعرِّي أكلها من النوار في قوله:

والنحل يجني المرَّ من زهر الربى فيكون شهدا في طريق رضابه

ويكون للنحل أيضا بيوت في كوى الحيطان، وفي بيوت الناس وما تجوَّف من الشجر وغير ذلك، ولا حصر في الآية. و«مِن» في المواضع الأربعة للابتداء لأنَّ معنى ﴿اتَّخِذِي﴾: حصّلي وكلي...الخ.

﴿فَاسْلُكِي﴾ أَدخِلي ـ بفتح الهمزة وكسر الخاء ـ ما أكلت من الثمرات ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ طرق ربِّك التي خلقها طرقا للغذاء، وهي الأجواف والعروق

التي يجعل فيها المرَّ وغيره عسلا، لأنَّ لها عملا يبني ا لله عليه ذلك، فلا يشكل بأنّه لا اختيار لها في خلق ا لله تعالى ذلك، أو طرق ربِّك التي جعلها ا لله طريقا لطلب المرعى، ولكن هذا يفسِّر له قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ كُلِي﴾ بمعنى: ثمَّ اقصدي.

أو طرق ربِّك التي ألهمك في عمل العسل، تخرج العسل من فيها في مشمع من بيوتها، أو طرق ربِّك في الرجوع إلى بيوتك لا تضلُّ عنها ولو بعُدَ مرعاها لجدب[1] ما قرب منها أو غير ذلك، وأضاف السبل إلى ا لله لأنّه خالقها وخالق المرعى لها، و«اسلك» على الأوَّل متعدٍّ والفاء للعطف في الوجه الأوَّل وعلى غيره في جواب الشرط، أي إذا أكلتها فاسلكي.

﴿ذُلُلاً﴾ جمع ذلول حال من «سُبُلَ»، بمعنى حال كونها غير متوعِّرة لا تعسر عليها، أو من ياء «اسْلُكِي» بمعنى اسلكي حال كونك منقادة لِمَا قضى ا لله منك لا تتخلَّفين عنه، أو لِمَا أراد أهلك، كنقلك من موضع لآخر فإنّها لا تتعاصى، أو لِمَا أراد يعسوبك فإنّه يستعمل بعضها في عمل الشمع وبعضا في عمل العسل وبعضا في سقي الماء وصبِّه في البيت، وبعضا في بناء البيوت، أو لذلك كلِّه.

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ ما يشرب، ولا يعتاد أن يقال: أكلت الشراب ﴿مُّخْتَلِفٌ اَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ مستأنف على طريق الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، إذ لم يقل: يخرج من بطونك، يخرج العسل من بطونها على طريق أفواهها كاللعاب، كما قال شاعر:

تقول هذا مُجاج النحل تمدحه ... وإن ذممت تقول: قيء الزنابير

وقيل: من أدبارها كما قال علي: «أشرف لباس ابن آدم لعاب دودة، وأشرف شرابه رجيع نحل»، وعنه: «أمَّا العسل فونَيم ذباب»، والونيم ما يخرج

١- في الطبعة العمانية: «بجذب».

من أسفل الذباب، ويقال: إنَّ سليمان والإسكندر وأرسطو صنعوا لها بيوتا من زجاج لينظروا كيف تصنع، وَمِمَّا يخرج فلم تضع العسل حتّى لطَّخت الزجاج بالطين فلا تشاهد.

وجعل الله العسل مستحيلا من نبات حامض ومرٍّ وحارٍّ ومالح وحشائش ضارَّة وغير ذلك مختلفا بصفرة وحمرة وبياض باختلاف سنّها، أو الفصول أو باختلاف ما تأكل من النّوْر، ولا دليل غير الاستقراء على ما قيل: إنَّ الأبيض لفتيتها والأصفر لكهلها والأحمر لمسنّها، وهي في القُوَّة على ترتيبها.

وتنكير «شِفَاءٌ» للتعظيم، أو للتبعيض كما تقول: جاء رجالٌ، بالتنكير، أي جماعة منهم، أو لهما [للتعظيم والتبعيض]، بمعنى بعض عظيم من الشفاء وليس شفاء لكلِّ داء، فإنّه يزيد أصحاب الصفراء وأصحاب الحرارة والإسهال ضرًّا لأنّه حارٌّ مسهِّل، وينفع أصحاب البلغم والبرد، والنكرة في الإثبات لا تعمُّ عموما استغراقيًّا.

وفي البخاري ومسلم والترمذي عن أبي سعيد الخدري أنّه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إنَّ أخي استطلق بطنه، فقال ﷺ: «**اسقه عسلا**» فسقاه، ثمَّ جاءه فقال: إنّي سقيته عسلا فلم يزده إلاّ استطلاقا، فقال له ثلاثا، وجاء الرابعة فقال: «**اسقه عسلا**» فقال: سقيته فلم يزده إلاّ استطلاقا، فقال ﷺ: «**صدق الله** -أي وعد الشفاء- **وكذب بطن أخيك**»[1] أي في استعجال الشفاء، أو في مخالفة ظاهر الآية، أو في أنّه

١- رواه **البخاري** في كتاب الطب (٢٤) باب دواء المبطون، رقم ٥٧١٦، **ومسلم** في كتاب السلام (٣٢) باب التداوي بسقي العسل، رقم ٩١ (٢٢١٧)، **والترمذي** في كتاب الطب (٣١) باب ما جاء في التداوي بالعسل، رقم ٢٠٨٢. من حديث أبي سعيد.

ليس إسهالا حقيقيًّا، فسقاه فبرئ وكأنّه نشط من عقال، علم الله ﷻ أنَّ شفاء هذا الرجل بالعسل ولو كان للرجل إسهال وللعسل إسهال، وأيضا أعانه على الإسهال حتّى فرغ بدنه منه.

(طب) ومن الطب المجمع عليه ترك الإسهال على حاله أو إعانته إذا كان من تخم أو امتلاء أو هيضة، وحبسه مضرٌّ، فيعان ما دامت القُوَّة قابلة له، وإذا لم تبق كان الدواء آخذا من الصحَّة، والآية على الغالب والإمكان وليس فيها أنَّه شفاء لكلِّ داء في كلِّ أحد، وقيل: إنَّها على العموم فينظر الطبيب، كما قيل: إنَّ في أكثر المعجونات عسلا، فهو إمَّا شفاء بنفسه كما في الأمراض البلغمية، وإمَّا مع غيره كما في سائر الأمراض، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «العسل شفاء من كلِّ داء، والقرآن شفاء لِمَا في الصدور» وعنه: «عليكم بالشفاءين: القرآن والعسل» وكان ابن عمر لا تخرج له قرحة ولا شيء إلاَّ لطَّخ الموضع بالعسل حتّى الدملة، وقرأ: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِ﴾ وأقول: هو دواء لكلِّ شيء بالنية.

وذكر النقاش في تفسيره الذي ألَّفه في أندلس[1]، عن أبي وجرة أنَّه كان يكتحل بالعسل ويستنشق به، ويتداوى به، وقال عوف بن مالك وقد أصابه مرض: إيتوني بماء قال الله ﷻ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾ (سورة ق: ٩) وبعسل قال تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِ﴾ وبزيت قال الله ﷻ: ﴿مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ﴾ (سورة النور: ٣٥) فأتي بهنَّ فخلطهنَّ فشربهنَّ فشفي، وقيل: على العموم إلاَّ لعارض. والعسل يشرب بالذات أو بالماء، وذكر بعض أنَّه شفاء على العموم إذا خلط بخلٍّ وبطيخ، والأظهر أن يجعل الطبخ مكان البطيخ.

١- هو أبو بكر محمَّد بن الحسن المعروف بالنقَّاش، أصله من الموصل ولد ببغداد ونشأ بها، وقد جرَّحه غالب المحدِّثين، توفي سنة ٣٥١هـ. معجم المفسِّرين، ج٢، ص٥١٣.

وقيل: هاء «فِيهِ» للقرآن، أو لأحْوَال النحل، فإنَّ فيهما هدى من الضلال، ويردُّه أنَّ أقرب مذكور هو العسل، فإليه الضمير، وأنَّه ﷺ فسَّره بالعسل إذ قال: «**صدق الله وكذب بطن أخيك**»، ويقال: تقيئه ادِّخارا لها لتأكله شتاء، وزعم بعض: أنَّها ينزل في الليالي طلٌّ لطيف على الأوراق والأزهار فتأكله، وإذا شبعت حملت في أفواهها ذرَّات من بقية ذلك إلى بيوتها فيكون بإذن الله عسلا، وعلى هذا يكون «بطون» بمعنى: أفواه، ويردُّه قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ كُلِي﴾ وأنَّه يدلُّ أنَّ للأكل تأثيرا في العسل، وتفسير الالتقاط بالأكل تعسُّف، وقول عليٍّ: أشرف لباس ابن آدم لعاب دودة، وأشرف شرابه رجيع نحلة، أي لعابها أيضا، والقول بأنَّه تمثيل تعسُّف أيضا.

﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ**﴾ فيما ذكر من النحل وشأنه ﴿**لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ**﴾ شامل للنساء بالتبع ﴿**يَتَفَكَّرُونَ**﴾ في أفعال الله فيستدلُّون بها على وجوده وسائر صفاته.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ أَفَبِالْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

بعض عجائب أحوال الناس الدالـَّة على قدرة الله وتوحيده

﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ لآجالكم المختلفة وقد يتفق بعض ببعض ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ عطف على محذوف دلَّ عليه ذكر التوفِّي بلا ذكر لأرذل العمر، وذكره بعد أي منكم من يتوفَّى قبل أرذل العمر ومنكم من يردُّ إلى أرذل العمر، وهو أخسُّه بالضعف والهرم، كالطفل في عدم القُوَّة والعقل، وباعتبار كونه قد كان طفلا قال: ﴿يُرَدُّ﴾ وقد شبَّه تصييره ضعيفا بالردِّ إلى ضعف الطفولية استعارة، أو استعمل الردَّ بمعنى مطلق التصيير مجازا مرسلا لعلاقة الإطلاق والتقييد، وذلك خمس وسبعون سنة أو تسعون سنة أو خمس وتسعون.

﴿لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ كالطفل في النسيان وسوء الفهم، ينشأ وينمو إلى ثلاثين أو ثلاث وثلاثين أو خمس وثلاثين، ويقف إلى تمام الأربعين، وكهوله بانحطاط من يسير إلى سبعين، والانحطاط العظيم إلى مائة وعشرين، وقيل: يقوى الانحطاط من الستِّين. واللام للعاقبة ولا مانع من كونها للتعليل، و«كي» بعد اللام مَصدَرِيَّة ناصبة لا تعليلية، ومفيد التعليل أو العاقبة اللام، ويبعد أنَّها تأكيد لتعليل اللام، وأنَّ الجرَّ باللام والنصب بأن، و«شَيْئًا» مفعول مطلق، أو مفعول به.

وليس المراد استغراق النفي بل المراد لا يعلم شيئا بعد أن علمه لنسيانه، أو لا يعلم علما زائدا على علمه الأوَّل، أو لا يعلم شيئا واحدا بعد علمه أشياء، وهو بعيد، وهو مبني على الاستغراق، كما أنَّ الاستغراق قول بدون تقدير قولك بعد علمه أشياء، أو لا يعلم شيئا مَّا علما ثابتا بل كلُّ ما علم لم يثبت، أو لا يعقل بعد عقله الأوَّل شيئا، وفيه دلالة على وقوفه.

﴿إِنَّ ا للهَ عَلِيمٌ﴾ عظيم العلم أو كثيره بما هو أقلُّ من ذَرَّات أزمانهم وأحوالهم ﴿قَدِيرٌ﴾ عظيم القدرة أو كثيرها، والكثرة من صفات ا لله عائدة إلى متعلَّقاتها، وإلاَّ فصفاته هو لا تقبل التعدُّد، وهو يميت الشابَّ الصحيح إذا شاء، ويبقي الهرم إذا شاء، خلق كلاًّ وبناه على أجله لا لتأثير لطبع ولا لغيره، والمؤثِّر هو ا لله ﷻ، وبطل قول الطبيعيين لعنهم ا لله: إنَّ الموت والحياة بمقتضى الطباع.

﴿وَا للهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ غنيٌّ وأغنى، وفقير وأفقر، بمحض تفضيل ا لله، فكم من عاقل محتال قويٍّ يكون فقيرا، وقليل العقل عاجز يكون غنيًّا.

ومن الدليل على القضاء وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

وكذلك فضَّل بعضا على بعض في نحو الذكاء والبلادة، والحسن والقبح والصحَّة والسقم، قال ا لله ﷻ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ...﴾ (سورة الزخرف: ٣٢) منهم رازق نفسه ومَن تحت يده، ومرزوق ممَّن فوقه من أب وسيِّد، وكم مملوك يرأس على مماليك تحته.

﴿فَمَا الذِينَ فُضِّلُواْ﴾ في الرزق ﴿بِرَآدِّي﴾ معطي ﴿رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتَ اَيْمَانُهُمْ﴾ بل ا لله يعطي المماليك على أيدي ساداتهم، ولو جاز أن يقال: رزق السيد مملوكه بمعنى أنفق عليه، كما قال ا لله ﷻ: ﴿فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ (سورة النساء: ٨) وزعم بعض أنَّ ا لله ﷻ عابهم بأنَّهم ما ردُّوا مِمَّا في أيديهم على ما ملكت أيمانهم حتَّى يستووا، سمع أبو ذرٍّ رسول ا لله ﷺ يقول: «**إنَّما هم إخوانكم فاكسوهم ممَّا تلبسون وأطعموهم مِمَّا تطعمون**»[1] فما رئي عبده إلاَّ رداءه رداءَه وإزارُه إزارَه.

١- أورده الألوسي في تفسيره، ج٥، ص١٨٩، حكاية لأبي ذر عن رسول ا لله ﷺ.

﴿فَهُمْ﴾ أي المفضَّلون وما ملكت أيمانهم ﴿فِيهِ﴾ في الرزق ﴿سَوَآءٌ﴾ في أنَّ رازقهم الله ﷻ لا غيره، والجملة لازمة ومؤكِّدة لقوله: ﴿فَمَا الذِينَ...﴾ وردَّ على المشركين في قولهم: إنَّهم الرازقون تحقيقا لمن تحتهم وإذا لم ترضوا بشركة مماليككم لكم فكيف رضيتم لله بمشاركة ما هو له في العبادة، وما تأكل مماليككم أرزاقكم بل أرزاق أنفسهم.

﴿اَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ أيعدلون عن الحقِّ فيجحدون بنعمة الله؟ أو أيشركون به تعالى فيجحدون؟ أو أيعجبون ويمنُّون على من تحت أيديهم فيجحدون بنعمة الله؟ أو لا يفهمون فيجحدون؟ عدَّاه بالباء لتضمُّنه معنى يكفرون، وأخَّره على طريق الاهتمام والفاصلة، أو هي صلة. ومعنى جحودهم النعمة أنَّهم يدَّعون لله شركاء، وللشركاء بعض النعم، فنفوا ذلك البعض عن الله ﷻ، ويضيفونه للشركاء، وأيضا أنكروا هذه الحجج ولم يقرُّوا أنَّها دالَّة على وحدة الله ﷻ ولا أنَّها نعمه.

﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنَ اَنفُسِكُمُ, أَزْوَاجًا﴾ لا من جنس آخر كالفرَس[1] لتأنسوا وتماثلكم أولادكم.

(فقه) والنفس بمعنى الجنس مجازا وأصله الذات، فلا يجوز للرجل تزوُّج الجنيَّة، ولا للمرأة تزوُّج الجنِّيِّ، لعدم الجنسية ولعدم الوثوق، لأنَّهم لا يشاهدون وهم يتخيَّلون فكيف يثق بها أو تثق به، وكيف يثق بأنَّ هذا وليُّها؟. ويقال: وقع التزوُّج منهم في أصحابنا وقومنا، ولعلَّ من فعل ذلك أمكن له التوثُّق.

وقيل: المراد خلق حوَّاء من آدم عليهما السلام لأنَّها خلقت من ضلعه، وسائر النساء من نطفة الرجال، ولا يتعرَّض بجمع النفس والأزواج، ولا يحتاج

١- «كالفرس» إضافة من الطبعة العمانية.

إلى جواب بالتغليب، أو بأنَّ المراد بعض الأنفس وبعض الأزواج فضلا عن أن يقال: ذلك تكلُّف.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ اَزْوَاجِكُم بَنِينَ﴾ يشمل البنات أو يقدَّر بنين وبنات ﴿وَحَفَدَةً﴾ أولاد البنين وأولاد البنات ذكورا أو إناثا، أو البنات وأولاد البنين عند ابن عَبَّاس والحسن وابن العربي والأزهري، فإنَّهم من الأزواج بالواسطة.

(لغة) من حفد في الشيء: أسرع فيه، والبنات أسرع في خدمة البيت والطاعة، ولذلك فسَّر بعضهم الحفدة بالبنات، والمفرد حافد ككامل وكملة، ولد حافد وأولاد حفدة، وفي التفسير به زيادة امتنان، وكذلك الأولاد أسرع في ذلك كما فسِّر بهم عموما، أو الحفدة: البنون ذكروا بالبنوة وباسم السرعة في الخدمة والطاعة، وعن ابن عَبَّاس: البنون: صغار الأولاد، والحفدة: كبارهم، نظرا إلى أنَّ الكبار أقوى في الخدمة، وعن مقاتل العكس، لأنَّ الصغار أقرب للانقياد، وقيل: المراد الأختان على البنات فإنَّهم قوَّامون عليهنَّ، ويخدمون بالجدِّ والصدق، وقيل: الربائب وهنَّ بنات امرأة الرجل من غيره، وقيل: الأصهار فيحصل أن يراد أعوان الرجل من قبل المرأة ولو أخاها أو ابن أخيها ونحو ذلك من قرابتها، **ولا مانع من حمل الآية على ما ذكر كلّه.**

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ اللذائذ، والخطاب للمؤمنين والكفرة، أو الطيِّبات الحلال، والصحيح أنَّ الكفرة مخاطبون بفروع الشريعة فصحَّ خطابهم بالحلال، ولا يخفى أنَّه خلاف الظاهر، فذلك وجه إنكار من أنكره، ثمَّ إنَّ تفسير الطيِّبات بالغنائم، أو بما جاء من غير نصب خلاف الظاهر. و«مِنْ» للتبعيض فإنَّه لم يرزقكم كلَّ ما في الدنيا، وكلُّ ما فيها بعضٌ مِمَّا في الجنَّة اسما وصورة، والحقيقة مختلفة، أو ﴿مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾: مِمَّا في قدرة الله تعالى.

﴿أَفَبِالْبَاطِلِ﴾ هو [القول] إنَّ عبادة الأصنام حقٌّ وأنَّها تنفعهم في الدنيا، وأيضا في الآخرة إن كانت حقًّا [حسب ظنّهم]، وتحريم السائبة والبحيرة والوصيلة والحامي، وهنَّ من الطيِّبات، والاستفهام توبيخ، وقدِّم الجارُّ على متعلَّقه وهو قوله: ﴿يُومِنُونَ﴾ على طريقة العرب في الاهتمام، أو لإيهام التخصيص مبالغة، وللفاصلة، وكذا في قوله ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ والعطف على محذوف، أي أيكفرون بالحقِّ فيؤمنون بالباطل، وهو عبادة الأصنام وتحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي.

﴿وَبِنِعْمَتِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يستمرُّون على الكفر، كأنَّه قيل: لا يجحدون إلاَّ بنعمة الله ولا يؤمنون إلاَّ بالباطل، ولا يكفرون إلاَّ بنعمة الله، والاستفهام التوبيخي منسحب على قوله: ﴿وَبِنِعْمَتِ اللهِ﴾ كأنَّه قيل: أو بنعمة الله هم يكفرون؟ وكذا انسحب على قوله:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾ ومعنى كفرهم بنعمة الله إضافتهم إيَّاها للأصنام، وتحريم المحلَّل كالبحيرة، وذلك أنَّ إثبات الأُلوهِيَّة لغير الله إثبات لبعض النعم لغيره، لأنَّ الإله منعم، وقيل: الباطل: الشيطان، والنعمة: محمَّد ﷺ، وقيل: الباطل: ما حرَّم الشيطان من نحو البحيرة، ونعمة الله: ما أحلَّ الله ﷻ.

(نحو) و«شَيْئًا» مفعول لـ«رِزْقًا» من إعمال المصدر المنوَّن، أي: ما لا يملك لهم أن يرزق شيئا، وإن جعل بمعنى ما يرزقه به الإنسان فـ«شَيْئًا» بدل «رِزْقًا» مؤكّد له، جعل تنوينهما للتحقير أولا إذ شيء أعم. و«مِنْ» متعلّق بـ«رِزْقًا» لا يرزقهم من جهة السماء ولا من جهة الأرض، أو محذوف نعت لـ«رِزْقًا» ومفعول «يَسْتَطِيعُونَ» محذوف، أي لا يستطيعون ملك رزقا وهو منزل كاللاَّزم بمعنى لا استطاعة لهم، والواو لِمَا في قوله: ﴿مَا لاَ يَمْلِكُ﴾ مُراعاة لمعناها

بعد مراعاة لفظها، وهو جماعة الأصنام التي يعدُّونها عقلاء عندهم أو نحو عقلاء، أو لِلْكُفَّارِ، لا يستطيعون، وهو عقلاء تحقيقا فكيف الأصنام الجمادات؟!.

وذكر هنا ﴿هُمْ﴾ دون سورة العنكبوت لتقدُّم قوله تعالى: ﴿وَالذِينَ ءَامَنُواْ بِالبَاطِلِ وَكَفَرُواْ بِا للهِ أُولَئِكَ هُمَ الْخَاسِرُونَ﴾ (سورة العنكبوت: ٥٢) المفيد لأتمِّ التأكيد، فيستغنى عن التأكيد بقوله: ﴿هُم﴾ أو جيء به هنا لسرد النعم على أتمِّ وجه، فكان التأكيد في بيان كفرهم أنسب، ولا سرد لها في سورة العنكبوت كذلك، أو لأنَّ آيات سورة العنكبوت استمرَّت على الغيبة وهنا تقدَّمت خطابات فجيء بقوله: ﴿هُم﴾ تأكيدا في إظهار الغيبة المنتقل إليها لِئَلاَّ يسبق توهُّم أحد إلى أن يقرأ: «تؤمنون» و«تكفرون» بالخطاب، وهذا ليس فيه ما يعترض عليه بأنَّه لا مقتضى للزوم الغيبة، وبأنَّه لا لبس في ترك قوله: ﴿هُم﴾ وإنَّما زاد هنا ﴿هُم﴾ دون قوله: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُومِنُونَ﴾ لِئَلاَّ يتوهَّم أنَّه تكرير لقوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ا للهِ يَجْحَدُونَ﴾ ففصل بالمبالغة والتأكيد ترقّيا في الذمِّ، وللجري على عادة العرب في أنَّهم إذا أنكروا على أحد شيئا جدًّا أتوا بكلام آخر أذمَّ من الأوَّل، ولئلاَّ تكون الفاصلة الأولى زادت على الثانية، وقال هنا: ﴿يَكْفُرُونَ﴾ وهناك: ﴿يَجْحَدُونَ﴾ لتقدُّم ضرب المثل هنالك وهو أقبح فناسب الجحد.

﴿فَلاَ تَضْرِبُوا للهِ الاَمْثَالَ﴾ إذا كان الأمر كذلك فلا تضربوا، أو «ولا تضربوا...» على أنَّ الفاء بمعنى الواو، وذلك لأنَّ الأصنام وإيَّاكم عاجزون، لا تجعلوا لله شركاء تقيسونها عليه وتمثّلونها به في الأُلوهِيَّة والعبادة، وذلك استعارة تمثيليَّة لأنَّ ضرب المثل له تعالى الإشراك به، والتشبيه به، والمشرك المشبِّه له بغيره بمنزلة ضارب المثل، إذ يشبِّه صفة بصفة وذاتا بذات.

﴿إِنَّ ا للهَ يَعْلَمُ﴾ فساد ما تزعمون من أنَّ عبادة الأصنام أشدُّ تعظيما لله سبحانه، لأنَّها عبيده، و«الـ» في «الاَمْثَالَ» للحقيقة، فشمل الفرد والمتعدِّد، فلا

يفهم أنَّ المثل الواحد والاثنين من الجائز، وكان بصيغة الجمع لأنّه الواقع منهم، ولا مفهوم له، وللتشنيع عليهم بأنّهم جعلوا أندادًا متعدِّدة لمن لا يمكن أن يكون له واحد.

﴿وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ قُبْحَ ضربِ الأمثال وامتناع صحته، فإنَّ المالك الرازق هو الذي تحقُّ له العبادة، [قلت:] **وعبادة عبيده إفساد لنعمة المنعم**، فلو أنعم عليكم سلطان فصرتم تغفلون عن حقّه وخدمته، واشتغلتم بعبادة حماره لَبانَ لكلِّ ذي رأي فساد ذلك، أو إنَّ الله يعلم كنه الأشياء وأنتم لا تعلمونه.

وإنّما يصحُّ ضرب الأمثال إذا كان مثل ما في قوله ﷻ :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾

مثلان للأصنام والأوثان

﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ وإنّما يضرب المثل العالم للجاهل ليتعلّم، هذا تعليم لهم كيف يضربون الأمثال فيصيبون ولا يخطئون، والأصنام كالعبد المملوك العاجز عن أن يملك مالا، ويتصرَّف فيه، بخلاف الحرِّ المالك للأموال الذي لا حجر عليه في المال، ينفق كما يشاء، والله ﷻ هو المالك للأشياء، الأموال وغيرها المتصرِّف فيها بالإنفاق كيف يشاء، وقال: ﴿مَمْلُوكًا﴾ تحرُّزا عن الحرِّ لأنه أيضا عبد لله، وقيَّد العبد بأنّه ﴿لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ تحرُّزا عن المأذون له

في التجر، فقد يتصرَّف في المـال بـلا إذن، أو بـإذن وعـن المُسَرَّح ببطنه، وعن المجعول رئيسا على سائر العبيد، أو على العيال، وأمَّا المكاتب فحرٌّ عندنا.

ويناسب قوله: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا...﴾ أن نجعل «مـن» نكرة موصوفة أكثر مناسبة فيما إذا جعلناها اسما موصولا عامًّا.

(فقه) واختلف فيما يعطى العبد لا لعمله ولا لأجل سيِّده، فقيل: هو لسيِّده لقوله تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ وهو مشهور المذهب، وعليه الشافعي واستظهره الزمخشري. ولا يصحُّ طلاقه إلاَّ بـإذن سيِّده أوَّلاً أو إجازته بعد وقوعه، وإن كان سيِّده امرأة وكَّلت رجلا يطلِّق عنه، أو يجيزه. وقيل: ما يعطى العبد له لأنَّ القيد إنَّما هو لإمكان أن يملك، وبه قال مالك وهو ظاهر الآية، لأنَّه أثبت له العجز بقوله: ﴿مَمْلُوكًا﴾ ونفى القدرة العارضة بتمليك السَّيِّد بقوله: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ وليس المعنى القدرة على التصرُّف لأنَّ مقابله: ﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾.

﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ ؟ استفهام لنفي الاستواء عند كلِّ عاقل، فكيف يسوَّى من له القدرة التَّامَّة على كلِّ شيء ـ وهو الله ﷻ ـ مع العاجز من كلِّ وجه وهو الأصنام، أو الآية مثل للمؤمن الموفَّق والكافر المخذول، كما لا يستوي الحرُّ والعبد لا يستوي الموفَّق والمخذول، فإنَّه كالمربوط على جوارحه وقلبه لا يعمل بها نافعا، وقيل: في أبي بكر وأبي جهل.

والجمع في ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ على التفسيرين لإرادة التعدُّد، كأنَّه قيل هل يستوي الأحرار والعبيد ؟ أو هل يستوي الموفَّقون والمخذولون ؟ ويشير قوله ﷻ : ﴿يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ إلى كثرة المال، فالحسن المذكور في الآية حُسْنُهُ كَمِّيَّةً وهيئةً.

(بلاغة) والآيـة استعارة تمثيليَّـة في قولـه: ﴿عَبْـدًا مَّمْلُوكًـا...﴾ واستعارة تمثيليَّة أيضا في قوله: ﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ...﴾ كذا قيل، والأَولى أنَّهما معا استعارة واحدة، وسواء التفسير بالعبد والحرِّ، والمخذول والموفَّق، شبَّه الهيئة المنتزعة من حبوط عمل الكافر وصيرورته هبـاء بالهيئـة المـأخوذة مـن العبد وعدم قدرته تحقيقا مع أنَّه في صورة قادر، وهـذا حسـن جـدًّا إلاَّ أنَّ الملائم لِمَا قبل هو التفسير بالعبد والحرِّ.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كلُّه له، لا يستحقُّ معه غيره شيئا لأنَّه على النعم، وهي كلُّها منه، ولا تُستَحقُّ الأُلوهيَّة بلا موجب فكيف يكون عيسى إلها للناس مع أنَّه لم يخلقهم ولم يرزقهم ولم يملك أحوالهم؟! قيل الحمد لله على ظهور الحجَّة.

﴿بَلَ اَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ إذ أضافوا النعم إلى غير الله وعبدوا غيره عليها، أو لا يعلمون ظهور ذلك فبقوا على الإشراك، وقد علم بعض أنَّ الأمر ما ذكر الله وجحدوا بألسنتهم، وقيل: المراد بالأكثر الكلُّ.

﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ ولد أخرس لا يتكلَّم، ومن ولد كذلك فهو لا يسمع فهو لا يفهم ولا يُفهم إلاَّ بالإشارة والتجربة، والوجدانيات والبصر والمسِّ والذوق ﴿لاَ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من الأمر بالعدل ومن السيرة الحسنة أدبا وشرعا، ومن المنافع والصنائع لنقص عقله ﴿وَهُوَ كَلٌّ﴾ ثقيل في القلب ﴿عَلَىٰ مَوْلاَهُ﴾ من يلي أمره من أب أو عمٍّ، أو قائم مَّا أو سيِّد ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُّ﴾ مولاه في أمر خير ﴿لاَ يَاتِ بِخَيْرٍ﴾ مرادا وخيرا غير مراد، بل يأت بشرٍّ، أوْ لاَ به ولا بخير.

والرجل الآخر المذكور في قوله ﷻ : ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَّامُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي والفصيح الذي يأمر الناس بالعدل ويرشدهم

إلى مصالحهم وينفعهم، وهو في نفسه مهتد متمكّن من الدين تمكُّن الراكب على المركوب، ولذا قال: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ ولم يقل: في صراط، وهو خفيف على أهله ذو صنائع إذا قصد أمرا تلقاه.

(لغة) فأين هذا من الذي يشمله المثل السائر: أينما أوجه ألق سعدا؟ رجل يسمَّى أخبط رئيس قومه وهم سعد جفوه فارتحل عنهم إلى قوم فوجدهم قد جفوا سيِّدهم، كما جفاه قومه، أي أينما أوجه ألق عشيرة كعشيرتي في الجفاء، وليس سعد رجلا شرِّيرا كما قيل بل عشيرة شرِّيرة.

وهذا المثل المضروب دفع لمشاركة الأصنام ا الله ﷻ، أو دفع لمساواة الكفرة للمؤمنين، وكونه آمرا بالعدل وكونه على صراط مستقيم كمال ما يناقض البكامة والعجز والثقل وعدم الإتيان بخير اللاتي هنَّ صفة الأصنام، لا نفع فيها، وتحتاج إلى حاملها وماسح الأذى عنها.

وقيل: الأبكم أبو جهل والآمر بالعدل عمَّار رضي الله عنه، وقيل: الأبكم أُبي بن خلف والآمر بالعدل عثمان بن مظعون، ولا يصحُّ ذلك وعلى صحَّته المراد التمثيل، أو يعتبر أنَّ خصوص السبب لا يبطل عموم الحكم في اللفظ، وقيل: في عثمان بن عفَّان وعبد له كافر يسمَّى أسيد بن العيص، ينفقه عثمان ويقوم بمصالحه ويأمره بالتوحيد والصدقة فيخالفه ويعكس.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٧٧ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٧٩﴾

علم الله وعجيب خلقه

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ﴾ أي علم غائب ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا يعلمه سواه بحس ولا بدليل يؤخذ من محسوس، أو من عقل، ودخل في ذلك قيام الساعة وفسِّر به ﴿وَمَآ أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ مع عظم أمرها والمُمَاراة فيها ﴿إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ ما قيامها في السرعة والسهولة إلاَّ كنظرة بعين، وفسِّر أيضا بقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ, عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ (سورة الزخرف: ٨٥) الآيَة، **والتعميم أولى**، وإن شئت فلا تقدِّر: «علم غائب السموات والأرض» فيكون المعنى: لله غائبهما عن علوم المخلوقين. و«أو» لشكِّ المخلوق، أو تشكيك الله إيَّاهُ، أو للتخيير على جوازه في الإخبار مطلقا، أو بشرط التشبيه كما في الآيـة، أو للإضراب الانتقالي لا الإبطالي، لأنَّ الله عَجَلَ لا يقول بالباطل، إلاَّ أن يقال: الأوَّل على سبيل الفرض وهو «لمح البصر»، والثاني محقَّق وهو كونه أقرب ككونه في نصف لمح البصر.

واللمح: النظر الخفيف السريع، وفسِّر برجع الحدقة من أعلاها إلى أسفلها، وفيه مع ذلك أجزاء دقيقة من الزمان، وذلك أنَّ الله يحيي الخلق في آن واحد لا يقبل التجزيء، ولو تفاوت خروجهم من قبورهم، ومعنى التخيير أنَّ الله عَجَلَ خيَّرنا أن نشبِّه أمرها باللمح أو بأقرب، و«أو» لمنع الخُلُوِّ لا منع الجمع، لجواز أن يشبَّه باللمح وبأقرب.

ويجوز أن يكون المعنى: أنَّ قيام الساعة ولو تراخى وقوعه هو قريب عند الله، كقرب لمح البصر أو أقرب، كما قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾ (سورة الحج: ٤٧) في أحد أوجه، وفي هذا التفسير الآخر الأوجه المذكورة في «أو»، ولكون أمر الساعة كلمح البصر أو أقرب مناسبة بعلم الغيب، ولعلم الغيب مناسبة للذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، لأنه لا يكون كذلك إلاَّ

ليعلم، وقيل المعنى: ما إماتة الناس كلّهم آخر الدنيا وإحياؤهم إلاّ كلمح البصر.

﴿إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء فهو قادر أن يحيي الخلق دفعة كما خلقهم تدريجا، لأنّه يفعل بلا آلة ولا علاج ولا كسب، واستدلَّ على ذلك بقوله:

﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ العطف على ﴿إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقيل: على ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنَ اَنفُسِكُمُ أَزْوَاجًا﴾ (سورة النحل: ٧٢) الهاء زائدة كَأَهْرَاق في أراق، و«أمَّهات» للعموم، وقيل: للأناسي، والأمَّات للحيوانات، وقوله ﴿لاَ تَعْلَمُونَ﴾ لا تعرفون، حال من الكاف ﴿شَيْئًا﴾ مفعول به، أي شيئا من المعلومات، أو مفعول مطلق أي علما، والأوَّل أنسب، وعلى الثاني لا مفعول لـ«تعلم» أي لا علم لكم، والمراد ـ قيل ـ لا تعلمون شيئا من حقِّ المنعم وغيره، أو شيئا من منافعكم، أو مِمَّا قضي من سعادة أو شقاوة، أو مِمَّا أخذ عنكم من الميثاق يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (سورة الأعراف: ١٧٢) [قلت:] **والصواب التعميم.**

وعن وهب: لا يدرك في سبعة أيَّام من ولادته شيئا ولا يدرك راحة ولا ألما، ويردُّه بكاؤه إذا أصابه ضرٌّ من جوع أو غيره، وأنَّه عالم بنفسه، وذكر بعض أنَّ النفس لا تغفل عن الذات ولو حال النوم والسكر. وزعم بعض أنَّ «شَيْئًا» مفعول به أوَّلا والثاني محذوف، أي لا تعلمون شيئا واقعا أو موجودا.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالاَبْصَارَ وَالاَفْئِدَةَ﴾ قيل: قدَّم السمع لأنَّه أشرف من البصر، وأخَّر القلوب لأنَّ السمع والبصر وسيلتان، والوسائل مقدَّمة، قيل: وخصَّهما من سائر الوسائل لأنَّهما أشرف، والاستدلال بمدركاتهما أكثر، كما يذكر المهاجرون والأنصار والمراد الصحابة عُمُومًا، وكما يذكر الصلاة والزكاة مع أنَّ المراد جميع العبادات لشرفهما وأصالتهما، فقد يكون مجازا بذكر الخاصِّ

وإرادة العامّ.

(صرف) ووحّد «السَّمْعَ» لأَمْنِ اللبس، ولكونه في الأصل مصدرا يصلح للقليل والكثير بلفظ واحد، ولاتّحاد متعلّقه وهو الصوت، وجمع «الأَبْصَارَ» لتعدُّد متعلّقاته، من الألوان والأعراض والأطوال والرِّقّة والغلظ، وأمّا «الأفئِدَة» فلكلٍّ واحد فؤاد واحد، خلق الله فيه من الإدراك ضعفي ما في العينين والأذنين، وأصله ألطف القلب وهو وسط، والمراد القلب كلُّه.

و لم يذكر اللمس والذوق والشمَّ لأنَّ الدلالات اليقينية الظاهرة في وجود الله إنّما هي في النظر في نفس الإنسان والآفاق، وفي السمع للنقليات وليس الذوق والشمِّ واللمس إلاّ دون ذلك فذكر الأعظم استغناء عن العظيم، كما مرَّ أنّه يذكر الصلاة والزكاة والصوم، والمراد ما دونهما أيضا، لأنَّ العقل يعتبر أنّه لا يقدر غير الله أن يخلق هذه الرائحة في هذا والحلاوة في هذا، ونحو ذلك مِمَّا يتخالف مع أنَّ الكلَّ مثلا من خشب.

والحسُّ: الرؤية والسمع واللمس والذوق والشمُّ، والحسُّ سبب للإدراك، وقد يراد بالحسِّ الإدراك بالحواسِّ الظاهرة، ويقال: الإدراك للحسِّ المشترك أو للعقل، والإحساسُ للحواسِّ الظاهرة؛ وذكر بعض أنَّ السمع والبصر عبارة عن باقي الحواسِّ الظاهرة، وقدِّما على الفؤاد لتقدُّم الظاهر على الباطن، ولأنّهما لهما مدخل في إدراكه، ولأنّهما خادمان له والخدم تتقدَّم بين يدي السادات، كما تُقدَّم بعض السنن على الفرض، ولأنَّ مدركاتهما أقلُّ من مدركاته، ولو كان له حدٌّ ينتهي إليه كما لهما، وقدَّم السمع على البصر لأنّه طريق تلقّي الوحي، ولأنَّ إدراكه أقدم من إدراك البصر، ولأنَّ مدركاته أقلُّ من مدركات البصر.

(أصول الدين) واعلم أنَّ النفس تدرك الكلّيَّ والجزء باستعمال

الحواسِّ وبدونه، والصحيح أنَّ الإدراك للعقل خاصَّةً والحواسُّ أبوابه، ومعنى الحسِّ المشترك أنَّه أدرَكَتْ فيه الشيءَ الحواسُّ والعقلُ معا بمرَّة، وأنكره أكثر المتكلِّمين. والإنسان إذا كان جنينا له عقل هيولائي، له به العلم بالإحساس بالجزئيَّات.

والجملة معطوفة على «أَخرَجَكُم» ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ المراد: تصلون إلى الشكر بعد المعرفة بالنعم، لأنَّ وجود النعم بلا معرفة لا يكون سببا للشكر، وقد قيل: إنَّ «لعلَّ» للتعليل.

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ اِلَى الطَّيْرِ﴾ اسم جمع طائر كراكب وركب، وقيل: جمع ويطلق على الواحد قليلا ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾ مسهَّلات للطيران بجناح له طرفان يمين وشمال، وإن شئت فقل: جناحان تبسطهما مرَّة وتكسرهما مرَّة كالسابح في الماء ﴿فِي جَوِّ﴾ هواء ﴿السَّمَآءِ﴾ أضيف إلى السماء لأنَّه خارج عن الأرض إلى جهة السماء بل المراد الهواء المتباعد عن الأرض كثيرا لأنَّ طيرانها في المتباعد أشدُّ اعتبارا ولو كانت ترى في القريب والبعيد، جعل لها الهواء جسما لطيفا يسهل خرقه ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ فيه ﴿إِلاَّ اللهُ﴾ بقدرته بلا دعامة من تحتها ولا علاقة من فوق، خلقها أجساما ثقالا لا تتماسك في الهواء، وجعل لها الأجنحة تتماسك لها.

وعن كعب الأحبار رحمه الله: إنَّ الطائر يرتفع عن الأرض اثني عشر ميلا لا أكثر يعني غالبا، فقد قيل: طار طائر حتَّى وصل بحرا في الهواء وجاء بسمكة منه، وأظنُّ أنَّ هذا البحر فوق اثني عشر ميلا، وشاهدت غير مرَّة غرابا يعلو وأنا أراه حتَّى عجزت عن رؤيته لبعده.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التسخير ﴿لَأَيَاتٍ﴾ عدم سقوطهنَّ وخرق الهواء لهنَّ،

وعدم الدعامة والعلاقة ﴿لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ﴾ وغيرهم، وخصَّهم بالذكر لأنَّهم المنتفعون بالتفكُّر فيها والاستدلال بها على وجود الله، وكمال قدرته وإنعامه علينا بها وبغيرها، وإنعامه عليها، وليس التنكير لأفراد مخصوصة بمعنى قوم من جملة المؤمنين بل للتعظيم، فإنَّ المراد جنس المؤمنين، والمضارع للتجدُّد لا للاستقبال فإنَّ الإيمان متجدِّد متكرِّر.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾

بعض دلائل التوحيد وأنواع النعم والفضل الإلهي

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ من بيوت البناء بالماء والطين أو القرمد أو الجصِّ أو الجبس أو نحو ذلك ﴿سَكَنًا﴾ موضعا تسكنون فيه حين الإقامة، كالقَبَضَ بفتحتين بمعنى المقبوض، ويجوز أن لا تقدَّر الوصفية و«في» كما رأيت، بل يعتبر معنى المسكن، قال:

جاء الشتاء وَلَمَّا أتَّخذ ربضا يا ويح كفّي من حفر القراميص[1]

على المتبادر، أو يجعل بمعنى ما يستأنس إليه، كقول صاحب لامية العجم:

فيم الإقامة بالزوراء لا سكني فيها ولا ناقتي فيها ولا جملي؟

وليس المراد أنَّ لكم بيوتا ليست سكنا ثمَّ جعلها سكنا بل البيوت التي سكنتم هو الذي خلقها أو صيَّرها لكم سكنا.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الاَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ صغارا أو كبارا بتركيب جلد إلى جلد أو جلود، وبنسج من نباتها وهو الأكثر، والبيت الذي من نبات الجلد هو من الجلد لأنه نبت عليه. و«مِنْ» للابتداء في المعنيين على معنى: يحصل لكم بيوتا من جلود الأنعام، إمَّا بها وإمَّا بشعرها، وإن جعلنا «مِنْ» للتبعيض باعتبار البيوت من شعرها وللابتداء أو للبيان باعتبارها، كان استعمالا للمشترك في معنييه، وفي جوازه خلاف.

﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ تجدونها خفيفة أو تعدُّونها خفيفة ﴿يَوْمَ ظَعَنِكُمْ﴾ انتقالكم من موضع الحلول قصد ماء أو نبات، أو أمان أو غير ذلك، في السفر يسهل حملها ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ يسهل عليكم ضربها بأوتاد في الأرض زمان السفر.

وقيل: في الحضر على معنى أنَّكم لا تهتمُّون بها إذا أردتم سفرا سهَّل عليكم تحصيلها إن لم تكن حاصلة، وقيل: إذا أردتم ضربها في الحضر في موضع

١- في الطبعة العمانية:

جاء الشتاء و لم أعدد له سكنا يا ويح نفسي من شرِّ القراميص

والقراميص واحدها قرماص وقرموص: حفرة واسعة الجوف ضيِّقة الرأس يستدفئ فيها الإنسان الصَّرد من البرد. اللسان.

قريب تسهل عليكم، وعلى القولين هذين يكون ﴿يَوْمَ ظَعَنِكُمْ﴾ شاملا لِلّبث في السفر وللنزول فيه.

﴿وَمِنَ اَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ عطف على «مِن جُلُودِ الاَنْعَامِ» ﴿أَثَاثًا وَمَتَاعًا اِلَىٰ حِينٍ﴾ معطوفان على «بُيُوتًا»، وذلك عطف على معمولي عامل واحد. والأثاث: الآلات التي تكون في البيوت وغيرها كالبسط والثياب والحبال المحتاج إليها للسقي، ولربط الدوابِّ وإصلاح جهازها، وسمِّي أثاثا لكثرته، أثّ الشيء: كثر. والمتاع: ما يستعمل خارج البيت، وقيل بالعكس، و«إلى» متعلّق بـ«مَتَاعًا» على معنى اسم المصدر بمعنى: تمتُّعا، أو على معنى المتمتَّع به إلى حين بلائه أو تلفه أو إخراجه من الملك أو عدم الاحتياج إليه أو الموت.

وعن ابن عبَّاس: المتاع الزينة، وعن الخليل هو الأثاث، ولو قاله غير الخليل لمثّلت له على سبيل الزجر بقوله:

.... وألفى قولها كذبا ومينا[1]

و لم يذكر الكتان والقطن لأنَّ العرب غالبا لا يستعملونهما، وقيل: المتاع ما يتّجر به.

﴿وَا للهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ﴾ من الشجر والجبال والأبنية والسحاب وغيرها ﴿ظِلاَلاً﴾ من شدَّة الحرِّ، وبلاد العرب حارَّة والفقير يستظلُّ بذلك، والغنيُّ بما يستصحبه معه، وبذلك أيضا إن شاء، وقد يراد الاستظلال ولو من البرد.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ جمع كنٍّ بمعنى الستر، وهو الغار خلقه ا لله، أو البيت ينحته الإنسان، وذلك وقاية من الحرِّ والبرد والعدوِّ، وللسكنى،

١- البيت لعدي بن زيد، وصدره: فقَدَّدَتِ الأَدِيمَ لِرَاهِشيهِ.

وأعاد ﴿جَعَلَ﴾ لتجدُّد النعمة ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ ثيابا من نبات الأنعام والصوف والكتان والقطن للرجال وللنساء، والحرير لهنَّ، ومرَّ أنَّ العرب لا يألفون الكتان والقطن، والصواب أنَّهم يستعملونهما لباسا لا بيوتا ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ أي والبرد، وخصَّه لأنَّه الغالب في بلاد العرب، وكفايته أهمُّ كما أنَّ المطلوب الخير فاقتصر عليه في قوله ﷻ : ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ (سورة آل عمران: ٢٦) أو لذكر البرد في قوله: ﴿لَكُم فِيهَا دِفْءٌ﴾ (سورة النحل: ٥) لا لكون ما يقي الحرَّ يقي البرد، ولو لبس إنسان في الشتاء لباس الصيف أو بالعكس كان ضحكة، [قلت:] والحرُّ يتقى بلباس رقيق خفيف ولو تعرَّى للشمس لكانت أضرَّ عليه، وقد يقال: ذكر الدفء هناك باعتبار زمان البرد، والحرَّ هنا لأهمِّيَّة زواله.

﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ شرَّ حربكم، وهي الدروع ولباس الرأس المستعمل في الحرب، ويسمَّى البيضة، ويطلق أيضا على ما يمسك في اليد اتِّقاء به كالترس، و«البأس» نفس الضرِّ، وإن قلنا: الحرب قدِّر مضاف، أي ضرَّ بأسكم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما خلق لكم هذه الأشياء فيما مضى وهي نعم عظيمة، أو كما أتمَّها عليكم ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ﴾ سائر نعمه ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بخلقها لكم فيما يحضر ويستقبل، كما أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقي، أو أريد بإتمام سائر النعم تجدُّدَها مطلقا في الماضي والحال والاستقبال، والمراد بالنعمة الجنس، أو المراد ما ذكر من النعم.

يذكر الله ﷻ شيئا ويشير إلى فعله لأنَّه غير وصفه، تطعم سائلا وتقول له: كذلك أطعمته، تذكِّره وصف الفعل؛ أو أفرده لأنَّه عظيم الجود، كلُّ كثير عنده قليلٌ، أو لأنَّه مصدر ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ توحِّدون يا أهل مكَّة، أو تذعنون للتوحيد والعمل بالتأمُّل في نعمه.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ فعل ماض للغيبة، والواو لأهل مكّة على طريق الالتفات إليها من الخطاب، أي فإن داموا، وليس مضارعا للخطاب حذفت إحدى تاءيه، أي فإن تتولّوا عن الإسلام يا أهل مَكّة، لاستلزامه اجتماع خطابين متغايرين في كلام واحد، أحدهما هذا والآخر قوله ﷻ:

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ﴾ يا محمّد ﴿الْبلاَغُ الْمُبِينُ﴾ إلاّ أن يقدَّر ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي تتولّوا أهلكتم أنفسكم، ونجوت يا محمّد لأنّ عليك البلاغ المبين، وقد أتيت به، فهنا كلامان لا واحد كما في قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ (سورة يوسف: ٢٩).

وعلى المضيّ وهو الأصل فقد ذكر السبب وهو البلاغ المبين، وأراد المسبَّب وهو النجاة أي نجوت لأنّه ما عليك...الخ؛ أو هلكوا وحدهم لأنّه ما عليك...الخ، وقدَّر بعضهم: «فَإِن تَوَلَّوْاْ فلست قادرا على خلق الإيمان في قلوبهم»، وهو خال عن الارتباط بالفاء، فالفاء لا تناسبه، إلاّ إن جعلت داخلة على هذا المحذوف فيكون: ﴿إنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ﴾ مستأنفا غير تعليل.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ﴾ يعرفون جنس النعم أنّها من الله إذ يعترفون بما ذكر وما لم يذكر، وهذا ظاهر في ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ ماض، وإلاّ كان فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة، والمضارع للاستمرار أو لحكاية الحال الماضية ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد عملهم بمقتضى إنكار معرفة أنّها من الله، ﴿يُنكِرُونَهَا﴾ بعبادة غير الله، فإنَّ عبادة غير الله تنبئ أنَّ غير الله هو صاحب النعم، وهذا إنكار بالفعل أقوى من الإنكار بالقول، وعبادتهم لله مع غيره ضائعة كأنّهم لم يعبدوا إلاّ غير الله، وقيل: ينكرونها بقولهم: إنّها شفاعة آلهتنا، أو بسبب كذا كـ«نوء كذا»، أو بعدم أداء حقوقها.

أو نعمة الله: نبوءة سيِّدنا محمَّد ﷺ، عرفوها بالمعجزات وأنكروها بألسنتهم عنادا، كما سأل الأخنس أبا جهل عن محمَّد ﷺ فقال: هو نبيء، رواه ابن أبي حاتم ؛ أو نعمة الله: الإسلام، يعرفون فضله وينكرونه بالمخالفة ؛ أو نحو قولهم: لولا كلابنا لسرقنا، ولولا فلان لم أصب كذا، وقولهم: ورثناها عن آبائنا، وغفلوا عن أنَّها من الله ﷻ ؛ أو يعرفونها في الشدَّة وينكرونها في الرخاء.

﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ كلُّهم كقوله: ﴿الحَمْدُ للهِ بَلَ اَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة النحل: ٧٥) قيل: أو تحرُّزا عمَّن لم يعرف الحقَّ لنقص عقله، أو للتفريط في النظر، فإنَّه لم يكفر النعمة صراحا، أو لم يبلغ حدَّ التكليف، وفيه أنَّه لا يتصوَّر استثناء القليل بأنَّهم غير كافرين، مع أنَّ الكلام فيمن تحقَّق أنَّه يعرف النعمة ويجحدها لا غيره، ولعلَّ المراد أنَّ القليل من مطلق المشركين لم يصرِّح بإنكار النبوءة، أو لم تحضر في قلبه نفيا ولا إثباتا، أو لم يعبد الصنم أو لم يعلم النعمة من الله، ولا يعذرون في ذلك.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

وعيد المشركين وأحوالهم يوم القيامة، وتكذيب شركائهم

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ واذكر يوم نبعث...الخ لتتسلّى عن أذاهم، أو اذكر لهم يَوْمَ نَبْعَثُ... ليزدجروا لذلك كلّه، أو يجازون على كفرهم وإنكارهم يوم نبعث، أو خوفهم يوم نبعث، أو يوم نبعث...الخ يكون ما لا يحقّق وصفه إلاّ نحن، قيل: أو ينكرونها اليوم ويوم نبعث، وفيه أنّهم يقرّون بها يوم البعث حيث لا ينفعهم إقرارهم، ولا ينكرونها.

وشهيد كلّ أمّةٍ نبيئُها، يشهد عليها بالإيمان أو الكفر، ومعنى بَعْثِ الشهيد من كلّ المجيءُ به كقوله ﷻ: ﴿وجئنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ﴾ (سورة النحل: ٨٩)، ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ (سورة النساء: ٤١).

﴿ثُمَّ لاَ يُوذَنُ لِلذِينَ كَفَرُواْ﴾ «ثُمَّ» لاستبعاد أن يأذن الله ﷻ لهم أن يعتذروا، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلاَ يُوذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ (سورة المرسلات: ٣٦) وذلك أنّه لا عذر لهم البتّة، ولا يستأذنون فضلا عن أن يؤذن لهم، وذلك إقناط كلّيٌّ عندما يقال لهم: ﴿اخْسَئُواْ فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ (سورة المؤمنون: ١٠٨) أشدُّ عليهم من شهادة الأنبياء عليهم، وليس المراد أنّ لهم عذرا لم يؤذن لهم في ذكره. أو لا يؤذن لهم في الرجوع إلى الدنيا والتكليف، قيل: أو في كثرة الكلام، قيل: أو في الكلام حال الشهادة، فتشهد الأنبياء وأهل الموقف كلّهم لا مانع لهم من السمع.

﴿وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ الاستفعال هنا لمعنى الإفعال الذي للإزالة، يقال: أعتبه إعتابا أزال عتباه، أي أزال ما يلام عليه فلا يطلب منهم الرجوع إلى ما يرضي الله من العبادة، أو ما يزول به عتب الله أي عقابه، ويجوز إبقاء الاستفعال على أصله من الطلب، أي لا يطلب منهم الإعتاب، أي إزالة عتب ربّهم وغضبه.

﴿وَإِذَا رَءَا الذِينَ ظَلَمُواْ﴾ العبادَ وأنفسَهم، أو الظلمُ: الإشراكُ ﴿الْعَذَابَ﴾.

(بلاغة) معنى رؤية العذاب إحساسه بمباشرته، استعمل المقيَّد وهو الرؤية في المطلق وهو الإحساس الذي منه المباشرة، وذلك مبالغة والمعنى: إذا وقعوا فيه استمرَّ بلا نقص.

ويجوز إبقاء الرؤية على ظاهرها، والمرئيُّ جهنَّم المعبَّر عنها بالعذاب لأنَّها آلته ومحلُّه، والجواب محذوف على هذا، أي إذا رأوه حين الدخول وقعوا فيه، أو بغتهم، أو يحيق بهم ما يحيق، وعطف عليه: ﴿لاَ يُخفَّفُ﴾؛ وإن جعلنا الجواب قوله ﷻ: ﴿فَلاَ يُخَفَّفُ﴾ فإنَّما قرن بالفاء لأنَّ "لا" النافية لا تلي "إذا" الشرطيَّة، فلا يغرَّنَّك أنَّها تلي أدوات الشرط غيرها، لاَ يقال: إذا لا يقوم زيد يقوم عمرو، فلا حاجة إلى تقدير: فهم لا يخفَّف...الخ، أو فهو أي الشأن لا يخفَّف...الخ. والمنظور بالعين هو نار جهنَّم.

﴿فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أي العذاب، وإن فسَّرنا العذاب بجهنَّم ورددنا الضمير إليه بمعناه الظاهر لا بمعنى جهنَّم كان استخداما، والأصل فإذا رأوا العذاب فذكَّرهم باسم موجب العذاب وهو الظلم ﴿وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يؤخَّرون عنها بعد رؤية العين، ولا يؤخَّرون عنها بالإخراج ثمَّ يردُّون.

﴿وَإِذَا رَءَا الذِينَ﴾ الناس الكافرون الذين ﴿أَشْرَكُواْ﴾ بالله غيره ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾ مفعول به لـ«رأى»، وهم الشياطين مطلقا، وشياطين الأصنام التي تتكلَّم من أجوافها هؤلاء الشياطين قيل والأصنام لا شركة بينهم وبين الكافرين العابدين لها في مال ولا أُلوهيَّة، وأضيفت إليهم لأنَّ الإضافة تصحُّ لأدنى ملابسة إذ كانوا يسمُّونها شريكة لله، وادَّعوا الشركة لها، وكذا في قوله:

﴿شُرَكَآؤُنَا﴾. [قلت:] بل يجعلون لها في أموالهم نصيبا فهي شريكة لله على زعمهم في الأُلوهِيَّة وشريكة لهم في أموالهم، والأَوْلى أنَّ شركاءهم: ما يعبدونه من صنم أو وثن أو شيطان أو آدمي أو ملك، وقيل: شركاؤهم: المشركون الذين دعوهم إلى الإشراك، وقيل: شركاؤهم في العقاب فسمُّوا شركاء، ولا يظهر هذا، ولا القول الذي قبله لقولهم: ﴿كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ﴾ وأمَّا أنَّ الإضافة للحمل على الكفر فلا يصحُّ إلاَّ من جانب الشياطين.

﴿قَالُواْ﴾ أي الكفار العابدون لها يقولون بألسنتهم، أو تخرص ويقولون بجوارحهم ﴿رَبَّنَا هَؤُلَآءِ﴾ الأصنام والشياطين ومن ذكر ﴿شُرَكَآؤُنَا الذِينَ كُنَّا نَدْعُو﴾ نعبد ﴿مِن دُونِكَ﴾ ولفظ الذين تغليب للعقلاء وهم الشياطين والملائكة والآدميون، أو لدعواهم أنَّ الأصنام عقلاء، وكذا في قوله: ﴿فَأَلْقَوْاْ﴾ فعل ماض، والواو للشركاء، خلق الله السمع والتميز للأصنام فتتكلَّم كما قال: ﴿فَأَلْقَواْ اِلَيْهِمُ﴾ إلى الكافرين العابدين لها ﴿الْقَوْلَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ مفعول للقول، فيكون من أعمال المصدر المقرون بـ«الـ»، أو لـ«أَلْقَواْ» لأنَّ معناه قالوا، فإنَّ إلقاء القول هو التكلُّم به.

والمعنى: إنَّكم لكاذبون في قولكم إنَّ لله شركاء لا شريك له، وهذا تقوله هؤلاء الشياطين والأصنام وغيرهم، أو المعنى: إنَّكم لكاذبون في العبادة ما عبدتُّمونا تقوله الشياطين إنكارا للواقع خوفا، وتقوله الأصنام بمعنى إنَّا لا نشعر بها حين أوقعتموها، وإنَّما العبادة ما عرفه المعبود وقَبِله وما سوى ذلك فيه العقاب التامُّ، واسم العبادة، وهنا أجابت الأصنام، ولا ينافي قوله تعالى: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ (سورة الكهف: ٥٢، وسورة القصص: ٦٤) لأنَّ المعنى: لم يجيبوا بالشفاعة ودفع العذاب.

أو المعنى: إنّكم لكاذبون في دعوى العبادة بل عبدتُّم أهواءكم، ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ اِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ...﴾ (سورة إبراهيم: ٢٢) وهذا تقوله الشياطين والأصنام: إنّكم عبدتم أهواءكم ﴿كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ (سورة مريم: ٨٢) ﴿مَا كَانُواْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ (سورة القصص: ٦٣).

ومعنى قول الملائكة ونحو عيسى: ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ما رضينا أن تعبدونا، أو إنَّ عبادتكم باطلة، وإنّما قالوا: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَآءِ...﴾ تعجُّبا من إحضار الأصنام مع أنَّه لا ذنوب لها واعترافا بخطئهم وطمعا في أن يعذروا بعض عذر، فيسقط عنهم بعض العذاب، أو طمعا في أن يُحَطَّ عليها وعلى هؤلاء الشياطين نصف ذنوبهم، أو أقلَّ أو أكثر، وطمعا في أن ينجوا من العذاب كلّه بالمعبودين الذين لا تحقُّ لهم العبادة ولا تحقُّ إلاَّ لله ﷻ، ردًّا الله ﷻ عليهم بقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ (سورة الأنبياء: ٩٨) وذلك تعذيب لهم بها لا تعذيب لها.

﴿وَأَلْقَواْ﴾ أي الكافرون **﴿اِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾** الخضوع للحقِّ اعترافا حين لا ينفع **﴿وَضَلَّ﴾** ضاع **﴿عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾** من أنَّ الأصنام ومعبوداتهم تشفع لهم.

﴿الذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ﴾ منعوا الناس: مَن أراد الإيمان، أو آمن وضعف إيمانه، أو قوي فيجبرونه على الكفر **﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾** دين الله ﷻ. «الذِينَ» مبتدأ خبرُه قوله: **﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾** الذي استحقّوه على كفرهم **﴿بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾** بكونهم يفسدون، وهو المنع عن دين الله، أو الاستمرار على الكفر مطلقا، أو على الصدِّ، أو يفسدون بسائر معاصيهم، ولا يخفى أنَّ الاستمرار أشدُّ على صاحبه، **ألا ترى أنَّ الصغيرة كبيرة بالإصرار.**

[قلت:] وزعم بعض أنَّ عذابها مطلقا يزداد لئلاَّ يألفوه كما لو وضع إنسان يده في شيء حارٍّ لكان أوَّل وضعه شديدا عليه، **وهو خطأ** وإنَّما ذلك فيما يمكن أن يتحمَّل لا ما لا يحتمل من دنيا أو أخرى، ولا حاجة ولا دليل على تقدير: هم الذين كفروا، أو أذمُّ الذين كفروا، أو أعني، أو الإبدال من واو «يَفْتَرُونَ» أو هاء «عَنْهُمْ».

قال ابن مسعود في تفسير العذاب المزيد: عقارب أذنابها كالنخل الطوال، وعذاب النار هو عذاب على الذنب، والعقارب مزيدة كمًّا، والآية شاملة للعذاب كيفا.

ويروى أنَّهم يستغيثون بضحضاح من نار فيساقون إليه، فتتلقاهم عقارب دُهْم كأنَّها بغال الدهم، وأفاع كأنَّها البخاتي[1]، فذلك الزيادة، وعن ابن عبَّاس: هي أنهار من صفر مذاب يسيل من تحت العرش عليهم، وعن الزجَّاج: يخرجون من النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدَّة برده إلى النار.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ نبيئا يشهد، ﴿وَإِن مِّنُ امَّةٍ اِلاَّ خَلاَ فِيهَا نذيرٌ﴾ (سورة فاطر: ٢٤) نبيء أو صالح فيهم، أو نبيء وصالح معا، [قلت:] ولا بدَّ في كلِّ عصر من قائم على أهل عصره يكون صالحا حجَّة، ولا تخلو منه أمَّة يشهد هو لهم وتشهد لهم أمَّته، ويزكِّي أمَّته، فإن دخل ﷺ في قوله ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ فلا بأس بذكره هنا شهيدا على غير أمَّته من الأنبياء، وجاز إرادة أمَّته في الموضعين ولا تكرار، لأنَّ الشهادة الأخيرة تزكية لهم إذ شهدوا على الأنبياء وأممهم، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمُ أُمَّةً وَسَطًا...﴾ (سورة البقرة: ١٤٣).

١- من البخت والبختية لفظ أعجميٌّ معرَّب: الأبل الخرسانية، وهي جمال طوال الأعناق، ويجمع على بخت وبخات. ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص٣٢٨ مَادَّة «بخت».

ولفظ «عَلَى» في الخير والشرِّ، وللشاهد علوٌّ في الجملة أو بوجه مَّا، ورسول الله ﷺ يشهد على من يأتي من أمَّته إلى قيام الساعة، وعنه ﷺ : «**حياتي خير لكم تحدِثون ويُحدَث لكم، ومماتي خير لكم، تعرض عليَّ أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله تعالى عليه، وما رأيت من شر استغفرت الله تعالى لكم**»[1] وتعرض على القرابة، قال ﷺ : «**لا تفضحوا موتاكم بسيِّئات أعمالكم فإنَّها تعرض على أوليائكم من أهل القبور**»[2] رواه ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة، قال ﷺ : «**إنَّ أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيرا استبشروا، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهمَّ لا تمتهم حتَّى تهديهم كما هديتنا**»[3] رواه أحمد عن أنس، وروى أبو داود مثله عن جابر، زاد: «**وألهمهم أن يعملوا بطاعتك**» وقال ﷺ : «**أعمالكم تعرض على موتاكم فيسرُّون ويساءون**» رواه ابن أبي الدنيا عن أبي الدرداء، فكان أبو الدرداء يقول: «اللهمَّ إنِّي أعوذ بك أن يمقتني خالي عبد الله بن رواحة إذا لقيته»، يقول ذلك في سجوده.

﴿**عَلَيْهِم مِّنَ اَنفُسِهِمْ**﴾ يعطف ﴿يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ عَلَى ﴿يَوْمَ نَبْعَثُ﴾ السابق، أو يقدَّر ما قدِّر فيه لبعده، والأوَّل يشمل الشهادة للأمم وعليها كما مرَّ، وهذا في الشهادة عليها فقط لزيادة الزجر.

١- أورده **الزبيدي** في الإتحاف: ج٩، ص١٧٦-١٧٧. وابن **عدي** في الكامل: ج٣، ص٧٦. بنفس المعنى مع تقديم وتأخير وزيادة، من حديث خراش بن عبد الله مولى أنس بن مالك.

٢- أورده **الهندي** في الكنز: ج١٥، ص٦٨٥، رقم ٤٢٧٣٩، وقال: رواه الديلمي عن أبي هريرة.

٣- رواه **أحمد** في كتاب مسند باقي المكثرين، رقم ١٢٢٢٢، من حديث أنس.

[قلت:] وهذا التأسيس أولى من أن يقال: هـذا تفسـير للسـابق، أو أن يقـال: الشهادة عليهم بمعنى الإخبار عنهم إسلاما وكفرا، والأصل عدم التفسير، والأصل أنَّ «على» للضرِّ، و﴿مِنَ انفُسِهِمْ﴾: من جنسهم الآدمي المعاشر لهم اللائـق، ولـو فسِّر بالنسب لأشكل بلوط وشعيب إذ ليسـا مـن نسـب أقوامهمـا، إلاَّ أن يحمـل على النسب تحقيقا أو حكما، فإنَّهما من النسب حكما لعشرتهما لهـم، أو مـن لم يكن من نَسبهم مثلهما شهد في مقامه صالح من نسبهم، أو يعتبر الغالب.

﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمَّد ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَآءِ﴾ أمَّتك وفي إنزال هذا عليهـا زجر عظيم إلى آخرها، ويجوز أن يفسَّر هؤلاء بشهداء الأمم وهم أنبياؤهـا فهـو شهيد على الأنبياء، وذلك لعلمه بعقائدهم واستجماع شرعه لقواعدهـم، ولأنَّـه مرسل إلى الأنبياء وأممهم، فالأنبيـاء كآحـاد أمَّتـه ولا مـانع مـن هـذا، ولـو جـاء الحديـث: «**إنَّ هـذه الأمَّـة تشـهد للأنبيـاء بـالتبليغ**»[1] ولا مـانع مـن تكريـر الشهادة، والنبيء ﷺ يزكِّي أمَّته. وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ (سورة النسـاء: ٤١) كهـذه في احتمـال أنَّ هؤلاءِ هُم الأنبياء.

وزعم بعض أنَّ الشهيد عشرة أجزاء من الإنسان: الأذنان والعينان والرجـلان واليدان والجلد واللسان، فذلك شهيد على الإنسان من نفسه، ويردُّه المقابلة بقولـه تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾، وقوله تعـالى: ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ﴾ فالشهادة على الأمَّة لا علـى نفسـه، [قلـت:] ولعـلَّ قائلـه أراد الوعـظ لا حقيقة التفسير، **وكلُّ ما لا يجوز التفسير به لا يجوز ما يوهم أنَّه تفسير.**

١- رواه **البخاري** في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قولـه تعـالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً...﴾، رقم ٤٢١٧، عن أبي سعيد الخدري. بنفس المعنى مع اختلاف في اللفظ.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من التوحيد أو منه ومن الفروع، لأنَّ ما يقول النبيء ﷺ من الوحي وغيره وما يقول العلماء هو في القرآن والحديث، مثل: ﴿وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ (سورة الحشر: ٨) ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (سورة النجم: ٣) وقوله: «**عليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين**»[1]، أو من الدين والدنيا ولو تفاوت الناس في القرآن بِقُوَّةِ الفهم وضعفه، قال ابن عَبَّاس: لو ضاع لي بعير لوجدته في القرآن.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ عطف على ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً﴾ أو على ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ﴾ أو على ﴿أَخْرَجَكُمْ﴾ أو الواو للحال وصاحبها «نا» من «جئْنَا»، أو كاف «بِكَ» على تقدير: «ونحن نزَّلنا» أو «قد نزَّلنا»، وقد أجيز كون الماضي ولو متصرِّفا مثبتا مجرَّدا من «قد» حالا مع مرفوعه، والحال محكيَّة.

(أصول الدين) والزمان لا يجري على الله ومن قال بجريانه عليه اختلَّ توحيده، لأنَّه تعالى هو الخالق له قليلا قليلا.

والقرآن فيه بيان كلِّ شيء بتصريح أو فهم أو سنَّة أو قياس، وأمَّا الإجماع فمأخوذ من ذلك إلاَّ أنَّه بعد ذلك يخفى موضع استنباطه من ذلك، على غير المجمعين، والمراد كلُّ شيء مِمَّا يحتاج إليه من أمر الدين. و«لِلْمُسْلِمِينَ» نعت لـ﴿هُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ﴾، أو تنازعت فيه، فيقدَّر لفظ «لهم» لِمَا أهمل.

١- رواه **الترمذي** في كتاب العلم (١٦) باب ما جاء في الأخذ بالسُّنَّةِ واجتناب البدع، رقم ٢٦٧٦. **وأبو داود** في كتاب السنَّة باب لزوم السنَّة، رقم ٤٦٠٧. وأوَّل الحديث هو: «صلَّى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثمَّ أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب...». من حديث العرباض.

والهاء عائد إلى المسلمين. وخصَّ المسلمين لأنَّهم المنتفعون، أو لا تنازع ولكن المراد: هدى ورحمة لكلِّ أحد، كما قال ﷻ : ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ للعالَمين، و﴿بُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ خَاصَّةً، و﴿بُشْرَى﴾: بمعنى التبشير، اسم مصدر.

(صرف) والتبيان: التبيين البليغ، ولا يوجد تِفْعال بكسر التاء في المعاني المصدَريَّة إلاَّ " تبيان " و" تلقاء " بمعنى اللقاء، كما روى ثعلب عن الكوفيِّين، والمبرّد عن البصريِّين، وذكره الزجَّاج بلا حصر ـ وقيل له الزجَّاج لأنَّه كان ينحت الزجَّ وهو ما يثبَّت فيه أصل الرمح ـ وباقي المعاني المصدَرِيَّة كلُّها بالفتح كالتَّستار والتَّذكار والتَّكرار والتَّهدار والتَّلعاب، وغير المعاني المصدَرِيَّة بالكسر وصفا أو غيره، كالتِّمساح والتِّمثال وتِقصار لقلادة المرأة وتِعشار وتِبراك لموضعين، ورجل تكلام وتلقام وتلعاب، وناقة تضراب قريبة بضراب الفحل، وتمراد لبيت الحمام، وتلفاف لثوبين ملفوفين، وتجفاف لِمَا تجلَّل به الفرس، وتهواء لجزء ماض من الليل، وتنبال للقصير اللئيم، وتيفاق لموافقة الهلال.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ

اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

الدعوة إلى الإنصاف والإحسان والوفاء بالعهد والتحذير من الشرّ والإضلال

﴿إِنَّ اللهَ يَأمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ بترك الميل عن الحقّ، والميل: الجور، يقال: مال بمعنى جار.

(أصول الدين) ودين الله وسط لا إفراط ولا تفريط، **إمَّا اعتقادا** كالتوحيد بين نفي الله وإثباته مع الشركة، وكإثبات صفات الله، وإنّها هو بين نفيها وإثباتها مع اعتقاد أنَّها غيره يحتاج إليها، حاشاه عن الحاجة، وقد عاب على الأَشعَرِيَّة ابن العربي إذ قال: «لا فرق بين قول من يقول إنَّها غيره وقول من قال إنَّ الله فقير، إلاَّ تزيين اللفظ»، وكالقول بأنَّ فعل المخلوق كسب منه، وخلق من الله المتوسِّط بين دعوى أنَّه مجبر على عمله لا كسب له فيه، وبين دعوى أنَّه خالق له لا قدرة لله فيه.

وإمَّا عملا كأداء الواجب المتوسِّط بين البطالة والانقطاع بالكلّية إلى العمل، وقد قال ﷺ: «**لا رهبانيَّة في الإسلام**» وفي الهند قوم يتقرَّبون إلى الله بترك اللذَّات كلّها و[يتقرَّبون] إليه وإلى ملكهم بقتل أنفسهم بالنار، أو بالإلقاء من عال. **وإمَّا خُلُقا** كالجود بين البخل والتبذير، والشجاعة مع التحرُّز بين التهوُّر والجبن. ودخل في العدل الحكم بين الخصمين بالحقّ، وبين الأولاد والأزواج.

﴿وَالإِحْسَانِ﴾ نفل الطاعات، والمبالغة في تجويد الفرض، وفي الحديث: «**الإحسان أن تعبد الله كأنَّك تراه**» وقصر بعضهم الآية عليه للحديث، وقيل: العدل: التوحيد أو الإنصاف، والإحسان: أداء الفرائض، وذلك إحسان الإنسان إلى نفسه، وإلى غيره من الخلق.

ويجوز أن يكون الإحسان الإتيان بالأعمال حسنة صحيحة مجوَّدة، قال عيسى بن مريم: «الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، وليس أن تحسن إلى من أحسن إليك» كأنَّه يشير إلى أنَّ الإحسان إلى من أحسن إليك كالفرض.

وقيل: العدل أن ينصف من نفسه لغيره وينتصف لنفسه من غيره، والإحسان أن ينصف ولا ينتصف، وقيل: العدل في الفعل والإحسان في القول، وهو قول بعيد عن العدل والإنصاف، [قلت:] وعندي العدل أداء الواجب مطلقا والإحسان الزيادة عليه.

﴿وَإِيتَآءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ من جهة الأب أو الأمِّ ما يحتاج إليه وجوبا إن اضطرَّ إليه، وندبا إن لم يضطرَّ إليه، فهو داخل فيما مرَّ من فرض أو نفل، وخصَّه إيذانا بشرفه إذ فيه صدقة وصلة، وفي الحديث: «**أعجل الطاعة ثوابا صلة الرحم**»[1].

﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ﴾ الزنى وهو أقبح أحوال الإنسان، وقيل: ما ازداد قبحه من زنى أو غيره ﴿وَالْمُنكَرِ﴾ قيل: ما ينكر على فاعله من إنهاض القُوَّة الغضبيَّة، **وكلُّ فحشاء منكر، وكلُّ منكر فحشاء** وامتاز بالإنهاض المذكور، [قلت:] والواضح أنَّ المنكر ما حرَّمه الشرع، وقيل: ما وعد عليه النار، والفحشاء: ما اشتدَّ تحريمه فهو أعمُّ منها، وقيل: المنكر الشرك وهو مباين للبغي، فتحصَّل في الآية عطف الخاصِّ على العامِّ، وعطف العامِّ على الخاصِّ وعطف مباين ﴿وَالْبَغْيِ﴾ تطاول الإنسان بما ليس له على غيره في بدنه أو ماله أو عرضه، خصَّه بالذكر لمزيد عظمه.

١- أخرجه **العراقي** في كتابه المغني، ج٢، ص٢١٥. والشجري في الأمالي، ج٢، ص١٢٧، من حديث أبي هريرة.

﴿يَعِظُكُمْ﴾ بالأمر والنهي المذكورين، والجملة مستأنفة فتعمُّ ولو جعلت حالا من فاعل «يَأمُرُ» أو من فاعل «يَنْهَى» لكان قيدا له فقط، ولا وجه لكونه حالا من فاعلهما لاختلاف عاملهما، ولا حاجة إلى تقدير مثله لأحدهما ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتّعظون، قال ابن الأثير في المستدرك: **هذه أجمع آية في القرآن للخير والشرّ**، قال الحسن البصري: «أمرت بكلِّ خير ونهت عن كلِّ شرٍّ» قال ابن عَبَّاس ﷺ: إنّه قال عثمان بن مظعون ﷺ: «ما أسلمت أوّلا إلاّ حياء من رسول الله ﷺ، ولم يتقرَّر الإيمان في قلبي، فحضرته ذات يوم فبينما هو يحدِّثني إذ رأيت بصره شخص إلى السماء ثمَّ خفضه عن يمينه ثمَّ عاد لمثل ذلك، فسألته؟ فقال: " **بينما أحدِّثك إذ جبريل نزل عن يميني، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ...﴾** " فوقع الإيمان في قلبي» وقال: «إنَّ في هذه الآية لحلاوة وإنَّ في القرآن لطلاوة، وإنَّ أعلاه لمثمر وأسفله لمغدق ـ بغين معجمة ودال مهملة أي كثير الماء أسفله ـ وما هو بكلام البشر بل هو كلام خالق القوى والقدر».

وكان بنو أميَّة يلعنون عليًّا في المنابر، ولَمَّا تولّى عمر بن عبد العزيز قطع ذلك في كلِّ بلد، وجعل مكانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ...﴾ الآية فكان له على ذلك مدح عظيم وقبول، وهو حقٌّ لأنَّ اعتياد الشتم والإكثار منه ليس عبادة، [قلت:] ولا سيما ما كان **انتقاما وجهالة وبغيا** على المتقدِّم بالخلافة.

وأنا أتمنّى قطع ذلك من ورجلان إذ كان مؤذِّن المالكية يقول شتما لأصحابنا بتعريض وتورية بهم ليلة كلِّ جمعة: «من أبغض معاوية فأمُّه هاوية» مع أنَّ عليًّا ومعاوية متباغضان، ويقول: «من أبغض عليًّا فخصمه النبيء» وكلٌّ من معاوية وعثمان أبغضا عليًّا، وبغضهما علي، ويقول: «من أبغض عثمان فأمُّه النيران» وعليٌّ يبغضه.

(سيرة) بلغ أكتم بن صيفي أمره ﷺ فأرسل إليه رجلين فقالا له: من أنت وما جئت به؟ قال ﷺ : «**أنا محمَّد بن عبد ا لله عبد ا لله ورسوله**» وتلا ﴿إِنَّ ا للهَ يَأمُرُ بِالْعَدْلِ...﴾ قالا: ردِّد علينا، فردَّده حتَّى حفظاه، فأخبرا به أكتم، فقال: إنِّي أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن مذامِّها فكونا في هذا الأمر رأسا لا أذنابا. رواه أبو نعيم عن عبد الملك بن عمير.

(أصول الفقه) وفعل الأمر ولام الأمر، واسم فعل الأمر، والمصدر النائب عنه، الأصل فيهنَّ الوجوب، وأمَّا لفظ أمر ويأمر ومُر والأمر فموضوع للقدر المشترك بين الوجوب والندب.

ولو لم يكن في القرآن إلاَّ هذه الآية لصدق عليه أنَّه تبيان لكلِّ شيء وهدى ورحمة للعالمين، ولعلَّ ا لله نبَّه على هذا بإيرادها عقب قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾.

وبعد الإجمال في الأمر والنهي فصَّل بعضا في قوله تبارك وتعالى: ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ا للهِ**﴾ بالعهد الذي عاهدتم ا لله ﴿**إِذَا عَاهَدْتُمْ**﴾ شامل للطاعة والمباح في الوعد والنذر بأيِّ لفظ، وشمل بيعة الإمام اعتبارا بما بعد، فإنَّ الآية مكِّية، وإنَّما البيعة بالمدينة، ولا يلزم من وجوب الوفاء بالشيء إذا كان أن يكون جائز الوقوع في الحال، ألا ترى إلى قوله ﴿إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ ؟

ودخلت فيه بيعة الأنصار ﷺ الأولى والثانية والثالثة، ودخل فيه كلُّ ما قبلوه عنه ﷺ ، وحِلف الجاهِلِيَّة قال ﷺ : «**كلُّ حلف في الجاهِلِيَّة لم يزده الإسلام إلاَّ شدَّة**»[1] وكانوا يتحالفون على التناصر فيبقى في الإسلام على

١- رواه أبو يعلى في مسنده: ج٣، ص١٠، رقم٢٣٣٢، وابن حبان في صحيحه: ج٦، ص٢٥١، رقم٤٣٥٦ و٤٣٥٧، من حديث جبير بن مطعم. ورواه الطبراني في الكبير: =

الوجه الشرعيِّ، ونسخ الإرث به[١].

والآية نزلت في بيعته وهي على العموم، وخصوص السبب لا ينقض عموم اللفظ، ﴿**وَلاَ تَنقُضُواْ الاَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا**﴾ ليس التوكيد قيدا فلا تنقض [الإيمان] ولو لم تؤكَّد، ولكن نزلت الآية وهم يؤكِّدونها فكانت على ما هم عليه، [قلت:] وتوكيدها يكون بتكرير أسماء الله أو صفاته، مثل: والله العزيز، وقدرة الله وعزَّته وأفعاله عندي[٢]، أو أرد بتوكيدها أنَّها بالله أو صفته أو فعله، وأنَّها في طاعة أو مباح، وأنَّها بقصد لا بغلط أو نسيان أو توهُّم أو لغو، كقولهم: لا والله وبلى والله.

(فقه) ولا شيء على من حلف على ما توهَّم، فلا عليه، أو على معصية ويجب النقض فيها، ويستحبُّ فيما إذا رأى ما هو أفضل قال ﷺ: «**من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير، وليكفِّر عن يمينه**»[٣] فالآية عَامَّة خصَّصتها السنَّة، وتجب المحافظة على الوفاء باليمين، وإن نقضها وكفَّر فقد أساء، لأنَّ ذلك كالتهاون، قال الله ﷻ: ﴿**وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ**﴾ (سورة المائدة: ٨٩) وعموم آية السورة حجَّة أيضا، والتوكيد والتأكيد ـ بالواو وبالهمز ـ لغتان، وقيل: الهمز بدل منها.

﴿**وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً**﴾ ضامنا بالوفاء، أو شاهدا أو رقيبا،

ج١١، ص٢٢٤، رقم١١٧٤٠، من حديث ابن عَبَّاس.

١- الضمير يعود إلى التناصر، أي نسخ الإرث بالتحالف والتناصر بآية الميراث.

٢- يعني أنَّ توكيد اليمين يكون حتَّى بذكر صفاته تعالى الفِعلِيَّة فيما اختاره الشيخ.

٣- رواه **ابن حبَّان** في صحيحه: ج٦، ص٢٧٣، رقم٤٣٣٢، **والطبراني** في الكبير: ج١٧، ص٩٧، رقم٢٣٢، من حديث عديٍّ بن حاتم.

وذلك استعارة أو مجاز مرسل لعلاقة اللزوم، وكذا الجعل، ويجوز إبقاء «كَفِيلاً» على ظاهره تمثيلا لعدم تخلُّصهم من عقوبته، وأنَّه يسلمهم لها، كما يسلِّم الكفيل من كفله. والجملة حال من واو «تَنقُضُوا». وقد يراد بالعهد ما ذكر كلُّه والأيمان، وخصَّها بالذكر بعد، ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من إيفاء ونقض وسائر أعمالكم، أو من جعلكم الله عليكم كفيلا، وذلك تهديد، وتحضيض على الوفاء وعدم النقض.

﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ﴾ فكَّت ﴿غَزْلَهَا﴾ مغزولها ﴿مِن بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ شدَّة المغزول وإتقانه ﴿اَنكَاثًا﴾ أقساما منكوثة، حال مقارنة أو مفعول مطلق بمعنى نقضات، أو مفعول ثان لتضمُّن «نَقَضَتْ» معنى صيَّرت.

امرأة حمقاء من قريش، اسمها ريطة بنت سعد بن تيم، اتَّخذت مغزلا قدر ذراع، وصنَّارة مثل الإصبع، وفلكة عظيمة، على قدر ذلك، تغزل هي وجواريها من الغداة إلى الظهر، ثمَّ تأمرهنَّ فينقضن ما غزلن، وقيل: امرأة اسمها ريطة بنت عمرو المرِّية تلقَّب الحفراء، وكلتاهما تسمَّى خرقاء مكَّة.

وأخرج ابن حاتم عن أبي بكر بن حفص أنَّ سعيدة الأسدية مجنونة تجمع الشعر والليف، فنزلت الآية، وذكر ابن مردويه عن ابن عطاء أنَّها شكت جنونها إلى رسول الله ﷺ ، فقال: «**إن شئت دعوت الله يعافك، وإن شئت صبرت تدخلي الجنَّة**» فاختارت الصبر والجنة، وذكر عطاء أنَّ ابن عبَّاس أراه إيَّاها.

وقيل: ليس الآية في امرأة مخصوصة بل مطلق من تفعل ذلك ومن ذلك نساء نجد تنقض إحداهنَّ غزلها وتنفشه فتغزله بالصوف، وجملة قوله: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاَ بَيْنَكُمْ﴾ خبر ثان لـ«تَكُونَ» أو حال من اسمه، أو من المستتر في «كَالَّتِي»، ولا حاجة إلى تقدير: «أتتَّخذون» بالاستفهام الإنكاريِّ على الاستئناف، وأيضا يصحُّ الإنكار بلا همزة كما تعيب على أحد وتذمُّه بذكر

فعله الخسيس.

و﴿دَخَلاً﴾ فسادا وغشًّا في مخالفتكم أن تحالفوا قوما، فإذا رأيتم أعـزَّ منهـم أو أكثر نقضتم المحالفة، وحالفتم الأعزَّ والأكثر ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أكثر من أمَّة أي بأن تكون أو لا تكون، متعلّق بـ«تَـتَّخِذُونَ» أو يقـدَّر: مخافة أن تكونوا، أو طمع أن تكـون، وأمَّـا [التقديـر] بـأن تنقضوهـا لأن تكـون فيضعف، لمزيد الحذف، فلا يقدَّر القرآن به.

والمعنى: بأن تحالفوا الأمَّة الأكثرين عددا ومـالا أو عـزًّا، وتغـدروا بـالأولى، وإنَّما **يقِرُّهم ا لله على المحالفة التي في المحافظـة على الحقـوق.** و«هِيَ» ضمـير فصل، ولو كان اسمها نكرة، هذا مذهب الكوفيِّين ويجوز كونها بلا خبر.

﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ﴾ يختبركم ﴿ا للهُ﴾ ويكلّفكم ﴿بِهِ﴾ بالإيفاء بالعهد أو بالأمر بالإيفاء، أو بكون الأمَّة أربى، أو بالرُّبُـوِّ، واختار بعضهم عـوده إلى الكون المذكور.

والمعنى: يَخْـتَبِرُكُم أتبقون أَيُّهَا المؤمنون على بيعـة الرسـول وعلـى مـا أنتـم عليه أو تنقضون ؟ وذلك لكثرة قريش وقلّة المؤمنين كعادة قريش في الجـاهِلِـيَّة، ينقضون الحلف إذا رأوا كثرة وعزَّة في آخرين ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَـا كُنتُمْ فِيهِ تَخْـتَلِفُونَ﴾ مـن التصديـق والتكذيـب، والبقـاء علـى العهـد ونقضـه، فيُجازيكم على ذلك.

﴿وَلَوْ شَآءَ ا للهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على الإسلام بالإجبار.

[قلت:] وليس الإجبار حكمة إذ لا يمدح المجبر ولا يـذمُّ ولا يستحقُّ ثوابا ولا عقابا، أو لو شاء ا لله لجعلكم على الإسلام باختياركم ﴿وَلَكِـن يُضِـلُّ مَن يَشَآءُ﴾ بالخذلان عن الهدى، لاختيار الضلال بالكسـب الاختيـاري ﴿وَيَهْـدِي

مَن يَشَآءُ﴾ بالتوفيق إليه لاختيار المهتدي.

(أصول الدين) وكلا الاختيارين مخلوق لله سبحانه وتعالى، ومع خلقه لا إجبار، هذا مذهبنا، فللعبد قدرة مؤثِّرة بإذن الله عز وجل مخلوقة له تعالى، وشهر عن الأَشعَرِيَّة أنَّ له قدرة مقارنة غير مؤثِّرة، وزعمت المعتزلة أنَّ له قدرة مؤثِّرة مستقلَّة عن الله، ولا تحتاج إلى إذنه، قبَّحهم الله عز وجل، وزعمت المجبرة لعنهم الله أنَّ العبد مجبر.

[قلت:] والذي حفظت من قبل أنَّ مذهب الأَشعَرِيَّة مذهبنا وهم أهل المذاهب الأربعة ولعلَّ من نسب إليهم ما ذكرتُه قبلَ هذا عنهم أراد بهم قوما يعمُّهم من فوقهم، ولا واجب على الله عز وجل، وتوفيقه لمن يشاء فضل وإحسان، وقدَّم الإضلال لأنَّ أهله أكثر.

﴿وَلَتُسْأَلُنَّ﴾ يوم القيامة ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سؤال تبكيت وتوبيخ، والسؤال المنفيُّ في مثل قوله: ﴿وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (سورة القصص: ٧٨) ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ﴾ (سورة الرحمن: ٣٩) للاستفهام الحقيقيِّ، لأنَّ الله لا يخفى عنه شيء، أو المنفيُّ عند الخروج من القبور والمثبت في الموقف، أو كلٌّ فيه، يسألون في موقف دون آخر سؤالا غير حقيق على كلِّ حال.

﴿وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ ليس تأكيدا لقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ لأنَّ الأوَّل عاب الله به عليهم عيبا والثاني تصريح بما تضمَّنه العيب، فلو قلت: «أنت تسرق لاَ تَسْرِقْ» لكان الثاني نهيا عمَّا عابه من السرقة لا تأكيدا له، والعيب بالشيء يتضمَّن النهي عنه، فإذا نهيت بعد العيب فقد صرَّحت بالمضمون، وأيضا الثاني على العموم في البيعة والمال وسائر الحقوق

وغير ذلك، والأوَّل في ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ ودعوى أنَّه الثاني غَفْلَةٌ، ووجه تسمية بعضٍ له تأكيدا أنَّه يؤخذ من الأوَّل، ومع أخذه منه صرَّح به، ولا يعارض ذلك بقوله تعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ﴾ إذ لا مانع من أن يقال: فتزلَّ عَمَّا كان عليه قبل من الوفاء بالبيعة وسائر حقوق الإسلام.

[قلت:] وليس صوابا أن تقول العامُّ بعد الخاصِّ تكرير إلاَّ بمعنى أنَّ الخاصَّ في ضمن العامِّ، وكذا في العكس، ومَن نفى التكرير أراد أنَّه ليس أحدهما عين الآخر.

﴿فَتَزِلَّ﴾ عن الإسلام أو عنه وعن سائر حقوقه، كما مرَّ آنفا ﴿قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ عليه، وأفرد القدم باعتبار كلِّ فرد في قوله: ﴿لاَ تَتَّخِذُواْ﴾ كأنَّه قيل: لا تتَّخذ يا زيد يمينك دخلا مع صاحبك فتزلَّ قدمك، ولا تتَّخذ يا عمرو...الخ، وهكذا، أو يقدَّر: «فتزلَّ كلُّ قدم منكم»، وذلك أولى من دعوى استعمال النكرة على العموم الاستغراقي في الإثبات.

وأمَّا ما قيل: إنَّه أفرد تلويحا بأنَّ زلَّة قدم واحدة أمر عظيم كيف أقدام كثيرة، فإنَّما أفاد نكتة وعظية لا قاعدة عَرَبِيَّة، [قلت:] ولا يقبل في التفسير ما لم يكن على القاعدة العَرَبِيَّة، إذ لا يلزم أنَّ الزالَّ قدم واحدة حتَّى يبنى عليه أن يقال فكيف أقدام؟ بل المقام لزلل القدم، هكذا أفردت أو عمَّت.

﴿وَتَذُوقُواْ السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ تنالوا بأعراضكم عن سبيل الله أو بمنعكم غيركم عنه العذاب في الدنيا بالقتل وما دونه، وذلك بألسنتكم وبفعلكم، فإنَّه من نقض البيعة وارتدَّ جعل ذلك سنَّة لغيره، وذلك منع بالفعل، وإذا قال لغيره: انقضها فذلك صدٌّ بلسانه، وأمَّا عذابُ الآخرة ففي قوله: ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

﴿وَلاَ تَشْتَرُواْ﴾ لا تستبدلوا ﴿بِعَهْدِ اللهِ﴾ شامل لبيعة رسوله ﷺ، والباء

داخلة على ما يتركونه ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ بدلا هو قليل، ولو كان هو الدنيا كلُّها فكيف ثياب ودريهمات وهنوات؟ يعدُّها قريش لمن يرتدُّ من الضعفاء، وقيل: الآية تعمُّ ذلك وتعمُّ أخذ الرشوة في الحكم، وشهادة الزور وكتمها، وأخذ المال بغير حلٍّ وكلَّ أكل بالدين.

﴿إِنَّمَا عِندَ اللّهِ﴾ من العزِّ الدنيويِّ والنصر والغنائم والجنَّة في الآخرة ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾ لدوامه وعظمه ﴿لَّكُم﴾ مِمَّا في الدنيا من جهتهم، لانقطاعه وحقارته ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم من أهل التمييز يظهر لكم خيرته، أو إن كنتم تعلمون فلا تنقضوا.

﴿مَا عِندَكُمْ﴾ من الدنيا ولو مِمَّا حلَّ لكم ﴿يَنفَدُ﴾ ينقضي ﴿وَمَا عِندَ اللّهِ﴾ في الآخرة من الجنَّة لمن لم ينقض ﴿بَاقٍ﴾ لا ينقضي، ومن الجائز أن يقال: ما عند الله باق وشامل لاستمرار الغنائم والفتوحات، وما يتأهَّل له بالإسلام، وأيضا يتَّصل نعم الدنيا الإِسلاَمِيَّة بنعم الآخرة التي تدوم، فذلك دوام.

أو ما عند الله في الموضعين نعم الآخرة، أخبرنا سبحانه أنَّها خير من الدنيا، وأنَّها باقية، ولا تكرارَ بهذا، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على الوفاء وعدم النقض والفقر وإيذاء الكُفَّار ومشاقِّ التكليف، وعن اللذَّات وعلى المصايب ﴿أَجْرَهُم﴾ على ذلك، مفعول ثان ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ متعلّق بـ«أَجْرَهُمْ». و«نَجْزِي»: بمعنى نعطي، أي نعطيهم الإثابة بحسن ما كانوا يعملون. و«أَحْسَنَ» خارج عن التفضيل بمعنى حسن، متحرَّز به عن القبيح من أعمالهم. و«مَا» مَصدَرِيَّة أو اسم، أو «أَجْرَهُمْ» مفعول مطلق لـ«نَجْزِي»،

والباء متعلّق بـ«نَجْزِي»، أي ولنجزينّهم الجزاء المتأهِّلين له، والمراد: ثواب عملهم الحسن، وهو الفرض والنفل والمباح الذي قصدوا به العبادة.

أو «أحسن» باق على التفضيل، بمعنى أنَّه إذا صلُّوا قعودا أو مضطجعين لعذر متيمِّمين كتبنا لهم الصلاة بوضوء وطهارة كاملة في القيام وما أشبه ذلك، وأمَّا ما قيل من أنَّ المعنى: بجزاء أحسن من أعمالهم فلا يصحُّ، لأنَّ فيه إضافة اسم التفضيل إلى ما لا يشمله، لا تقول: يوسف أحسن إخوته لأنَّ إخوته لا تشمله، وتقول: يوسف أحسن أولاد يعقوب لأنَّ أولاد يعقوب يشمل يوسف، وذلك أنَّه فُسِّر «أَحْسَنَ» بالثواب.

ولو فسِّر بالعمل لجاز لأنَّه يشمله، فيجوز أن يقدَّر: ولنجزينّهم بالعمل الأعلى على العمل الأدنى، مثل أن يجازيهم بالفرض على النفل يعطيه على النفل ثواب الفرض. ومن الأحسنيَّة أن الحسنة بعشرٍ فصاعدا، أو «أحسن ما كانوا يعملون»: الصبر، وهو من أعمال القلب وهو من جملة الأعمال **وهو أحسنها** لأنَّ جميع التكاليف محتاجة إليه فهو رأسها.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

أجمع آية في الترغيب للعمل الصالح

﴿مَنْ عَمَلَ صَالِحًا﴾ عملا صالحا من فرض أو نفل ودخل فيه ترك ما نهي عنه **﴿مِن ذَكَرٍ اَوُ انثى﴾** والخنثى ذكرٌ عند الله أو أنثى، أو اقتصر على الغالب، وفي ذكر الذكر والأنثى ترغيب لها ودفع لتوهُّم أن لا ثواب لها، كما

روي: «**إنَّ النساء اشتكين أنَّهنَّ لا يذكرن في الخير**»[1] فأوحى ا لله إليـه ﷺ: إنَّهنَّ مشتركات مع الرجال فيما عملوا لإعانتهم بالقيام بالبيت ومصالح الرجـل، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْـلِمَاتِ...﴾ (سورة الأحزاب: ٣٥) ، ومثل قوله:﴿مِن ذَكَرٍ اَوُ انثى﴾.

(أصول الدين) ﴿**وَهُوَ مُومِنٌ**﴾ موحِّد غـير مصرٍّ على ذنـب، إذ لا ثـواب للمشـرك ولا للمصـرٍّ، لأنَّ الإحبـاط مراعـىً كالإحبـاط بـالمنِّ والأذى، وكقول عائشـة: «قـل لفـلان إنَّـه أحبـط عملـه مـع رسـول ا لله ﷺ لبيـع ربـا بتذرع» كما ذكره الشيخ عامر في الإيضاح[2].

واختلف في المشرك هل ينقص عذابه في النار بحسناته في الدنيا؟ الصحيح لا، ونسب للجمهور، وكثرت أدلَّته فإن صحَّ عنه ﷺ أنَّ أبا طالب في ضحضاح من نار إلى كعبيه فقط، والتخفيف عن أبي لهب في كلِّ اثنين فمن خصوصياتـه ﷺ، وأعظم من هذا ما ذكروا: أنَّه يسقى أبو لهب في مثل نقرة الإبهـام، وقولـه تعـالى: ﴿فَمَنْ يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَـيْرًا يَـرَهُۥ﴾ (سورة الزلزلة: ٧) خـاصٌّ بالسعداء ومـا بعـده بالأشقياء، وأمَّا دفع السوء في الدنيا بما عمل من خير فواقع لا يختلف فيه.

﴿**فَلَنُحْيِـيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّـبَةً**﴾ في الدنيا بالقناعـة والـرزق الحـلال، موسـرا أو متوسِّطا أو معسرٍ، وإراحة القلب عن الجزع، والحـرص وعـدم القلـق إذ صـدَّق بأنَّ ا لله ﷻ ضمن رزقه ولو يوما بيوم، ورضي بقسم ا لله وانتظر أجر الآخرة، وإذا جاءه سوء لم يشتدَّ عليه ما يشتدُّ على الكافر لأنَّه قد يتوقَّعه، فلـم يجئـه مـن حيث يتوقَّع الخير، بخلاف الكافر فإنَّه ما يتوقَّع السوء فإذا جاء جاءه مـن حيـث

---

١ - روى **أحمد** في مسنده رقم: ٢٥٣٨٩ في مسند الأنصار ما يؤيِّده معنىً.

٢ - الشيخ عامر بن علي الشَّمَّاخي: الإيضاح، ج٥، ص٤٥، (طبعة عمان).

يتوقَّع الخير فيزيد شدَّة في قلبه، **والمشرك والفاسق في تعب القلب أو مع البدن، ـ ولو في إيسارٍ ـ خوفَ النقص.**

وقيل: الحياة الطَّيِّبة لذَّة الطاعة، وقيل: في القبر لأنَّه يستريح من أذى الدنيا، فعنه ﷺ : «**القبر روضة من رياض الجنَّة أو حفرة من حفر النار**»[1] وقيل: الحياة الطيِّبة الحياة بالحلال، لأنَّه لا يترتَّب عليها عقاب بخلاف الحياة بالحرام، كما جاء: «**كلُّ لحم نبت من سحت فالنار أولى به**»[2]، وفيه أنَّ المقام ليس لهذا، وقيل: في الجنَّة لزوال الأذى فيها البتَّة.

[قلت:] والصحيح أنَّ ذلك في الدنيا أو في البرزخ يأكل من ثمار الجنَّة عند باب الجنَّة، وإن كان شهيدا ففيها حتَّى تقوم الساعة، ويموت كلُّ شيء إلاَّ الله فلا أكل، وأمَّا الآخرة ففي قوله: ﴿**وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَاكَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ وإن فسِّرت بالآخرة فقوله: ﴿لَنَجْزِيَنَّهُم﴾ فيها أيضا بيان لكون مراتبها بقدر الأعمال، وليس فيها عطف الشيء على نفسه، ولا تكرير بين قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا...﴾ وقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الذِينَ صَبَرُواْ﴾ (سورة النحل: ٩٦) لأنَّ الآخرة على العموم، والأولى في حقِّ من عاهد رسول الله ﷺ .

١- أورده **الزبيدي** في الإتحاف: ج١، ص٣٨٠. **والهندي** في الكنز: الكتاب الرابع من حرف الميم من قسم الأقوال، كتاب الموت وأحوال تقع بهذه، الفصل السادس في الدفن، (الإكمال: ج١٥، ص٦٠٣، رقم٤٢٣٩٧) وقال: رواه البيهقي في كتاب عذاب القبر عن ابن عمر. **والمنذري** في الترغيب في ذكر الموت، ج٤، ص٢٣٨، رقم٤.

٢- رواه **الطبراني** في الكبير: ج١٩، ص١٠٥، رقم٢١٢، في حديث طويل وأوَّله قوله: عن كعب بن عجرة قال: قال رسول الله ﷺ : «أعيذك بالله من أمراء يكونون بعدي، فمن غشي أبوابهم وصدَّقهم في كذبهم وأعانهم على جورهم فليس مِنِّي ولست منه...». وفي الصغير أيضا: ج١ ص٢٢٥. من حديث كعب بن عجرة الأنصاري.

وإن جعلنا الأولى على العموم أيضا فهذه إشارة إلى جلب المصالح، أو الأولى على الصبر وهذه على ما هو أعمُّ، أو الأولى في الدنيا وهذه في الآخرة.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُومِنُونَ بِـَٔايَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُومِنُونَ بِـَٔايَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

الأمر بالاستعاذة من الشيطان، وإثبات النسخ، وعربيّة القرآن

ولَمَّا ذكر الله عز وجل أنه يجازي على الصالحات ذكر ما يخلص به العمل عن الفساد وهو الاستعاذة، فقال حفظا عنه ودفعا للوسوسة في القراءة:

﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ**﴾ أردت قراءة القرآن، فالاستعاذة قبل القراءة، أطلق المسبَّب وهو القراءة على السبب وهو الإرادة، أو إذا شارفت قراءة القرآن، فأطلق لفظ أحد المتجاورين على الآخر، ففي الآية على الوجهين مجاز مرسل تبعي.

وقالت الظاهرية: بعد القراءة، للفظ الآية، ولا يقدِّرون الإرادة وهو **خطأ فاحش**، ونسب لأبى هريرة وابن سيرين مالك والنخعي وحمزة القارئ وداود الأصبهاني الذي إليه تنسب الظاهرية، فعن نافع عن جبير بن مطعم أنَّ النبيء

ﷺ كان يقول قبل القراءة: «**أعوذ با لله من الشيطان الرجيم**» والحديث يفسِّر القرآن وبالعكس، وهو رواية عن ابن سيرين، وزعم بعض أنَّه يستعاذ قبل القراءة وبعدها احتياطا وهو **مخالف للسنَّة**.

(فقه) ويستعاذ للقراءة في الصلاة وغيرها وجوبا على الصحيح، لأنَّ الأمر للوجوب، وقيل: استحبابا ونسبه قومنا للجمهور، ويستعاذ قبل القراءة في الركعة الأولى فقط عندنا وعند الحَنَفِيَّة، قال الشافعي: أوَّل كلِّ ركعة، لأنَّ القراءة قد فصلت بالتكبير وما بعده ثمَّ رجع آخرا إلى أنها أوَّل الركعة الأولى فقط، وهو بعد تكبيرة الإحرام لا قبلها، لأنَّها للقراءة.

وروي أنه ﷺ إذا أتمَّ التوجيه قال: «**أعوذ با لله السميع العليم من الشيطان الرجيم**» ولعلَّه بذلك أخذ من يستعيذ قبل الإحرام.

[قلت:] ولا يحسن ذلك لأنَّه ﷺ رجع إلى أن لا يقال: أعوذ با لله السميع العليم...إلخ بل أعوذ با لله من الشيطان الرجيم، وإلى أنَّه بعد الإحرام.

وعن ابن سيرين تجزي الاستعاذة في العمر مرَّة واحدة في الصلاة أو غيرها، ويردُّه أنَّها معلَّقة بالقراءة كالغسل من كلِّ جنابة، إذا قال ا لله ﷻ : ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ﴾ (سورة المائدة: ٦) وكأنَّه قيل: كلَّما أردت القراءة فاستعذ.

(فقه) وأجمع القرَّاء وجمهور الفقهاء على أنَّ الاستعاذة قبل القراءة، وجاء الحديث على ذلك، ومرَّ حديث نافع، وعن معقل بن يسار أنَّه قال ﷺ : «**من قال حين يصبح ثلاث مرَّات: أعوذ با لله من الشيطان الرجيم، بِسْمِ ا للهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر،**

وكَّل ا لله به سبعين ألف ملك يصلُّون عليه حتَّى يمسي»[١] وفي الحديث قراءة البسملة داخل السورة، ومنعه أصحابه[٢].

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ قال ابن مسعود ﷺ: قلت عند رسول ا لله ﷺ: «أعوذ با لله السميع العليم من الشيطان الرجيم» فقال: «**قل أعوذ با لله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرأنيه جبريل عن القلم عن اللوح المحفوظ**»، والمتبادر أنَّه أراد القلم الذي أمره ا لله بالكتابة فكتب، ولا يضرُّنا في ذلك أنَّه متقدِّم في الرتبة عن اللوح، ومعنى رواية جبريل عن القلم أنَّه ثبت عن القلم، وإلاَّ فالقلم متقدِّم ساكت، وقيل: المراد القلم الذي ينسخ به جبريل من اللوح.

والمراد بالشيطان إبليس لأنَّه الذي سنَّ كلَّ شرٍّ، فالمراد الاستعاذة من شروره، ولو جرت على يد غيره، وقيل: إبليس وأعوانه ولو آدميِّين.

(فقه) وأخذ من الآية أنَّ الاستعاذة واجبة، وأنَّها للقرآن وأنَّه توصل به، وأنَّها بعد الإحرام للصلاة متَّصلة بالقرآن وغير مفصولة بالتكبير، ومن لم يطق الإعجام فهو معذور في ترك الإعجام كما يعذر في لفظ من الفاتحة أو غيرها لا يطيقه، وما في كتب الفقه من الأقوال معروف. ويعتقد أنَّ المعنى الاعتصام با لله تعالى.

١- رواه **الترمذي** في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في من قرأ حرفا من القرآن، رقم ٢٩٢٢. ورواه **أحمد** في كتاب مسند البصريين، رقم ١٩٤١٩. ورواه **الدرامي** في كتاب فضائل القرآن، باب في فضل حم الدخان والحواميم والمسبِّحات، رقم ٣٢٩١. من حديث معقل بن يسار.

٢- أي أصحاب الحديث.

﴿إِنَّهُ﴾ أي الشيطان لا الشأن ولو كان أقوى، إذ لا دليل له ﴿لَيْسَ لَهُ, سُلْطَانٌ عَلَى الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تسلُّط واستيلاء بالإجبار، وإنَّما شأنه والعياذ با لله ﷻ منه الوسوسة بالسوء، وقيل: ليس له سلطنة على عمل حتّى لا تقبل التوبة منه، والجملة تعليل جملي ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لا على غيره ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ عطف المضارعيَّة الحاليَّة التجديديَّة على الماضويَّة الراسخة، والآية دفع لتوهُّم من يتوهَّمُ أنَّ له استلاء على أولياء ا لله إذ أمر بالاستعاذة منه، بل إذا عصوا سارعوا نادمين.

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ,﴾ قدرته المؤثِّرة بقدرة ا لله ﷻ ﴿عَلَى الذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ يهملون أنفسهم إليه ولا يأخذون حذرهم منه، ولا يتوقّون منه إهلاكا، كأنّه وليُّهم الذي يحبُّونه.

[قلت:] ولا أظنُّ أحدا يحبُّ الشيطان إلاَّ على جهة المتابعة والتمثيل إلاَّ من يتكلّم له من جوف الصنم فيعدُّه حبيبا.

وقدَّم تولّيه على الإشراك لأنّه قوبل به ما اتَّصَلَ به قبله، وهو التوكُّل على ا لله، ولأنَّ الإشراك متولّد من تولّيه متأخّر عنه، كما أنَّ التوكُّل على ا لله مرتَّب على الإيمان به، والماضويَّة في «ءَامَنُوا» لتحقُّق الوقوع، والمضارعيَّة في «يَتَوَكَّلُونَ» و«يَتوَلَّوْنَ» للتجدُّد، والاسميَّة في قوله ﷻ : ﴿وَالذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ للثبات، وهذا تخصيص بعد تعميم فإنَّ المتولّين له أعمُّ من المشركين به.

وهذا أولى من جعل ذلك عطف صفة على أخرى هكذا: إنَّما سلطانه على الجامعين بين تولّيه والإشراك به. والهاء في «بِهِ» عائدة إلى الشيطان، أي وقعوا في الشرك بالشيطان، أو إلى ا لله أي أشركوا الشيطان با لله في الأُلوهِيَّة.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ بنسخ حكم الأولى أو لفظها، أو حكمها ولفظها **﴿وَا للهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾** مقتضى الظاهر: ونحن نعلم بما ننزِّل، ولم يعبِّر بذلك لتفخيم الأمر بلفظ الجلالة، والجملة معترضة أولى من أن تكون حالا.

(نحو) [قلت:] إلاَّ أنَّ التحقيق عندي أنَّ المعترضة المقرونة بالواو معطوفة على الجملة التي هي في وسطها ولو كان المعطوف لا يتقدَّم على المعطوف عليه، إذ لو جعلنا الواو اعتراضية لكانت كحرف الهجاء لا معنى لها، وكذا إذا قلَّدتم في واو الاستئناف، وجعل الواو اعتراضية أو استئنافية خطأ، بل تجعل الواو عاطفة أو حالية وساغ عطف الجملة المعترضة على الجملة التي هي في داخلها قبل تمامها، مثل: "إن قام ويقعدا أخواك"، بعطف "يقعدا" على "قام أخواك" قبل تمامه، ولا يصحُّ ما قيل إنَّ المعطوف عليه "قام" وحده إذ لا تعطف الجملة على فعل وحده.

﴿قَالُواْ إِنَّمَآ أَنتَ﴾ يا محمَّد **﴿مُفْتَرٍ﴾** كاذب على ا لله، إذ لو كان القرآن من ا لله لم يأمرك بترك شيء بعد الأمر به، أو بفعل شيء بعد النهي عنه **﴿بَلَ اَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾** ليسوا من أهل العلم، أو لا يعلمون حكمة النسخ، وهي أن يعملوا بشيء إلى وقت معلوم عنده فيأمرهم بخلافه في ذلك لصلاحه، كما يأمرون عبيدهم ومن تحت أيديهم وعندهم أنَّه إذا كان كذا أمر وهمَّ بخلافه، إلاَّ أنَّهم يجهلون، وا لله لا يجهل ولهم بداوة وا لله لا بداوة له.

[قلت:] والطبيب الماهر يأمر أحدا بشيء ثمَّ ينهاه عنه ويأمر بضدِّه، **وكذلك أمر الديانة طبٌّ لأهلها** فتختلف باختلاف الأسباب لأوقاتها، ولِمَا شاء ا لله من الحكم.

(سبب النزول) قال ابن عبَّاس رضي الله عنه : «كان المشركون إذا نزلت آية فيها شدَّة، ثمَّ نزلت أخرى تنسخها إلى أخفَّ منها تخفيفا عليهم، أو إلى غير أخفَّ لمصلحة، قالوا: إنَّ محمَّدًا يسخر بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا، إنَّما هو مفتر يتقوَّله من تلقاء نفسه، فأنزل ا لله عز وجل : ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَا للهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ بَلَ اَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾».

﴿**قُلْ نَزَّلَهُ**﴾ ردَّ الضمير للقرآن لدلالة قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً...﴾ عليه ﴿**رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ**﴾ من التنازع كما مرَّ، أو يختصُّ «بُشْرَى» به، قل يا محمَّد لهم: نزل القرآن بالتدريج بحسب الحكمة والمصالح، كما هو مقتضى التشديد للزاي، إذ لم يقل: «أنزل» بالهمزة والتخفيف، وكلاهما مستعمل في شأن القرآن.

والروح: جبريل الذي هو في إحياء القلوب بالوحي كالروح للجسد، و﴿القُدُس﴾: الطهارة من إضافة الموصوف إلى صفته المعنويَّة اللغويَّة لا الاصطلاحيَّة، كما تقول: حاتم الجود، وسبحان الفصاحة، وزيد النصر، وإله القدرة، والاصطلاحيَّة: حاتم الجواد، وزيد المنصور، بأن تجعل القدس اسما لجبريل مبالغةً، فتضيفه إليه.

وأضيف للطهر لأنَّه يجيء بما هو طهارة للنفوس، وهو القرآن والحكم والفيض الإلهي، أو لطهره من أدناس الشرِّ، ومقتضى الظاهر: «من ربِّي»، لأنَّه صلى الله عليه وسلم إذا أدَّى إليهم يقول: «**نزَّل روح القدس عليَّ من ربِّي**».

وفي ترك خطابهم حطٌّ لقدرهم، ولكن جاء بالكاف لتربية الإجلال والمخافة في قلبه صلى الله عليه وسلم ، وإذا أصاب المؤمن فتور أو ملل أو ارتياب مَّا أو حادث زال بما ينزل، أو لم يصابوا بذلك لكن يزدادون به قُوَّة، وهذا

النسخ الذي هو ريبة للكفار حجَّة للمؤمنين يزدادون به رسوخا لتدرُّبهم، وتدبُّرهم في الناسخ والمنسوخ.

(نحو) و «هُدًى» و«بُشْرَى» مجروران عطفا على مجرور اللام، أي لتثبيت الذين آمنوا، ولهدى وبشرى، قيل: ويجوز النصب على التعليل لجواز: "أعطيت زيدا لحبِّي له وإكراما"، والجرُّ أولى، وهذا النصب ما هو إلاَّ كعطف التوهُّم، وهو عطف على المعنى، نحو: «زرتك لأحدِّثك وإجلالا لك» تتوهَّم أنَّك قلت: زرتك تحديثا لك، وأيضا لو قيل نزَّله روح القدس من ربِّك تثبيتَه الذين آمنوا بنصب "تثبيت" على التعليل لكان المفعول من أجله معرفة وهو مرجوح.

والآية تلويح بالخذلان لِلكُفَّارِ والإضلالِ لهم والخزيِ، ومعنى هدى المسلمين وتبشيرهم: الزيادة لهم من ذلك، فلا تحصيل حاصل، وإن شئت فقل: المراد بالمسلمين من قضى الله إسلامه، واستحضر مثل هذا في سائر الآيات الشبيهات بهذه، فيشمل ابتداء ذلك واستمراره بعدُ، لا خصوص الزيادة، فافهم أفهمك الله الرحمن الرحيم.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ﴾ كُفَّار مكَّة ﴿يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ,﴾ يعلِّم محَمَّدًا، والهاء له ﷺ، والمفعول الثاني محذوف أي يعلِّمه القرآنَ، ويجوز أن تكون للقرآن فهي المفعول الثاني والأوَّل محذوف، أي يعلِّمه محَمَّدًا، فـ«محَمَّدًا» مفعول أوَّل مؤخَّر أو ينوى تقديمه، ورجَّح بعضهم هذا ليوافق عود ما إلى الهاء في «نزَّله». والمضارع للتجدُّد، وقيل: بمعنى الماضي، والأوَّل أولى. ﴿بَشَرٌ﴾ لا جبريل، وهو «جَبْرٌ الرومي» غلام عامر بن الحضرمي ـ بفتح الجيم وإسكان الباء ـ وكان يقرأ التوراة والإنجيل، وكان ﷺ يمرُّ عليه في بعض الأحيان ويسمع ما يقرأ، فقالوا: ما يقوله محَمَّد يأخذه من جَبْر وليس يوحى إليه به، وقيل: «جبر»

و«يسار» روميان من أهل عين التمر، يصنعان السيوف بِمَكَّـةَ، ويقرآن التوراة والإنجيل، وكان ﷺ يمرُّ بهما في بعض الأحيان ويسمع قراءتهما، قيل: يجلس إليهما إذا أذاه أهل مكّة فقيل لأحدهما: إنّك تعلّم محمَّدا، فقال: لا بل هو يعلّمني. والبشر يطلق على الاثنين فصاعدا، وعلى الواحد، فصحَّ تفسيره بهما.

وذكر السهيلي: إنَّه ابن الحضرميِّ عبد الله بن عماد، له من الأولاد العلاء وعمر وعامر، أسلم العلاء وهاجر إلى النبيء ﷺ، وعبارة بعض إنَّ هذا البشر الذي ذكروا أسلم، وقد قيل: ﴿بَشَرٌ﴾: عائش غلام حويطب بن عبد العزّى، وقيل: اسمه يعيش، أسلم وحسن إسلامه، وله كتب يقرأها، وقيل: سلمان الفارسي، ويردُّه أنَّ سلمان أسلم بالمدينة بعد الهجرة، وكان مملوكا ليهوديٍّ بها، ولا يصحُّ أنَّه ملكه الصدِّيق وأسلم وأعتقه بِمَكَّةَ، وقيل: البشر أبو فكيهة مولى لامرأة بِمَكَّةَ اسمه يسار، وهو يهوديٌّ، وقيل: غلام روميٌّ لبعض قريش يُسَمَّى بلعام، باسم بلعام الأوَّل، كان ﷺ يعلّمه الإسلام فقالوا: إنّه هو يعلّم مُحَمَّدًا، ولا مانع من إرادة كلٍّ من أمكن أن يذكروه.

وردَّ الله ﷻ على من قال يعلّمه بشر بقوله: ﴿لِسَانُ﴾ أي لغة **﴿الذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾** فإذا فسِّر البشر بالاثنين أو بأكثر فإفراد «الذِي» مراعاة للفظ «بَشَرٌ»، ثمَّ إنّه لا يخفى أنَّ الظاهر أنَّ المراد رجل واحد يعلّمه. و﴿يُلْحِدُونَ﴾: يَميلون إليه ـ بفتح ياء يميلون ـ من "ألحد" اللازم، بمعنى: يلوِّحون بأنَّ القرآن أخذه من البشر لا من جبريل عن الله، أو من المتعدِّي، بمعنى أنَّهم يُميلون القرآن إلى ذلك البشر ـ بضمِّ ياء يُميلون ـ أو يميلون قولهم أو الاستقامة إليه.

ردَّ الله ﷻ بأنَّ لغة ذلك البشر خفيَّة المعنى مبهمة لا تتّضح، وهذا القرآن أو كلام محمَّد الذي هو القرآن كلام متّضح المعنى، يظهر بنفسه، أو يظهره غيره

بأدنى تأمُّل، وكيف تكون معانيه الكثيرة المحتاجة إلى معلّم ماهر في زمان متّسع وتأليفه المعجز وإخباره بالغيوب من قعود ساعات قليلة إلى أعجميٍّ سوقيٍّ مملوك لغته غير لغة العرب ! ذلك بعيد عند كلِّ عاقل، ولو كان يترجم له بِالعَرَبيَّة.

(لغة) ومادَّة «ع ج م» للخفاء ومنه العجماوان لصلاتي الظهر والعصر، لأنَّ القراءة فيهما سرٌّ ذكره بعض الحَنَفِيَّة، وسمّى اللغة لسانا لأنَّه آلتها، أو هذا سرد لسان لا يطيقه فصحاء العرب فكيف غيرهم؟!.

﴿إِنَّ الذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِئَايَاتِ اللهِ﴾ المتلوَّة أنَّها من الله أو بالمعجزات، آيات التلاوة وغيرها، والأوَّل أولى بالمقام، وقد آمن بعضهم فذلك عامٌّ مخصوص، أو المعنى: إنَّ الذين قضى الله عليهم أن لا يؤمنوا لا يهديهم، أي لا يوفّقهم، أو إنَّ الذين لا يصرفون عقولهم إلى التدبُّر لا يوفّقهم ﴿لاَ يَهْدِيهِمُ اللهُ﴾ هداية توفيق وقد هداهم هدى بيان ولم يقبلوه، أو لا يهديهم إلى الجنَّة، والمأصدق واحد ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة.

زعموا أنَّ محمَّدًا ﷺ يفتري وما صدقوا، بل هم المفترون، أشار إلى ذلك بقوله: ﴿اِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِئَايَاتِ اللهِ﴾ ككفَّار قريش الذين قالوا: «إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ»، لأنَّهم لا يخافون - لكفرهم بالبعث - عقابا، ولو كان يتعلَّم من البشر المذكور لشهر عند الناس أنَّه تلمَّذ له، ولم يقولوا بأنَّه يعلّمه بشر سواه.

﴿وَأُوْلَئِكَ﴾ كفَّار مكَّة، أو الذين لا يؤمنون ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ على الحقيقة أو الكاملون في الكذب، إذ لم يجدوا شيئا يردُّون به القرآن إلاَّ هذا الذي افتروه من أنَّه يعلّمه بشر، ولم يقبله أحد عنهم، وذلك دليل على غاية عجزهم، أو الكاذبون المعتادون للكذب مع قبحه لخلوِّهم عمَّا يردعهم من مروءة أو دين، وذلك كلُّه أولى لعمومه من أن يقال الكاذبون في قولهم إنَّما يعلّمه بشر.

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِالْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَٰهَدُوا وَصَبَرُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾

عاقبة المرتدّين عن الإسلام والمهاجرين بعدما فُتنوا

﴿مَن كَفَرَ بِاللهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ بدلٌ من «الْكَاذِبُونَ»، كأنّه قيل: وأولئك هم من كفر بالله، أو من «الذِينَ لاَ يُومِنُونَ» كأنّه قيل: إنّما يفتري الكذب من كفر بالله، أو من «أُوْلَئِكَ» كأنّه قيل: من كفر بالله هم الكاذبون.

﴿إِلاَّ مَنُ اكْرِهَ وَقَلْبُهُ, مُطْمَئِنٌّ بِالاِيمَانِ﴾ حال من الإكراه مستمرٌّ حال القتل أو التعذيب، أو ذاهل حالهما غير معتقد للكفر، فإنّه ليس بكافر، لأنّ قلبه مطمئنٌّ بالإيمان وإن جرى لفظ الكفر على لسانه كرها، كذا قيل، وفيه أنّ قريشا لم يكونوا أسلموا، فيجاب بأنّ المراد أنّهم تمكّنوا من الإسلام ثمّ أعرضوا عنادا.

واعترض أبو حيّان إبدال «مَن كَفَرَ» مِن «الذِينَ لاَ يُومِنُونَ» بأنّه يقتضي أن لا يفتري الكذب إلاّ المرتدّ، وأجيب بأنّ المراد من كفر بالله بعد تمكّنه من الإيمان، ويأباه قوله: ﴿إِلاَّ مَنُ اكْرِهَ﴾، أو «مَن» من مبتدأ موصولة أو شرطية، ويقدّر خبر أو جواب، أي فعليهم غضب، أو استحقّوا الغضب، أو مفعول لأذمُّ، أو خبر لمحذوف، أي هم من كفر.

(نحو) وإذا أبدل «مَن كَفرَ» من «الْكَاذِبُونَ» لزم الحصر فيمن كفر با لله بعد إيمانه، وكذا إن جعل بدلا من «أُولَئِكَ» على حدٍّ ما مرَّ في جعله بدلا من «الذِينَ». والاستثناء متَّصل لأنَّ الكفر لغةً يعمُّ القول والعقد [أي الاعتقاد]، كما يعمُّها الإيمان، والاستثناء هو من قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِا للهِ﴾ لأنَّه عمَّ الكفر باللسان ولو اطمأنَّ القلب بالإيمان، أو من «عَلَيْهِمْ غَضَبٌ» أو استحقُّوا...الخ المقدَّر، ويضعف أن يكون من قوله بعدُ: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾.

(أصول الدين) ولا تشترط المعرضة مع اطمئنان القلب، بل يكفي الاطمئنان خلافا لبعض، وأصل الإيمان التصديق بالقلب، والنطق ركن أو شرط، قولان عليهما الجمهور، الثالث أنَّه لا شرط ولا ركن، وهو قول قليل مِنَّا ومن الأَشعَرِيَّة.

﴿**وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا**﴾ وسَّع صدره له، وقَبِلَه ولو في حال الإكراه، و«صَدْرًا» مفعول به لا تمييز، فلا تهم، و«مَنْ» شرطية، وأداة الشرط تلي لكن، تقول: أكرم عمرا لكن إن جاء، فلا تهم، ﴿**فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ا للهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾.

(سيرة) أكره قريش على الردَّة سميَّة أمَّ عمَّار ـ بالتصغير ـ وربطوهما بين بعيرين، وطعن أبو جهل في قبلها بحربة، وقالوا: أسلمت للزنى، وشردوا البعيرين فانقطعت جزأين وقتلوا أباه ياسرا، وهما أوَّل من قتل في الإسلام عليه، وكفر عمَّار وسبَّ رسول ا لله ﷺ ومدح الأصنام بلسانه واطمأنَّ قلبه بالإسلام فتركوه، فقيل: يا رسول ا لله كفر عَمَّار! فقال: «**كلاَّ إنَّ عَمَّارًا ملئ إيمانا من قرنه إلى قدميه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه**» فأتى رسول ا لله ﷺ يبكي معتذرا، فقال له: «**ما وراءك؟**» قال: شرٌّ، كفرت بك، قال: «**ما تجد قلبك؟**» قال: مؤمنا، فجعل ﷺ يمسح عينيه، فقال: «**ما لك إن عادوا لك بالإكراه**

فعد لهم بكفر اللسان مع اطمئنان قلبك بالإيمان» وا لله اختار الصبر على العذاب أو القتل.

روي أنَّ مسيلمة قال لرجل: ما تقول في مُحَمَّد؟ قال: رسول ا لله، قال: فما تقول فيَّ ؟ قال: أنت أيضا فخلاه، وقال للآخر: ما تقول في محمَّد؟ قال: رسول ا لله، قال: فما تقول فيَّ؟ قال: أنا أصمُّ، فأعاد ثلاثا فقتله، فبلغ ذلك رسول ا لله ﷺ فقال: «**أمَّا الأوَّل فقد أخذ برخصة ا لله، وأمَّا الثاني فقد صدع بِالحَقِّ فهنيئا له**».

(فقه) وذكر الفخر أنَّه يجب [عليه عند الإكراه] شرب الخمر وأكل الميتة والخنزير، لأنَّ حفظ النفس واجب ولا ضرر في ذلك لأحد، وقد قال ﷻ : ﴿وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (سورة البقرة: ١٩٥) ويحرم قتل أحد أو قطع عضو من نفسه، أو من أحد بإكراه، وإن فعل ففي القصاص قولان للشافعي، والمذهب القصاص وليس ذلك مِمَّا يدرأ فيه الحدُّ بالشبهة، وقاس بعضهم سائر المعاصي عند الإكراه على الإشراك مِمَّا ليس في بدن أحد، ومنع بعض كشف العورة بالإكراه، وكذا كشف عورة غيره، ويموت ولا يزني بل لو زنى بالإدخال علمنا أنَّه فعل بلا ضرورة، إذ لو خاف لم ينتشر، وفيه أنَّه قد ينتشر لأنَّه اطمأنَّ أنَّه لا يقتل إن زنى وعلى كلِّ حال لا يجوز له ولا يعذر.

﴿**ذَلِكَ**﴾ الكفر بعد الإيمان أو الغضب، أو المذكور من العذاب العظيم، والكفر بعد الإيمان ﴿**بِأَنَّهُمُ**﴾ بسبب أنهم ﴿**اسْتَحَبُّواْ**﴾ اختاروا ﴿**الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ ا للهَ**﴾ بسبب أنَّ ا لله ﴿**لاَ يَهْدِي**﴾ هداية توفيق ﴿**الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ إلى الإيمان وما يوجب الثبات عليه، قيل: لا يهديهم إلى الجنَّة وهو

ضعيف، قضى الله أنَّهم يموتون كفَّارًا.

(سيرة) وأوَّل من أظهر الإسلام ثمانية: النبيء ﷺ فمنعه الله بعمِّه أبي طالب، ومن قال سبعة أراد بعده ﷺ، وأبو بكر منعه قومه وعشيرته، وخبَّاب وصهيب وبلال ألبسوا أذرع الحديد وأجلسوا في حرِّ شمس مكَّة، يعذِّبون بلالا وهو يقول: أحد أحد، حتَّى اشتراه أبو بكر، قال خبَّاب: أوقدوا لي نارًا ما أطفأها إلاَّ ودك ظهري، وعمَّار وياسر وسميَّة تقدَّم ما فعل بهم، وأوَّل من كفر أبو جهل أو أبو لهب.

﴿**أُوْلَئِكَ الذِينَ**﴾ مبتدأ وخبر، وإشارة البعد فيه وفي «ذَٰلِكَ» للتحقير والإهانة، أو للتعظيم في ذلك، أي ذلك المذكور العظيم المهول في الشرِّ، كما يتعيَّن إذا جعلنا الإشارة إلى غضب الله أو إلى غضبه والعذاب والكفر، فإنَّ غضبه تعالى صفة ذاتية وفعلا مستعملا بمعنى الانتقام لا يحتقر ولا يهان ﴿**طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ**﴾ لا يصل الوعظ قلوبهم، ولا يسمعون سماع تدبُّر، ولا يصرون بأعينهم في خلق الله إبصار اعتبار ﴿**وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾ الكاملون في الغفلة، **إذ لا غفلة أعظم من الغفلة من تدبُّر العواقب والنظر في المصالح.**

وعن ابن عبَّاس: غافلون عمَّا يراد بهم في الآخرة. وأعاد ذكر ﴿**أُولَئِكَ**﴾ تنبيها على أنَّ صفاتهم تقتضي الطبع، وتقتضي كمال الغفلة، وعطف لأنَّ مفهوم الغفلة غير مفهوم الطبع، وبدأ بالطبع لأنَّه السابق وهو خذلان وفعل من الله، والغفلة ثانية وفعل منهم إذا غفلوا عمَّا خوطبوا به، وعمَّا أريد بهم من التدبُّر فيه، وأصلها حبُّ الدنيا.

﴿**لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ**﴾ لا بدَّ من أنَّهم، أو «لاَ» زائدة، و«جَرَمَ» بمعنى حقَّ،

و«أَنَّهُمْ...» فاعله، ومرَّ كلام فيه[1] أو «لاَ جَرَمَ» كلمتان جعلتا كلمة واحدة، فالمعنى حقَّ حقًّا أنَّهم ﴿فِي الاَخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ المضيِّعون لأبدانهم ونعمهم وأوقاتهم، إذ لم يستعملوها فيما ينجون به من النار إلى الجنَّة، وهو الإيمان، كمن ضاع ماله فمن أين يطمع أن يربح من ماله؟! بل استعملوها فيما يهلكهم، وهذا هو الخسران الكامل، إذ هم أبدا في النار بذلك، وفي سورةٍ: ﴿هُمُ الاَخْسَرُونَ﴾ (سورة هود: ٢٢) ووجه ذلك هنا مراعاة مناسبة «الْكَافِرِينَ»، و«الْغَافِلُونَ» بالألف ولزوم ما لا يلزم لأنَّها ليست تأسيسا، لأنَّ بعدها زائدا على حرفين، صالحا لأن يكون حرفا تنسب إليه القصيدة وهو النون مثلا، أو الخسارة في تلك السورة أشدُّ.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ أي رحمة ربِّك الدائمة وهي الربح الكامل، أو نصره، و«ثُمَّ» لتفاوت الرتب علُوًّا ﴿لِلذِينَ هَاجَرُواْ﴾ إلى المدينة، خبر «إِنَّ» على حذف مضاف إلى اسمها كما رأيت.

(نحو) أو على معنى إنَّ ربَّك لهم لا عليهم، كما تقول: إنَّ فلانا لي لا عليَّ، وهذا أولى، والذي قبله أولى من جعل خبرها «لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ» على أنَّ الثانية واسمها تأكيد للأولى لا خبر لها، كما تقول: إنَّ زيدا إنَّ زيدا قائم، فقائم خبر للأولى ولا خبر للثانية، فيتعطَّل قوله: ﴿لِلذِّينَ هَاجَرُواْ﴾ فيقدَّر مبتدأ أي للذين هاجروا...إلخ مغفرةٌ ورحمةٌ، **وهو ضعيف**، وأضعف منه جعل الخبر للثانية ولا خبر للأولى، أو يتعلَّق بما بعد اللام، وهو «غَفُورٌ» كما تعلَّق به «مِنۢ بَعْدِهَا» أو خبرها «لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ» محذوف، دلَّ عليه المذكور، وفيه أنَّه يحتاج إلى تقدير مبتدأ «لِلذِّينَ هَاجَرُوا» مع حذف الخبر، والصواب أنَّ الخبر «لِلذِّينَ هَاجَرُوا»، والمعنى: إنَّ رحمته أو نصره للذين هاجروا، أو إنَّ ربَّك لهم لا لغيرهم

١- انظر: ج٦ ص٣٦٨، تفسير آية ٢٢ من سورة هود.

لهجرتهم ما ألفوا من الوطن والمال والأصحاب.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ﴾ صرفوا بالقول والتعذيب من المشركين، ولم يؤثّر فيهم صرفهم، أي فتنوا، أو ما افتتنوا، أو ﴿فُتِنُواْ﴾: صرفوا عن الإسلام فانصرفوا لفظا لا قلبا ﴿ثُمَّ جَاهَدُواْ﴾ جاهدوا أنفسهم، أو الأعداء بالسيف. «ثُمَّ» هذه لترتيب الحكم على الآخر في الزمان على الأصل، وأمَّا في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ فللتراخي في الرتبة، لعلوِّ شأن من هاجروا بعدما فُتنوا وجاهدوا، عمَّن ضلُّوا وأضلُّوا. ﴿وَصَبَرُواْ﴾ في الجهاد والجوع والشدائد ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ بعد الهجرة، أو بعد الأربعة: المهاجرة والفتن والجهاد والصبر، أو بعد الفتنة، أو بعد التوبة، لأنَّ ما قبل ذلك يدلُّ عليهما ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لهم، لا يضيِّع أجرهم، ولا يعاقبون على ذنب.

(سبب النزول) نزلت الآية في عياش بن ربيعة أخي أبي جهل من الرضاع، وقيل: كان أخاه من أمِّه، وفي جندل بن سهل بن عمرو، والوليد بن الوليد بن المغيرة، وسلمة بن هشام، وعبد الله بن أسد الثقفي، عذَّبهم المشركون فكفروا بعض كفر بألسنتهم، وبعد ذلك هاجروا وجاهدوا.

وقال الحسن وعكرمة: نزلت في عبد الله بن أبي سرح، أسلم وكان يكتب الوحي للنبيء ﷺ ثمَّ ارتدَّ ولحق بدار الحرب، وأمر ﷺ بقتله يوم فتح مَكَّة، فأجاره عثمان بن عفَّان، وكان أخاه لأمِّه فأتى وأسلم وحسن إسلامه، وأظنُّه أنَّه لم يحسن في خلافة عثمان، **والصحيح القول الأوَّل** إذ لم يصل عبد الله بن أبي سرح بعد إسلامه حال الفتح أن يهاجر إذ لا هجرة بعد الفتح، نعم استحبابا، ولم يبلغ أن يجاهد بعد الفتح لأنَّه ﷺ لم يجاهد بعد الفتح إلاَّ غزوة هوازن في قفوله إلى المدينة، فكيف يجاهد وينزل جهاده في القرآن وصبره؟ فلا

يتمُّ ذلك، ولو قلنا: إنَّ الآية مَدَنِيَّة جعلت في سورة مَكِّيَّة، إذ لم يرو أنَّه جاهد بعد ردَّته وإسلامه منها.

وذكر قتادة أنَّها مَكِّيَّة إلاَّ ﴿وَالذِينَ هَاجَرُواْ﴾ و﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ و﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ إلى آخر السورة، قال مقاتل: و﴿مَن كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ و﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً...﴾الآيات، وروي أنَّ الآية نزلت فكتب المسلمون بها إلى من أسلم بِمَكَّةَ، فخرجوا واتَّبَعَهم أهل مكَّة، فقاتلوا فقتلوا من قتلوا ونجا من نجا، فالجهاد قتال من اتَّبَعَهم من المشركين.

وذكر بعض أنَّ الآية في عَمَّار وأضرابه، ولا يعترض بأنَّ عمَّارا لم يشرح بالكفر صدرا ثمَّ تاب بل [كان] أعلى طبقة، لأنَّا لا نسلِّم أنَّ الآية في خصوص من شرح بالكفر صدرا ثمَّ تاب.

﴿**يَوْمَ**﴾ يوم القيامة ﴿**تَاتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا**﴾ «يَوْمَ» متعلِّق بـ«رَحِيمٌ»، أو يقدَّر: اذكر يوم...إلخ لنفسك لتتسلَّى، ولهم ليرتدعوا عن الشرِّ. ومعنى خصام النفس عن نفسها: خصام المعنى القائم بالجسم من الروح والإدراك عن بدنه، ولا يحسن أن يقال: النفس الأولى الذات، فإنَّ البدن لا يجادل بل المعنى: الحيُّ الناطق.

وعبارة بعض: النفس الأولى: مجموع الذات وصاحبها يوم يأتي كلُّ إنسان يجادل عن ذاته، لا يهمُّه شأن غيرها، من ولد أو والد أو قريب أو صاحب، تزفر جهنَّم فيخرُّ كلُّ حيٍّ على الأرض حتَّى الملائكة على ركبهم، ويقول الخليل وغيره: «ربِّ لا أسألك إلاَّ نفسي». ويروى إلاَّ سيِّدنا محمَّدًا ﷺ فإنَّه يقول: «**أمَّتي أمَّتي**».

وعبارة بعض: النفس الأولى ذات الإنسان وحقيقته، والثانية بدنه. وعبارة بعض: إنَّ الأولى الشخص بأجزائه فالأجزاء فيه ملحوظة، والثانية ما يؤكِّده،

ويدلُّ على حقيقة الشيء وهويته، والأجزاء فيها غير ملحوظة، فمعنى ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾: كلُّ أحد.

والتحقيق ما ذكرته أوّلاً، ثمَّ رأيت بعضا أشار إليه إذ قال: الأولى الروح والثانية البدن، والمجادل المدرِك وهو الروح لا البدن، وقيل: الثانية [هي] الأولى أعيدت لئلاَّ يعمل عامل في ضميرين لواحد، والأصل: تجادل عنها، وأنت خبير أنَّ ذلك العمل غير ممنوع، إذا كان أحد الضميرين بالحرف نحو ﴿هُزِّي إِلَيْكِ﴾ (سورة مريم: ٢٥).

والمفاعلة للمبالغة أي تخاصم عن نفسها خصاما شديدا. و«عَنْ» للمجاوزة، لأنَّها تميل عمَّا يضرُّها وتعرض عنه، لا كما قيل: إنَّها للابتداء، أمَّا جدال الكُفَّار فمثل قولهم: ﴿هَؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ (سورة الأعراف: ٣٨) و﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (سورة الأنعام: ٢٣) ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ (سورة الأحزاب: ٦٧) وأمَّا جدال الأبرار فمثل: ابتليتنا بالمرض والفقر، ويا ربَّنا منعونا عن الخير، وقيل: إنَّما يعتذر الكُفَّار، وردَّ بعموم كلِّ نفس.

[قلت:] والأصل حمل اللفظ على ظاهره ما لم يتعيَّن التأويل بدليل، وكذا في قوله: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ من شرٍّ أو خير، والمقصود: الجزاء، فسمِّي باسم سببه وهو العمل وهو ملزومه، وذلك لكمال الاتِّصَال بين الجزاء والعمل، وأظهر ولم يقل: «وتُوفَّى ما عملت» بالإضمار لزيادة التقرير، لا للإيذان باختلاف وقتي المجادلة والتوفِيَة، إذ لا خصوصية للظاهر ولا للضمير بذلك الاختلاف.

﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ لا ينقص من ثواب المؤمن ولا يزاد على الكافر ما لم يعمل، ومن عمله ما أمر به غيره من شرٍّ أو نهى عنه من خير، ويناسب العموم

أنّه ذكر قبل ذلك المؤمنين والكافرين، فلا حاجة إلى دعوى أنّ المؤمن لا يعتذر، والاعتذار في موطن من مواطن القيامة والمنع منه في موطن آخر، فلا منافاة بين آية إثبات الاعتذار من الكُفّار مثلا، وآية نفيه.

(قصص) قال عكرمة وهو عبد من فيء المغرب اشتراه ابن عَبَّاس أو أهدى إليه فأعتقه، قال ابن عَبَّاس: «لا تزال الخصومة بين الناس يوم القيامة حتّى تخاصم الروح الجسد، فتقول الروح: يا ربِّ لم تكن لي يد أبطش بها، ولا رجل أمشي بها، ولا عين أبصر بها، فضاعف عليه العذاب، ويقول الجسد: يا ربِّ أنت خلقتني كالخشبة ليس لي يد أبطش بها، ولا رجل أمشي بها، ولا عين أبصر بها، فجاءت هذه الروح كشعاع الشمس، فبها نطق لساني وبها أبصرت عيناي، وبها مشت رجلاي، فيضرب الله لهما مثلا أعمى ومقعدا في بستان ثمار، والأعمى لا يبصر الثمر والمقعد لا يتناوله، فحمل الأعمى المقعد فأصابا الثمر فغشيهما العذاب» بمعنى تناولا المعاصي الشبيهة بالثمار في الميل إليها، أو تناولا الطاعة الشبيهة بها فنجوا، والروح والجسد لم يتناولا معا، بل ناول بعض فهلكا، والمتبادر هو الأوَّل.

وكذا في قول القرطبي: إنَّ المقعد نادى الأعمى احملني آكل وأطعمك، ففعل، فأصابا من الثمر فعلى من يكون العذاب؟ قالا ــ أي الروح والجسد ــ : عليهما، أي على الأعمى والمقعد، قال ــ أي الله ــ : عليكما جميعا العذاب، أي الروح والجسد، وهذا الحديث كالنصِّ فيما فسَّرت به النفس أوَّلاً.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾

عاقبة كفران النعم في الدنيا

﴿**وَضَرَبَ ا للهُ مَثَلاً قَرْيَةً**﴾ «مَثَلاً» مفعول ثان، وقدِّم للتشويق إلى ما به الضرب، و«قَرْيَةً» أوَّل، أي صيَّر ا لله قرية مثلا، والمراد نفس القرية، أو أهلها على حذف مضاف، أو أهلها تسميةً لهم بها لحلولهم بها، أو لوضعها لهم اسما، كما وضعت للمحلِّ. والمثلُ كلام شبِّه مضربه بمورده، الكلام على القرية ورد فيها وما أشبهها مضرب يمثَّل له بها.

والقرية: مَكَّة، وقيل: مطلق قرية لا مخصوصة، وذكر ابن عَبَّاس أنَّها مَكَّة ورجَّحه أبو حيَّان لمناسبة ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ أصابها القحط بعد أن كانت راغدة العيش بالطائف وجدَّة وما قاربها من القرى، وقوافلهم من اليمن والشام، وأصابتها الغارات مِمَّن حولها قبل الهجرة، أو تخوَّفوها ولو لم تكن بعد الاطمئنان من الخوف كما قال ا لله ﷻ : ﴿**كَانَتَ ـ امِنَةً**﴾ من الخوف ﴿**مُّطْمَئِنَّةً**﴾ لا يحتاج إلى الانتقال عنها ﴿**يَاتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا**﴾ واسعا ﴿**مِّن كُلِّ مَكَانٍ**﴾ بحر وبرٍّ.

﴿**فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ا للهِ**﴾ بدين ا لله ونبيئه ﷺ ، أو أنعمه البدنية والمالية والاحترام.

(صرف) والمفرد نعمة كأنَّه بلا تاء كدرع وأدرع، أو نُعم بضمٍّ فإسكان كبؤس وأبؤس، أو نعماء كبأساء وأبؤس، واختار بعض أنَّه اسم جمع،

وكان من أوزان القلّة والمراد الكثرة تلويحا بأنَّ العقاب المذكور مستحقٌّ بالقليل فكيف بالكثير؟ والمراد بالقرية أهلها على حذف مضاف فيها وفي ضمائرها بعدها، أو اسم محلٍّ لحال، أو وضع اللفظ لهم كما وضع لها على الاشتراك.

﴿فَأَذَاقَهَا ا للهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ أحاط عليهم بالرقة والصفرة، ظاهرين عليهم ظهور اللباس على البدن، وأصل الإذاقة الإطعام الأوَّل ليختبر، ثمَّ استعمل في مطلق الإطعام، ثمَّ في مطلق الإصابة والابتلاء.

(بلاغة) وفي هذا بعد الإطعام الأوَّل إطلاقا للمقيَّد على المطلق، أو استعارة الإذاقة للإبلاغ إلى إدراك أثر الضرر، فاللباس لنحو الرقَّة والصفرة استعارة ثانية، وشبَّه الجوع والخوف بالمطعوم البشع، ورمز إليه بالإذاقة، فهذه ثالثة مكنية، فإنَّه لا يخفى أنَّ الإذاقة للمطعوم والمشروب لا للجوع والخوف، وإذا اعتبرنا شيوع الإذاقة بمعنى الإصابة حتَّى كأنَّها حقيقة لها كانت تجريدا للاستعارة، ولو قيل فكساها كان ترشيحا. وإن شئت ففي اللباس استعارتان: مصرَّحة إذ شبَّه ما غشي الإنسان عند الجوع به لجامع الاشتمال، ومكنية إذ شبَّه ما غشيه بالطعم المرِّ بجامع الكراهة والقرينة الإذاقة، وهي تخييل.

﴿بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ فيما مضى، أو استمرُّوا عليه بأشياء يصنعونها، أو بالأشياء التي يصنعونها من المحرَّمات، أو بكونهم يصنعون الصنع الفاسد، والواوان لأهل القرية المعبَّر عنهم بلفظ القرية، أو باسم مقدَّر مضاف إليها، أو للقرينة على التجوُّز، ورعي لفظها فيما مرَّ، والمعنى الآن وكذا في الهاءات بعد. وعبَّر بالصنع تلويحا بأنَّ الشرَّ فيهم راسخ كرسوخ الصنعة لصاحبها.

والمشهور أنَّ ذلك بعد الهجرة، والجمهور أنَّها نزلت في المدينة وصحِّح، وجعلت في سورة مَكِّيَّة، وعلى أنَّها في مكَّة ـ مع أنه يقع ذلك بعد الهجرة ـ فإخبار بما سيقع.

(سيرة) كانت مَكَّة آمنة مطمئنّة يأتيها رزقها رغدا من كلِّ مكان، ولَمَّا أصرُّوا على الكفر حتّى ألجؤوه ﷺ إلى الهجرة، أصابهم القحط سبع سنين، بقطع المطر، وقطع ﷺ عنهم من يأتيهم من العرب بالطعام، حتّى أكلوا العظام المحرقة والجيف والكلاب، وما جاف من الميتة والوبر المخلوط بالدم، يرون شبه الدخان من الجوع.

وكان يبعث إليهم السرايا يقطعون الطريق ويخوِّفونهم، وأرسلوا إليه أبا سفيان وجماعة من رؤسائهم قائلين: «دأبك أنّك تأمر بالمعروف وصلة الرحم والعفو، والآن عاديت الرجال، فما بال النساء والصبيان؟ وقد هلك قومك، فادع الله لهم» فدعا وأمر بحمل الطعام إليهم. وقيل: مطلقة قرية صفتها ذلك لا خصوص مَكَّة، مثّل بها، فإنَّ المثل قول يُسَمَّى مضربا يشبه قولا آخر يُسَمَّى موردا في شيء آخر ليُبَيِّن أحدهما بالآخر وهو المورد.

﴿**وَلَقَدْ جَآءَهُمْ**﴾ أي جاء أهل القرية مَكَّة، سواء فَسَّرنَا القرية بها أو بمطلق قرية ﴿**رَسُولٌ مِّنْهُمْ**﴾ من نسبهم مُحَمَّد ﷺ، وهذا أدلُّ على أنَّ القرية مَكَّة ﴿**فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ**﴾ المعهود: الجوع والخوف، أو قتلهم في بدر وأسرهم، أو كلُّ ذلك ولو وقع القتل والأسر المذكور بعد الهجرة، لِمَا مرَّ من الأخبار بالغيب في مكّة بما سيقع، وكأنّه وقع وانقطع لتحقُّق الوقوع ﴿**وَهُمْ ظَالِمُونَ**﴾ أنفسهم بالكفر وغيرهم به وبسائر مضارِّهم، **وكلُّ ما فعلوا من سوء مضرَّة عليهم حياة وموتا.**

﴿**فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥) وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا**

حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾

الحلال الطيّب من المأكولات والحرام الخبيث

﴿**فَكُلُواْ**﴾ خطاب للمؤمنين ﴿**مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلاَلاً طَيِّبًا**﴾ من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، والغنائم ولم تحل لمن قبلكم، وكلُّ ما لم يحرِّمه فهو على أصله من الحلِّ لكم، ولا تحرِّموا على أنفسكم ما يلذُّ من الطعام، ووصف الحلال بالطيِّب تلويح بأنَّ مرجع الطيِّب الحلال، فكلُّ حلال طيِّب ولو غير مستلذٍّ، وذلك كالصفة الكاشفة.

(فقه) وظاهر اللفظ أنَّ مِمَّا رزقه الله حراما خبيثا وليس ذلك مرادا هنا، ولم يصح في نفس الأمر، لأنَّه لا يأمرنا بأكل غير الحلال، إلاَّ أنَّه قد يكون في يد الإنسان حرام لم يعلم أنَّه حرام، ولا يدرك بالعلم أنَّه حرام فيحلُّ له، وقد أمره الله بأكله إذ ساقه إلى يده ولم يعلمه بأنَّه حرام، ولا يدرك بالعلم أنَّه حرام.

قال ابن عَبَّاس: «فكلوا يا معشر المؤمنين مِمَّا رزقكم الله - يريد الغنائم - حلالا طيِّبا لكم، لم تحلَّ لأحد قبلكم». والفاء تفريع، قد كفر الكُفَّار بالنعم فكلوها أنتم شاكرين كما قال:

﴿**وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ**﴾ عليكم ﴿**إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾ وقيل: الخطاب في ذلك للمشركين، أي كلوا مِمَّا شرع إليكم رسولي بعد المنع،

واشكروا نعمة ا لله ولا تكفروها وإن كنتم تعبدون غير ا لله معه فلستم بشاكريها، فإنَّ عبادة غير ا لله معه كفر لها، لأنَّ غيره لم يرزقكم، فعبادته حرام ولو ادَّعيتم أنَّها عبادة لله لكذبتم، ليست عبادة له تعالى ولا شفاعة منها لكم.

والشرطية تأكيد لِمَا سبق، فإمَّا أن تحمل العبادة على الطاعة ليطابق قوله: ﴿كُلُوا﴾، أو تجرى على حقيقتها على زعمهم الكاذب أنَّ آلهتهم شفعاؤهم عند ا لله، فعبادتها ظاهرا عبادته في الحقيقة لأنَّه المستحقُّ لها، وما عداه ذريعة له، هذا زعمهم، وتمام العبادة بالشكر.

وما لم يحرِّمه ا لله حلال كما ذكر في الأصول: إنَّ السكوت في موضع البيان بيان، أي بيان أنَّ حكم ما عدا المذكورات مخالف لحكم المذكورات.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ا للهِ بِهِ﴾ رفع الصوت به عند الذكاة لغير ا لله وحده، أو لغير ا لله مع ا لله، والحصر إضافيٌّ معتبر فيه البحيرة وما معها، كأنَّه قيل: إنَّما حرم عليكم الميتة...الخ لا البحيرة...الخ، فلا يشكل باقي المحرَّمات، ويمكن دخول ما بقي في المائدة في الميتة هنا.

(فقه) وعن خالد بن الوليد: «نهى رسول ا لله ﷺ عن أكل لحوم الحمر والبغال والخيل». وعن جابر بن عبد ا لله: «نهى رسول ا لله ﷺ عن أكل لحوم الحمر الأهلية، وأذن في لحم الخيل»[1] فيقال: منع من الحمر للأنجاس فلو صينت لحلَّت، ونهى عن لحم الخيل لتبقى للقتال وهو في نفسه حلال،

١- رواه **الربيع** في مسنده (٦٣) باب أدب الطعام والشراب، رقم٣٣٨، من حديث علي بن أبي طالب بلاغا، الجزء الأوَّل منه فقط. ورواه **البخاري** في كتاب المغازي (٣٨) باب غزوة خيبر، رقم ٤٢١٩. من حديث جابر.

و«نهى ﷺ عن أكل ذي مخلب من الطيور، وكلِّ ذي ناب من السباع»[1].

(فقه) وقيل: الحصر حقيقيٌّ، وما في المائدة داخل هنا كما رأيت، فيحلُّ القرد والفيل والحمر والبغال والخيل وسباع الطير والوحش، وما ورد فيه النهي فتنزيه لا تحريم، أو وجه كما رأيت.

﴿فَمَنُ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ﴾ إلى أكل من بعض تلك المحرَّمات، وكذا غيرها من سائر المحرَّمات ﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ له في أكله ﴿رَّحِيمٌ﴾ عليه بها، وأفهمت الآية أنَّه إن اضطرَّ باغيا على مضطرٍّ آخر بنزع عنه ما وجد من ذلك، أو باغيا بقطع طريق، أو خروج عن وال محقٍّ، أو اضطرَّ متعدِّيا إلى أكثر من سدِّ الرمق بأكل أكثر، أو باستصحاب منها، ونحو ذلك من سفر المعصية لم يبح له الأكل، وإن تاب الباغي أو العادي حلَّ له سدُّ الرمق من ذلك.

والله يقول بالآية السابقة: إنَّ المحرَّم ما حرَّمه الله ﷻ، لا ما تصفه ألسنتكم بالحرمة من عند أنفسكم، فانتهوا عن التشرع بما لم يأذن الله ﷻ، كما قال: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ﴾ لا تقولوا في شأن وصف ألسنتكم ﴿الْكَذِبَ﴾ مفعول لـ«تَصِفُ»، كأنَّ كلامهم أصل في الكذب مبين لمطلقه، كما تقول: وجهها يصف الحسن، وعينها يصف السحر، وليس حقيقة الكذب وراء ذلك. ولا يجوز أن يكون بدل اشتمال من هاء "تصفه" إن قدِّرت إلاَّ على ضعف، فالأولى خلافه. و«مَا» مَصدَريَّة، وإن جعلناها اسما فالمفعول محذوف، أي فيما تصفه، فالكذب مفعول لـ«تَقُولُوا»، بمعنى: تذكروا، وأيضا الكذب مراد به الجملة فصحَّ نصبه بالقول بلا تأويل بالذكر، ألا ترى أنَّه أبدلت منه الجملة وهي قوله:

١- رواه البخاري في كتاب الطبِّ (٥٧) باب ألبان الأتن، رقم ٥٧٨١، الجزء الأخير منه.

﴿هَذَا﴾ كالميتة والدم ﴿حَلَالٌ وَهَذَا﴾ كالبحيرة ﴿حَرَامٌ﴾ أو هو مفعول لـ«تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمْ»، و«هَذَا حَلَالٌ...» مفعول لـ«تَقُولُوا»، والجملة المحكية بالقول مطلقا مفعول به، أو مفعول مطلق، فإنَّ معنى قلت: قام زيد، قلت قولا هو قولك: قام زيد، ووجه المفعول أنَّ المعنى: أحدثتَ قولك قام زيد، أو يقدَّر: تقولوا هذا حلال وهذا حرام، وهذا القول المقدَّر بيان للقول المذكور.

﴿لِتَفْتَرُواْ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ إنَّه حلَّل كذا أو حرَّم كذا، واللام للعاقبة، بمعنى: إنَّ مرجع قولهم إلى اتِّضاح أنَّه افتراء، ويبعد قصد التعليل لأنَّ المعنى عليه: نقول هذا حلال وهذا حرام لأجل أن نكون كاذبين على الله ﷻ، ولا فائدة لهم في قصد هذا ولا يسوغه قولهم: الله أمرنا بها، إلاَّ على قصد ما ينجرُّ إليه قولهم من أنَّا نفتري على الله، فيؤخذ قولنا. و«الْكَذِبَ» مفعول مطلق لـ«تَفْتَرُوا»، أو مفعول به لـ«تَفْتَرُوا». ولا يتكرَّر قوله: ﴿لِتَفْتَرُواْ﴾ مع قوله: ﴿لِمَا تَصِفُ﴾ لأنَّه ليس في قوله: ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ نفس أنَّه كذب على الله. وأيضا لام العاقبة ليست بمعنى في، فجاز تعليقهما معا بـ«تَقُولُوا».

﴿إِنَّ الذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾ في الدنيا ولا في الآخرة ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ انتفاعهم بذلك الافتراء متاع قليل، أو بقاؤهم متاع قليل، أو تمتُّعهم في الدنيا تمتُّع قليل، حقير، أو لهم تمتُّع قليل، ويناسبه قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ في الآخرة، ولم يظفروا بالمراد على افترائهم بل بمتاع قليل، وأوجبوا العذاب الدائم.

﴿وَعَلَى الذِينَ هَادُواْ﴾ متعلِّق بقوله ﴿حَرَّمْنَا﴾ قدِّم للحصر وعلى طريق الاهتمام بالذمِّ، تعالى الله عن الاهتمام، ووجه الاتِّصال بما قبله بيان ما حرَّم علينا للمضرَّة وما حلَّ، وبيَّن ما حرَّم على اليهود انتقاما منهم لبغيهم كما قال: ﴿مَا

قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ يا محمَّد ﴿مِن قَبْلُ﴾ في سورة الأنعام [آية رقم١٤٦]، ذا الظفر وشحوم البقر والغنم إلاَّ ما حملت ظهورهما أو الحوايا، أو ما اختلط بعظم.

«مِن قَبْلُ» متعلِّق بـ«قَصَصْنَا»، والمراد: من قبل نزول هذه الآية، أو بـ«حرَّمنا»، فالمراد: من قبل التحريم ما حرِّم على هذه الأمَّة، لكن ما حرِّم عليها ليس ما حرِّم على اليهود في سورة الأنعام، فتعليقه بـ«قَصَصْنَا» أولى.

وفي الحصر تكذيب اليهود إذ قالوا: ما حرِّم من قبلنا على نوح وإبراهيم ومن بعدهما، كما كذَّبهم بقوله ﷻ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ احِلَّتْ لَهُمْ﴾ (سورة النساء: ٦٢).

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بتحريم ذلك ﴿وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ مفعول لقوله: ﴿يَظْلِمُونَ﴾ ظلموا أنفسهم بالبغي فعوقبوا بتحريم ذلك، ومع ذلك زادوا كفرا بأن يبيعوه ويأكلوا ثمنه، وكفرا آخر إذ أحلَّه الله لهم ببعث سيِّدنا محمَّدًا ﷺ، فبقوا على تحريمه من عند أنفسهم اتِّباعًا لِمَا مضى، وقد أوجب الله عليهم أن يؤمنوا به ويتبعوه في حلِّه.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ﴾ الشرك والافتراء على الله وسائر المعاصي، وسمِّي الذنب سوءا لأنَّه قبيح، ولأنَّه يسوء صاحبه، ولأنَّه يسوء غيره، إذ كان متعدِّيا على غيره، بل يسوء مطلقا، فمن فعل ذنبا فقد أساء إلى الملائكة والنبيء وموتاه في قبورهم يخبرون به، وذلك في الجملة.

(نحو) والخبر هو قوله: «للذين» أي إنَّ ربَّك لهم لا عليهم، وذلك عموم للخير لهم في الدنيا والآخرة، ثمَّ نصَّ على ما هو الأفضل في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا أولى من أن يقدَّر خبرٌ: «إنَّ ربَّك غفور رحيم» محذوفٌ لِدَلالةِ مَا بعده.

والآية في المخصوصين ويقاس عليهم غيرهم، أو على العموم فيدخل هؤلاء المخصوصون بالأولى ﴿بجَهَالَةٍ﴾ الجهالة: السفه والغواية، يقول السلف: كلُّ من عصى الله فهو جاهل حتّى ينزع من جهالته، فالجهالة أعمُّ من عدم العلم، وكلُّ عمل سوء لا يصدر إلاَّ مِمَّن جهل العاقبة، أو تنزل منزلة جاهلها لتغلُّب ظلمة هواه على نور عقله، إذ لا يرضى عاقل بقبيح يورث خزيا وعذابا دائمين.

والباء سَبَبِيَّة، أو للمصاحبة، و«ثمَّ» لبعد ما بين الحالتين وهو التراخي الرتبي، وفي قوله: ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد عمل السوء للتراخي الزماني، فكيف لو لم يتراخ زمان التوبة؟ وذكر ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ تكرارًا لامتنانه، كمن أساء إليك وأنعمت عليه وذكرت له أنَّ ما فعل لم يمنعك من الخير إليه ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ حالهم بعدُ بالعمل الصالح، أو أصلحوا أعمالهم، والمأصدق واحد، أو دخلوا في الصلاح.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ بعد التوبة، هذا أولى من أن يردَّ الضمير للجهالة، ولو كان هو الاسم الصريح لأنّه يقدر معه التوبة، ولا تقدير على الأوَّل لرجوع الضمير إليها ولو كانت غير صريحة الاسم، وأمَّا «أَصْلَحُوا» فمن أجزاء التوبة، وأجيز عوده إلى جملة ما مرَّ من عمل السوء والتوبة والإصلاح. و«مِنْ» متعلّق بقوله: ﴿لَغَفُورٌ﴾ أو بقوله: ﴿رَّحِيمٌ﴾ ويقدَّر مثله للآخَر ـ بفتح الخاء ـ وفي ذلك خروج لام «إِنَّ» عن الصدر، وهو المتبادر في آيات كثيرة من القرآن.

ويجوز أن تكون الآية في المشرك والفاسق، والإصلاح في حقِّ المشرك لِمَا بعدُ، وفي حقِّ الفاسق بتدارك ما مضى، وعلى كلِّ حال المراد: لغفور لهم رحيم بهم.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى

﴿ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٣ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٢٤﴾

فضل إبراهيم عليه السلام، وأمر النبي ﷺ باتباع ملته

﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ﴾ الأمَّة من خالف غيره واختصَّ كأنَّه جماعة، وهم جماعة، ومن عادة العرب في المبالغة التسمية بالمؤنَّث كالداهية، والرحَّالة والنخبة، والآية والأمَّة والنسَّابة والراوية، ويقال: فلان رحمة، قال الله ﷻ: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ (سورة آل عمران: ٣٩) أي جبريل.

ويقال: سمِّي أمَّة لأنَّه اجتمع فيه من صفات الكمال وصفات الخير ما لا يجتمع إلاَّ في الجماعة، وعبارة بعض: قام مقام أمَّة في العبادة، وعن ابن مسعود: **«أمَّة معلِّم الخير، يأتمُّ به أهل الدنيا»**[1]، ويناسب ما ذكرته أوَّلاً قول مجاهد: إنَّه كان مؤمنا وحده والناس كفَّار، كما قال ﷺ في زيد بن عمرو بن نفيل إذ فارق الجَاهِلِيَّة بترك عبادة الأصنام: **«إنَّه يبعثه الله أمَّة وحده»**[2].

وأمَّا زوجه سارة فتبع له بعد أن سبقها، واختص زمانا طويلا، أو أريد خصَّ من الرجال كما في البخاري أنَّه قال لسارة: **«إنْ[3] على الأرض مؤمن**

١- رواه **الحاكم** في مستدركه: ج٣، ص٤٤٠.

٢- رواه **الحاكم** في مستدركه، كتاب التفسير، ج٢، ص٣٩٠، و**السيوطي** في الدر، ج٤، ص١٤٩. وقال: أخرجه عبد الرزاق والفرياني وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والحاكم وصحَّحه عن ابن مسعود.

٣- إنْ بمعنى ما، أي: ما على الأرض مؤمن...

غيري وغيرك»[1] أو معنى «أُمَّةً»: مؤتمٌّ به، كأنّه قيل: إمام، قال الله ﷻ: ﴿إنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ (سورة البقرة: ١٢٤) ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (سورة الفرقان: ٧٣) وامتاز هو ومن معه بعد ذلك بالتوحيد، وأهل الأديان كلُّهم يحبُّونه، ومن ذلك قولهم: فلان رُحْلَةٌ وَنُخْبَةٌ ـ بضمٍّ أوَّلهما وسكون ثانيهما ـ أي يُرحل إليه ويُختار، وإن شئت فقل: المعنى مقصود، فإنّه كذلك كالمأموم بمعنى المتبوع المقصود، والمأموم بمعنى من تقدَّم غيره، والمقصود هنا الأوَّل، ولكونه رئيس الموحِّدين في العبادة وإبطال مذاهب الشرك كما في سورة الأنعام بالحجج [آية ٧٤ وما بعدها]، وعقَّب ذلك بقوله:

﴿قَانِتًا لِلهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي عبدا لله مائلا عن دين الإشراك إلى التوحيد والإسلام، والحنف: الميل وهو هنا معنويٌّ، ولم يكن قطُّ مشركا من ولادته إلى وفاته، وذلك تعريض بقريش إذ زعموا أنّهم على دينه وهم مشركون، وباليهود والنصارى إذ زعموا أنّهم على دينه وهم مشركون، ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ (سورة آل عمران: ٦٧) ويقال: كانت قريش على دينه إلى أن غيَّره عمرو بن لحيٍّ.

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ لا كافرا لها كما كفرتها اليهود والنصارى وقريش، و«أنعم»: جمع قلّة لنعمة إلغاءً للتاء، وإذا شكر النعم القليلة فأولى أن يشكر الكثيرة، وهذا أولى من أن يقال: المراد بصيغة القلّة هنا الكثرة، لأنّه لا شعور للقليلة في شكر الكثيرة، فقد يتوهَّم أنّه لم يشكر القليلة، ويجاب بأنّه شاكر بنعم الله كلِّها وهي كثيرة، ولا بأس بهذا، وهو المراد.

١- رواه **البخاري** في كتاب البيوع (١٠٠) باب شراء المملوك من الحربيِّ وهبته وعتقه، رقم٢١٠٤، وأوَّله قوله: قال النبيء ﷺ: «هاجر إبراهيم عليه السلام بسارة...». من حديث أبي هريرة.

[وقد قيل:] ولا يتغذّى حتّى يتكلّف فيمن يتغذّى معه، وإن لم يجده، ويروى أنّه يمشي ميلا أو ميلين فإن لم يجد رجع وتغذّى، وتلقّته يوما ملائكة على صورة البشر فطلبهم للغذاء، وتعرّضوا إليه بالجذام، أو قالوا: أوَلو كان فينا جذام؟ فقال: «نعم، الآن وجبت مؤاكلتكم، شكرا لله إذ عافاني من الجذام».

﴿**اجْتَبَاهُ**﴾ اختاره للنبوءة والرسالة، والجملة حال من الضمير في «شاكرا» ﴿**وَهَدَاٰيهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ دين الإسلام، متعلّق بـ«هَدَاٰهُ»، ولا داعي إلى تعليقه بـ«اجْتَبَاهُ» ولا تنازع ﴿**وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً**﴾ هذا على طريق الالتفات من الغيبة في قوله: ﴿لِّلهِ﴾ لأنّ الظاهر من قبيل الغيبة إلى التكلّم في «ءَاتَيْنَاهُ» وحكمته أنّ «ءَاتَيْنَاهُ» أقوى من «آتاه». والحسنة: قبوله عند أهل الملل كلّهم، حتّى غير الإلهيّين ومدحهم له وحبّهم له، **والأولاد الطيّبة، والعمر الطويل في السعة والطاعة، والنبوءة والمال الكثير يصرفه في طاعة الله ﷻ**.

استجاب الله له قوله: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الاَخِرِينَ﴾ (سورة الشعراء: ٨٤) وأولاده أربعة: إسماعيل وإسحاق ومدين ومدان، وقيل: ثمانية، وقيل: أربعة عشر، ومنهم روم، وقيل: روم هو ابن إسحاق، وكلّهم طيّبون من الصالحين القانتين وبعضهم من المرسلين، ومن ذرّيتهم أكثر النبيئين، وعمره مائة سنة أو مائة وعشرون، وأكثر ماله البقر.

﴿**وَإِنَّهُ, فِي الاَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ ثابت من جملة الصالحين الكاملين، أو معدود منهم، كما سأل إذ قال: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (سورة الشعراء: ٨٣) فهو من أعالي أهل الجنّة، لأنّ المراد الكمال في الصلاح.

﴿**ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ**﴾ يا محمّد، «ثُمَّ» لتراخي الرتبة كما أنّ تراخي الزمان موجود، وذلك الموحى إلى سيّدنا محمّد ﷺ أفضل ما أوحى الله، وهذا تعظيم له

ﷺ، ويجوز أن يكون تعظيما لسيِّدنا إبراهيم إذ أمر سيِّدنا محمَّدًا باتِّباعه صلَّى الله وسلَّم عليهما. و«ثُمَّ» لتراخي هذه الرتبة عن سائر رتب إبراهيم عليه السلام، ويجوز تعظيمه بجملة هذا الكلام، وهو الأمر باتِّباعه، وتعظيم سيِّدنا محمَّد بـ«ثُمَّ».

وقد وصف الله عز وجل إبراهيم بتسع خصال، وأمر الرسول باتِّباعه، وهذا الاِتِّبَاع عاشرة. وفي ﴿ثُمَّ﴾ هذه إيذان بأنَّ أشرف ما أوتي الخليل وأجلَّه اتِّبَاع محمَّد صلَّى الله وسلَّم عليهما له، فهذا تعظيم لهما معا، ولا بأس باتِّباع الفاضل المفضول، كما قال ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (سورة الأنعام: ٩٠) وكما يتَّبع الأنبياء آباءهم إذا كانوا مسلمين وهم غير أنبياء، مع أنَّ هذه الآية غير خارجة عن معنى: أوحينا إليك القرآن، وهو غير مخالف لِمَا عليه إبراهيم وهو المراد في قوله: ﴿**أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ والمراد اتِّبَاعه في التوحيد وخصاله، وبعض الأشياء، وقيل: كلُّ ما في شريعتنا هو في شريعته، فهو ﷺ مبعوث لإحياء شريعة إبراهيم أصولا وفروعا، وهو قول باطل بل في بعض كما مرَّ، وكالحجِّ، بل أمره باتِّباعه في بعض الأشياء فقال: افعلها كما فعلها إبراهيم، وذلك وحي من الله سبحانه وتعالى مستقلٌّ.

وخصَّه بأشياء كثيرة لم تكن في شرع إبراهيم، وأمره الله بالختان كإبراهيم، أو علم ﷺ بأنَّ شرع إبراهيم الختان ووجد قومه يختتنون، ولم ينهه الله فجرى عليه. و«أنْ» تفسيريَّة، قيل: أو مصدريَّة بلا تقدير جارٍّ، أي أوحينا إليك اتِّبَاع ملَّته، أو بتقديره أي باتِّباعها، وفي ذلك تعريض باليهود والنصارى وقريش بأنَّهم مشركون، فكيف يتوهَّمون أنَّهم على دين إبراهيم؟!.

ولا تضاف الملَّة إلى الله بل إلى الأنبياء أو غيرهم من الجمل كاليهود، وقد تضاف قليلا إلى المفرد، وهو غير نبيء.

أمر ا لله سبحانه وتعالى رسوله محمَّدًا ﷺ باتِّباع أبيه إبراهيم عليه السلام فاتَّبعه، فقال اليهود: لو اتَّبعه لعمل بالسبت كما عمل إبراهيم، فكذَّبهم ا لله عز وجل بقوله: ﴿إنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ وهم اليهود بعد إبراهيم عليه السلام بزمان طويل، في زمان موسى عليه السلام، ولم يكن السبت في شرع إبراهيم بل في شرعه الجمعة، كما في شرع سيِّدنا محمَّد ﷺ، اختاره ا لله له وهو أفضل الأيَّام، لأنَّ فيه خلق آدم، وهو أفضل الخلق، وفيه تاب عليه، وفراغ الخلق، والمعظَّم هو يوم الفراغ وهو يوم السرور، لا يومٌ بعدَه لأنَّه تعالى هو الذي فرغ منه لا نحن، فنقول عيينا فيه، فلا يصحُّ أن يكون عيدا لنا وا لله لا يعيى.

وا لله عز وجل هو الذي اختاره لنا ولم نختره نحن لأنفسنا، وادَّخره ا لله لنا، وقد أمر ا لله عز وجل به اليهود فلم يقبلوه، وقالوا: نحن نوافق ربَّنا في ترك العمل إذ بدأ الخلق في الأحد وأتمَّه في يوم الجمعة، ولم يعمل يوم السبت، فنحن نجعله عيدا لا نعمل فيه إلاَّ ما لا بدَّ منه، واختار النصارى الأحد لأنَّه يوم بدأ العمل، فوكله ا لله إليهم، كما قبل من اليهود السبت.

و«حَنِيفًا» حال من «إِبْرَاهِيمَ»، لأنَّ المضاف هنا كجزء من المضاف إليه لشدَّة الاتِّصَال، ويضعف كونه حالا من ضمير نبيئنا محمَّد ﷺ في «اتَّبِعْ».

ومعنى اختلاف اليهود في السبت مخالفتهم كلُّهم لموسى عليه السلام، إذ أمرهم من ا لله بالجمعة فخالفوه إلى السبت، فجعلوا التفرُّغ إلى العبادة الذي أمروا به في يوم الجمعة في يوم السبت، فالاختلاف بينهم وبين موسى، أي اختلفوا فيه مع موسى، وهو خلاف الظاهر، فإنَّ الظاهر فيه أن يذكر موسى أو يقول خالفوا، ولذلك اختار بعض أنَّ المعنى اختلفوا فيما بينهم، بعض رضي بالجمعة والأكثر أرادوا السبت.

وقيل: لم يعيِّن الله لهم الجمعة بل ذكر يوما مطلقا من الأسبوع فاختلفوا فيه، فأراد القليل الجمعة، والصحيح التعيين، وهو ظاهر قوله ﷺ: «**نحن الآخِرون السابقون يوم القيامة، بيْدَ أنَّهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، ثمَّ هذا يومهم الذي فرض عليهم ـ يعني الجمعة ـ فاختلفوا فيه، وهدانا الله إليه، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غدا والنصارى بعد غد**»[1].

ومعنى بَيْد: غير، ومعنى عَلَى: أنَّه شدَّد عليهم به إذ خالفوا إليه فألزمهم تعظيمه بالعبادة، وترك الصيد؛ وأيضا جعل وباله عليهم لَمَّا اصطادوا فيه زمان داود مسخ شبابهم قردة، وشيوخهم خنازير، أو مسخوا قردة كما هو ظاهر سورة البقرة [آية ٦٥]، حفروا حياضا يدخل إليها الحوت يوم السبت فيصطادونها يوم الأحد، فعوقبوا على هذه الحيلة، كما لعنوا بأكل ثمن الشحوم المحرَّمة عليهم.

والسبت هو يوم السبت، أو هو بمعنى المصدر بمعنى العمل بتعظيمه، يقول: سبت اليهودي، أي عظَّم يوم السبت وعمل به، أو قطع العمل، وبقيت طائفة من اليهود على تعظيم الجمعة والتفرُّغ للعبادة فيه، كما أمر الله ﷻ، وترك السبت في عهد موسى فهم لا يحرم عليهم الصيد والعمل يوم السبت وهم قليل، انقرضوا، ولَمَّا بعث الله رسوله ﷺ بطل السبت والأحد على اليهود والنصارى ووجبت عليهم الجمعة.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بإثابة المطيع وعقاب العاصي، فمن المطيع من عظَّم السبت و لم يصد فيه، ومنه من عمل بالجمعة وترك السبت **﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾** مع نبيئهم، أو اختلف بمعنى خالف.

١- رواه **البخاري** كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة، رقم٨٣٦. ورواه **مسلم** في كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأُمَّة ليوم الجمعة، رقم٨٥٥. من حديث أبي هريرة.

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

الأمر بانتهاج الحكمة في الدعوة إلى الله وجواز العقوبة بالمثل

﴿ادْعُ﴾ يا محمَّد الناس كلَّهم ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ دينِه، ولا يهمُّك مخالفة اليهود والنصارى وقريش، وقد نسخ السبت بالأحد، ونسخ الأحد بالجمعة، ولا سبت ولا أحد بعد بعثتك، بل الجمعة والقرآن على الكلِّ، ولا التوراة ولا الإنجيل إلاَّ ما لم يخالف القرآن.

﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ القرآن، أو الدلائل القطعيَّة، ومنه القرآن، وهو أصلها، فإنَّه قول موضِّح للحقِّ، كما قيل: الحكمة الدليل الموضح المزيل للشبهة، كما قال أبو حيَّان: **الحكمة الكلام الصواب القريب، الواقع في النفس أجمل موقع، وهو حقٌّ لا إشكال فيه**، وما قيل: من إنَّ الحكمة إتقان العمل، وإتقان العمل غير معروف بل هي إتقان العلم، وضدُّ السفه، ووضع الأشياء في مواضعها، وقيل الحكمة هنا النبوءة والرسالة ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ الخطاب المقنع، ولو بما هو ظنِّيٌّ عند المخاطب يتوصَّل به إلى القطعيِّ، أو هي الترغيب والترهيب على وجه يَتَبَيَّنُ به أنَّك تريد نفعهم، والنصح لهم، أو الرفق بهم بترقيق القول.

ويقال: هنا الناس ثلاثة الكاملون علما وعقلا وبصيرة يدعوهم بالحكمة، وهي الحجج القطعيَّة يدركونها، وينفعون الناس بها وينتفعون، وأصحاب النظر السليم

وهم الغالب وهم دون هؤلاء يدعوهم بالموعظة الحسنة، القسم الثالث أصحاب جدال وعناد وفيهم قوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي﴾ بالمجادلة التي، أو بالطريق التي ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ وهي ما فوق الموعظة في الشدَّة، ودون الحجج التي لا يدركونها.

قال رسول الله ﷺ: «**أمرنا معاشر الأنبياء أن نكلِّم الناس على قدر عقولهم**»[1] ومن هذا قول العلماء: كَلِّم الإنسان على قدر عقله لتسلم منه، ويسلم منك، فيجادل المعاندين في رفق بمقدِّمات تسهل لهم، ويقبح عندهم إنكارها. و«أَحْسَنُ» باق على التفضيل، ويجوز خروجه بمعنى: جادلهم بما هو حسن ولا تقابلهم بمثل ما يفعلون من الاحتيالات الفاسدة القبيحة، فإمَّا أن يؤمنوا وإمَّا أن لا يزيد شرُّهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ المراد الحصر في الموضعين، فإنَّ علم الخلق كلِّهم دون علمه، وكلُّ ما علمت يا محمَّد من أحوال قومك فإنَّ الله أعلم به منك، فلا تقلق، وما عليك إلاَّ ما يطابق علمك منهم، ويجوز الخروج عن التفضيل، أي ربُّك عالم بهم، فهو مجازيهم وهو مولاك ولا مولى لهم في الخير.

ولا بدَّ من الحصر فإنَّه تعالى عالم لا غير عالم، واسم الربِّ لمزيد اللطف به ﷺ بتذكير الإحسان، فكما أحسن الله إليك فيما مضى يحسن إليك في المستقبل، بالنصر والجزاء والستر. والخطاب تلويح ببعد الكُفَّار عن مقام اللطف، وذكر في الكُفَّار ﴿ضَلَّ﴾ بصيغة الفعل إشارة إلى أنَّهم غيَّروا الفطرة «كلُّ مولود يولد على الفطرة» بدلُّوها بالكفر.

١- أورده **السيوطي** في الدرر المنتثر، باب حرف الألف، رقم ٩٠، من حديث ابن عبَّاس، بلفظ: «إنَّا معاشر الأنبياء أمرنا...».

وذكر في المؤمنين لفظ ﴿الْمُهْتَدِينَ﴾ وهو اسم للدلالة على أنَّهم استمرُّوا على الفطرة، ولو فصلها كفر، لأنَّهم رجعوا إليها واستمرُّوا، وربَّما كانت فيهم ولم تفصل بالكُلِّيَّة حتَّى راجعوها، وقدَّم «مَن ضَلَّ» على «الْمُهْتَدِينَ» لأنَّ الكلام وارد فيهم، وعليك البلاغ وقد بلَّغت، والله هو المجازي، ولا تلحَّ عليهم بعد مرَّة إبلاغ أو مرَّتين، وليس عليك الهدى بل الله هو الهادي.

(سبب النزول) وَلَمَّا نزل القتال وقتل حمزة، ومثِّل به بقطع أنفه وأذنيه وذكره وأنثييه، وثقب بطنه ثقبا واسعا أقسم رسول الله ﷺ ليقتلنَّ منهم سبعين ويمثِّل بهم، فأنزل الله ﷻ قوله: ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ...**﴾الخ، فأعتق عن يمينه. والآية دلَّت على أنَّ حكم الجماعة المقاتلين حكم القاتل منهم، لأنَّه قاتل بهم، فكأنَّهم قاتلون، كما قال عمر رضي الله عنه في امرأة قتلت في اليمن: «لو تَمالأ عليها أهل صنعاء لقتلتهم».

فجاز للنبيء ﷺ أن يمثِّل بقتيل من المشركين ولو لم يكن هو الذي قتل حمزة ومثَّل به، والقتال في المدينة، فالآيات الثلاث مدنيَّات جعلن في سورة مَكِّيَّة، وهي محكمة، وهو الصحيح.

وقيل: نزلت في مَكَّة مطلقة لا في شأن حمزة، فتكون تمهيدا له، ويعترض بأنَّه يحتاج إلى مناسبة لذكرها هنا. وعن ابن عبَّاس: «أباح الله له ﷺ أن يقاتل من قاتله» بل أوجب ولا يبدأ بالقتال، ثمَّ نسخ إلى البدء بالقتال. وحمزة رضي الله عنه أكبر منه ﷺ بعامين. وأشار بـ«إنْ» إلى أنَّ الأصل عدم المعاقبة، إذ لم يقل وإذا عاقبتم، والفعل مستعمل في الإرادة، والمعنى: وإن أردتم معاقبة من أساء إليكم، والفعل مستعمل في معناه الظاهر وفي إرادته وفي الاقتصار عليه كقوله تعالى:

﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ (سورة الأنعام: ١١٩) أي ألاّ تقتصروا على الأكل ممّا ذكر اسم الله عليه، ﴿وَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ (سورة الأنعام: ١٢١) أي اقتصروا على الأكل ممّا ذكر اسم الله عليه، وفي تأثيره كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ (سورة الأنفال: ١٧) أي أَوْصَلَه وأثره، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ (سورة يس: ١) أي يؤثّر إنذارك، وفي المشاكلة والمشابهة كقوله: ﴿مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ فإنَّ الإساءة أوّلاً ليست معاقبة ولكن تشابهها صورة، فهو استعارة للشبه الصوري، ومشاكلة لِمَا معه من قوله: ﴿عَاقَبْتُمْ﴾ و﴿عَاقِبُواْ﴾ وذلك من تسمية السبب باسم المسبَّب.

وفيه تلويح باستِبْعاد الإساءة حتّى إنّه من شأنها أن لا تكون وإنّما تكون المعاقبة، وقوله: ﴿هُوَ﴾ عائد إلى المصدر المعلوم من «صَبَرْتُمْ»، كأنّه قيل: لَلصَّبْرُ. واللام للابتداء وقعت في جواب القسم المقدَّم على الشرط، أي والله لئن صبرتم، ومعنى كونه خيرا للصابرين أنه منفعة لهم: الثواب في الآخرة، والنصر في الدنيا، والثناء الحسن، وقطع مَادَّة الفتنة والسوء.

أو «خَيْرٌ» اسم تفضيل، أي هو أفضل لهم لذلك من الانتقام. و«إِنْ» تلويح بأنَّ من شأن النفس أن لا تصبر، فلم يقل: وإذا صبرتم فهو والله خير للصابرين.

وبعدما فضَّل الصبر قال: ﴿وَاصْبِرْ﴾ بالأمر الندبيِّ، بل الواجبيِّ في حقِّه ﷺ، لأنَّ الانتقام في حقِّ الأنبياء ممَّا يعدُّ ذنبا **﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ﴾** بتوفيقه، فلم يقتل بعد ذلك سبعين انتقاما، بل لله كسائر جهاده، ولم يمثّل بواحد توفيقا من الله سبحانه له، وقد أكّد الصبر في حقّنا أيضا بالقسم ولفظ ﴿هُوَ﴾ و﴿خَيْرٌ﴾ والتعبير بـ«إن» ووضع الظاهر موضع المضمر، إذ لم يقل: لهو خير لكم.

﴿**وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ**﴾ حزن على عدم إيمان الكُفَّار مع شدَّة إيذائهم له، وعنادهم لشدَّة حبِّه لدين الله وإنفاذه، ورسوخ الرحمة، كما خيِّر في إهلاكهم فأبى، وقال: «**أرجو أن يؤمن منهم مؤمن أو يلد مؤمنا**» فقال الله: ﴿لَعَلَّك بَاخِعٌ...﴾ (سورة الشعراء: ٣) ونحو ذلك أمرا له أن يتسلَّى عنهم، أو «عَلَى» بمعنى اللام، وقيل: لا تحزن على قتلى "أُحُد" من المسلمين، وفيه تفكيك الضمائر، فإنَّ الضمير في قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ**﴾ لِلْكُفَّارِ لا لقتلى "أحد" من المسلمين.

وهذا من جملة تسليته ﷺ في شأن عمِّه حمزة، ووعد بالنصر، ومقتضى الظاهر: ولا يكن فيك ـ أي في صدرك ـ ضيق من كيدهم، فقلب الكلام لنكتة، هي أنَّه إذا اشتدَّ الهمُّ أحاط بالمهتمِّ إحاطة الظرف بالمظروف. و«مَا» مَصدَرِيَّة ولا حاجة إلى جعلها اسما بمعنى من مكر يمكرونه، أو المكر الذي يمكرونه وهو مصدر، ويجوز أن يكون وصفا مشدَّد الوسط فخفِّف.

﴿**إِنَّ الله مَعَ الذِينَ اتَّقَواْ**﴾ تركوا الكفر والمعاصي، والزيادة في الانتقام، أو تركوه كلَّه وعظَّموا الله وأمره وخافوه ﴿**وَالذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾ بالطاعة والصبر وعدم الانتقام، والإحسان إلى من أساء جلبا إلى الخير، وحسما لمادَّة الشرِّ، والشفقة على خلق الله ﷻ. والمراد بالمعيَّة النصر والتوفيق والوَلاية والفضل.

وقدَّم التقوى على الإحسان لأنَّ التخلِّي قبل التحلِّي، والمراد موصوف واحد عطفت عليه صفته، كأنَّه قيل: إنَّ الله مع الذين جمعوا بين التقوى والإحسان، وأكَّد الإحسان بإيراده اسما وفي ذلك إيصاء بمكارم الأخلاق.

قيل لهرم بن حيان[1] حين احتضر: أوصِ، فقال: إنَّما الوَصِيَّة في المال ولا مال لي، ولكنّي أوصيكم بخواتم سورة النحل.

والله الموفق

ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم

١- هرم بن حيَّان العبدي الأزدي من بني عبد القيس قائد فاتح من النسَّاك ومن التابعين، ولي بعض الحروب في أيَّام عمر وعثمان بأرض فارس وقال عنه الجاحظ: «إنَّه من النسَّاك الزهَّاد من أهل البيان» مات بعد ٢٦هـ في إحدى غزواته. الأعلام للزركلي، ج٨، ص٨٢.

تفسير سورة الإسراء وآياتها ١١١

(سيرة) كان الإسراء بعد النبوءة بعشر سنين وثلاثة أشهر، وقيل: سنة خمس أو ستٍّ من النبوءة، وقيل: في السنة الثانية عشرة من النبوءة، وقيل: قبل الهجرة بسنة وخمسة أشهر، وقيل: بسنة وثلاثة أشهر، وقيل: قبل النبوءة، **وهو خطأ**، وكان في ربيع الأوَّل، وقيل: في ربيع الأخير، وقيل: في رجب وقيل: في رمضان، وقيل: في شوال، وذلك في الليلة السابعة والعشرين من الشهر ليلة السبت، وقيل: ليلة الجمعة، وصلَّى جبريل به ﷺ الظهر أوَّل يوم بعد الإسراء، أربعا. والجمعةُ والجنازة وجبتا بعد الخمس، وفرضت بِمَكَّةَ، لكن استخفى بها، وقيل: الإسراء ليلة الاثنين.

وذكر بعض أنَّ الإسراء في سبع عشرة من ربيع الأوَّل، وله إحدى وخمسون سنة وتسعة أشهر، وثمانية وعشرون يوما، وقيل: ليلة السابع والعشرين من ربيع الأخير.

وليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر عند الجمهور، وليلة القدر خير من سائر الليالي، وقيل: ليلة الإسراء أفضل إليه ﷺ، وليلة القدر أفضل إلى أمَّته، ويردُّه أنَّ ما هو أفضل إليه يكون أفضل إلى أمَّته، فليلة الإسراء أفضل، نعم لم يشرع التعبُّد فيها وشرع في ليلة القدر.

والإسراء ببدنه وروحه، وقيل: أسري به قبل النبوءة بروحه تمهيدا ثمَّ بها وببدنه يقظة، وقيل: بجسده وروحه إلى المقدس، وبروحه منه إلى السماء، كما شنَّع المشركون عليه الذهاب إلى بيت المقدس، ولم يشنِّعوا عليه الذهاب إلى السماء.

ولا يخفى أنَّ تسمية البدن والروح معا «عبدا» أحقُّ وأظهر من تسمية الروح وحدها عبدا. وركب جبريل خلفه معه على البراق، والصحيح أنَّه لم يركب بل أمسك الركاب، وميكائيل قاده، والركوب إكرام من الله ﷻ له ﷺ، ويقال: ركب على البراق من مكة إلى صخرة بيت المقدس، ومنها على المعراج إلى السماء الدنيا وعلى أجنحة الملائكة إلى السماء السابعة، ومنها على جناح جبريل إلى سدرة المنتهى، ومنها على الرفرف إلى قاب قوسين، وذلك إكرام، وإلاَّ فالله قادر أن يوصله إلى ما شاء بدون ذلك كما روي أنَّه سار إلى العرش فقيل: بمرقى وقيل: بلا مرقى.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ①﴾

إكرام الله للرسول بحادثة الإسراء

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ «سُبْحَانَ» اسم مصدر سبَّح بشدِّ الباء، فهو بمعنى التسبيح نائب عن فعل الأمر، أي سبِّحوا الذي أسرى بعبده، ناب سبحان عن تسبيح، وأضيف للاسم الذي ينصب بـ«سبِّحوا»، وهكذا سبحان في جميع القرآن.

أمر بالتسبيح تنزيها عن صفة مخلوق مطلقا أو تنزيها بالصلاة وما ذكرته في «التوحيد بالحجَّة»[1] مخالفا لهذا كلام نقلته بلا تأمُّل، كما أنَّ بعضا قال:

١- اسم كتيب للمؤلِّف طبع طبعا حجريا، بعنوان: «الحجَّة في بيان المحجَّة في التوحيد بلا تقليد». ولمزيد من التوضيح راجع: آراء الشيخ امحمَّد بن يوسف اطفيَّش العقديَّة، لمصطفى =

التقدير: أسبِّح الله بصيغة المضارع، يقوله الله عن نفسه، وهو الذي ذكرته في «التوحيد بالحجَّة» وهو في الكرخي[1] ونسبه للنحويين، وجدت منه نسخة قديمة له أو قوبلت على خطِّه، إلاَّ أنَّه يحتمل أن يكون المراد أن يقول كلُّ أحد عن نفسه: أسبِّح الله، ويقدَّر الماضي إذا عطف بعده تعالى عَمَّا يجيء بعد في هذه السورة.

(صرف) وأجاز بعض أن يكون «سُبْحَانَ» مصدر سبح بلا تشديد، بمعنى بَعُدَ عن صفة السوء، كغفران وليس قياسا كما قيل، وشهر أنَّ «سُبْحَانَ» علم للتسبيح.

و«أَسْرَى» لازم كـ«سرى»، وهو أبلغ من «سرى»، وتعديته بتأويل: أسرى ملائكته بعبده تكلُّف، وإنَّما تعدَّى بالباء أي صيَّر عبده ساريا، وقال: ﴿بِعَبْدِهِ﴾ لأنَّ العُبُودِيَّة لله أشرف المقامات، وكان ﷺ راغبا في اسم العُبُودِيَّة لله، وكان يقول: «**أشرف الأسماء ما تعبِّد به**»[2] أي ذكر فيه عبد، كعبد الله، وعبد العزيز، وعبد القادر، ولو قال: بحبيبه أو نحوه لكان أقرب إلى تطريه الأمَّة كما أطرت النصارى المسيح وقالوا: إنَّه إله، أو إنَّه ابن الله، أو إنَّه الله، وقد نهانا أن نطريه كما أطرت النصارى المسيح[3].

= وينتن، ص٧٠.

١- الكرخي: محمَّد بن محمَّد الكرخي البكري فقيه شافعيٌّ أصوليٌّ عارف بالتفسير، اشتهر بمصر، وتوفي بها حوالي سنة ١٠٠٦. معجم المفسرين، ج٢.

٢- أروده **العلجوني** في الكشف، ج١، ص٩٥. **والسيوطي** في الدرر المنتثرة، ص٨١.

٣- روى أحمد في مسنده (كتاب العشرة المبشَّرين بالجنَّة رقم١٤٩) قوله ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم عليه السلام فإنَّما أنا عبد الله ورسوله».

﴿لَيْلاً﴾ بعد صلاة العشاء، أي في بعض ليل عظيم لا فيه كلِّه، ولا في النهار، ويجوز أن يكون «لَيْلاً» اسما لجزء منه، وبعض الليلِ ليلٌ كما أنَّ بعض السوقِ سوقٌ، وذلك حقيقة لا مجاز، كما قيل إنَّ قصَّة الإسراء أربع ساعات أو ثلاث أو ساعة، أو قبل أن يسكن غصن شجرة صادمه أوَّل الإسراء فتحرَّك، وقبل أن يبرد فراشه من سخونة الاضطجاع عليه. وهذا التبعيض بأنواعه حكمة، ذكر الليل مع أنَّ لفظ الإسراء يدلُّ عليه، وقد يجوز التجريد بأن جرِّد عن بعض معناه، فكان بمعنى السير مطلقا فقيِّد بالليل، وما تقدَّم أحقُّ لزيادة الفائدة.

﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بعد أن أسرت به الملائكة: جبريل ومكائيل وغيرهما من بيت أمِّ هانئ بنت عمِّه إلى الحجر، ثمَّ منه إلى زمزم وشقُّوا بلا ألم ولا دم قلبه، وغسلوه ثلاثا، وعاد كما كان، وأسْروا به منه[1].

وهذا أولى من دعوى أنَّ المراد بالمسجد الحرام مكة، فيشمل بيتها والمسجد الحرام، وهو يومئذ المطاف فقط، وحوله دور الناس وبيوتهم، ومن شاء شرع باب مسكنه في المطاف، وأوَّل من زاد في السجد عمر واتبعه غيره، يشترون الدور ويدخلونها في المسجد بلا رجوع فيها ولا شرط، وأمَّا المطاف فمن الله لم يجر ملكُ أحدٍ عليه.

﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا﴾ القصي، أي البعيد عن مكة، وقيل: لأنَّه أبعد المساجد التي تزار من المسجد الحرام، وقيل: لأنَّه ليس بعده موضع عبادة فهو أبعد مواضعها، وقيل: بعيد للزائرين، وقيل: المراد بعده عن الأقذار والخبائث،

١- أورد الحديث **البخاري** في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار (٤٢) باب المعراج في حديث طويل، رقم٣٨٨٧. من حديث أنس. وأوَّله قوله ﷺ: «بينما أنا في الحطيم مضطجعا...».

وهو ضعيف لا دليل عليه.

والظاهر أنّه بعد حسيٌّ، وأنّه هو خارج عن التفضيل، ولا خلاف أنّه هو بيت المقدس، بنته الملائكة بعدما بنوا الكعبة بأربعين عاما، وبينه وبين مكة مسيرة ثلاثين يوما، وأكثر إلى أربعين، وقيل: بنى آدم بيت المقدس بعد الكعبة بأربعين عاما، ويسمَّى بيت المقدس أي الطهر، لأنّه لم يعبد فيه ولا حوله صنم، ولم يبن مسجد قبله في الأرض.

﴿الذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ بالثمار والأشجار والأنهار، وبأنّه مقرُّ الأنبياء ومتعبَّدهم، ومهبط الملائكة والوحي، وقبلة الأنبياء، ومحشر الخلق، وقد وصف الله الكعبة بالبركة إذ قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ...﴾(سورة آل عمران:٩٦) وبركتها أعظم من بركة بيت المقدس بأضعاف، كما في آثار منها: «إنَّ الحسنة في مكة بمائة ألف، وفي المدينة بعشرة آلاف، وفي بيت المقدس بألف»، وروي عنه ﷺ : «**إنَّ الدجال لا يدخل مسجد مكة، ومسجد المدينة، وبيت المقدس، والطور**»[1] وأوَّل مسجد وضع المسجد الحرام ثمَّ بيت المقدس وبينهما أربعون عاما.

﴿لِنُرِيَهُۥ مِنَ ـ ايَاتِنَآ﴾ دلائل وجودنا وقدرتنا وحكمتنا. و«مِنْ» للتبعيض وهذا البعض الذي أراه الله نبيئنا محمَّدًا ﷺ أعظم من الملكوت الذي أراه إبراهيم عليه السلام، فإنّه رأى العرش والكرسي والجنّة والنار وغيرهما مما لم ير إبراهيم، ورأى في كلِّ سماء نبيئا.

[وقيل:] رأى خلقا كالرجال راكبين على خيل بلق شاكي السلاح يتبع

١- أورده **الألوسي** في تفسيره، ج٥، ص١١. وقال: «أخرجه أحمد في مسنده»، رقم٢٢٠١١، بلفظ: «...يأتي كل منهل لا يأتي أربعة مساجد...»، من حديث جنادة بن أبي أميَّة.

بعض بعضا، طول كلٍّ واحد وطول فرسه ألف عام. لا يرى آخرهم ولا أوَّلهم، فسأل جبريل الطَّيِّلاً، فقال: ذلك قوله عَجَلَّ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾(سورة المدثّر:٣١) وهكذا أراهم إذا هبطت وإذا صعدت، لا أدري من أين يجيئون ولا إلى أين يذهبون، [قيل:] وصلّى في كلِّ سماء ركعتين، الأولى بـ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (سورة الكافرون: ١) والثانية بـ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ (سورة الإخلاص: ١)، وصلّى بالأنبياء وهم سبعة صفوف ثلاثة صفوف مرسلون، وذلك بأرواحهم وأجسادهم، وقيل: بأرواحهم، وصلّت معهم الملائكة، وذلك قبل العروج على ما صحَّح بعض، وقيل: بعده.

وأسري به إلى بيت المقدس لينال فضله كما نال فضل المسجد الحرام، وينال فضل المدينة، ولأنَّ باب السماء فوق بيت المقدس ينزل منه كلَّ يوم سبعون ألف ملك، يستغفرون لمن زار بيت المقدس، ولأنَّ الشام أرض المحشر، ولتتشرَّف به أرض المحشر.

وفي لفظ «سُبْحَانَ» تنزيه وتعجيب، وكذا فيما بعده إلى هنا تعجيب وأتمّه بقوله: ﴿إِنَّهُ, هُوَ السَّمِيعُ﴾ العليم بالأقوال والأصوات ﴿الْبَصِيرُ﴾ العليم بالألوان والأعراض، والأطوال والغلظ والرقة، والقصر والحركات والسكنات وبالاعتقاد، فهو يقرِّب سيِّدنا محمَّدًا ﷺ درجات ويكرِّمه، وقيل: سميع لقول سيِّدنا محمَّد ﷺ بصير بأفعاله، وذلك يتضمَّن التهديد لمن ينكر إسراءه من الكُفَّار، وكان الإسراء إلى أرض المحشر ليطأها بقدمه للبركة على أمَّته إذا كانوا فيها، وليصلّي خلفه فيها الأنبياء كلُّهم، والملائكة، قيل: وروح كلِّ مؤمن.

(سيرة) [قلت:] والإسراء بجسده وروحه على الصحيح، لأنّه أعظم في الكرامة ولو كان بروحه أو في المنام لم يتعجَّب الكفار ذلك التعجُّب المفرط، ولم ينكروه ذلك الإنكار الكلّي، حتّى ارتدَّ بعض من آمن، نعم قيل: سرى

بروحه في النوم قبل ذلك بسنتين، ثمَّ سرى بجسده. ولم ير الله ولم يكن شيء مما يخالف صفات الله ﷻ.

سرى بدابَّة بيضاء تسمَّى "البراق" لصفائها أو لسرعتها كالبرق، وليست بذكر ولا أنثى، وفي العبارة تُذَكَّر لمعنى الحيوان مثلا، وتؤنَّث لمعنى الدابة، وهو من الجنَّة، سرى به من مكة إلى بيت المقدس، ومنه إلى كلِّ سماء عروج، فذلك سبع، والثامن إلى سدرة المنتهى، والتاسع إلى الكرسي، والعاشر إلى العرش، حمل من الحِجْر بين النوم واليقظة، فما استوى على البراق إلاَّ مستيقظا وذلك بعدما صلَّى العشاء، وذلك قبل الهجرة بسنة.

وَلَمَّا كذَّبوه أخبرهم بصفة بيت المقدس وأبوابه بعد أن مثل له عند دار عقيل، إذ لم يراع وصفه حين كان فيه، وبصفة البعير الذي يقدم أوَّلا، والبعير الذي نفر فانكسر، وشربه ماء القدح، وصدَّق أبو بكر أوَّل ما قيل له إنَّه قال كان في بيت المقدس، وقال: إن قال فقد صدق، وإنَّا لنصدِّقه في خبر السماء من العرش بلحظة، فقيل: سُمِّي صدِّيقا لذلك.

وقد قالت المهندسون: الشمس تساوي الأرض مائة ونيفا وستِّين مرة، ومع ذلك نشاهد طلوعها بسرعة في زمان لطيف، فكيف يستبعد الإسراء، وذكر بعض أنَّ الإسراء في ليلة والعروج في ليلة، وبعض أنَّ الإسراء في اليقظة والعروج في النوم، وبعض أنَّ الإسراء وقع مرَّتين مرَّة بروحه ومرَّة بجسده في يقظة، وبعض أنَّ الإسراء أربع مرَّات، **والحقُّ أنَّه مرَّة في اليقظة**، يتَّصل العروج في ليلة واحدة وقصَّتهما طويلة بسطتها في شرح القصيدة النونية:

تيمم نجـــدا في تلهُّـــفه الجاني يؤمُّ رسول الله للإنس والجـان

وفي هيمان الزاد.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾

أحوال بني إسرائيل في التاريخ

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة في الطور بعد المناجاة، كما أنزلنا عليك الكتاب وعرجنا بك، وهذا وجه الاتصال بما قبل، ولا سواء، فانظر كم بين ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ و﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وانظر كم بين ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (سورة الإسراء: ٩) ، وبين ﴿هُدًى لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ ، وبين ﴿خير أُمَّةٍ اخرجَتْ﴾ (سورة آل عمران: ١١٠) و﴿بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ وبَيْنَ ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ وَ﴿لَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾ (الأعراف: ١٤٣) . والعُبُودِيَّة لله تعالى وصف عظيم.

﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي الكتاب، أولى من أن يقال: جعلنا موسى ﴿هُدًى لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ متعلّق بـ«هُدًى»، واللام للتقوية، أو نعت «هُدًى»، أو مُتعلّق بـ«جَعَلْنَاهُ»، واللام للنفع ولا تقل: للتعليل ﴿أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي

وَكِيلاً﴾ «أَنْ» مفسِّرة لـ«ءَاتَيْنَا»، أو لـ«جَعَلْنَاهُ هُدًى»، أو لهما، فإنَّ إيتاءه وجعله هدى تكليف بالامتثال والازدجار، وذلك معنى القول دون حروفه. و«لاَ» ناهية، أو «أَنْ» ناصبة و«لاَ» نافية على تقدير الباء أو على. ومعنى ﴿وَكِيلاً﴾: ربٌّ يعبدونه من دون الله يتركون إليه أمرهم، أي موكولا إليه أمرهم، "فعيل" بمعنى مفعول.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ منصوب على النداء أي يا ذُرِّيَّة، أو يقدَّر يا ذُرِّيَّة مَن...الخ، أطيعوا واشكروا كنوح، أو على الاختصاص، كذا قيل، مع أنَّ ذُرِّيَّة أعمُّ من بني إسرائيل، وقد يجاب بأنَّ ذكر بني إسرائيل يحتمل أن يكون من جهة الذُّرِّيَّة لنوح، وأن يكون لوصف آخر كالذُّرِّيَّة للخليل عليه السلام، وكغير الذُّرِّيَّة. وبنو إسرائيل من نسل سام. ويجوز أن يكون «ذُرِّيَّةَ» بدلا من «وَكِيلاً»، أو مفعولا أوَّلاً و«وَكِيلاً» ثانيا، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَامُرُكُمُ, أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلآئِكَةَ...﴾(سورة آل عمران:٨٠) ومن ذُرِّيَّة المحمولين مع نوح عيسى وعزير ومريم، وفي ذكر الحمل إيماء إلى شكر النعمة بالإنجاء من الغرق وزاد في ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُ, كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فإنَّ الضمير لنوح الشكور، فاشكروا نعمة الإنجاء من الغرق ونعمة التوراة، وأنجاه الله لشكره، وفي ذلك حثٌّ لذرِّيته على الشكر ـ الإسرائيليين وغيرهم ـ، وكان يشكر الله على كلِّ حال، وذلك حكمة ذكره هنا.

وقيل: الهاء لموسى، لأنَّ الكلام سيق له بالذات، وأمَّا ذكر نوح فلو كان أقرب لكن ذكر بالعرض، وفيه أنَّه أشدُّ شكرا من موسى وشهرةً بالشكر، كما روي أنَّه إذا لبس قال: «الحمد لله الذي ألبسني، ولو شاء لأعراني»، وإذا احتذى قال: «الحمد لله الذي أحذاني ولو شاء لأحفاني»، وإذا أراد الأكل أو الشرب سمَّى الله سبحانه، وإذا أكل قال: «الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء

لأجاعني»، وإذا شرب قال: «الحمد لله الذي سقاني ولو شاء لأظمأني»، وإذا قضى حاجته قال: «الحمد لله الذي أذاقني لذّته وأبقى في منفعته، وأخرج عنّي الأذى ولو شاء لحبسه»، وإذا أراد الأكل عرض على من آمن به فإن وجده محتاجا آثره على نفسه، وإذا أصبح أو أمسى قال: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾(سورة الروم:١٧).

﴿وَقَضَيْنَآ﴾ ضمّن معنى أوحينا، فعدّي بـ«إلى»، وقيل: «إلى» بمعنى "على"، أي قضينا على بني إسرائيل، وضُمّن معنى القسم فأجيب باللام ونون التوكيد في قوله: ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾، ﴿إِلَى بَنِي إِسْرآئِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ التوراة أو الجنس، كما قرأ ابن أبي العالية، وابن جبير: «في الكُتُبِ»، بضمّ الكاف والتاء، ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ﴾ أرض بلاد بيت المقدس، أو مطلق الأرض لشيوع فسادهم فيها، ويجوز تقدير: وقضينا إلى بني إسرائيل بالإفساد قائلين: وا لله لتفسدنّ في الأرض، أي لتوقعنّ الفساد، ولا مفعول لـ«تفسد» أو يقدَّر: لتفسدنّ التوراة أو التكليف.

ذكر ا لله ﷻ أنه آتاهم التوراة، وأنّهم سيخالفونها بعد الإيتاء، ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ إفسادتين فهو مفعول مطلق، أو زمانين فهو ظرف زمان، الأولى قتل شعياء ومخالفة التوراة، والثانية: قتل زكرياء ويحيى، وقصد قتل عيسى. وقيل: أولاهما قتل زكرياء وحبس أرمياء، والآخرة قتل يحيى وقصد قتل عيسى، وقيل: موت زكرياء بعد قتل يحيى وقيل بالعكس.

(قصص) وسبب قتل يحيى أنّ ملكا أراد أن يتزوّج من لا تجوز له فنهاه، وقد وعد تلك المرأة قضاء حاجة في كلّ عيد، فقالت لها أمُّها: سليه دم يحيى، فألحّت عليه حتّى ذبحه في طست فوقعت قطرة في الأرض فلم تزل تغلي

حتّى قتل عليها سبعون ألفا، وقيل: راودته امرأة الملك وكان جميلا فأبى، فقالت لها أمُّها: سليه دمه، وكان كلُّ ملك في بني إسرائيل يبعث معه نبيء يسدِّده، ومنهم "صديعة" - بالعين المهملة أو بالقاف، أو "صداقيا" - بعث الله معه شعياء المبشِّر بعيسى ومحمَّد ﷺ، واستقاموا، ثمَّ عظمت الأحداث فجاءهم "سنجاريب" ملك بابل في ستمائة ألف راية، ونزل حول بيت المقدس، وصديعة مريض في فرسخ، فأوحى الله إلى شعياء أن إيت صديعة ومره أن يوصي، ويستخلف من شاء من أهل بيته، فقال صديعة: رضيت فصلَّى ودعا وتضرَّع، فأوحى الله إلى شعياء: إنِّي زدت له خمس عشرة سنة، أي هي من القضاء الأزلي، لكن بيَّن له أنَّ سببها تضرُّعه، وإنِّي أهلك عدوَّه فخرَّ صديعة ساجدا، وأصبح العدو موتى، فصرخ رجل على باب المدينة بموتهم فخرج الملك فلم يجد في الموتى سنجاريب فبحثوا فوجدوه في غار مع خمسة نفر من كنانة، أحدهم بخت نصَّر، فجيء بهم في القيود، فخرَّ صديعة من طلوع الشمس إلى العصر ساجدا، فأمر أن يطاف بهم حول بيت المقدس وإيليا سبعين يوما في القيود.

(قصص) فأوحى الله ﷻ إلى شعياء أن يرسل صديعةُ سنجاريب ومن معه لينذروا قومهم، ويكرمهم ويبلغهم مأمنهم، فلبث في بابل سبع سنين ومات واستخلف بخت نصَّر ابنه، ومات صديعة، وتنازع بنو إسرائيل الملك وتقاتلوا، ووعظهم شعياء موعظة عظيمة ألهمه الله إياها، وَلَمَّا فرغ قصدوه بالقتل فهرب، فانفلقت له شجرة فدخل فيها وأخذ الشيطان هدبة من ثوبه فأراهم إياها فنشروها حتّى قطعوها وقطعوه، وقيل: مات زكرياء على فراشه فيقتصر على ذكر يحيى في المرة الأولى.

واستخلف الله منهم ناشية بن أموص وبعث لهم أرمياء بن حلفياء نبيئا من

سبط هارون، ويقال: إنَّه الخضر، وأحدثوا واستحلُّوا المحارم فأوحى ا لله تعالى إلى أرمياء ـ بضمِّ الهمزة وشدِّ الياء، وقيل: بضمِّها و كسرها وتخفيف الياء ـ أن يذكِّرهم نعمه ويعرِّفهم بأحداثهم، ألهمه ا لله ﷻ خطبة بليغة وفي آخرها يقول ا لله ﷻ: «إنِّي حلفت بعزَّتي لأقيِّضنَّ لهم فتنة يتحيَّر فيها الحليم ولأسلِّطنَّ عليهم جبارا ذا هيبة أنزع الرحمة من قلبه يتبعه من العساكر مثل سواد الليل المظلم، وهو بخت نصَّر» فقتلهم وقتل علماءهم وأحرق التوراة وخرَّب بيت المقدس وألقى فيه الجيف، وسبى سبعين ألفا إلى بابل فمكثوا فيها سبعين سنة، ثمَّ سأل عن بيت المقدس وقتلاه، فقيل: بيت ا لله وعصوا ا لله فسلَّطك ا لله عليهم، وهؤلاء السبعون ألفا من ذُرِّيَّة الأنبياء فقال: أخبروني كيف أصعد إلى السماء وأقتل من فيها وأملكها وإلاَّ قتلتكم؟ فقالوا: لا يقدر أحد على ذلك، وتضرَّعوا إلى ا لله ﷻ، فأدخل ا لله بعوضة في منخره حتَّى عضَّت بأمِّ دماغه فما يسكن حتَّى يوطأ على أمِّ دماغه ومات، وشقُّوه فوجدوها عاضة فيه، وذلك انتقام وإظهار لقدرة ا لله ﷻ.

ورجعوا إلى الشام وبنوا و كثروا، ولا نسخة من التوراة لهم، فبكى عزير فقال له رجل وهو ملك: ما يبكيك؟ قال: فقد التوراة وبها قِوام دين ا لله ﷻ، قال: أتحبُّ أن ترجع إليك؟ فارجع إلى موضعك وتطهَّر وصم، ففعل، فأتاه بإناء ماء فشربه فمثلت التوراة في صدره، ووجدوا نسخة في موضع فقرأ وقابلوه بها و لم يغيِّر حرفا، ثمَّ بعد ذلك أحدثوا وقتلوا زكرياء، قيل: قتلوه ويحيى، وقصدوا قتل عيسى. والثلاثة من آل داود.

﴿وَلَتَعْلُنَّ﴾ تتكبَّرون على أهلها بالظلم لهم في أبدانهم وأموالهم وأعراضهم، وعن طاعة ا لله واتباع الحقِّ **﴿عُلُوًّا كَبِيرًا فَإِذَا جَآءَ﴾** حان وقرب **﴿وَعْدُ أُولاَهُمَا﴾** وعد عقاب المرَّة الأولى، أو الوعيد أي المتوعَّد به، أو **﴿وَعْدُ﴾**:

بمعنى الوقت، لوَّح بالعقاب في ذكر الإفساد والعلو، وذكره كذكر المعهود المذكور، وفي ذلك استعمال الوعد في الشرِّ كما يستعمل في الخير وهو شائع في القرآن، ودلَّ على إرادة العقاب قوله تعالى: ﴿**بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ**﴾ قوة وشدَّة في الحرب، وذلك تأكيد، كظلٍّ ظليل أي شدَّة شديدة، أو جرَّد من الشدَّة شدَّة، وذلك تجريد بديعي، وهو مبالغة.

وهم بخت نصَّر عامل هراسف على بابل وجنوده، وقيل: العمالقة، أو جالوت الخرزي البربري، أو سنجاريب من أهل نينوى، أرسل الله إليهم ملَكا يأمرهم من الله بقتال بني إسرائيل لعتوِّهم أكثر من عتي المشركين، أو وسوس لهم الشيطانُ أو عقلُهم بأن يقاتلوا بني إسرائيل، وذلك خلق من الله فسمَّاه بعثا بعثهم الله إليهم حين كذَّبوا أرمياء وجرحوه وحبسوه واختاره بعضهم.

﴿**فَجَاسُواْ**﴾ استقصوا في التفتيش عمن يجدونه فيقتلونه أو يأسرونه ويأخذون ماله ﴿**خِلَالَ الدِّيَارِ**﴾ مفرد أو جمع خلل كجبل وجبال، ظرف أي في منفرج الديار ديار بيت المقدس، قتلوا الكبار وسبوا الصغار وحرَّقوا التوراة، وخرَّبوا المسجد.

(أصول الدين) وذلك كلُّه خلق من الله وتسليط للكافرين على المؤمنين، كما يسلِّط الله الحيَّة والعقرب والأسد على من شاء، وذلك انتقام من بني إسرائيل لمعاصيهم على يد ظالم، ومنعت المعتزلة تسليط الكافر على المؤمن، وأوَّلوا البعث بعدم المنع، فعندهم أنَّ ذلك خلق من بخت نصَّر وجنوده والله بريء من ذلك، فلزمهم أن يكون غير الله خالقا، وأن يكون في الوجود ما لم يقرِّره الله.

﴿**وَكَانَ**﴾ أي الجوس خلال الديار، أو كان وعد العقاب، أو كان وعد

أولاهما ﴿وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾ لا يتخلَّف، والجمهور على أنَّ هؤلاء العباد خرَّبوا بيت المقدس وقتلوا بني إسرائيل قتلا ذريعا، وأسروهم وأحرقوا التوراة، وعن ابن عَبَّاس ومجاهد: جاسوا خلال الديار وانصرفوا بلا قتال.

(قصص) وكان بيت المقدس مبنيا لسليمان بالذهب والفضة والياقوت والزمرد وسائر الجواهر تأتي بذلك الجن من معادنه وبنوه له، وأخذ ذلك بخت نصَّر المجوسي إلى بابل مع سائر الغنائم، على سبعين ألفا ومائة ألف عجلة، وملك سبعمائة سنة وسَبى الأطفال والنساء وغيرهم، واستخدمهم مائة سنة، فسار ملك من المجوس بوحي الله إليه أن يستنقذ من بقي منهم، ويستنقذ الذهب والفضة ونحوهما، ويرجعهم إلى بيت المقدس، كأوَّل مرَّة ثمَّ رجعوا إلى المعاصي فغزاهم قيصر ملك الروم في البر والبحر، فسباهم وقتلهم وأخذ الأموال والنساء، وحمل تلك الأموال على سبعين ألفا ومائة ألف عجلة، وأودعه كنيسة الذهب. قال القرطبي: وهو فيها حتَّى يأخذه المهدي، ويردُّه إلى بيت المقدس وهو ألف سفينة وسبعمائة سفينة يومى بها على بابل حتَّى ينقله إلى بيت المقدس كما قال:

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ﴾ إذ تُبتم وأحسنتم، والمراد: نردُّ لكم، لكن عبَّر بالماضي لتحقُّق الوقوع، لأنَّ الردَّ لم يقع وقت الأخبار، بل بعد مائة سنة، واللام للتعدية والنفع، ولا داعي إلى كونها للتعليل كما هو ظاهر، وكما يناسب مقابلة لفظ «عليهم» بعد ﴿الْكَرَّةَ﴾ الدولةَ، وأصلُه الرجوع، سمِّيت لأنَّها تجيء بعد العدم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على الذين بعثوا عليكم من المجوس، بأن ألقى الله الشفقة عليهم في قلب "بهمن بن اسفنديار"، لَمَّا ورث الملك من جدِّه "كشاسف بن لهراسف"، فردَّهم إلى الشام، وملَّك عليهم الله ﷻ دانيال، وقيل بواسطة أمر "بهمن" بذلك، ألقى الله الشفقة في قلبه فردَّ بني إسرائيل إلى الشام، فاستولوا على من كان في الشام من أتباع بخت نصَّر، وقيل: تزوَّج امرأة إسرائيلية فطلبت أن

يردَّهم إلى الشام فردَّهم، فكانت فيهم أنبياء و كانوا أحسن مما كانوا قبل، وقيل: سلَّط داود على جالوت، ورُدَّ بأنَّه لم يكن مسجد الشام قبل داود فضلا عن أن يدخلوه أوَّل مرَّة، كما قال الله سبحانه، وابتدأ بنيانه بعد قتل جالوت و لم يتمَّه، وأتمَّه سليمان وأجيب بأنَّ حقيقة المسجد الأرض والحقُّ أنَّ المسجد قبل داود.

ومعنى "بخت" بالعبرانية: ابن أو عطية، و"نصَّر" بالشدِّ: صنم وُجدَ صبيا عند صنم و لم يعرف له أب فنسب إليه. و«عَلَيْهِمْ» متعلِّق بـ«رَدَدْنَا» أو بـ«الكَرَّةَ»، ولا حاجة إلى جعله حالا من «الكرَّة».

﴿**وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ**﴾ رددناها عليكم وأموال مِنَّا ﴿**وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا**﴾ مِمَّا كنتم عليه، أو من عدوِّكم، والنفير: النافر، وهو من ينفر إلى العدو للقتال، أو جمع نفْر ـ بسكون الفاء ـ كعبد وعبيد، أو اسم جمع له، أو مصدر على وزن فعيل، لأنَّه للسير أي خروجا وذهابا إلى القتال إذا دعوا إليه.

﴿**اِنَ اَحْسَنتُمُ, أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنَ اَسَأْتُمْ فَلَهَا**﴾ مفعول «أحسن» و«أساء» محذوف، أي أحسنتم أعمالكم وأسأتم أعمالكم، أو وأسأتموها، أو لا مفعول لهما، أي فعلتم الإحسان والإساءة، وكرَّر ذكر الإحسان لأنَّه أغلب في شأن الله، وأنَّه إذا فعله إنسان ينبغي له العود إليه، والكلام كلُّه مفعول لحال محذوفة، أي قائلين: ﴿اِنَ اَحْسَنتُمُ,...﴾، أو لمعطوف حذف مع العاطف، أي وقلنا: إن أحسنم فثواب الإحسان بالطاعة للمطيع، ولذلك قال: ﴿لأَنفُسِكُمْ﴾، وعقاب الإساءة على المسيء، فالمعنى: فعليها.

وجاءت اللام للمشاكلة كما شاكل بقوله: ﴿مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ (سورة النحل:١٢٦) «عَاقَبْتُمْ» و«عَاقِبُوا»، أو شبَّه العقاب بالثواب لجامع الترتب المطلق، فجرت الاستعارة التبعية باللام، إذ كان العقاب من جنس الثواب بالجامع المذكور، ففي قوله: ﴿فَلَهَا﴾ تهكُّم، أو اللاَّمَانِ للاستحقاق، قيل أو للاختصاص.

والإحسان [يكون] بكثرة العمل أو بتجويد أو بهما، وكذا في الإساءة، سواء لزمته الإساءة أو الإحسان، أو تعدَّياه إلى الغير، قال علي بن أبي طالب: «ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه» وتلا الآية. والتقدير: فالإساءة لها، على الترتيب بدون تقدير الخبر، كما لم يقدَّم «لأَنفُسِكُمْ»، ولك أن تقدِّره مؤخَّرا للحصر، أي: فلها الإساءة، لقصد التشديد بالزجر عن الإساءة، أو أسأتم لها، ولما حذف «أسأتم» وبقي ما لا يلي أداة الشرط وهو «لَهَا» قُرِنَ بالفاء، وهذا مما أغفلوه، نحو: آكل تمرا وإلاَّ فخبزا، والأصل: وإلاَّ آكل خبزا.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الاَخِرَةِ﴾ أي المرَّة الآخرة، جواب «إذا» محذوف تقديره: بعثناهم عليكم، يتعلَّق به قوله: ﴿لِيَسُوءُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ بردِّ هاء «بعثناهم» وواو «لِيَسُوءُواْ» إلى قوله: ﴿عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ على طريق الاستخدام، لأنَّ العباد أولي بأس المذكورين في المرَّة الأولى جالوت وجنوده، والمبعوثون هنا بخت نصَّر وجنوده، أو المذكورون أوَّلا بخت نصَّر وجنوده، وهنا مثلهم من جنسهم أو نَسبهم كملك بابل جودرز، أو خردوس.

ويجوز أن يقدَّر: بعثنا لكم قوما آخرين ليسوءوا وجوهكم، فلا استخدام، ويجوز تعليق اللام بجاء، والجواب محذوف للتهويل يقدَّر بعد قوله: ﴿تَتْبِيرًا﴾ أي كان ما يكون. ومعنى إساءة الوجوه: الغلبة والقهر بالسبي والقتل، حتَّى يظهر في وجوهكم أثر الذلِّ والحزن من قلوبكم، وتفصيل المجمل في المرَّتين أفادته الفاء للمرَّتين في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا﴾ فلم يبق للثانية إلاَّ الواو ينسحب على ما بعدها تفصيل الفاء الأولى.

(بلاغة) ولكن جيء هنا أيضا بالفاء للدلالة على أنَّ مجيء وعد عقاب المرَّة الآخرة لم يتراخ عن كثرتهم واجتماعهم، لشدَّة كفرهم للنعم، وللدلالة على أنَّهم ما زالوا يزدادون كفرا لزيادة النعم فاجأهم العقاب

حيث لا يحسبونه.

﴿وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ﴾ بيت المقدس للتخريب وأخذ أمواله ونقل ما بني فيه من أنواع الجواهر. والعطف على «لِيَسُوءُواْ»، وتقدير «بعثنا» هنا مع أنَّه قدِّر أوَّلا كالعبث إذ لا دليل عليه للاستغناء عنه، ومثل ذلك جعل هذه اللام للقسم. ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كذلك، أي دخولا مثل دخولهم أوَّل مرَّة، ودخولا ثابتا كدخولهم أوَّل مرَّة ولا داعي إلى تقدير: كائنين كما دخلوه أوَّل مرَّة. والتشبيه في كون الدخول للإفساد كما رأيت، أو في كونه بالسيف والإذلال، وتقدَّم عن ابن عباس أن لا قتل ولا نهب في الأولى.

﴿وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا﴾ ليهلكوا ما علوه إهلاكا، فـ«ما» موصول اسم مفعول به، شامل للعقلاء وغيرهم، كالبلاد، والهدم إهلاك، والرابط مقدَّر، ويجوز أن تكون موصولا حرفيا ظرفية أي ليوقعوا الإهلاك، أو يهلكوا ما قدروا عليه مدَّة علوِّهم.

(قصص) قيل: بعث عليهم بخت نصَّر في هذه المرَّة الثانية فخرَّب وقتل وسبى، وقيل: قتل نحو أربعين ألفا وسبى نحو سبعين ألفا، قيل: وجَدَ دمًا يغلي وهو دم يحيى، فصار يقتل حتَّى يسكن، فلم يسكن حتَّى قتل سبعين ألفا فسكن، وذلك دية الأنبياء.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾...إلخ هو مما في التوراة محكيا بالقول المقدَّر قبل ﴿إِنَ احْسَنتُمْ...﴾ كأنَّه أعيد القول هكذا قائلين، أو قلنا: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد المرة الأخرى ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ أي رجعتم إلى الإفساد مرَّة ثالثة ﴿عُدْنَا﴾ إلى العقاب لكم.

(سيرة) وقد عادوا إلى الإفساد بتكذيب رسول الله سيِّدنا محمَّد ﷺ

وقصد قتله مرارا كإلقاء الصخرة عليه في أعمال المدينة وفي الشام، وإطعام السمِّ وغير ذلك، فعاد الله ﷻ عليهم بتسليطه عليهم، فقتل قريظة وأجلى بني النضير، وضرب الجزية على الباقين، وبتسليط الأكاسرة عليهم، وضربهم الإتاوة عليهم ونحو ذلك، والعقاب ثلاث مرَّات والعود مرَّتان، لأنَّ الأولى ليست عودا.

وتلك العقوبات الثلاث في الدنيا، وأمَّا عذاب الآخرة ففي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ﴾ لم يقل لهم لزيادة ذمِّهم، وذكر ما به العقاب وهو الكفر، أو للعموم فيدخلون بالأولى ﴿حَصِيرًا﴾ موضعا حاصرا لا طاقة لهم عن الخروج منه، وهذا باعتبار أصله في الاشتقاق، مع أنَّه قد خرج عنه إلى معنى الموضع المسمَّى بالسجن.

(صرف) فلاعتبار معنى الموضع صحَّ الإخبار به عن المؤنَّث وهو جهنَّم، أو لم يقل: حصيرة لتأويل جهنَّم بالسجن، أو الحصير للنسب كما يقال: امرأة لَابِن، أي ذات لبن، وهو وجه في قوله تعالى: ﴿السَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ﴾ (سورة المزمِّل: ١٨) أو لحمل فعيل بمعنى فاعل على فعيل بمعنى مفعول، كامرأة كحيل أي مكحولة، وأمَّا كون التأنيث مجازيا فإنَّما هو في الظاهر وأمَّا في الإضمار فلا بدَّ من المطابقة نحو الشجرة قائمة، أو لتأويل الحصير بالبساط، أو لتأويله بمحصورة، وفعيل بمعنى مفعول لا يؤنَّث مع ذكر صاحبه، كأنَّه قيل: جهنَّم محصورة، أي محاط عليها لا سبيل لأحد إلى جعل باب أو ثلمة للخروج منها، أو إلى الغلبة عليها.

لَمَّا ذكر الله ﷻ الإسراء وبعض أخبار التوراة وموسى ﵇ في القرآن أثنى على القرآن المشتمل على ذلك وغيره من الحكم والمصالح والشرعيات فقال:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾

من أهداف القرآن الكريم

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي﴾ كلَّ أحد هداية بيان، فالحذف للعموم، أو يقدَّر يهدي المؤمنين أي مشارفي الإيمان، أو المراد: زيادة تأثير الهدى **﴿لِلتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾** أي للسيرة التي هي أقوم، أو للطريقة التي أو للملّة التي، أو للحالة التي، أو للخصلة التي، ونحو ذلك مما هو مقبول، فتذهب النفس كلَّ مذهب لائق، وذلك من بلاغة القرآن، ولو صرَّح بواحد من ذلك لم تذهب النفس إلى غيره بل تقتصر عليه.

ومعنى «أقوم» أعدل وأصوب، و«أقوم» تفضيل على بابه لأنَّ في القرآن ما ليس في الكتب السابقة من القوام، ولأمَّته ما ليس لأممها، أو على فرض أنَّ في غيره من دعوى الناس صلاحا فالقرآن أصلح، أو خارج عن بابه أي للتي هي قيمة، وأسند الهدى للقرآن على طريق المجاز العقلي، لأنّه آلة للمهتدي أو لمعنى الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب.

﴿وَيُبَشِّرُ الْمُومِنِينَ﴾ يشتمل على التبشير، والمبشِّر حقيقة هو الله، ولكن أسنده إلى المحل وهو القرآن، أو إلى ما به التبشير وهو القرآن **﴿الذِينَ يَعْمَلُونَ**

الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي بأنَّ لهم أجرا عظيما كثرة وجودة هو الجنَّة وجميع ما لهم فيها.

(أصول الدين) ومن مات من أهل التوحيد مُصِرًّا لم يدخل الجنَّة بل النار، ومن مات منهم تائبا دخل الجنَّة بمرتبته، وأهل الجنَّة متفاوتون فيها.

﴿وَأَنَّ الذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِالاَخِرَةِ﴾ والحساب والثواب والعقاب فيها، **﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا اَلِيمًا﴾** العطف على **﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾** وكأنَّه قيل: ويبشِّرهم ـ أي المؤمنين ـ بأنَّ لأعدائهم الكافرين عذابا أليما، بشَّرهم بالثواب لهم وعقاب أعدائهم وما يصيب عدوَّك من الشرِّ سرور لك. ولا حاجة إلى تقدير معطوف على «يبشِّر» هكذا: ويخبرهم أنَّ الذين لا يؤمنون، على حدِّ «علفتها تبنا وماء باردا».

ويجوز تقدير «يبشِّر» على التهكُّم، أي ويبشِّر الكافرين بأنَّ الذين لا يؤمنون...الخ والكافرون هم الذين لا يؤمنون، ومن أجاز استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه أجاز استعمال المذكور في الآية على حقيقته للمؤمنين، وفي معنى التهكُّم بالعذاب في الكافرين.

ويجوز استعماله بمعنى مطلق الإخبار، مجاز مرسل لعلاقة الإطلاق والتقييد، والمراد عذاب جهنم، وهو أشدُّ عذاب في ذاته، ومن حيث إنَّه عذاب لا يحتسبونه. ودخل في ذلك اليهود والنصارى، لأنَّهم يطمعون في الجنَّة والنجاة من النار، وقد هيِّئت لهم النار فيدخلونها، وهم لم يحتسبوها لأنَّهم لم يؤمنوا بالآخرة، لأنَّهم قالوا: تبعث الأرواح دون الأجساد. ومعنى **﴿اعْتَدْنَا﴾**: هيَّأنا وأحضرنا، والتاء أصل، والهمزة همزة "أَفْعَل".

﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ﴾ المراد الجنس لا مخصوص معهود. وحذف الواو من «يدعو» بيانا للأصل في أنَّ شأن ما حذف لفظا أن يحذف خطًّا، ولم يكثر ذلك بل جاء في مواضع، وحذف لفظا لسكون حكمًا، ولو كسرت بحركة النقل، وذلك من عدم الاعتداد بالعارض. ﴿بِالشَّرِّ﴾ على نفسه وأهله إذا ضجرا أو غضب، لقلق أو همٍّ كالموت والفقر ﴿دُعَآءَهُ, بِالْخَيْرِ﴾ مثل دعائه بالخير لنفسه أو أهله، في الإلحاح والحرص وطيب نفس، وقد يلتحق بذلك أن يلحَّ في شيء أو عدمه قبل التأمُّل في عاقبته بلا غضب ولا ضجر، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ (سورة البقرة:٢١٦).

وذكر بعض العلماء أنَّه لا يستجاب للإنسان في الدعاء بالشرِّ على نفسه أو أهله، ويردُّه قوله ﷺ: «**لا تدعو على أنفسكم، لا تدعو على أولادكم، لا تدعو على أموالكم، لئلاَّ توافقوا من الله تعالى ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم**»[1] والمراد بالخير: الخير في نفس الأمر وفي الشرع، فتحسن مقابلته بالشرِّ، وذلك دعاء باللسان.

[قلت:] ويبعد تفسير الدعاء بفعل السوء المفضي إلى الشرِّ إذ هو خلاف الظاهر، ولا دليل عليه ولو صحَّ المعنى، وكذا لا يفسَّر الدعاء به وبالدعاء باللسان جميعا إذ لا دليل عليه، ولا يجوز أن تكون الباء بمعنى في، أي يدعو في وقت الشرِّ كما يدعو في وقت الخير، أو سببية بمعنى يدعو بسبب شرٍّ أصابه أو متعلّقاته، لأنَّ المقام مقام زجر، كما قال: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ المراد: الجنس المذكور أيضا يسارع إلى ما يخطر بباله بلا نظر في العاقبة، ولا يعزى أحد من عجلة لو تركها لكان أصلح له في الدين أو الدنيا أو فيهما، وأظهر الإنسان

١- رواه **أبو داود** في كتاب الصلاة باب النهي عن أن يدعو الإنسان على أهله وماله، رقم١٥٣٢. **والهيثمي** في موارد الظمآن، برقم ٢٤١١. من حديث جابر.

في مقام الإضمار له لزيادة البيان والمقام للتعليل.

وقيل: المراد بالإنسان الأخير آدم، «وال» للعهد الذهني، [قلت:] ولا دليل لهذا بل الدليل على خلافه، لأنَّ الجملة كالتعليل لما قبله لكن أظهر الإنسان تأكيدا، وعلى أنَّه آدم يكون وجه اتصاله بما قبله الإيماء إلى أنَّ العجلة بالدعاء بالشرِّ موروثة من عجلة آدم، ولا شرَّ فيها.

(قصص) [قيل:] لَمَّا بلغت الروح إلى سرَّته أو صدره عالج النهوض فسقط، ويقال: لَمَّا بلغت الروح سرَّته وقد نظر إلى ثمار الجنَّة نهض ليأكل، وقال ابن مسعود: لَمَّا بلغت عينيه نظر إلى ثمار الجنَّة، وَلَمَّا بلغت جوفه اشتهى أكلها، فوثب إليها فسقط، وعن سلمان: خلق الله الحياة في رأسه أوَّلا ثمَّ في جسده شيئا فشيئا، وبقيت رجلاه بعد العصر، فقال: يا ربِّ اعجل لي قبل الليل، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الإنسَانُ عَجُولاً﴾ قلت: وعرف الليل باسمه تعليما من الله ﷻ، أو بزمانه من حيث أنَّه رأى الشمس تذهب.

(سبب النزول) ودفع رسول الله ﷺ أسيرا إلى سودة بنت زمعة فأرخت له بعض كتافه رحمة لأنينه، فهرب فدعا عليها بقطع يدها ثمَّ ندم، فقال: **«اللهمَّ إنَّما أنا بشر فمن دعوت عليه فاجعل دعائي رحمة له»** فنزلت عليه ﷺ هذه الآية: ﴿وَيَدْعُ الإنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَآءَهُ, بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإنسَانُ عَجُولاً﴾، وروي أنَّه ﷺ أتى عائشة بأسير وأمرها أن تحتفظ عليه فاشتغلت مع امرأة فذهب، فسأل عنه فقالت: لا أدري، فقال: **«قطع الله يدك»** فخرج فصاح به فوجدوه فرجع فوجدها تقلِّب يديها، فقال: ما لك؟ قالت: انتظر دعوتك، فرفع يديه فقال: **«اللهمَّ إنَّما أنا بشر آسف وأغضب فأيُّ مؤمن أو مؤمنة دعوت عليه بشرٍّ فاجعل دعائي له بركة وطهرا»** ونزلت الآية، وذلك على العموم بحيث يصدق عليه ﷺ فيكون قد لوَّح له أن يقول: «اللهمَّ اهدها»

مكان «اللهمَّ اقطع يدها».

ويبعد أنّه ﷺ لم يرد الدعاء بسوء بل أراد كما تقول العرب: «لك الويل» و«تربت يداك» ولا يقصدون شرًّا، وأجيز أن يراد مثل من يقول: ﴿فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾(سورة الأعراف:٧٠) ومثل النضر بن الحرث القائل: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ...﴾ (سورة الأنفال:٣٢) فأجيب له فقتل في بدر مقبوضا.

وفيه ردٌّ لما مرَّ أنّه لا يجاب للداعي بالشرِّ على نفسه، ويجاب أنّه أراد النضر لعنه ا لله بالدعاء الإهلاك في حينه و لم يهلك في حينه، وأيضا أراد الإهلاك بـا لله لا بواسطة مخلوق وأيضا لعلّه أراد بالدعاء التهكُّم بأنَّ المؤمنين ليسوا على الحقِّ، لا الدعاء الحقيق «وال» على ذلك أيضا للعهد.

﴿وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَهُ تَفْصِيلاً ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَنٍ أَلْزَمْنَهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَباً يَلْقَيهُ مَنشُوراً ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَبَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴿١٤﴾ مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَهَا تَدْمِيراً ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ﴿١٧﴾﴾

التذكير بنعم الله في الدنيا ودلائل القدرة الإلهية

﴿وَجَعَلْنَا الْيْلَ﴾ قدَّمه لتقدُّمه وجودا ومنه ينسلخ النهار، ولأنَّ به ظهور غرر الشهور العَرَبِيَّة، ولترتيب غاية النهار عليها بلا واسطة، ولافتتاح السورة به إذ قال: ﴿سُبْحَانَ الذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾. ﴿وَالنَّهَارَ﴾ ظلمة الليل وضوء النهار، واستمرار تعاقبهما، وإيلاج بعض في بعض مع إمكان غير ذلك لحكمة ﴿ءَايَتَيْنِ﴾ دالَّتين على قدرتنا ووحدتنا، والجعل بمعنى الخلق، فـ«ءَايَتَيْنِ» حال مقدَّرة، لأنَّ الدلالة بهما بعد وجود من يستدلُّ بهما، وجعل حالا لأنَّه بمعنى المشتقِّ، أي دالَّين، أو للتصيير فهو مفعول ثان، وهو من التصيير الذي لم يتقدَّمه غيره، كقولك: «ضيِّق فم البئر» أي من أوَّل لا عن وَسْعٍ سابق، وقولك: «وسعه» أي من أوَّل لا عن ضيق سابق، و«أَدِرْ جيبها» و«سبحان من صغَّر البعوضة و كبَّر الفيل» إلاَّ أن يراد أنهاه من صغر لكبر.

﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ الْيْلِ﴾ الإضافة للبيان، أي آية هي الليل، ومحوه: محو آخره بأوَّل النهار، وفي هذا إبقاء المحو على حقيقته وهي إزالة الثابت قبل، وهي إزالة ظلمته، وهي الأصل الذي خلق عليه الليل، فأخبرنا الله عَجَّلَّ بأنَّه يزيل هذه الظلمة بضوء النهار.

وقيل: المعنى جعلنا الليل مظلما من أوَّل كقولك: «وَسِّع فم البئر»، وهذا ولو كان مجازا لكن دلَّ عليه مقابلته بجعل آية النهار مبصرة، واعترض بأنَّ مقابلته بجعل النهار مبصرا لا توجب حمله على المجاز لفائدة بيان إبقاء بعض الزمان على أصله، وجعله بعضه مضيئا، ولا يقال لا فائدة في تفسير المحو بحقيقة زائدة على ما بعده، لأنَّا نقول فائدته الإعلام بأنَّ الليل مظلم أصالة والنهار مزيل للإظلام الأصيل، ولو اقتصر على ذكر إبصار النهار لم يفد أصالة ظلمة الليل صراحا.

﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ النَّهَارِ﴾ مثل ذلك أي آية هي النهار ﴿مُبْصِرَةً﴾ مضيئة،

عبَّر عن الإضاءة بالإبصار لأنَّ الإضاءة سبب لحصول الإبصار بالعين، وذلك من إطلاق اسم المسبَّب على السبب، ويجوز أن يكون الإبصار لتعدية بصر، يقال: بصر بالشيء إذا علمه، فمعنى أبصرت الشيء علمته لا رأيته.

(بلاغة) وإسناد الإبصار إلى النهار من الإسناد إلى السبب، أو مبصرة للناس من أبصره فبصر، فيكون من الإسناد إلى السبب العادي، والمبصر حقيقة هو الله، فيكون ذلك مجازا عقليا، أو مبصر أهلُه برفع أهل، فيكون من الإسناد إلى الزمان الملابس، كقولك: أضعف الرجل إذا ضعفت ماشيته، وأجبَنَ إذا جبن أهله، من الإسناد إلى ملابس الفاعل غير الزمان، فلك أن تقول من باب حذف المضاف.

أو الآيتان: الشمس والقمر أي وجعلنا نيِّري الليل والنهار آيتين، أو جعلنا الليل والنهار آيتين بنيِّريهما وهما الشمس والقمر، أو جعلنا الليل والنهار ذوي آيتين، وذلك أنَّه لم يجعل ضوء القمر كضوء الشمس بل دونه، ويزداد وينقص وضوء الشمس فيها وضوء القمر منها، وكان القمر كالشمس في النور فكانت شمسان من نور عرشه فمحاه جبريل إلى حاله الآن كذا قيل، فالسواد الذي فيه أثر المحو، جاء الحديث بذلك.

وعن عكرمة: خلق الله نور الشمس سبعين جزءا ونور القمر كذلك، وأزيل منه إليها تسعة وستون فلها مائة وتسعة وثلاثون جزءا، فالقمر على جزء واحد، وفي رواية: محاه جبريل ثلاث مرَّات، وبقي كما هو الآن، وعلى غير هذا يكون المحو بمعنى جعل الليل كما هو من أول، لا محو عن شيء آخر.

﴿لِّتَبْتَغُواْ﴾ تطلبوا **﴿فَضْلاً﴾** رزقا **﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾** بالكسب في النهار، وهذا عائد إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ متعلِّق به، وقوله: **﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾** عائد إلى قوله: **﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ الَّيْلِ﴾**

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ فيقدَّر له متعلَّـق، أي فعلنـا ذلـك لتعلمـوا، ويجوز تقدير هذا قبل قوله: ﴿لِتَبْتَغُواْ﴾.

والمعنـى: لتعلمـوا بتعـاقب الليـل والنهـار عـدد السنين والحسـاب لأوقـات المعاش: كآجال الديون والإجارات، وأوقات الزراعة، وأوقات الدِّين: كـالصلاة والحجِّ والصوم والزكاة، ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾(سورة البقرة:١٨٩) ولا يتكرَّر ذكر الحساب مع عـدد السـنين لأنَّ العـدد موضـوع الحسـاب لا نفسـه، والعدد شيء حاصل، والحساب فعل الحاسب.

(نحو) وإنَّما لم أعلِّق «لِتَعْلَمُواْ» بـ«مَحَوْنَا» لوجـود العـاطف، وليـس من باب العطف على معمولي عامل أو نحوه، ولا يتعلَّق بـ«مَحَوْنَـا» و«جَعَلْنَـا» التعلُّق الاصطلاحي إذ لا يعمل عاملان في واحد، والعـاطف أيضا مـانع، وثنَّـى «آية» هنا وأفردها في قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وابْنَهَا ءَايَةً﴾(سورة الأنبياء:٩١) لتباين الليل والنهار من كلِّ وجه، وتكرُّرهما، بخـلاف عيسـى ومريـم عليهمـا السـلام فإنَّهما لا يتكرَّران، وعيسى كجزء من مريم.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ يُحتـاج إليـه في ديـن أو دنيـا، لا كـلَّ شـيء علـى الإطلاق، ونُصب على الاشتغال في قوله ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ أي وفصَّلنا كـلَّ شيء فصلْنـاه ﴿تَفْصِيلاً﴾ أي بيَّنـاه تبيـينا لا مزيـد عليـه بـالقرآن، أو السـنة أو اجتهـاد العلمـاء، وذلـك كقولـه تعـالى: ﴿مَا فرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾(سورة الأنعام:٣٨) وقولـه: ﴿وَنزَّلْنَـا عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ تِبْـيَانًا لِّكُـلِّ شيْءٍ﴾(سورة النحل:٨٩) . ويبعد نصب «كُلَّ» عطفًـا علـى «الْحِسَـابَ»، أو على «عَدَدَ» فيكون «فصَّلْناه» نعتا لـ«شَيْءٍ».

وكذا في قوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ﴾ أي إنسان مكلَّف، وأمَّا غير مكلَّف فـلا

حساب عليه ولا كتاب لـه، إلاَّ ما عمـل مـن حسـنات ﴿**أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ, فِي عُنُقِهِ**﴾ أي وألزمنا كلَّ إنسان ألزمناه.

(نحو) والاشتغال من باب التوكيد اللفظي مع اختصار بالحذف، ولا يقدَّر للتوكيد كلُّ ما للمؤكَّد، فلا يقدَّر لـ«ألزمنا» المقدَّر «طائر في عنقه»، لأنَّ المراد تأكيد الإلزام فقط، كما أنَّ الفاعل لـ«أتاك» الأوَّل فقط، ولا فاعل للثاني في قوله:

فأين إلى أين النجـــاة بـبـــغلتي أتاك أتاك اللاحقون أحبس أحبس

وكما أنَّه لا خبر لـ«أنَّ» الثانية في قولك: إنَّ زيدا إنَّ زيدا قائم.

و﴿طَائِرَهُ﴾: عمله والتقدير الأزلي، شبَّه التقدير الأزلي والمقدَّرات من حيث كونها سببا للفعل المكتسب بالطائر، على زعم العرب، ووجه الشبه المجيء من المقر الأصلي وهو الفضاء، ومقرِّ الطائر، كانوا إذا أرادوا سفرا أو تزوُّجا ونحو ذلك أنفروا طائرا عن مكانه، فإذا سنح ـ أي ذهب إلى يمينه ـ فرحوا وفعلوا، أو برح ـ أي ذهب إلى يساره ـ تركوا، ويعتبرون أيضا علوه إلى الجو وإلى غير ذلك، فينسبون السعادة والنحوسة إلى ذلك، ويعتبرون أيضا طيرانه بنفسه، أو بإزعاج في ذلك.

وكذلك يعملون بالوحش كالغزال فيزعجونه فيذهب يمينا وشمالا، وعبارة بعض: لَمَّا كثر ذلك منهم سمُّوا نفس الخير والشرِّ بالطائر، وتسمية للشيء باسم لازمه، وعبارة بعض: جعلوا الطائر سببا للخير والشرِّ، وأسندوهما إليه بالسنوح والبروح، فاستعير الطائر استعارة تصريحية لَمَّا كان سببا لهما، وهو قدر الله والمقدَّر من عمل العبد، وكما أنَّ الطائر ينتقل من عشِّه ـ وهو ما يبنيه من عيدان ونحوها في شجرة أو حائط ـ أو وكرئه ـ وهو ما في جبل أو أرض أو حائط بلا بناء بنحو

العيدان ـ إلى موضع، كذلك الحوادث تنتهي إلى الإنسان من علم ا لله ﷻ.

وعن ابن عَبَّاس ﴿طَآئِرَهُ﴾: عمله، أو الطائر ما يطير إليه أي ينوبه. وذكر العنق لأنَّه محلُّ الزينة كالقلادة، والشين كالغلِّ، وما قدَّر ا لله لأحد صار كالطائر يطير.

وعن مجاهد: ما من مولود يولد إلاَّ وفي عنقه ورقة مكتوب فيها سعيد أو شقي، ويروى: إنَّ النطفة تجول في جسد المرأة كلِّه حتَّى الظفر، وإذا تمَّت أربعون يوما نزلت دما في الرحم، ويبقى الدم أربعين ثمَّ المضغة أربعين، وإذا تمَّت أربعة أشهر صوِّر بشعر وطول وقصر ولون وذكورة وأنوثة وجمال ودمامة، وكمال ونقص، ونفخ فيه الروح بسعادة آخر ذلك أو شقاوة.

قال ابن مسعود: يا رسول ا لله ما أوَّل ما يلقى الميِّت في قبره؟ قال ﷺ: **«ما سألني عنه أحد إلاَّ أنت، أوَّل ما يناديه ملك اسمه "رومان" يجوس خلال المقابر، فيقول: يا عبد ا لله اكتب عملك، فيقول: لا دواة ولا قرطاس، فيقول: كفنك قرطاسك ومدادك ريقك وقلمك إصبعك، فيقطع له قطعة من كفنه فيكتب حسناته وسيِّئاته ولا ينسى شيئا كيوم واحد، ولو كان لا يكتب في الدنيا، ويطوي الملك القطعة ويعلِّقها في عنقه»**[1] ثمَّ قال ﷺ: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ اَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ, فِي عُنُقِهِ﴾.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُ, يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا﴾ مكتوبا فيه عمله ﴿لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً اِلاَّ أَحْصَاهَا﴾(سورة الكهف:٤٩) ﴿يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ قال الحسن: «بسطت لك صحيفة ووكِّل بك ملك عن يمينك يكتب حسناتك، وملك عن يسارك يكتب سيِّئاتك، وإذا متَّ طويت وجعلت معك في قبرك، حتَّى تخرج لك يوم القيامة».

١- أورد **الألوسي** في تفسيره (ج٥، ص٣٢) ما يقاربه لفظا، وقال: «أخرجه ابن جرير عن الحسن».

(نحو) و«كِتَابًا» مفعول به لـ«نُخْرِجُ» أو حال من مفعول محذوف هو ضمير الطائر، أي ونخرجه له كتابا، و«يَلْقَاهُ» و«مَنشُورًا» نعتان لـ«كِتَابًا» وذلك من تقديم النعت بالجملة على النعت بالاسم، فالأولى أنَّ «مَنشُورًا» حال من الهاء على أنَّها للكتاب، وضمير «يلقى» للإنسان وجاز العكس.

ينزع الملك كتابه من عنقه وينشره فيقول له: اقرأ كتابك، كما قال الله ﷻ: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ أي يقال له: اقرأ كتابك، وجملة: «يقال له...» مستأنفة، أو حال أو نعت، وتمَّ المقول في قوله: ﴿حَسِيبًا﴾. وذلك النزع هو تطاير الصحف، أو تنزل صحف من السماء مطابقة لما في أعناقهم، لا تغايرها شيئا.

وزعم بعض أنَّ الكتاب في الموضعين نفس الإنسان المنتقشة بآثار أعماله، فإنَّ الأفعال الاختيارية تحدث في الروح آثارا تدلُّ على تلك الأفعال كأنَّها صورها، ولذلك يفيد تكرارها لها ملكات أي كيفيات راسخة، وتلك الآثار قبل رسوخها أحوال، وبعدها ملكات، ولا بدَّ مع ذلك أن يعطى كلُّ أحد كتابه بيمينه أو شماله وإلاَّ كفر القائل بذلك.

﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ﴾ الباء صلة و«نفس» فاعل، ﴿الْيَوْمَ﴾ في هذا اليوم يوم القيامة، ﴿عَلَيْكَ﴾ متعلّق بقوله: ﴿حَسِيبًا﴾ حاسبا، كضريب بمعنى ضارب، وصريم بمعنى صارم، يقال: حسب عليه كذا، أو كجليس وخليط وعشير بمعنى المحاسب والمخالط والمعاشر، أو بمعنى الكافي، وضع موضع الشهيد، فعدِّي بـ«على» لأنَّ الشاهد يكفي المدَّعِي ما أهمَّه، وهو تمييز أو حال، وهو أولى، لأنَّ الأصل في التمييز أن لا يكون مشتقًّا، وعلى كلِّ حال لم يؤنَّث لتأويل النفس بالشخص، أو لتأويل «حسيبا» بشيئا حسيبا، أو رجلا حسيبا.

[قلت:] ومن شأن الشهادة والقضاء ونحوها أن يتولاَّها الرجل، والكلام في المرأة والرجل تحمل لشمول الإنسان لهما في قوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ اَلْزَمْنَاهُ﴾ وإذا قدِّر: إنسانا حسيا أو شيئا حسيا أو شخصا حسيا صدق بالمرأة.

﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ ثواب اهتدائه له لا ينفع غيره ممن لم يهتد ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ عقاب ضلاله عليه لا على من لم يباشره، كلُّ أحد يعاقب بما عمل، ومن أمر بسوء فأمره فعل له يعاقب عليه، ومن تبعه عوقب على فعله من اتباعه، وذلك تحقيق لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ اَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ, فِي عُنُقِهِ﴾.

﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ لا تذنب نفس وازرة ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ نفسا أخرى أي لا تتَّصف بذنبها فلا تؤاخذ به، فتتخلَّص منه الأخرى، ولا تعاقبان به معا، وفي ذلك ردٌّ على من يقول: إن لم نكن على الحقِّ فالتَّباعَة على الأسلاف الذين قلَّدناهم، كما قال الوليد بن المغيرة: اكفروا بمحمَّد ﷺ، وعليَّ وزركم، وهو سبب نزول الآية، وأمَّا قوله: ﴿مَنْ يَّشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً...﴾(سورة النساء:٨٥) وقوله: ﴿لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ...﴾(سورة النحل:٢٥) فهما من انتفاع الإنسان بحسنة نفسه، وهي إعانته على الخير أو هداه إليه، ومن تضرُّر سيِّئة نفسه، وهي إضلاله غيره أو إعانته على معصيته، وهذا تأكيد لقوله: ﴿وَمَن ضَلَّ...﴾.

وأمَّا قوله ﷺ: «**إنَّ الميِّتَ ليعذَّب ببكاء أهله عليه**»[1] فمحمول على ما إذا أمرهم بالبكاء أو علم أنَّهم يبكون إذا مات ولم ينههم، فقد عذِّب بفعل

١- رواه **الربيع** في مسنده، كتاب الجنائز، باب في القبور، رقم٤٨٢، من حديث ابن عبَّاس. ورواه **مسلم** في كتاب الجنائز (٩) باب الميِّت يعذَّب ببكاء أهله عليه، رقم١٦ (٩٢٧) من حديث نافع عن عبد الله.

نفسه، أو عذابه في قبره ضيْقُه بهم، فهو كعذاب الدنيا، وهو في القبر لا عذاب عقاب، أو الميِّت: المحتضر يتضرَّر ببكاء أهله إذ كرهه.

(فقه) وأمَّا عقل دية الخطأ فليس عقابا بل تشريع بالمعاونة، ألا ترى أنَّ القاتل لا ذنب له؟ فكيف قومه، وأمَّا رواية عائشة عنه ﷺ: «**أطفال المشركين في النار**» فلم تصح ثمَّ رأيت والحمد لله أنَّ عمر بن عبد البر ضعَّفها وأمَّا قوله ﷺ لمصعب بن جثامة إذ قال: «**نصيب ذراري المشركين في البيات هم منهم**» فمعناه أنَّهم منهم في الحكم، كالاسترقاق وهم في الجنَّة لقوله ﷺ «**سألت ربِّي في اللاهين** ـ يعني أطفال المشركين ـ **فأعطانيهم خدما لأهل الجنَّة**»[1].

وروى الحكيم الترمذي وابن عبد البر عن أنس عنه ﷺ: «**أولاد المشركين خدم لأهل الجنَّة**»[2] وروى البخاري أنَّه ﷺ رأى الخليل وحوله أولاد الناس، فقالوا: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ قال: «**وأولاد المشركين**»[3]، وبذلك أقول لتلك الأحاديث ولآية: ﴿لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وقد قيل: نزلت الآية فيهم، وأيضا قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ...﴾.

﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ**﴾ أي لأحد في الدنيا أو الآخرة أو فيهما على الدين ﴿**حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾ يُبَيِّنُ له ما يجب عليه وما يحرم عليه، والمراد: ما عذَّبنا

١- أورده **الهندي** في الكنز، ج١٤، ص٤٧٢، رقم ٣٩٣٠٦، وقال: «أورده أبو الحسن في أماليه من حديث أنس».

٢- أخرجه **الحكيم الترمذي** في كتابه نوادر الأصول، و**ابن عبد البر** في كتابه التمهيد، ج١٨، ص١١٨، من حديث أنس.

٣- رواه **البخاري** في كتاب التعبير (٤٨) باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، رقم ٧٠٤٧، من حديث سمرة بن جندب.

أحدا قبل التبليغ بل بعده، فكذلك أنتم تعذّبون إن لم تؤمنوا لأنّا قد بلّغناكم، وهذا أولى من أن يقال: مضى قضاؤنا الأزلي أن لا نعذّب أحدا بعد الأزل إلاّ بعد التبليغ.

(أصول الدين) وقد بعث الله الرسل فلا يعذر أهل الفترة في التوحيد ولا فيما دونه، ولو لم يجدوا مخبرا، هذا مذهبنا، والواضح أنّهم لا يعذرون في الشرك لأنّهم عقلاء، والموجودات دلائل الله يعرفونه بها، وأغفلوا النظر فعوقبوا على الإغفال.

وبعثة الرسول منبّهة، وما دونه، لأنّهم يسمعون أنّ ببلد كذا عالما، وأنّ في بلد كذا شجرة كتب فيها التوحيد، ونحو ذلك، ومع هذا لا يتمّ أنّه بلغهم ذلك كلّهم، فالظاهر أنّ أهل الفترة قد لا يبلغهم الخبر فهم معذورون في غير التوحيد، ولو كان مجرّد الوحي قاطعا للعذر، ولو بلا سماع لزم كفر من لم يبلغه الوحي في زمانه ﷺ أيضا، فيكفر من في المدينة حتّى يجيئه الخبر من مكة، وبالعكس وكذا سائر البلاد.

وكيف يقول الله ﷻ لأهل الفترة: ﴿أَلَمْ يَاتِكُمْ نَذِيرٌ﴾(سورة الملك:٨)؟ وكيف يقولون: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَيْءٍ...﴾(سورة الملك:٩) ونحو ذلك، ولزم الشرع من علم أنّ نبيئا أرسل إلى أحد كأنّه أرسل إليه، وجاء الحديث بأنّ أهل الفترة في النار، وقال ﷺ لقومه وغيرهم: «**آباؤكم في النار**» ولم يقيّد بعدم السماع.

قال الحليمي: «إذا بلغ عاقلا خبرٌ وجب عليه التأمّل فيه، وإن أهمل أشرك» ويبعد أن يوجد أحد لم يبلغه خبر نبيء لكثرة الأنبياء، وطول أزمانهم، وكثرة من آمن وكثرة من عاند و خالف، فتلزمه الحجّة ولو بخبر من كفر.

(أصول الدين) وزعمت الأشعرية أن لا تكليف قبل البعثة ولزمهم إباحة الإشراك، ومذهب أبي حنيفة أنَّ من لم تبلغه الدعوة إن لم يصدِّق بوجود الله تعالى ووحدانيته يخلد في النار، لكونه عاقلا، وجعل الرسول عامًّا للعقل. والآية ردٌّ على المعتزلة في قولهم بالحسن والقبح العقليين، وأنَّ العقل يحكم بالوجوب والتحريم، طبق حكم الله ولا يخالف، **وهو خطأ فاحش**، والعقل عاجز عن ذلك كما لا يخفى عن كلِّ أحد، وهو مخالف للقرآن لنص القرآن أنَّ الحجَّة الرسل على العقلاء.

﴿**وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا**﴾ بالطاعة على لسان الرسول المبعوث إليهم، وليس في ذلك ابتداء بالضرِّ وهو منزَّه عنه لأنَّ التكليف حكمة لا يجوز تخلُّفها فلا ضير في عقاب من عصى وليس ابتداء.

أو كثَّرنا مترفيها كقوله ﷺ : «**خير المال سكَّة مأبورة، ومهرة مأمورة**»[1] السكَّة: نخل مصطفٌّ، والمهرة: أعني الخيل، ومأبورة ملقَّحة، وتأبير النخلة تلقيحها، والمأمورة: كثيرة النتاج، أي أكثر الله نتاجها، والتحقيق أنَّه من الأمر ضدُّ النهي كما رأيت، والأمر بالكثرة سبب للكثرة.

﴿**مُتْرَفِيهَا**﴾ رؤساءَها المنعَّمين، أو الذين أترفتهم النعمة، أي أطغتهم، والمراد: أهل قرية.

ولا يجوز أن يقدَّر: أمرنا مترفيها بالفسق ففسقوا، لأنَّ الله لا يأمر بالفحشاء، ويضعف إجازة ذلك على الاستعارة التمثيلية بأن يشبِّه حالهم في تقلُّبهم في النعم مع عصيانهم بحال من أمر بذلك، أو على الاستعارة المفردة بأن

١- رواه **الحارث** في مسنده رقم ٤٢٧، من حديث ابن هبيرة.

يشبِّه إفاضة النعم المترفة لهم بأمرهم بالفسق لجامع الحمل عليه، والتسبُّب له، أو الأمر استعارة للحمل والتسبب لجامع الإفضاء.

﴿فَفَسَقُواْ﴾ خرجوا عن الطاعة بسبب كثرة النعم ولذّتها، والعامة تتبعهم، بل إذا أراد الله أهلك من تبعهم ومن لم يتبعهم، كما قال الله ﷻ: ﴿واتقواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾(سورة الأنفال:٢٥) دخل ﷺ على زينب بنت جحش فزعا يقول: «**لا إله إلاّ الله ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب**» قالت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثر الخبث**»[1]

﴿فِيهَا﴾ في القرية وهذا دليل على حذف مضاف خاصة، ومانع من أن يراد هنا بالقرية نفس أهلها مجازا أو حقيقة، والفسق: الخروج، فهم خرجوا عمَّا أمر الله به فتركوه، وعن نهيه ففعلوا ما نهى الله.

(فقه) والأمر بالطاعة شامل للنهي عن المعصية لأنَّ المعنى: أطيعوا فيما أمرتم به وفيما نهيتم عنه، والأمر والنهي سابقان في كلِّ زمان، وإرادة الإهلاك متعلّقة بهما ولو طالت المسافة بينهما، وبين قرب الإهلاك.

وهذا أولى من أن يقال: يخصُّهم بأمر ونهي جديدين، ولو طبَّق ما سبق على قصد أن لا يمتثلوا فيهلكهم، كمن يأمر عبده وينهاه وإذا أراد تأديبه جدَّد له أمرا أو نهيا على قصد أن يخالفه فيؤدِّبه.

وقد يقال: معنى ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾: حملناهم بالخذلان على الفسق أو سببنا

١- رواه **مسلم** في كتاب الفتن (١) باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، رقم ٠١. **والترمذي** في كتاب الفتن (٣٣) باب ما جاء في خروج يأجوج ومأجوج، رقم ٢١٨٧. من حديث زينب بنت جحش.

لهم عليه، وهو ضعيف لا دليل عليه، والمراد: وإذا قرب تعلّق إرادتنا، لأنَّ الجواب وهو: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ قَبْلَ تعلّق الإرادة، وأمر مترفيها يترتّب على قرب التعلّق، أو الإرادة بذلك بمعنى دنو وقت القضاء المقدَّر، لأنَّ تعلّق الإرادة به يلزمه دنو وقته لأنَّ المراد لا يتخلّف عن الإرادة.

﴿فَحَقَّ﴾ وجب أو نزل ﴿عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ كلمة العذاب وهي الوعيد السابق، والفاء للسببية مع التعقيب، فإنَّ فسقهم سبب للعذاب وهو معقّب له، وإن تراخى حلوله وذلك من تفريع الحكم على السبب المؤدِّي إليه، أو كلمة العذاب السابقة عبارة عن ظهور فسقهم الثابت في العلم الأزلي.

﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ أهلكنا أهلها وخرَّبناها، فالمراد هي وأهلها كقوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّنْ قَرْيَةٍ اهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ (سورة الحج:٤٥) وذلك لأنَّها لا تهلك قرية مع سلامة أهلها.

﴿وَكَمْ﴾ كثيرا ﴿اَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ﴾ الأمم سمَّى القرن قرنا لاقترانهم في زمان واحد، والقرن: أهل مائة وعشرين سنة، بعث ﷺ في أوَّل قرن آخره يزيد بن معاوية، وبذلك قال عبد الله بن أبي أوفى، وروي أنَّه ﷺ قال لرجل: «عش قرنا» فعاش مائة سنة، وقيل: عاش مائة وعشرين، وقيل: مائة سنة، وروى مرفوعا وبه قال محمَّد بن القاسم المازني، وقيل: ثمانون، وقيل: أربعون. و«مِنْ» للبيان.

﴿مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ كعاد وثمود، و«مِنْ» هذه للابتداء، أو صلة، والأولى للبيان، وقد ذكر ابن هشام وابن مالك كونها صلة. لَمَّا ذكر نوحا أوَّل السورة قال هنا: ﴿مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ وأيضا إنَّه أوَّل نبيء حلَّت العقوبة على قومه، فلم يقل: من بعد آدم وشيت، و لم يدخلهم في القرون، تهديدا بما أصاب قومه من العقاب، إذ هو أوَّل نبيء آذاه قومه فاستأصلهم الله ﷻ.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ الباء صلة، و«ربُّك» فاعل ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِ﴾ متعلّق بقوله: ﴿خَبِيرًا﴾ أو بقوله: ﴿بَصِيرًا﴾ ويقدَّر للآخر لا على التنازع لتأخرهما.

يعلم بواطن الأمور وظواهرها، فيعاقب عليها، وكذا يثيب، ولَمَّا كانت الخبرة متعلّقة ببواطن الأمور، والبصر بظواهرها قدَّم الخبرة لأنَّ الباطن متقدِّم بالشرف على الظاهر، ولتقدُّم اعتقاد القلب على أعمال الجوارح.

وجاء الحديث: «**إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى ما في قلوبكم**»[1] و«**إنَّ الأعمال بالنيات**»[2] ولأنَّ الخبرة أعمُّ من البصر لأنها تتعلّق بالمبصرات وغيرها، والمدرك بالبصر أظهر، تعالى الله عن البصر، ومعنى «بصير»: عالم بظواهر الأمور.

وذكر بعض أنَّ الخبير هو الذي لا يعزب عنه الأخبار الباطنة لا يحصل شيء بلا علم منه به أو الخبير مستعمل في العلم بالباطل باللام بعد الطاء.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾

١- رواه **مسلم** في كتاب البرِّ والصلة والآداب (١٠) باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه، رقم ٣٤ (٢٥٦٤). **والتبريزي** في كتاب الرقاق (٥) باب الرياء والسمعة -الفصل الأول- رقم ٥٣١٤ (١). من حديث أبي هريرة.

٢ - تقدم تخريجه، انظر: ج٦، ص٣٥٦.

جزاء من أراد الدنيا دون العمل للآخرة

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ بعمله من العبادة ﴿الْعَاجِلَةَ﴾ همَّته مقصورة عليها وهي الدنيا، والمراد: إيثارها أو متاعها، وأمَّا من لم تقصر همَّته عليها كما قال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَّقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الاَخِرَةِ حَسَنَةً﴾ (سورة البقرة: ٢٠١) فليس مرادًا لقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ, جَهَنَّمَ﴾ والمراد: الدار العاجلة أو الحياة العاجلة، والأوَّل أنسب بقوله: ﴿عَجَّلْنَا لَهُ, فِيهَا﴾ في العاجلة، ولو أريد الحياة العاجلة لقيل: عجَّلنا له منها، لأنَّ الحياة من جملة ما عجَّل ﴿مَا نَشَآءُ﴾ تعجيله طبق ما يريد أو دونه أو فوقه، **ولا يجد كلُّ أحد جميع ما يتمنَّى إلاَّ إن شاء الله**، فالأمور على مشيئة الله والهمُّ زائد لا يزيد خيرا، وأمَّا الهمُّ بمعنى الاهتمام بالخير ففضل من الله.

(أصول الدين) والإرادة مِنَّا مخلوقة لله عندنا، وعند الأشعَرِيَّة، وزعم بعض منهم أنَّ الإرادة الجزئيَّة غير مخلوقة له تعالى، وأنَّها أمر اعتباريٌّ لا وجود له خارجا، وهو خطأ.

﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ التعجيل له، ولا دليل على أنَّ المراد: لمن نشاء هلاكه، كما زعم بعض ولو صحَّ المعنى، **إذ لا يجوز أن يفسَّر بما يجوز في المعنى بلا دليل**. و«لِمَنْ» بدل من «لَهُ»، ومن العجيب أن يقال: «مَنْ» بدل من الهاء بإعادة الجارِّ، ما المانع أن يقال: الجارُّ والمجرور بدل من الجارِّ والمجرور معا، وهو بدل بعضٍ، لأنَّ الهاء لمن يريد العاجلة، ومن يريدها شامل لمن يعجِّل له مراده ومن لا يعجِّل له.

والرابط محذوف أي لمن نريد منهم، أو لمن نريد التعجيل له، ولا بأس بعود الضمير إلى بعض المبدل منه، وهذا البعض هو هاء «لَهُ»، وبعض الناس يريد العاجلة ولا نعطيه منها مراده.

وقيل: المراد بالآية: المنافق، يريد بعمله الصالح ـ كالجهاد مع رسول الله ﷺ والصلاة معه والصوم ـ أمرَ الدنيا كالأخذ من الغنائم. قيل: الآية متّصلة بقوله ﷻ: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ اَلْزَمْنَاهُ...﴾ بيّن أنّه يصدر منه من الأعمال ما قدِّر له، وأنّ عمله محفوظ له يجازى عليه يوم القيامة، وبيّن هنا أنّ بعض الناس مقصور الهمّة على الدنيا ويعمل لها فينال مراده منها إن شاء الله، وله جهنّم كما قال:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ, جَهَنَّمَ﴾ مفعولان لـ«جَعَلْنَا»، بمعنى: صيّرنا، أو الثاني محذوف أي مأوى، واللام في «لَهُ» للاستحقاق، أو للاختصاص، أو للنفع تهكّما ﴿يَصْلاَهَا﴾ قال الخليل: يقاسي حرّها، وقيل: يدخلها، مستأنف، أو مفعول ثان، أو حال من الهاء، أو من جهنّم ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ مطرودا عن الرحمة والمراد بـ﴿مَن كَانَ﴾: المشرك، والمنافق بإضمار الشرك، والمنافق بالجارحة، وأمّا المؤمن المخلص ففي قوله تعالى: ﴿وَمَنَ اَرَادَ﴾ أي قصد بقلبه ﴿الاَخِرَةَ﴾ المثوبة الآخرة وهي الجنّة ورضى الله ﷻ ﴿وَسَعَىٰ لَهَا﴾ اللام للاستحقاق، أو التعليل ﴿سَعْيَهَا﴾ مفعول به، أي فعل لها ما يليق بها من فعل ما أمر بفعله، وترك ما أمر بتركه، لا ما اخترعوه مِمّا يتقرّبون به، أو ما يفعله أهل الأهواء، فلا جناح بعوضة له، أو مفعول مطلق، أي سعى لها حقّ سعيها الخالي عن تقصير ﴿وَهُوَ مُومِنٌ﴾ حال مؤكّد، لأنّه داخل في ﴿سَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ وأمّا عمل الكافر فـ﴿كَرَمَادٍ اِشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيَاحُ﴾ (سورة إبراهيم: ١٨) و﴿كَسَرَابِم بِقِيعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَآءً...﴾ (سورة النور: ٣٩).

﴿فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ مثابا عليه مقبولا، قال بعض المتقدّمين: **«من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله: إيمان ثابت، ونية صادقة، وعمل مصيب»** وتلا هذه الآية.

ولا ثواب إلاَّ للمخلص، قال الله تعالى: **«أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه غيري تركته وشركه»**[1] وذكر بعض قومنا: أنَّه إن ترجَّحت إرادة الآخرة أثيب على قدرها، وأبطله ابن عبد السلام، ومثل له في "الإحياء" بأن ينشط لاطِّلاع الناس، ولو فقد لم يترك العبادة، ولو انفرد قصد الرياء لم يفعل، واختار أنَّه يثاب على قدر قصده لله، ويعاقب على قدر قصده للناس، وكذا ذكر ابن حجر أنَّه يثاب على أقلِّ قليل قَصْدِهِ لله سبحانه.

﴿كُلاًّ﴾ من الفريقين المؤمنين المريدين للآخرة والكافرين المريدين للعاجلة **﴿نُمِدُّ﴾** نزيد على استمرار وتجديد بعد عطاء سابق، وليس العطاء الأوَّل إمدادا إلاَّ على التوسُّع، ولذلك فسَّرته بالزيادة، أو عبَّر به عن مطلق الإعطاء **﴿هَؤُلَآءِ﴾** المريدين للعاجلة **﴿وَهَؤُلَآءِ﴾** المريدين للآخرة، هذا أولى من العكس لأنَّه على الأصل، الأوَّلُ للأوَّل، والثاني للثاني، ولأنَّ العطاء هنا من الدنيا، وَالكُفَّار أنسب بها لشدَّة حرصهم، ولأنَّه قد يتوهَّم أن لا يستحقُّوا العطاء لكفرهم. و«هَؤُلَآءِ» الأوَّل بدل من «كُلاًّ» باعتبار عطف الثاني، ولا تقل: بدل بعضٍ، أي هؤلاء منهم، لأنَّه يبقى المعطوف متعطِّلا.

﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ من معطى ربِّك، أي مِمَّا يعطي ربُّك، اسم مصدر بمعنى مفعول، وهو صحَّة البدن والعقل، والمال والأولاد والجاه. والغيبةُ في «ربِّ» عن التكلُّم في «نُمِدُّ» تذكير للنعمة بذكر لفظ «ربِّ» والأصل: من عطائنا.

﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ﴾ باق على معنى المصدَرِيَّة **﴿رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾** ممنوعا في الدنيا عن كافر ولا مؤمن لتفضُّله ﷻ، ويحتمل أن يراد الكافر دفعا لِمَا يتوهَّم أنَّه يمنع، وإنَّما يمنع عن عطاء الآخرة.

١- رواه **الربيع** في مسنده (١٠) باب في ذكر الشرك والكفر، رقم٦٠، من حديث أبي هريرة.

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الدنيا. «كَيْفَ» حال من «نَا» وجملة «فَضَّلْنَا...» مفعول لـ«انظُرْ» علّق إليها بصورة الاستفهام، والتفضيل هو بالمال والجاه والولد ونحو ذلك، من منافع الدنيا كالجمال وحسن الصورة ﴿وَلَلاَخِرَةُ﴾ اللام للابتداء، ولا دليل على تقدير قسم، وجعل اللام في جوابه لام جواب قسم أو لام ابتداء في جوابه، وما لا دليل عليه لا يقدَّر، فلا تهم ﴿أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ﴾ درجاتها أكبر من درجات الدنيا، كما أنَّ الآخرة أفضل من الدنيا كذلك درجاتها أفضل من درجات الدنيا، أو درجات الآخرة تفاوتت أكثر مِمَّا تفاوتت درجات الدنيا.

أو المراد: التفاوت بالدرجات في مقابلة الدركات، أكبر من التفاوت بتوسيع النعم في مقابلة التضييق، ونسبة التفاوت في درجات منافع الآخرة ودركات عقابها إلى التفاوت في أمور الدنيا كنسبة نفس الآخرة إلى نفس الدنيا. وظاهر الآية التفضيل كمًّا، لأنَّ الكبر والصغر والكثرة وَالقِلَّة من مقولة الكمِّ، واختار بعض أنَّ المراد هنا مثل ما في الدنيا[1]، لأنَّ الغالب فيها أنَّ هذا أكثر مالا مثلا من هذا، ولا مانع من إبقاء الآية على الكيف.

﴿وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ لأنَّ التفاوت فيها الجَنَّة ودرجاتها، والنار ودركاتها، وأولى من هذا اعتبار للتفاوت بين بعض أهل الجَنَّة والبعض الآخر، وبعض أهل النار والبعض الآخر، بعض أهل الجنَّة أكبر من بعض آخر، وبعض أهل النار أشدُّ عذابا من البعض الآخر.

وذكر ابن عبد البر عن الحسن أنَّه اجتمع أبو سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو ونحوهما من الأكابر عند باب عمر، فأذن لصهيب وبلال وأهل بدر وكان

١- في نسخة (ج): «واختار بعض أنَّه المراد هنا...».

يحبُّهم، وأوصى لهم، فقال أبو سفيان: يؤذن لعبيد دوننا! فقال سهيل بن عمرو: لا تغضبوا فإنَّهم دعوا ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم، أما والله لَمَا سبقوكم به من الفضل أشدُّ عليكم فوتا من بابكم هذا الذي تتنافسون عليه. وفي رواية: إنَّما أُتينا من قِبَلِنا إنَّهم دُعُوا ودُعينا فأسرعوا وأبطأنا. وهذا باب عمر فكيف التفاوت في الآخرة؟ ولئن حسدتموهم على باب عمر لِمَا أعدَّ الله لهم في الجنَّة أكبر.

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

أصول تنظيم المجتمع المسلم

(١)

التوحيد أساس الإيمان، وترابط الأسرة المسلمة دعامة المجتمع

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ هذا خطاب للأمَّة في المعنى، بخطابه ﷺ في اللفظ، أو خطاب لمن يصلح له، وهو أولى لقوله بعدُ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ

الْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلاَهُمَا﴾ وهو ﷺ لم يدرك أبويه ﴿فَتَقْعُدَ﴾ فتصير لذلك، وهو من باب كان.

(لغة) وَاهًا لزمان الطفولية إذ كنت أقرأ عند شيخي في شرح الشريف بن يعلى الحسني[1]، وفيه التمثيل لقعد من باب كان بمعنى صار لقولهم: شحد شفرته حتّى قعدت كأنّها حربة، وقال أبو حيان: قعد بمعنى صار مقصورا عند الأصحاب يعني الأندلسيِّين على هذا المثال، وقاسه بعض في التشبيه، مثل: "قعد كأنّه سلطان"، وقاسه الفرَّاء مطلقا، ومنه: "قعد لا يسأل حاجة إلاّ قضاها".

﴿مَذْمُومًا﴾ خبر «تَقْعُدَ» واسمه مستتر، ويجوز إبقاؤه على ظاهره من عدم القيام مجازا للعجز، وكناية عنه، فـ«مَذْمُومًا» حال ولا اسم لها، يقال: قعد عن الشيء، بمعنى: عجز عنه، أي فتعجز عن رفع العذاب فضلا عن وصول الدرجات العلى، ومن شأن المذموم المخذول أن يقعد حائرا متفكّرا، وقعد بمعنى صار بمعنى اللبث على شيء قعد أو قام ﴿مَخْذُولاً﴾ ممنوعا من التوفيق، أمَّا الذمُّ فمن الملائكة والمسلمين، وأمَّا الخذلان فمن ا لله، ولا ناصر لك، لأنَّ الشريك لا يدفع سوءا ولا يجرُّ نفعا، ومن لم يجعل لله شريكا فهو منصور دنيا وأخرى، ودنيا فقط إن لم يوفِّ.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أمر ربُّك ﴿أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ بأن لا تعبدوا، أو أَوجَبَ ألاّ تعبدوا إلاّ إِيَّاهُ، أو حكم بأن لا تعبدوا إلاّ إِيَّاهُ، بمعنى: حكم بأنّه لا تجوز عبادة غيره، وليس المعنى أنّه سبقت إرادته أنّه لا تصدر عبادة غيره عن أحد، ولو كان ذلك لم يقع إشراك البتّة.

١- هو محمَّد بن يعلى الشريف الحسيني، له كتاب الدرَّة النحويَّة في شرح الأجروميَّة، مخطوط في مكتبة آل افضل، رقم٢٢٢.

(نحو) و«لاَ» نافية و«أَنْ» مَصْدَرِيَّة، وأعجب من إجازتهم أن تكون مَصدَرِيَّة متَّصلة بالنهي، أو بالأمر مع أنَّ النهي والأمر لا خارج لهما يكون حدثا معنى للمصدر، فإذا جعلت «لاَ» ناهية فـ«أَنْ» تفسيريَّة لتقدُّم معنى القول وهو القضاء، وأنا ألهج بذلك من صغر سنِّي إلى أن رأيته للشيخ زاده[1]، ونصُّه: «صلة أن المصدَرِيَّة لا تكون شيئا مِمَّا فيه معنى الطلب على الأصحِّ وإن أجازه سيبويه».

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي وبأن تحسنوا بالوالدين، على أنَّ «قَضَى» بمعنى أمر، أو أن تحسنوا بلا باء على أنَّ «قَضَى» بمعنى أوجب، وأمَّا أن نقدِّر: وأحسنوا بالوالدين إحسانا ففيه عطف الأمر على الإخبار. والباء متعلِّق بـ«إِحْسَانًا» لجواز تقديم معمول المصدر إذا كان ظرفا، ولا سيما إن كان المعنى على غير قصد انحلاله إلى حرف المصدر والفعل، كما هنا، لأنَّ تقدير الفعل قبله يغني عن انحلاله إلى ذلك، أو تتعلَّق بهذا المقدَّر قبلها.

والإحسان إليهما أعمُّ من أن يأمراه أو ينهياه فيطيعهما، وأن لا يأمراه ولا ينهياه فينظر هو ما يليق بهما فيفعله، والطاعة ما كان عن أمرهما أو نهيهما فهي أخصُّ من الإحسان. ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ﴾ «إِنْ» الشرطية و«مَا» التي هي صلة للتأكيد أبدلت نونها ميما وأدغمت في الميم ﴿عِندَكَ الْكِبَرَ﴾ في كفالتك وتحت يديك بالنفقة والقيام لهما، لأنَّهما كالطفل لعجزهما في بيتك، وهو أولى أو في غير بيتك ﴿أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلاَهُمَا﴾ عطف على «أَحَدُهُمَا»، فإنَّ "كِلاَ" لا يختصُّ بالتوكيد، فإنَّه يكون مبتدأ وفاعلا ومفعولا وغير ذلك، وهو هنا فاعل بواسطة العطف.

١- هو الشيخ غَزِّي زاده مصطفى بن أحمد البرسوسي المتوفَّى سنة ١٢٠٤ هـ المعروف بغزِّي زاده، شاعر تركيٌّ له تصانيف بِالعَرَبِيَّةِ والتركيَّة، منها حاشية على البيضاوي، سمَّاها: «تزيين المقامات». معجم المفسِّرين، ج٢، ص٦٧٤.

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ فكيف الدفع والضرب وما هو أشدُّ من التأفيف؟ وذلك قياس جليٌّ لأنَّه يفهم بطريق الأولى، ويسمَّى: "فحوى الخطاب" و"مفهوم الموافقة"، ولكن قد يكون مفهوم الموافقة مساويا للأُولى، وأمَّا دليل الخطاب فهو معنى الكلام المصرَّح به، ولا يصحُّ ما قيل عنه ﷺ: «**إنَّه لو علم الله شيئا أدنى من الأفِّ لنهى عنه**» لأنَّه تعالى علم وأعلمنا أنَّه وجد أدنى من الأفِّ ولم يذكرها، وهي لا تجوز، مثل أن يقول لهما على وجه الضجر: ما هذا؟ ولكن مثَّل لنا بالأفِّ.

(فقه) الإحسان إلى الوالدين واجب قبل كبرهما وفيه، وتحريم التأفيف كذلك، وكذا نهرهما، والقول الكريم ونحو ذلك، ولكن ذكر الكبر لكونه محلَّ تهاون الولد بهما والضجر.

(لغة) و"أفٌّ" اسم للفعل المضارع التكلُّمي، وهو أضجر أو أَتضجَّرُ، أي أصابني الملل منكما لشدَّة مؤونتكما عليَّ، أو خدمتكما أو رائحتكما المنتنة. وقيل: «أُفٌّ» خسرانا أو قبحا أو نتنا، فيكون اسم فعل ماض للخطاب، أي خسرتما أو قبحتما أو نتنتما، أو أشبهتما وسخ الظفر، أو ما يسقط من السقف. وقيل: اسم صوت من أصوات الفم يصوِّت به الإنسان عند الضجر، لا اسم فعل ولا ضمير فيه، وإنَّما هو بالطبع ولا وضع فيه.

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ لا تغلظ الصوت عليهما فيما تكرهه منهما ولا في مصلحتهما وليس من ذلك رفع الصوت ليسمعا، إذا ثقل سمعهما، قيل: المراد المنع من إظهار المخالفة في القول على سبيل الردِّ والتكذيب لهما، ولذا روعي هذا الترتيب وإلاَّ فالمنع من التأفيف يدلُّ على المنع من النهر بطريق الأولى، فيكون ذكره بعده عبثا، قلت: بل النهر يكون أيضا بلا ردٍّ لقولهما ولا مخالفة،

وليس المنع من التأفيف يدلُّ على منع النهر بالأولى، بل قد يتساويان وقد يكون النهر دون التأفيف.

﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ لا تكتف بترك التأفيف والنهر، وقل بدلهما قولا كريما، أي جميلا ليِّنا كقول العبد المذنب للسيِّد الفظّ، وكـ«لَبَّيْكُما وسعديكما» إذا نادياه، ولا تعاشرهما بسوء خلق، ومن ذلك أن يتكلَّم مع غيره بحضرتهما، ولا يكترث بهما سمعا أو لم يسمعا، أو يتفاوضوا في أمر مفرح ولا يشركهما فيه، **والضابط أن يجتنب ما يكرهان، ويستقصي النظر فيما يحبان فيفعله**. و«قَوْلاً» باق على المصدَرِيَّة مفعول مطلق، أو بمعنى مفعول فهو مفعول به. ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ إذا أراد الطائر الكفَّ عن الطيران خفض جناحيه عن نشرهما وارتفاعهما، فعبَّر بذلك عن التواضع لهما.

(بلاغة) جعل الإلانَة لهما من جنس خفض الجناح من الطائر، لجامع العطف، فسمَّاها باسم الخفض، واشتقَّ منه «اخْفِضْ» بمعنى أَلِنْ، و«جَنَاح» ترشيح أو استعارة لجانب الإنسان من بدنِه أو حالِهِ بجناح الطائر، فسمَّاه به، وأضافه للذلِّ تلويحا بأن يذلَّ لهما ولا يرتفع، كأنَّه قيل: ليكن جنابك لهما جناب ذلٍّ لا جناب ترفُّع، وذلك من إضافة الشيء إلى صفته، كحاتم الجود ومادر الشحِّ. ولا داعي إلى المصير إلى الوصف النحوي مثل: أن تؤوِّل الجود بذي الجود، أو بالجواد وكذا في الآية، وإن شئت فقل: شبَّه المتواضع بالطائر المنحطِّ ورمز إلى ذلك بذكر الجناح، أو شبَّه الذلَّ بطائر منحطٍّ ورمز إليه بإثبات الجناح تخييلا والخفض ترشيحا، وقيل: المراد بخفض الجناح ما يفعله الطائر إذا ضمَّ فراخه للتربية، وإنَّه أنسب بالمقام، قلت: لا يتَّضح هذا، وسمِّي الجناح جناحا لأنَّه يميل، تقول: جنحت إلى كذا بمعنى ملت إليه.

﴿مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي لرقّتك عليهما، متعلّق بـ«اخْفِضْ»، ويجوز أن تكون «مِنْ» للابتداء لأنَّ هذا الخفض شيء من الرحمة المستكنة في النفس، لافتقارهما إليه بعد أن كان أَشَدَّ افتقارا إليهما، واحتياج المرء إلى من كان محتاجا إليه غاية الذلِّ فلا بدَّ من مقابلته بِأَشَدَّ رحمةً جزاء له، قال شاعر:

ما ذلّة السلطان إلاّ إذا أصبح محتاجا إلى عامله

ويضعف كونه حالا من «جَنَاحَ». ﴿وَقُل﴾ ولو دبر كلِّ صلاة من الخمس، أو دبر كلِّ صلاة.

(فقه) [فقد قيل: إنّه] لا تقبل صلاة امرأة لم تدع لزوجها أو إنسان لم يدع لوالديه، قال سفيان: كما يجب بعد كلِّ تشهُّد التسليم، كما أمرنا بالتكبير في أَيَّام معدودات، فكبَّرنا أدبار الصلوات، وبالصلاة والسلام على النبيء ففعلناهما بعد تشهُّد التسليم.

(أصول الدين) قلت: لكن كلٌّ بما يليق به فالمتولّى بالجنّة وغيرها من الدين والدنيا، والموقوف فيه بالهداية على قول مجيز الدعاء بالهداية لغير المتولّى، أو بترك كذا من الذنوب، أو التوفيق إلى فعل كذا من الخير، وكذا في المتبرَّأ منه، وقد قال من قال بولاية الوالدين المستحقّين للوقوف، ويُعرِّض لهما بدعائه بالجنّة إذا اشتدَّا عليه بها.

﴿رَّبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ ولو اقتصر على رحمة دُنيَوِيَّة إن لم يجد سبيلا للأخرويَّة، قد أخبرتك بطرق لها، لكن إن ماتا في البراءة لم يجد سبيلا إلى الأخرويّة إلاّ أن تدعو لهما بزوال عذاب القبر، أو تخفيفه، كما غرز ﷺ بعض جريدة على قبر مغتاب أو نمّام وعلى قبر من لا يستبرئ من البول.

﴿كَمَا﴾ الكاف للتشبيه والتعليل مستفاد منه فلا حاجة إلى جعلها للتعليل، و«مَا» مَصدَرِيَّة ﴿رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ برحمة لا بعنف حين عجزت كلَّ العجز، وحين عجزت بعضه لا يترفَّعان عن نتن ما يخرج منِّي، والأمُّ في هذا أدخل، قال رجل لرسول الله ﷺ : إنَّ أبواي بلغا من الكبر إلى أن ألي منهما ما وليا منِّي في الصغر، فهل قضيت حقَّهما ؟ قال: «**لا ! إنَّهما يفعلان ذلك ويحبَّان حياتك، وأنت تفعله وتحبُّ موتهما**».

أمره الله بتذكُّر حال الصغر وهو أشدُّ أحواله احتياجا من حيث الولادة والرضاع، وقد يريد حال الطفولية كلِّها، وقد يريد ما بعدها أيضا ما دام لم يأنس رشدَه، وما لم يستقلَّ بنفسه، ولو كان بالغا متزوِّجا، والأحوال تختلف في ذلك. والكاف للتعليل، وإن كانت للتشبيه فـ﴿رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ بمعنى: رحماني صغيرا، تعبيرا بالمسبَّب عن السبب، أو باللازم عن الملزوم، ويبعد أن يقال: المراد ربِّ ارحمهما رحمة تشبه في الظهور تربيتهما إيَّاي صغيرا.

والتقدير: ربِّ ارحمهما رحمة مثل تربيتهما لي، أو مثل رحمتهما لي لأنَّ التربية رحمة، أو ربِّ ارحمهما وربِّهما كما رحماني وربَّياني. والإنسان في تربية الله ما دام حيًّا ولو عمِّر مائة سنة. أو ربِّ ارحمهما رحمة ظاهرة محقَّقة كما فعلا في التربية، وذلك كقوله تعال: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ (سورة الذاريات: ٢٣).

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ فقد تتوهَّمون أنَّكم بارُّون بالوالدين وليس كذلك، بل قد قصَّرتم أو ملتم إلى كراهيتهما واستثقالهما، و لم تعالجوا أنفسكم عن ذلك، و«ما في نفوسكم» البرُّ إليهما أو الكراهة أو العقوق، فيجازي كلاًّ على حسبه، والخطاب فيما مضى للعموم البدلي بالإفراد وهنا

بالجمع للعموم الشمولي كالبيان بأنَّ المراد فيما غير مشخص، والآية وعد للموفِّ بحقِّهما ووعيد وتهديد لمن قصَّر أو أضمر لهما ما يكرهان.

قيل: يا رسول الله هل بقي من برِّ أبواي شيء أبرُّهما به بعد موتهما ؟ قال: «**نعم، الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإيفاء عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلاَّ بهما وإكرام صديقهما**»[1]، وروى البخاري عن أنس عنه ﷺ : «**لا يزال العاقُّ يدعو لوالديه بعد موتهما ويستغفر لهما حتَّى يكتبه الله بارًّا**»[2]، وروى الأوزاعي: «**من قضى دينهما واستغفر لهما كتب بارًّا، ومن برَّهما ولم يقض دينهما فهو عاقٌّ**»[3]، وروى هو وابن أبي الدنيا عن محمَّد بن النعمان عنه ﷺ : «**من زار قبر أبويه أو أحدهما في كلِّ جمعة غفر له وكتب بارًّا**»، وعنه ﷺ : «**إنَّ من أبرِّ البرِّ صلة الولد أهل ودِّ أبيه**»[4] وعنه ﷺ : «**إنَّ من أحبَّ أن يصل أباه في قبره فليصل إخوان أبيه من بعده**»[5] وقال ﷺ : «**ليعمل العاقُّ ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنَّة، وليعمل البارُّ ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار**» يعني: إنَّ العقوق يجرُّ إلى الإصرار، والبرَّ يجرُّ إلى التوبة.

١- رواه **ابن ماجة** في كتاب الأدب باب صل من كان أبوك يصل، رقم٣٦٦٤، و**ابن حبَّان** في صحيحه باب حقِّ الوالدين، ذكر وصف برِّ الوالدين لمن توفِّي أبواه في حياته، رقم٤١٩. من حديث مالك بن ربيعة.

٢- أروده **الألوسي** في تفسيره: ج٥، ص٥٨، وقال: «أخرجه البيهقي عن أنس».

٣- أورده **الألوسي** في تفسيره: ج٥، ص٥٨ بلاغا عن الأوزاعي.

٤- رواه **مسلم** في كتاب البرِّ والصلة، باب فضل صلة الأب والأمِّ ونحوهما، رقم١١ (٢٥٥٢) وأوَّله: «إنَّ رجلا من الأعراب لقيه [ابن عمر] بطريق مَكَّة فسلَّم عليه...». من حديث ابن عمر.

٥- رواه **ابن حبَّان** في صحيحه، باب حقِّ الوالدين، ذكر البيان بأنَّ برَّ المرء بإخوان أبيه وصلته إيَّاهُم بعد موته... رقم٤٣٣. من حديث أبي بردة.

﴿إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ﴾ بارِّين بالوالدين موفِّين في دين الله عَجَّلَ، أو صالحين مطيعين لله عَجَّلَ في حقِّ الوالدين وغيره، أو صالحين في قصد الخير لهما والوفاء بالدين، فلا يضرُّكم ما صدر في بعض الأحيان مِمَّا يسوءهما لقصدكم الخير والتوبة، وهذا في عموم قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ﴾ من الذنوب عموما ﴿غَفُورًا﴾ والأوَّاب: الرجَّاع إلى التوبة وإصلاح الفساد من الإساءة إليهما وغيرها، والأوَّاب: الإنسان يذنب ويتوب ويستغفر ثمَّ يذنب ويتوب كذلك، كلَّما ذكر ذنبا استغفر منه في خلوة أو مع الناس لكن لا يكشف لهم ما ستر الله عنهم، وقد يقال: أراد بالأوَّابين من كان صالحا في برِّ الوالدين فالأصل على هذا فإنَّه كان لكم غفورا، ولكن لفظ الأوب ـ وهو الرجوع ـ أنسب بمن قد يسيء إليهما ويتوب، غير أنَّ الإنسان لا يخلو من خطأ في حقِّهما أو حقِّ غيرهما.

وذكر حقَّ القرابة بعد الوالدين بقوله: ﴿وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ أي اجعل حقَّ ذي القرابة منك آتيا إِيَّاهُ وواصلا إليه، فكأنَّه قيل: أعط ذا القربى حقَّه من جهة الأب أو الأم أو جهتهما، احتاج أو لم يحتج من مال أو نفع أو سلام.

(فقه) وإن احتاجوا ولا مكسب لهم وجب عليه الإنفاق عليه بقدر الإرث فيما بين العصبة، والبسط في الفقه، ويجب عليه حقُّ قرابة الأمِّ إن احتاجوا ولا عصبة لهم أو لهم عصبة امتنعوا، أعني يجب عليه أن لا يتركهم فيموتوا وإنَّه قبل غيره من الأباعد ولا يحكم عليه بذلك، وعن أبي حنيفة يجب على المؤسر مواساة أقاربه إذا كانوا محارم كالأخ والأخت وقال الشافعي: لا يجب الإنفاق إلاَّ على الولد والوالدين. ومن حقِّ القرابة: الزيارة وحسن العشرة. وذِكْرُ ذي القربى تعميمٌ بعد تخصيص، فإنَّ ذا القربى يتناول الوالدين لغة ولو لم يتناولهما عرفا قال ﷺ: **«من قال لأبيه قريبي فقد عقَّه»** فلو أوصى لقرابته لم يدخل الوالدان، والوصيَّة تجري على العرف إذا كان وإلاَّ فعلى اللغة.

ويبحث فيما ذكر أنَّه ﷺ لَمَّا نزلت الآية نادى فاطمة رضي الله عنها فأعطاها "فدكا"[١]، فإنَّه إذا كانت البنت قريبة لأبيها فالأب قريب لها، إلاَّ أنَّا لا نسلم إعطاء "فدك" لأنَّ الآية مَكِّيَّة و"فدك" ملكت في المدينة، إلاَّ أن يقال علم أنَّه سيملكها فوهبها لفاطمة رضي الله عنها.

وقيل: ذا القربى قرابة رسول الله ﷺ يجب علينا الإنفاق عليهم إن احتاجوا، وتوقيرُهم، وحقُّهم من الخمس، ولا دليل لهذا التخصيص، قال علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب لشاميٍّ: أقرأت ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ (سورة الروم: ٣٨) ؟ قال: فأنتم القربى في الآية ؟ قال: نعم.

﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ عطف على «ذَا الْقُرْبَىٰ»، والمعطوف على «حَقَّهُ» محذوف، أي والمسكين وابن السبيل حقَّهما ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ لا تفرِّق المال، والتبذير التفريق، مأخوذ من التبذير وهو إلقاء البذر في الأرض كيف ما كان من غير تعهُّد لمواقعه، قال ابن مسعود ﷺ: التبذير إنفاق المال في غير حقِّه وذلك هو صرفه إلى من لا يستحقُّه، وقيل: الإسراف تجاوز في الكَمِّيَّة، والتبذير تجاوز في موضع الحقِّ، والظاهر أنَّهما سواء، وعدُّوا منهما تشييد الدار، واستدلَّ بعض على **أنَّ المراد الإنفاق في المعصية** بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ وما أنفق في معصية أو فيما لا نفع فيه ولو حبَّة فإنفاقه تبذير، روي أنَّه ﷺ قال لسعد وهو يتوضَّأ: «**ما هذا السرف؟**» قال: أفي

١- فدك: أرض في خيبر قذف الله الرعب في قلوب أهلها لَمَّا فتح الرسول ﷺ خيبر فصالحوه على النصف فكانت له خالصة (انظر: سيرة ابن هشام، ج٣، ص٣٨٤)، والحادثة رواها **أبو يعلى** في مسنده، رقم١٠٧٤، من حديث أبي سعيد الخدري.

الوضوء سرف؟ قال: «**نعم وإن كنت على نهر**»[1] رواه أحمد عن عبد الله بن عمر صحيحا.

ومعنى ﴿إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾: أشباه الشياطين، كما يشبه الرجل أخاه من النسب فهم كالشياطين في المعصية جمعتهم المعصية كما يجمع الإخوان أبوهم، أو أحبَّاء الشياطين كأنَّهم أحبُّوهم لاتِّباعهم في المعصية، وذلك تشبيه ولا محبَّة بينهم لكن شبِّهوا بمن أحبَّ أحدا فاتَّبعه.

(فقه) ومن ذلك ما يصرفون في الأزلام والمياسير والمفاخر ينحرون الإبل في ذلك. ولا يحلُّ أكل ذلك، لأنَّه ميتة وكذلك فعل الفرزدق أو أبوه في الإسلام فأفتى عليٌّ بأنَّها حرام لا تؤكل، **وكلُّ ما فعل من مال للرئاء إسراف.**

﴿**وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ**﴾ أي لنعم ربِّه ﴿**كَفُورًا**﴾ مبالغة في الكفر فلا يقتدى بأحد في الكفر ولو قلَّ، بل الكفر وإن قلَّ عظيم، والكافر خبيث ومن خبث لا ينبغي اتِّبَاعه ولو فيما أقلَّ من كفره، وصرف المال في المعصية ضدُّ الشكر به وهو صرفه في الطاعة.

﴿**وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا**﴾ «إِنْ» الشرطية أدغمت نونها في ميم «مَا» الصلة. إن تعرض عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل وعن أصحابك المحتاجين الطالبين منك المعروف لأجل طلبك رحمة ترجوها من ربِّك لتعطيهم منها و لم تكن لك في الحال وسكتت مستحييا أن تقابلهم بالردِّ.

١- رواه **ابن ماجة** في كتاب الطهارة، باب ما جاء في القصد في الوضوء، رقم٤٢٥، ورواه **أحمد** في مسند المكثرين من الصحابة، رقم٧٠٢٥. من حديث عبد الله بن عمرو.

وكان ﷺ إذا سئل وليس عنده ما يعطي أعرض بجانبه وسكت، وربَّما روي أنَّه غضب أو اشتدَّ عليه طلبهم ـ وليس كذلك ـ فنزلت الآية ﴿**فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا**﴾ مثل: «رزقكم الله»، ومثل: «إذا فتح الله أعطيكم وارجع وقت كذا»، ومثل: «ليس عندي ما أعطيكم الآن».

وكره مالك الاقتصار على: «رزقك الله» لأنَّه لا أعظم على السائل من قطع طمعه فلا يقابله مع ذكر اسم الله بما يضرُّه، وكان يستحبُّ أن يقول له: إذا فتح الله... إلى آخر ما مرَّ، ولا يعارض بأنَّه ﷺ يقول: «رزقك الله» لأنَّ دعاء النبيء مجاب قطعا، ولا تقتصر على السكوت والإعراض، وأحواله ﷺ متعدِّدة: تارة يعطي، وتارة يسكت، وتارة يردُّ بالجميل مثل: «رزقك الله».

وعلَّة الإعراض الإعسار، لكن عبَّر عنه بالمسبَّب وهو الابتغاء، ويجوز أن يكون الإعراض كناية عن عدم النفع بدفع ما يحتاجون إليه إذ لم يوجد عنده، والإعراض بالوجه لازم عدم النفع، وأن يكون «اِبْتِغَاءَ» بمعنى انتظار فإنَّ الانتظار علَّة حاملة على الإعراض، ولا ينصب «اِبْتِغَاءَ» بـ«قُلْ» لأنَّ لفاء الجواب الصدرَ، ولا داعي إلى إخراجها عنه. و«تعرض» بمعنى الماضي، أي لا تعد في المستقبل إلى الإعراض، أو للاستقبال أي لا تقتصر على الإعراض بعد بل ضمَّ إليه قولا ميسورا، أي ليِّنا، أو دعه إلى القول اليسر، ويجوز أن يكون المعنى: إن أردت الإعراض.

(صرف) وهو مِمَّا وزنه مفعول ومعناه فاعل، كمزكوم ومثله من الرباعي أُولِع فهو مُولَع بالبناء للمفعول، وجاء من ذلك مسعود ومنحوس، ويجوز أن يكون مصدرا بوزن مفعول كمجلود بمعنى الجلادة ومفعول ومحلوق ومجرود ومعقود ومعسور. والأصل: قل لهم قول يُسْرٍ، بالإضافة، فهو بدل من «قَوْلاً» أو نعتا على معنى: قولا يذكر فيه اليسر.

نزلت الآية في مهجع وبلال وصهيب وسالم وخبَّاب رضي الله عنهم يسألونه ﷺ أحيانا فيعرض عنهم حياء من الردِّ ويتضرَّرون من الإعراض.

﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ مربوطة إلى عنقك بجامعة أي لا تترك مَدَّها بالإعطاء كأنَّها مربوطة إلى عنقك **﴿وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾** بالإنفاق الكثير حتَّى لا يبقى فيها شيء، ومن بسط يده ولم يقبض بها سقط ما فيها.

أمره الله بالتوسُّط في الإنفاق وكان بين ذلك قواما وذلك بين الشحِّ والتبذير وخير الأمور أوساطها قال ﷺ : **«ما عال من اقتصد»**[١] أي ما افتقر، رواه أحمد عن ابن عبَّاس، قال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ : **«الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة»**[٢] رواه البيهقي، وعن أنس عنه ﷺ : **«التدبير نصف المعيشة، والتودُّد نصف العقل، والهمُّ نصف الهرم، وقلَّة العيال أحد اليسارين»**[٣] ويقال: حسن التدبير مع العفاف خير من الغنى مع الإسراف **﴿فَتَقْعُدَ﴾** فتصير **﴿مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾** أو فتعجز عن الطريقة الوسطى المحمودة كالذي لا يطيق القيام حال كونك ملوما أي معاتبا، أو موذموما عند الخلق والخالق.

(نحو) ونصب «تَقْعُدَ» في جواب النهيين على معنى لا يكون منك ذلك، ومن الخلق والخالق اللوم أو الذم لك والانقطاع منك. و«مَلُومًا» عائد

١- رواه **أحمد** في مسنده: ج٢، ص١٥٨، رقم ٤٢٦٩، من حديث ابن مسعود. و**البيهقي** في الشعب (٤٢) باب الاقتصاد في النفقة وتحريم أكل المال بالباطل، رقم ٦٥٦٩. من حديث أبي الأحوص عن عبد الله.

٢- رواه **البيهقي** في الشعب (٤٢) باب الاقتصاد في النفقة وتحريم أكل المال الباطل، رقم ٦٥٦٨، مع زيادة في آخره من حديث ابن عمر.

٣- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص١٩٧. من حديث أنس. وقال: أخرجه الديلمي.

إلى قوله: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ وقوله: ﴿مَحْسُورًا﴾ عائد إلى قوله: ﴿وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾. و﴿مَحْسُورًا﴾: مقطوعا بك عن المال، يقال حسره السفر إذا أثر فيه، قيل: أو نادما فيكون "مفعول" بمعنى "فاعل"، الإنسان يحسر نفسه أي يتسبَّب في قطعها عن المال فهو حاسر لنفسه وهو محسور، وحسره الله فهو محسور، والإسراف حسره فهو محسور.

(سبيرة) قال جابر بن عبد الله بينما رسول الله ﷺ جالس أتاه صبيٌّ فقال: إنَّ أمِّي تستكسيك درعا ـ أي قميصا ـ فقال ﷺ: «**من ساعة إلى ساعة يظهر فعد إلينا**» فذهب إلى أمِّه فقالت: قل له إنَّ أمِّي تستكسيك الدرع الذي عليك فدخل ﷺ داره فنزع قميصه وأعطاه وقعد عريانا، وأذَّن بلال وانتظروا الصلاة فلم يخرج فأنزل الله الآية.

فسلاَّه الله ﷻ بقوله في العموم البدلي في كلِّ معسر ﴿**إِنَّ رَبَّكَ**﴾ يا كلَّ من يصلح للخطاب ﴿**يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَآءُ**﴾ البسط له ﴿**وَيَقْدِرُ**﴾ يضيِّقه لمن يشاء التضييق له أو عليه وذلك مشكل، لأنَّ الآية مَكِّيَّة ولفظ ابن مردويه عن ابن مسعود: جاء غلام إلى النبيء ﷺ فقال: إنَّ أمِّي تسألك كذا وكذا فقال: «**ما عندنا اليوم شيء**» قال: فتقول أكسني قميصك، فخلع النبيء ﷺ قميصه فدفعه إليه، فجلس في البيت حاسرا فنزلت الآية، وليس فيه ذكر أذان بلال فلا يشكل أنه مكيٌّ.

وكذلك لا يصحُّ ما قيل: إنَّها نزلت حين أعطى "الأقرع" مائة من الإبل و"عيينة" مائة، فقال عَبَّاس بن مرداس: أتجعل نهبي... [1] الأبيات المشهورة،

١- وتمام البيت: ....ونهب العُبيْد بَين عُيَيْنة والأقرع

راجع: السيرة لابن هشام، ج٤، ص١٤٦.

فقال للصدِّيق رضي الله عنه : « **اقطع عنّي لسانه**» فأعطاه مائة فنزلت، لأنَّ الآية مكِّيَّة والعطاء مدنيٌّ، وقد يقال: الآيـة مَدَنِيـَّة جعلـت في سـورة مَكِّيـَّة لتجتمـع فيهـا خصال مخصوصة، وحينئذ يصحُّ الحديث الأوَّل الذي فيه أذان بلال.

وحديث سعيد بن منصور وابن المنذر أنـَّهُ ﷺ قسَّـم مـالا فقـال قـوم مـن العرب: نأتي رسول ا لله ﷺ ليعطينا فوجدوه قد فرغ، فنزلت الآية.

﴿إنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا﴾ بسرِّهم ﴿بَصِيرًا﴾ بعلنهم فهو يرزقهم على مـا علم من ظواهرهم وبواطنهم. ومعنى الحديث المتقدِّم: «**أمهل من ساعة أو أخـر سؤالك من ساعة لم يظهر لنا فيهـا درع إلى سـاعة يظهـر لنـا فيهـا درع**» وفي رواية: «**من ساعة إلى ساعة فعد إلينا**». وقد يقال: الخطاب من قولـه: ﴿وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ...﴾ إلى هنا للنبيء ﷺ فيكون التسلية له هنا بالذات وغيرُه تبعٌ له.

(أصـول الدين) والمراد: إنَّه يبسـط ويضيِّق بحسـب مشيئته، والحكمـة تابعـة لهـا، لا يفعـل مـا لا حكمـة فيـه، وقـالت المعتزلـة: السـيِّئة تابعـة للحكمـة والمصلحة، ولا يجب أن تكون مصلحة العبد في مشيئة ا لله، خلافا للمعتزلة وقليـل من الأَشْعَرِيَّة كالشـيخ زاده، ولكـن نسبه للأشعريَّة كلِّهـم. والبسـط والإعسـار لحكمـة لا لعظـم المـرزوق، أو هَـوَانِ المـرزوق، وليسـت أفعالـه معلَّلـة بالحكمـة والمصلحة ولا المصلحة في حقِّ العبد واجبة عليه عندنا وعندهم خلافا للمعتزلة.

ويجوز أن يكون المعنى: إنَّ القبض والبسط الشديدين مختصَّان با لله فـاقتصد أنت ودع ما يختصُّ با لله سبحانه. وأن يكون المعنـى: إنَّـه يقبـض تـارة ويبسـط أخرى وهذا اقتصاد فاستنُّوا به، وعلى الوجهين الآية تعليل للآية قبلها الناهية عن القبض والبسط الشديدين، قيل: ويجوز أن تكون تمهيدا لقوله:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ۝٣١ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ۝٣٣ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ۝٣٤ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٣٥ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ۝٣٧ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝٣٨ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ۝٣٩﴾

أصول أخرى لنظام المجتمع الإسلامي

(٢)

﴿وَلَا تَقْتُلُواْ﴾ وفيه أنَّه لو كان كذلك لقال فلا تقتلوا... بالفاء ويجاب بأنَّه جيء بالواو ليفيد زجرا عن قتل الأولاد عامًّا مطلقا مستقلاً فيدخل فيه كلُّ ما أريد دخوله ﴿أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ لأنَّه تعالى متكفِّل بأرزاق العباد بحسب مشيئته فكيف تقتلونهنَّ للرزق وهو مضمون عند الله، وكانت العرب يقتلون بناتهم لعجزهنَّ عن الكسب ولئلاً يتزوَّجن بغير أكفائهنَّ وهو عار، وقد يقتلونهنَّ لعدم جمالهنَّ ولخوف زناهنَّ. والإملاق: الفقر، والقتل هو دفنهنَّ، وعلَّل النهي عنه بقوله: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ وبأنَّ قتلهنَّ ظلم عظيم ويقطع

التناسل، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ﴾ قتل الأولاد التي هي هنا البنات أفاد أنَّ الاسم الصادق بالمذكر والمؤنث كالإنسان والولد يذكر أصالة ولو أريد به المؤنَّث ﴿كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ خطئ يخطأ خطئا بوزن علم يعلم علما، وهو الإثم. وقدَّم رزق الأولاد لأنَّ المخاطبين هنا الأغنياء وفي سورة الأنعام الفقراء فقدَّم رزقهم فيها وللإشعار بأنَّ الأولاد هم الأصل في إفاضة الرزق، وفي سورة الأنعام ذكر ما يستدعي تقديم ذكر المخاطبين، ولأنَّ الباعث على القتل في سورة الأنعام نفس الإملاق الناجز كما قال فيها: ﴿مِنِ امْلَاقٍ﴾ (سورة الأنعام: ١٥١) والباعث هنا خشية الإملاق كما قال: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ فهو متوقَّع لا ناجز، فكأنَّه قيل: نرزقهم بلا نقص من رزقكم فلا تتوقَّعوا الإملاق فتقتلوهم، ومرَّ كلام في سورة الأنعام.

(فقه) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ بتمنّيه أو تكييفه أو العزم عليه، أو التلويح إليه بكلام أو عين أو يد أو إشارة أو بنظر الشهوات أو المسِّ أو القبلة، فضلا عن أن تزنوا بالفرج والزنى كبيرة في ذلك كلّه، ولو مع صخرة أو مع نفسه أو بهيمة.

(فقه) ولا تصحُّ توبة الزاني إلاَّ باستحلال من زنى به، إلاَّ إن زنى ببالغ أو بالغة عاقل أو عاقلة راض أو راضية حرًّا أو حرَّة، إلاَّ إن كان لها زوج فلا بدَّ من استحلاله أيضا، وإن كانت أمة فلا بدَّ من استحلال سيِّدها وزوجها إن تزوَّجت أيضا معا.

﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ خصلة قبيحة قبحا ظاهرا ﴿وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ بئس الزنى طريقا إلى هتك الحرم ولو برضى المرأة، وإلى قطع الأنساب بأن نسب للفراش إن كان لها زوج وهو في الحقيقة من ماء غيره وإلى تهييج الفتن من أولياء المرأة ولو رضيت ومنها أيضا إن قهرت.

(فقه) ﴿**وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفسَ الَّتِي حَرَّمَ ا للهُ**﴾ أي حرَّم ا لله قتلها ﴿**إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾ كقتل لردَّة ورجم لإحصان وقتل من وجدته في دار حرمك بالغا عاقلا غير مضطرٍّ غير مَحْرم لهنَّ مختفيا متَّهما بالزنى بلا معاهدة منهنَّ أو بالمعاهدة، وكقتل للقصاص من متعمِّد مكافئ، وكقتل للإشراك بلا ردَّة، وقتل الذين يحاربون ا لله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا، وكقتل لترك الصلاة أو الزكاة إذ منعها، وقيل: تؤخذ منه قهرا بلا قتل، وغير ذلك مِمَّا يحلُّ به الدم، [قلت:] **وجمعت منه نحو ثلاثين مسألة**[1].

(نحو) و«بِالْحَقِّ» متعلِّق بـ«تَقْتُلُوا»، أي بسبب إلاَّ سبب الحقِّ، أو لمحذوف جوازا حال من الواو، أو من «النَّفْس» أي متلبِّسين بالحقِّ أو متلبِّسة بالحقِّ، أو يقدَّر: قتلا مَّا إلاَّ قتلا ملتبِّسا بالحقِّ.

﴿**وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا**﴾ تسلُّطا أو قُوَّة فإن شاء قتل وإن شاء أخذ الدية، وذلك في قتل العمد، لأنَّ قتل الخطإ لا يسمَّى ظلما، [قلت:] ودخل في الآية من أمرك أن تقتله فإنَّك تقتل به إذا كان ممَّن يقتل قاتله، وإباحته لك قتله لا تبيحه وقد منعه الشرع، وإن قتله غير وليِّ الدم قتل به إلاَّ إن أمره وليُّ الدم أن يقتله ﴿**فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ**﴾ بأن يقتل بما يعذِّب القتل به، أو يقتل غير القاتل وحده، أو مع القاتل، أو يمثِّل بالقاتل. وكانوا في الجَاهِلِيَّة إذا قتل غير الشريف شريفا تركوا القاتل وقتلوا شريف قومه.

(فقه) وأمَّا عدم تكافؤ الدمين فلا تشمله الآية لأنَّه لم يجعل ا لله سلطانا لوليِّ المقتول الذي لا يكافئ دم القاتل. ولا يُقتل الأب في ولده أو ولد ولده، وإن قال الساحر: قتلت فلانا بسحري قُتل به.

١- انظر: شرحه للنيل، ج١٥، كتاب الدماء، ص١٨٥، فقد ذكر مجموعة من هذه المسائل.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الوليُّ ﴿كَانَ مَنصُورًا﴾ بإثبات ا لله له القتل، أو بإعانة الحكـام له، ويجوز عود الهاء إلى ﴿مَن قُتِلَ﴾ فإنَّه منصور في الدنيا باستحقاق قاتله القتل، وبدخول الجنَّة ودرجاتها إن كـان متَّقيـا لله ﷻ، وبـالثواب مطلقـا ولـو شـقيًّا بنقص بعض العذاب، ومنصورا أيضا باستحقاقه دية ما مثَّل بـه القـاتل، أو عذَّبـه به، واستحقاق القاتل التعزير به أو النكال أو القصاص.

وقيل: ضمير «يُسْرِف» للقاتل ابتداء، وفيه تفكيك الضمـائر لأنَّ الإضمـار في ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ لغيره، ووجهه أنَّه من بدأ القتل فقد أسرف على نفسـه بتعريضها لأن يقتصَّ منه.

﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ﴾ فضلا عن إتلافه بوجه مَّا، أو تضييع ﴿إِلاَّ بِـالتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي هي حسنة، أو حسن من غيرها، والخطاب للأولياء والقـائمين بمال اليتيم بالإيصاء، أو للعشيرة أو بالاحتساب، و﴿بالتِي هِـيَ أَحْسَـنُ﴾ الفعلـة النافعة جـدًّا مـن حفـظ مالـه وتنميتـه والتَّجْر بـه لليتيـم، وإخـراج الحقـوق منـه كالزكاة، وإنفاقه منـه بحسـب مـا يصلـح لـه وبحسـب مالـه، وإلباسـه وإسـكانه ومركبه وصرفه منه لمعلِّمه، وكلّ ما يحتاج إليه، أي إلاَّ بالطريقة التي هي أحسـن الطرق في شأنه، ومن خالف ذلك فقد فعل كبيرة.

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قوَّته بإينـاس الرشـد وصـلاح بدنـه للقيـام بمالـه، ولا ينحصر ذلك في سنٍّ لكن بعد البلوغ، فقد يبلغ أشدَّه بأربع عشرة سـنة، وبـأقلَّ بعد البلوغ وبأكثر، وذكـر بعـض العلمـاء أنَّ أشـدَّه: بلـوغ ثمـاني عشـرة سنة، وذلك أشدُّ اليتيم، وأمَّا أشدُّ الرجل فقيل: ثلاثون سنة.

(فقه) وإذا بلغ أشدَّه لم يجز لأحد أن يقرب ماله ولو بالتي هي أحسـن إلاَّ بإذنه، إلاَّ إن كان يفسده فإنَّه يمنع منه، والمنع منه هو من التي هي أحسن.

(لغة) والأشدُّ مفرد كالأنك، أو جمع لا واحد له من لفظه، أو جمع شدَّة كنعمة وأنعم، أو شِدٌّ بكسر شينهما أو شَدٌّ بفتحها كضَرٍّ وأضرٍّ.

﴿وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ﴾ عهد الله إليكم بالأوامر والنواهي، وما ألْزَمْتُم أنفسكم لله من نفل، والعهد بينكم وبين الخلق، أو المراد: ما عاهدتم الله به من قبول ذلك والتزامه ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ مطلوبا يطلبه الله، أو الخلق مِمَّن عهده، أو عهد إليه، والمراد أنَّه ليس مغفولا عنه، فلا يضيع أو يسأل العهد بنفسه كذلك تبكيتا للمعاهد إن نكث، كما تسئل الموءودة لا أبوها تبكيتا له، كما قال ﷻ: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ (سورة التكوير: ٨-٩).

أو ذلك من باب الحذف والإيصال، والأصل: مسئولا عنه، فالمسئول المعاهِد، أو يقدَّر مضاف كذلك، أي إنَّ صاحب العهد كان مسئولا، أو العهد بمعنى العاهد أي المعاهد.

[قلت:] ولا نسلِّم أنَّ العهد مشبَّه بالناكث فإنَّه لا وجه شبه بينهما، فضلا عن أن يقال: شبَّه العهد بمن نكث وسئل عن نكث عهده، فاستعمل عبارة المشبَّه به في المشبَّه على الاستعارة التمثيلية، وفضلا عن أن يقال: شبَّه العهد بمن نكث عهدا تشبيها مضمرا مرموزا إليه بنسبة السؤال إليه تخييلا عن الاستعارة المكنية والتخييل.

﴿وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ إذا أردتم الكيل فكيلوا بلا نقص في البيع والشراء وسائر قضاء الحقوق مِمَّا يكال، والأمر للوجوب ولو أريد الزيادة من البائع أو نحوه لم تقدَّر الإرادة، وكأنَّ الأمر للندب والخطاب للبائعين ومن عليهم الحقوق في الكيل وعليهم الكيل.

(فقه) وإن كال غيرهم فعليهم أجرة الكيَّال لا على المشتري مثلا، وإن أذن البائع للمشتري أن يكيل ورضي المشتري جاز ولا أجرة له إلاَّ إن

شرطها، ولكن لا يناسبه الأمر بالإيفاء إلاّ من جهة أنَّ البائع يأمره بالإيفاء، أو لا يعطّله عنه، أو على معنى اقتصر أيُّها المشتري على الإيفاء لا تجاوزه إلى الزيادة، وأنت خبير بأنَّ الآية لا تحمل على المعنيين معا على الصحيح، فليقتصر على الأوَّل وهو كيل البائع، وكذلك أجرة النقّاد على من يعطي الثمن وهو المشتري، وإن احتاج المبيع إلى النقد فأجرة النقّاد على البائع، والضابط أن من عليه الفعل فعليه أجرة فاعله.

﴿وَزِنُواْ بِالْقُسْطَاسِ﴾ الميزان الصغير والكبير بلغة الروم عرِّب، وكان العرب ينطقون به فلم يخرج به القرآن عن أن يكون عربيًّا فهو من كلام العرب، إذ كانوا ينطقون به حكاية، ولا سيما أنّه قد عرِّب أي أصلح.

[قلت:] فلا حاجة إلى تأويل ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ (سورة يوسف: ٢) بأنَّ المراد الغالب أو إنّه عربيٌّ الأسلوب، وفي اللباب: إنّه عربي في الأصل، وإنّه هو الأصحُّ.

(لغة) وقيل: القسطاط القبان، وهو القرسطون بلغة الشام، وعن قتادة: العدل، من القسط بمعنى العدل فهو عربيٌّ مكرَّر اللام، وزنه فعلال لا العين بوزن فعلاع، ويضعف أنَّه مركَّب من "قسط" أي عدل و"طاس" أي كفَّة، حذفت إحدى الطاءين. ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾ السويّ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي المذكور من إيفاء العهد والكيل والوزن بالقسطاس المستقيم ﴿خَيْرٌ﴾ منفعة لكم دنيا وأخرى، بالنجاة من العذاب والفوز بأداء الواجب، وثواب ما زاد إن زاد، وفي خلافه مَضَرَّة فيهما عكس ما ذكر، أو أفضل لكم من عدمه، إذ تتوهَّمون أنَّ في نقض العهد والتطفيف خيرا وهو ما يبقى لكم من مثمَّن أو ثمن وما يعطى المعهود.

﴿وَأَحْسَنُ تَاوِيلاً﴾ حسن رجعا وفي خلافه قُبْحٌ، وخير الإيفاء النجاة من عذاب التطفيف، والفوز بثواب الإيفاء لقاصده، وإقبال الناس عليه بالمعاملة والمدح، والتأويل تفعيل من آل يؤول بمعنى رجع، كأنَّه قيل: وأحسن عاقبة، وهو خارج عن التفضيل، وليس التأويل بمعنى التفسير، أو العاقبة خارجا عن ذلك بل مبنيٌّ عليه.

﴿وَلاَ تَقْفُ﴾ يا من يصلح للخطاب ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ لا تتَّبع ما ليس لك علم به، من فعل أو قول أو اعتقاد، تقليدا أو ظَنًّا أو بهتا، لا تشرك نوع إشراك ما، ولا تشهد بالزور، ولا تقذف ولا تكذب، وهكذا على العموم.

لا تقل: رأيت ولم تر، أو سمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، ولا ترم أحدا بما لم توقن أنه فيه، ولا تحكم عليه بما ظننت، ولا بتجسُّس، **لا تبن حكما أو معاملة على شيء من ذلك.**

(فقه) فخرج الظنُّ فإنَّه جائز بلا عمل به، كما قال ﷺ: « **إذا ظننت فلا تحقق**»[1] ويُظنُّ الخير في عامل الخير والشرُّ في عامل الشرِّ، إلاَّ الزنى أو الإشراك فلا يجوز ظنُّهما في عامل الشرِّ إلاَّ لمن رأى أمارتهما.

(أصول الفقه) وأباحت الآية حكم المجتهد بالقياس أو نحوه، لأنَّ ما أداه إليه اجتهاده عِلمٌ ولو كان ظنّيًّا، لأنَّ العلم في الأمور الشرعيَّات ـ ودخل فيها الحكم بين الناس وسائر التحليل والتحريم ـ ليس بمعنى اليقين، ألا ترى أنَّ المجتهد يخطئ ويصيب ولا يعاقب على خطئه؟ ألا ترى أنَّا نحكم بشهادة الأمناء وشهادة من يدَّعي الإسلام ولم نر فيه كبيرة ؟ وبشهادة العَامَّة

١- تقدَّم تخريجه، انظر: ج٧، ص٧٥.

بدون أن نراها فيهم، وذلك كلُّه ظنٌّ لا يقين، ألا ترى قوله تعالى: ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ (سورة الممتحنة: ١٠) وكفى الاختبار وا لله أعلم بإيمانهنَّ.

وإنَّ ا لله ردَّ الأمر إلى الظاهر حتَّى سمِّي من لم يأت بشهادة الزنى كاذبا، ولو كان صادقا عند ا لله، ولو شهدوا بزور و لم نعلم بهم حكمنا بهم، ومن ذلك حلَّ ذبائح والنكاح ونحو ذلك مِمَّا يشترط فيه التوحيد مع أنَّا لا ندري ما الباطن.

(أصول الفقه) وكثر اجتهاد الصحابة وقياسهم، وأمر ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه أن يعمل باجتهاده وقياسه فيما لم يحفظ فيه عنه شيئا حين أرسله إلى اليمن، قال ابن عَبَّاس رضي الله عنه : «لا تشهد إلاَّ بما رأته عينك وسمعته أذنك ووعاه قلبك» **وليس في ذلك شيء من اليقين**، قال ﷺ : «**من قفا مؤمنا بما ليس فيه حبسه ا لله في ردَغة الخبال حتَّى يأتي بالمخرج**»[1] بفتح الدال وسكونها وبالغين المعجمة، وهو عصارة أهل النار، والمخرج أن يرجع عَمَّا قال قبل موته، وإن أراد الآخرة فالمعنى أنَّه لا مخرج له، والمراد بما ليس فيه بحسب الظاهر، ولو كان فيه عند ا لله.

﴿**انَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً**﴾ كلٌّ من الثلاثة مسئول عن نفسه، فالإشارة والهاء والمستتر في «كَانَ» و«مَسْئُولاً» لـ﴿السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ﴾.

يسأل ا لله هذه الأعضاء عمَّا فعل بها صاحبها ولو كانت لا تجيب، توبيخا لصاحبها، أو يخلق ا لله فيهنَّ عقلا ونطقا وتجيب، قال ا لله عز وجل : ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ...﴾ (سورة يس: ٦٥) .

١- رواه **أبو داود** في كتاب الأقضية، باب فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها رقم٣٥٩٧، بلفظ: «قال» عوض «قفا» في حديث طويل أوَّله قوله ﷺ : «من حالت شفاعته...». من حديث ابن عمر.

(نحو) أو يقدَّر مضاف، أي إنَّ صاحب السمع...إلخ وضمير «كَانَ» لصاحب، أو يقدر مضاف في «كَانَ» لا في السمع، أي كان صاحبه، أي كان صاحب كلٍّ أولئك. وهاء «عَنْهُ» لكلٍّ، وضمير «مَسْئُولاً» لصاحب، [يُسأَلُ:] لم سمعت ما لا يحلُّ سماعه؟ ولم أبصرت ما لا يصلح إبصاره؟ ولم عزمت بفؤادك على ما لا يحلُّ العزم عليه؟ [قلت:] ويكتب على هذه الأمَّة العزم على المعصية لا أنَّها عملتها إن لم تعملها.

(نحو) ويجوز عود ضمير «كَانَ» للقَفْوِ المعلوم من قوله: ﴿لاَ تَقْفُ﴾ ويجوز أن يكون «عَنْهُ» نائب فاعل «مَسْئُولاً» وقدِّم، ولو كان نائب الفاعل لا يقدَّم لشبهه بالفضلة، على أنَّ مدخول الباء في أفْعِل به من باب التعجب هو الفاعل، والفاعل لا يحذف، والمسئول عنه في هذا الوجه صاحب الجوارح. ونقل أبو جعفر النحاس الإجماع على أنَّه لا يجوز تقديم نائب الفاعل ولو كان جارًّا ومجرورا، قال بعض: لا نسلِّم الإجماع، وفي شرح ألفية ابن معطى[1] جواز تقديم النائب إذا كان جارًّا ومجرورا مستدلاًّ بهذه الآية، ومن خصَّ هؤلاء بالعقلاء جعله في الآية استعارة للأعضاء تشبيها لهنَّ بهم.

﴿وَلاَ تَمْشِ﴾ يا من يصلح لهذا الخطاب ﴿فِي الاَرْضِ مَرَحًا﴾ يؤوَّل بـ«مرِحا» بكسر الراء، أو بذا مَرَح، أو مَشْيَ مرح، أو يضمنَّ «تَمْشِ» معنى تمرح. والمرح: شدَّة الفرح المتوصَّل به إلى الكبرياء والخيلاء، أو هو الخيلاء في المشي.

١- ابن معطى يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي من قبيلة زواوة (بظاهر بجاية بالجزائر) عالم بِالعَرَبِيَّة، له تآليف كثيرة سكن دمشق زمانا، ثمَّ انتقل إلى مصر، ودرَّس بالجامع العتيق بالقاهرة، وتوفي فيها سنة ٦٢٨. الأعلام للزركلي، ج٢، ص١٥٥.

﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ﴾ تثقبها بمرحك حتى تبلغ آخرها، ولا خرقا دون ذلك ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ تمييز عن الفاعل كأنه قيل: لن يبلغ طولك الجبال أي طول الجبال، فأنت أيُّهَا المختال أحقر من الجمادين الأرض والجبل، فكيف تتكبَّر؟ **ولا خير في التكبُّر والخير في التذلُّل لله** ﷻ ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَآءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (سورة الجاثية: ٣٧) . ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ أي الخصال الخمس والعشرون، الأولى، لا تجعل والثانية والثالثة ﴿وقَضَى رَبُّكَ﴾ لأنه أمر بعبادة الله ونهى عن عبادة غيره، وبالوالدين، فلا تقل ولا تنهرهما، وقل لهما واخفض، وقل ربِّ، و[آت] ذا القربى والمسكين وابن السبيل، ولا تبذّر، فقل لهم، ولا تجعل يدك، ولا تبسطها، ولا تقتلوا أولادكم ولا تقربوا الزنى، ولا تقتلوا النفس، فلا يسرف، وأُوفوا، وأوفوا، وزنوا ولا تقف، ولا تمش، وهنَّ مكتوبات في ألواح موسى عليه السلام .

وليس ذلك كلُّه سيِّئة فكيف قال الله: ﴿كَانَ سَيِّئَةً﴾ ؟ الجواب: اعتبار ترك ما أمر به فإنّه سيِّئة، وأخبر بالمؤنّث عن المذكر لأنَّ معناه ذنب، فأصله صفة مشبَّهة لكن تغلّبت عليه الإسميَّة، أو يقدر محذوف، أي: وكان حسنا باعتبار ما أمر به، أو الإشارة إلى ما نهي عنه خاصَّةً، وهو اثنتا عشرة. وتأنيث السيِّئة باعتبار الخصلة أو الفعلة ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ متعلّق بـ«كَانَ» أو نعت «سَيِّئَةً»، أو متعلق بقوله: ﴿مَكْرُوهًا﴾ خبر ثان لـ«كَانَ» ولا داعي إلى جعله نعتا لـ«سَيِّئَةً» وأنَّها مؤوَّلة بالذنب وهو مذكّر كما مرَّ، ولا إلى جعله بدلا بمعنى أمرا مكروها، أو باعتباره لأنّه لا يشترط مطابقة البدل، ومعناه: مبغَض، وذلك كراهة تحريم.

(أصول الدين) فتلك أشياء أبغضها الله وخلقها وأرادها ولا مُكرِه له، وبغض الشيء أو قبحه لا ينافي إرادته، فبطل قول المعتزلة: إنّه لو كانت مخلوقة له لكان مريدا لها والمكروه لا يراد، زاعمين أنَّ الإرادة بمعنى

الرضى وهو ضدُّ الكراهة وذلك خطأ منهم، فإنَّ الإرادة ليست عين الرضى ولا مستلزمة له.

﴿ذَٰلِكَ﴾ ما ذكر من الخمس والعشرين، وعن ابن عبَّاس رضي الله عنه: ثماني عشرة آية من ﴿لاَ تجْعَلْ﴾ إلى ﴿مَدْحُورًا﴾ عشر آيات في التوراة، وعنه رضي الله عنه: التوراة كلُّها في خمس عشرة آية من هذه السورة، ثمَّ تلا ﴿وَلاَ تجْعَلْ﴾. ﴿مِمَّآ أَوْحَىٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ هي معرفة الحقِّ سبحانه لذاته، ومنها التوحيد ومعرفة الخير للعمل به، ومنه باقي التكاليف التي لا تنسخ، والأمر بالقسمين موعظة، وقد فسِّرت الحكمة بالموعظة، و﴿مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ حال من «مَا» أو من هاء المحذوفة أو بدل من «ما».

﴿وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا ـ اخَرَ﴾ ذكره أوَّلا ورتَّب عليه ما هو غاية الشرك في الدنيا وهو الذمُّ والخذلان، [قلت:] والتوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه، ورأس الحكمة، فإنَّه لا عبرة بعمل من لا قصد له، أو قصد به غير الله عز وجل، أو مع الله وذكره ثانيا ورتَّب عليه ما هو غاية في الآخرة كما قال: ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ تلومك الملائكة وتلوم نفسك، قال الله عز وجل: ﴿لآ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (سورة القيامة: ٠٢) ﴿مَدْحُورًا﴾ مبعدا عن رحمة الله عز وجل.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾

تقريع من نسب الولد والشريك إلى الله تعالى

ومن الإشراك وصف الله بالولادة ولا سيما أخس الأولاد [عندهم] وهو الإناث، كما قال:

﴿افَأَصْفَاكُمْ﴾ أي أفضّلكم على نفسه فأصفاكم ﴿رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾ اختاركم على نفسه بالبنين أولادا لكم خاصّة، والإصفاء بالشيء جعله خالصا لشيء ﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثًا﴾ بنات له، وهنّ نواقص تدفنونهنّ، سبحانه، هذا مِمَّا تنكره عقولكم، فكيف كابرتموها !.

القائلون: الملائكة بنات الله هم خزاعة وبعض النصارى، يجعلون لله ما يكرهون، وذلك من تلوين الخطاب من مخاطب إلى مخاطب، والاستفهام التوبيخي منسحب على «أَصْفَاكُمْ» وعلى «اتَّخَذَ» المعطوف على «أَصْفَاكُمْ».

(نحو) و«اتَّخَذَ» متعدٌّ لواحد، و«مِنْ» متعلّق به، أو حال من «إِنَاثًا»، أو متعدٌّ لاثنين ثانيهما «مِنَ الْمَلآئِكَةِ»، أو «بنات» محذوف و«مِنَ الْمَلآئِكَةِ» حال من «إِنَاثًا»، و«مِنْ» على كلٍّ حال للبيان لا للتبعيض، لأنهم يقولون الملائكة بنات الله لا بعض الملائكة. واختار إناثا على بنات لأنّه أصرح في الأنوثة التي هي أخصُّ صفات الحيوان، قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلُواْ الْمَلآئِكَةَ الذِينَ هُمْ عِندَ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ (سورة الزخرف: ١٩) كفروا بنسبة الولادة لله وكفروا باعتقاد أنَّ الملائكة إناث.

﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا﴾ لأنَّ الولادة توجب التجسيم لله، والجسم ناقص فإنّه حادث عاجز، وما يلد يفنى، وتفضيل أنفسهم بالبنين على الله وإثبات الولادة نفي للأُلوهيَّة.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْءَانِ﴾ كرَّرنا بوجوه مختلفة وإيضاح في مواضع من القرآن. والمفعول محذوف والتقدير: صرفنا نفي ولادة البنات كغيرهنَّ عنَّا، و﴿هَذَا الْقُرْءَانِ﴾: كتاب الله الذي أنزل عليه ﷺ، ويجوز أن يراد بالقرآن المعنى المقروء في قوله ﷻ: ﴿افَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم...﴾، والمفعول محذوف أي ولقد صرَّفنا الكلام في هذا المعنى المقروء، وهو نفي الولادة.

ولا بدَّ أيضا من التلويح إلى معنى المقروء، في تفسير القرآن بالكتاب كلّه لأنَّ اسم الإشارة لا ينعت بعَلَمٍ، فإن لم يؤوَّل فالقرآن بدل، لأنَّه عَلَم على هذا الكتاب، وأمَّا ﴿فَذَٰلِكُمُ ا للهُ﴾ (سورة يونس: ٣٢) فـ«ا لله» خبر أوَّل لا نعت إلاَّ بتأويل المعبود، ويجوز أن يكون المعنى على العموم، أي ولقد كرَّرنا في هذا الكتاب ما أردنا تكريره من نفي الولادة ونفي الشركة وغير ذلك ليفهم ويرسخ في القلوب كما قال:

﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ لِيَتَذَكروا، أي يتأمَّلوا ويتفكَّروا حتَّى يدركوا انتفاء الولادة عنه سبحانه ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي القرآن أو التصريف ﴿إِلاَّ نُفُورًا﴾ عن الإدراك والحقِّ، وهو انتفاء الولادة عنه أو غيرها أيضا مِمَّا لا يجوز.

﴿قُل﴾ للمشركين ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُ﴾ أي مع ربِّكم في استحقاق العبادة ﴿ءَالِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَواْ﴾ أي الآلهة، ذكرها بالواو لأنَّها عندهم كالذكور العقلاء، ولو سمُّوا بعضا باسم الإناث كاللات والعزَّى ومناة، والمعنى: لطلبوا وتكلَّفوا ﴿إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ﴾ الملك، أو ذي الجسم العظيم المسمَّى بالعرش، متعلّق بـ«ابْتَغَواْ» لتضمُّنه معنى التوجُّه والقصد، أو متعلّق بحال محذوفة جوازا من قوله: ﴿سَبِيلاً﴾ أصلها نعت، أي سبيلا موصلة إلى ذي العرش، وذلك بطريق المغالبة، كما تفعل الملوك بعض مع بعض.

وذلك من برهان التمانع كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ...﴾ (سورة الأنبياء: ٢٢) والملازمة قطعيَّة لا عادية، و«لَوْ» امتناعيَّة، والقياس استثنائي استثنى فيه نقيض التالي لينتج نقيض المقدَّم المطلوب، أو بطريق الإذعان إلى الله وعجزهم عنه، كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ (سورة الإسراء: ٥٧) كعيسى وعزير والملائكة وهذا مناقض للأُلوهِيَّة، لأنَّ المستكمل محتاج فلا يكون إلها.

(منطق) والقياس اقترانيٌّ مركَّب من مقدِّمة شرطيَّة اتفاقيَّة وحمليَّة هكذا: لو كان معه آلهة لتقرَّبوا إليه تعالى، وكلُّ من يتقرَّب إلى غيره ليس إلها فليسوا بآلهة، فلو شرطيَّة لا امتناعيَّة، والأوَّل أولى لقوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ لأنَّه تنزيه عن محذور يرتكبونه، وأمَّا التقرُّب فلا يختصُّ بهذا التقدير، وليس باللزوم بل اعتقدوه البتَّة، والعامل هنا ماض أي تنزَّه عن ذلك بدليل قوله : ﴿وَتَعَالَى﴾ بَعُدَ بُعْدًا عظيما عمَّا يقولون، كما قال: ﴿عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا﴾ ناب عن تعاليًا ﴿كَبِيرًا﴾ لأنَّه واجب الوجود والبقاء، مالك الملك كلِّه، واتِّخاذ الولد احتياج وموجب للفناء، وكلُّ ما يلد يفنى، والفناء موجب لحدوث سابق متقدِّم عنه العدم.

﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ﴾ [قيل:] تقول السماء الأولى التي تلينا: «سبحان ربِّي الأعلى» والثانية: «سبحانه وتعالى» والثالثة: «سبحانه وبحمده» والرابعة: «لا حول ولا قُوَّة إلاَّ به» والخامسة: «سبحان محيي الموتى وهو على كلِّ شيء قدير» والسادسة: «سبحان الملك القدوس» والسابعة: «سبحان الذي ملأ السماوات السبع والأرضين السبع عزَّة ووقارا».

﴿وَالاَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ الاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ الحيوانات ومنها الملائكة والإنس والجنُّ والجمادات كالمياه والشجر، فمن هؤلاء من يسبِّح بلسان

حقيق، كالثقلين والملائكة، قيل: وكلُّ ما له لسان، ومن هؤلاء من يسبِّح بلسان الحال وهو ما لا لسان له.

ونفس الأجسام مطلقا كأجسام الملائكة والثقلين ولو الكُفَّار منهما، وفي ذلك جمع بين الحقيقة والمجاز بخلاف ما إذا قلنا: معنى التسبيح دلالة ما سوى الله على تنزُّهه عن صفات الخلق، إذ دلَّت بجوازها على وجوب وجود الله ﷻ وقدمه، فيسبِّح بمعنى يدلُّ على انتفاء صفات الخلق عن الله ﷻ، كاتِّخاذ الولد والشركة في الملك.

أو ذلك من عموم المجاز وهو أن يراد مطلق الدلالة فتشمل دلالة اللسان وغيرها، أو المراد بالتسبيح دلالة غير اللسان والاستعارة تبعيَّة مفردة، ويجوز أن تكون مركَّبة تمثيليَّة، بأن شبَّه الدلالة على وجوب وجود الله وتنزُّهه عن صفات النقص بالدلالة على ذلك بالنطق.

﴿**وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾ أيُّها الناس مطلقا، إلاَّ بإخبار الله وتنبيهه على أنَّ وجودها مذعنة دلالة، وتستعملون عقولكم فتدركون، وهذا على الوجه الأخير من أنَّ التسبيح دلالة، أو لا تفقهون أيُّها المشركون لإغفالكم النظر، وهو أنسب بقوله: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ... ﴾ (سورة الإسراء: ٣٩) فإنَّه مسوق لردِّهم ونهيهم، وقد يقال: لو كان المراد مطلق الدلالة لفهمها كلُّ عاقل، وفيه أنَّ الأكثر لا يستعملون عقولهم.

وعلى التسبيح الحقيق نقول: إذا أراد الله إسماع الخلق سمعوا ونطقت الأشياء، كما سمعوا تسبيح الحصا في يد رسول الله ﷺ وفي يد غيره، ولعلَّ الجمادات لا نطق لها في أصل خلقتها، وإذا أراد الله أنطق بعضها.

(سيرة)وعن أنس أنَّه حضر ثريد عنده ﷺ، فقال: «**إنَّه يسبِّح وأفقه تسبيحه**»، وأدناه لآخر فسمع تسبيحه وأدناه لآخر فسمعه، فقال: «**ردُّوه**»، فقال رجل: يا

رسول الله لو مرَّ عليهم جميعا، قال: «**لو سكت عند رجل لقلتم أذنب الرجل**»، وأتي بماء قليل فوضع يده فيه ففار فتطهَّروا وشربوا، وهم يسمعون تسبيحه في الإناء وأفواههم، وقال ﷺ : «**لا تجعلوا ظهور دوابِّكم كراسي لتحدُّثكم في الطرق والأسواق، فربَّ مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكرا**».

وقالت ضفدع بحضرة داود عليه السلام : «سبحانك وبحمدك منتهى علمك يا رَبِّ » فقال لملك نزل: «والذي جعلني نبيئا لم أمدح الله بهذا».

وصلَّى عند البحر فخرجت ضفدع فقالت: إنِّي في سبعين ألف ضفدع قائمة على رجل تسبِّح الله وتقدِّسه، وعنه ﷺ : «**إنَّ الطير إذا أصبحت سبَّحت الله وسألته رزق يومها**»[1]، وفي الحديث: «**ما قُطعت ورقةٌ أو بعضٌ من شجرة، أو صِيدَ صيد، أو أصابه ضرب إلاَّ حين لم يسبِّح**»[2]، ويروى: «**إلاَّ بقلَّة التسبيح**»، وجاء الأثر: إنَّ الشيء يسبِّح ما دام على أصله، فإذا قطعت الورقة أو الثمرة أو سقطت أو أخذت الخرزة أو ابتلَّ التراب أو اتَّسخ الثوب ترك التسبيح، وزعم بعض أنَّ الكلب والحمار لا يسبِّحان، وجاء أنَّ كلَّ شيء من الجماد والحيوان والمياه يسبِّح بنطق، وإذا شاء الله أسْمَعَناه.

﴿**إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا**﴾ كأنَّه قيل: لِمَ لم يعجِّل العقاب لهؤلاء الكُفَّار مع قولهم ذلك؟ فقال: لأنَّه كان من شأنه أن لا يعجِّل بالعقاب فحلم عنهم ﴿**غَفُورًا**﴾ لمن تاب منهم ومن غيرهم، والخطاب لهم كما رأيت جواب سؤال، وذلك قول الجمهور لأنَّ ما قبله لهؤلاء، وقيل: الخطاب للمؤمنين لذكر الحلم والغفران، وفيه أنَّهما غير ممنوعين عن الكُفَّار، والغفران مشروط بالتوبة.

١- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢٠٥ من حديث علي.

٢- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢٠٣ من طريق الزهري. وقال: أخرجه ابن راهويه في مسنده.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

حماية النبيء من أذى المشركين إذا قرأ القرآن

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ أي جعلنا بين قراءتك وبينهم مانعا عن أن يفهموها فهمَ تدبُّر، أو بين فهم قراءتك، لا بين سماع قراءتك ولا بين رؤيتك، لأنَّهم يسمعونه ويرونه.

(صرف) و﴿مَسْتُورًا﴾: بمعنى ذا ستر، أو ساترا، كمكان مهول أي هائل، أو ذا هول، وجارية مغنوجة أي غنجة أو ذات غنج، ورجل مرطوب أي رطب أو ذو رطوبة، و﴿كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ (سورة مريم: ٦١) أصله مأْتُويًا بوزن مفعول، قلبت الواو ياء وأدغمت وكسر ما قبله، أي آتيا أو ذا إتيان، والأولى إبقاؤه على المفعوليَّة، أي يأتيه الخلق ويلقونه، وسَيْلٌ مفعَم بفتح العين أي مالئ أو ذو إفعام، وميمون ومشئوم بمعنى يَامِن وشائم، أو ذو يمن وشؤم.

ويجوز إبقاء «مَسْتُورًا» على ظاهره بمعنى أنه حجاب معقول، غير حسِّي لا يرى، ومن لازم المستور ومسبّبه أن لا يرى، [قلت:] ولا يحسن تفسير الآية بحجب جبريل له ﷺ حين جاءت أمُّ جميل بحجر تضربه ﷺ بجناحيه حتَّى ذهبت، لأنَّ مثل هذا ولو تعدَّد قليل، والمطَّرد ما فسَّرنا به الآية ولا يَصِحُّ ما قيل: إنَّه يقرأ قوله تعالى في الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ

وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ (سورة الكهف: ٥٧) و﴿أُولَئِكَ الذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ (سورة النحل: ١٠٨) في النحل، ﴿أَفَرَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ...﴾ (سورة الجاثية: ٣٢) في الجاثية كلّما أراد قراءة القرآن عليهم فلا يروه، فإنَّ الحقَّ أنّهم يرونه ويجادلونه.

أو المراد وصفهم **بالجهل المركّب** بمعنى أنّهم منعوا بحجاب عن الفهم، وبحجاب آخر عن فهم كونهم لا يفهمون الدلالات المنصوبة، في الآفاق وفي أنفسهم، فهم مطبوعون على الغواية.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمُ أَكِنَّةً﴾ أغطية تمنعهم عن فهم ما يسمعون **﴿أَنْ يَّفْقَهُوهُ﴾** لئلاّ يفقهوه، أو كراهة أن يفقهوه، أو متعلّق بـ«أَكِنَّةً»، أي أغطية عن أن يفقهوه، وتغطية الشيء منع له، وهذا يكفي عن تقدير: منعناهم أن يفقهوه **﴿وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾** ثقل سمع أو صمما يمنعهم عن استماع لفظ القرآن، والمراد أنّهم لا يسمعون ألفاظه في الجملة فضلا عن إدراك معانيها، وإن سمعوه فكأنّهم لم يسمعوه فكأنّهم صمٌّ. ويجوز أن يكون هذا الكلام استعارة تبعيَّة.

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ﴾ في هذا الكتاب المنزَّل أو في قراءتك **﴿وَحْدَهُ﴾** لم تذكر أصنامهم التي يعبدونها.

(صرف) قال سيبويه: "وَحْدَهُ" اسم وضع موضع المصدر الموضوع موضع الوصف الذي هو حال، فـ"وَحْدَهُ" وضع موضع اتّحاد، واتّحاد وضع موضع متّحد، أراد أنّه في الأصل اسم مصدر خماسي، وعبارة بعض عنه أنّه في الأصل إيحاد مصدر أوحد الرباعي بالهمزة ومعناه الآن موحَّدا بفتح الحاء اسم مفعول، والمشهور أنّه مصدر وَحَدَ يَحِدُ كوَعَدَ يَعِدُ استعمل بمعنى منفرد فهو حال ولو أضيف لمضمر.

﴿وَلَّوْا﴾ عنك أو عن القرآنِ ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ حال مؤكّدة على أنَّه جمع نافر كقعود جمع قاعد، وشهود جمع شاهد، أو مفرد مفعول مطلق لـ«وَلَّوْا» كأنَّه قيل: نفروا نفورا، أو ولَّوا تولية. والعلّة محذوفة أي لكراهتهم مجلس الذكر، أو مفعول من أجله أي ولَّوا لنفورهم أي كراهتهم الذكر لِمَا فيه من التوحيد، فهم إذا سمعوا من القرآن ما ليس فيه ذكر الله تحيَّروا، ولم يتعلّقوا بشيء، وإذا سمعوا ذكر الله وحده دون أصنامهم أو مع ذمِّ الشرك هربوا، وأكّد الله هروبهم بذكر الأدبار وذكر النفور.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ يوجِّهون سمعهم بسببه أو لأجله إليك، وهو الهزء بك وبالقرآن.

(نحو) واسم التفضيل يوصل بالباء في العلم والجهل، وباللام في غيرهما، نحو زيد أطعم وأكسى للفقراء، وبغيرها نحو زيد أَمَرُّ بعمرو. وكان ﷺ يقوم عن يمينه رجلان وعن يساره رجلان من عبد الدار يصفّقون ويخلطون عليه بالأشعار إذا قرأ القرآن ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ لا يتعلّق بـ«أَعْلَمُ» لمنع العاطف من ذلك، ولا بـ«يَسْتَمِعُونَ» لفساد المعنى، بل بـ«أعلم» محذوفا أو يعطف على محذوف تقديره: نحن أعلم بما يستمعون به إليك حال استماعهم وإذ هم نجوى، أي وحال إذ هم نجوى، ففي هذا الوجه يتعلّق بـ«أَعْلَمُ» بتوسُّط العطف، أو ذلك عطف على المعنى كعطف التوهُّم، لأنَّ ﴿يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ في معنى إذ هم مستمعون إليك.

(صرف) و«نَجْوَى» جمع نجيٍّ، كمريض ومرضى، أو مصدر على معنى: يتناجون نجوى، أو ذوو نجوى واستعماله مصدرا أكثر، كقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى﴾ (سورة طه: ٩٢ وسورة الأنبياء: ٣) وهو كلام أحد إلى آخر سرًّا.

﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾ أزيل عقله كقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ (سورة المؤمنون: ٢٥) هذا تفسير لِمَا يتناجون به، أي يقولون في تناجيهم: إن تتّبعون إلاّ رجلا مسحورا إن اتّبعتموه، أو يتناجون مع مَن ضعُف إيمانه أو مع من صحَّ إيمانه، ولا يؤثّرون فيه.

أو ﴿مَسْحُورًا﴾ بمعنى ساحر، كمستور بمعنى ساتر، أو ﴿مَسْحُورًا﴾ بمعنى مجعول له السحر أي الرئة، ومنها التنفّس والعمل في الطعام والشراب، وكأنّه قيل: إلاّ رجلا يتنفّس ويأكل ويشرب مثلكم، كقوله تعالى: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَاكُلُ الطَّعَامَ﴾ (سورة الفرقان: ٧) فهو موصوف من اسم العين كمركوب بمعنى مضروب الركبة، ومعين مصاب بالعين.

والسَّحر بمعنى الرئة مفتوح السين ومكسوره ومضمومه ومسكن الحاء ومفتوحها. و«إِذْ» بدل من «إِذْ»، قيل: أو منصوب بـ«اذكُر». و«الظَّالِمُونَ» في موضع المضمر، والأصل: إذ يقولون، وذكرهم باسم الظلم تلويحا بأنَّ سبب تناجيهم ظلمهم وأنَّ تناجيهم ظلم.

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ﴾ فيما تقول من الوحي ﴿الاَمْثَالَ﴾ جمع مثل بفتحتين بمعنى شبه، أو بكسر فيكون مثّلوه بالشاعر والكاهن والساحر والمجنون، تارة يشبّهونه بكذا وتارة بكذا وبعضٌ يشبّهه بكذا أو بعضٌ بكذا، وعلى كلٍّ أرادوا التشبيه لا التحقيق ولو بالغ بعض حتّى أوهم التحقيق، ألا ترى أنَّ الشاعر لا يكون مجنونا ولا ساحرا ولا من شأن الكاهن أن يكون شاعرا بل مسجعا.

﴿فَضَلُّواْ﴾ عن الحقِّ في شأن الرسول ووصفه بغير صفته ﴿فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ طريقا يوصل إلى صحَّة ما قالوا في وصفه ﷺ، فهم يخبطون خبط عشواء ويتساقطون في الباطل تساقط الفراش في النار، أو طريقا يوصل إلى قبول الناس قولهم، أو طريقا إلى الحقِّ.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۞ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ۞ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ۞﴾

إنكار المشركين البعث والردُّ عليهم

﴿وَقَالُواْ﴾ عطف على «ضَرَبُوا»، والاستفهامان بعده للتعجُّب ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا﴾ مجرَّدة عن الجلود واللحوم ﴿وَرُفَاتًا﴾ مفرد كالجداد والرداد والفتات بمعنى ما بَلِيَ وتفتّت كالحطام، وهي أيضا عظام، كأنّه قيل: عظاما غير متفتِّتة وعظاما مفتّتة، ويطلق على ما بلي وتفتّت يابسا من غير العظام أيضا، فقد يريدون ما تكسّر وتفتّت من جلود ولحوم وعظام.

ولعلَّ من فسَّر الرفات بالتراب ـ وهو الفرَّاء ـ أراد أنّها دقيقة كالتراب إذ لا يعرف الرفات بمعنى التراب حقيقة، ومع ذلك قال الله في آية أخرى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ (سورة المؤمنون: ٨٢) فيفسَّر بالدقَّة كالتراب، وفسَّره بعض بالغبار، وبعض بما تكسَّر وبلي ودقَّ.

ويحتمل أن يرجع ترابا حقيقة رجوعا إلى أصله، كما قال بعض الأندلسيِّين: «كنّا ننسف التراب في موضع يسمَّى مقبرة اليهود، فوجدنا ميِّتا في قبره الصورة إنسان والحقيقة تراب حقيق لا فرق بينه وبين ما يليه من تراب الأرض كأنّه جسم مبنيٌّ من تراب»[1].

١- ومن هذا القبيل تحوُّل الفحم الحجري في مناجمه من شجر إلى حجارة وهو باق على شكل شجرة.

و﴿أءذا﴾ متعلّق بمحذوف، أي أنصير رطبا غضًّا أحياء إذا كُنَّا عظاما ورفاتا يابسة بالية ؟. و«إذا» خارجة عن الصدر والشرط، أو هي على أصلها فنقدِّر ذلك مؤخرا بـ«مبعوثون»، لأنَّ معمول خبر «إنَّ» لا يتقدَّم عليها، ولصدارة الاستفهام. ومعنى كونهم عظاما ورفاتا أنّهم كأنّهم صور من عظام ورفات من أوَّل غير مسبوقة بلحم وجلد.

﴿انَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ البعث متضمِّن لمعنى الخلق، فـ«خَلْقًا» مفعول مطلق لـ«مَبْعُوثُونَ» أي لمخلوقون خلقا جديدا أو «خَلْقًا» ضمِّن معنى البعث، أي لمبعوثون بعثا جديدا، والبعث الأوَّل هو خلقهم من النطفة، وهذا أولى من كونه حالا بمعنى مخلوقين، أو ذوي خلق، فيتبعه «جَدِيدًا» على لفظه من الإفراد.

﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً اَوْ حَدِيدًا اَوْ خَلْقًا﴾ مخلوقا ﴿مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ مِمَّا يعظم في قلوبكم أن لا يكون قابلا للحياة، ويستبعدون جِدًّا قبول الحياة فيه.

ولا نعلم أنَّ جسما مَّا من الأجسام أبعد عن الحياة من الحديد، ودونه الحجر لأنّه ينمو بالمشاهدة فيما يقطع، كحجارة الجبس ولو قطعت صخور كثيرة من موضع واحد من جبل لم يتبيَّن فيه النقص الكثير كما هو مشاهد.

ولعلَّ الإعراض أبعد في قلوبهم في قبول الحياة من الأجسام أو الذكر لأنّه يقطع الحديد إلاَّ أنّه يقبل الكسر أكثر من الحديد، أو نقول: المراد ما تستكبره عقولكم ولو كان أدنى في البعد من الحجارة والحديد، لأنَّ المقام لإبكاتهم في كلِّ ما أرادوا من ذلك.

وقدرته تعالى صالحة لكلٍّ ممكن ولا سيما إحياء ما قد كان قبل حَيًّا فإنّه عندكم أسهل مِمَّا لم تسبق حياته وعند الله سواء حتّى إنّه يكفر من قال: إنّها أسهل مِمَّا لم تسبق فيه.

وعن مجاهد الذي يكبر [هو] السماوات والأرض والجبال. وعن ابن عَبَّاس وابن عمر والحسن وسعيد بن جبير الأكبر: الموت، بمعنى لو كنتم نفس الموت لأحياكم مع أنَّ الموت يضادُّ الحياة.

(بلاغة) والأمر للإهانة والتحقير كقول موسى ﷺ: ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ (سورة يونس: ٨٠ وسورة الشعراء: ٤٣) فلا يقتضي الوقوع جزما لأنّه معنى مجازي له لا يقتضي الحصول، أو الأمر للتسخير على الفرض لأن يكونوا حجارة أو حديدا، لأنَّ التسخير يحصل فيه الفعل كالكون قردة كما في سورة البقرة [آية٦٥] وسورة الأعراف [آية١٦٦] كما قال التفتازاني، وكان بلفظ الكون إذ لم يقل: صيروا، ولم يقل: قعوا لمشاكلة قولهم: ﴿كُنَّا﴾. وقدَّم الحجارة على سبيل الترقّي لأنّها دون الحديد في الصلابة، ولأنّها تنمو كما مرَّ، وهو جمع حجر، كجمالة جمع جمل، جمعه لأنّه خبر «كُونُوا» واسمه ضمير جمع، وأفرد «حَدِيدًا» لمجانسة حديدا أو للتخيير أو للتسوية.

﴿**فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا**﴾ أحياء رطبا بعد أن كنّا موتى يبسا، والفاء للسببيَّة، والتفريع على قوله: ﴿قُلْ كُونُواْ...﴾ والاستفهام للإنكار أنكروا أوّلا البعث وأنكروا هنا الباعث أي لا أحد يعيدنا ﴿**قُلِ الذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ من تراب لأبيكم، أو من نطف، أي قل: الذي يعيدكم الذي فطركم أوّل مرّة، وهذا أوفق للسؤال، أو الذي فطركم يعيدكم، أو يعيدكم الذي فطركم.

﴿**فَسَيُنغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ**﴾ يحرّكونها نحوك استبعادا وتعجُّبا، أو إنكارا أو استهزاء، أو قيل: إنغاض الرؤوس تحريكها باضطراب، وقال الفراء: تحريكها

بارتفاع وانخفاض، وذلك استعارة تمثيلية، والماضي: أنغض بهمزة التعدية، والثلاثي لازم تقول: نغض رأسُه أي تحرَّك ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ أي البعث، أو إعَادَنَا مصدر أعاد، كقوله تعالى: ﴿وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ (سورة النور: ٣٧) مضافا لضمير المتكلِّم، ولإضافته قدِّر مذكَّرا.

(نحو) ويجوز ردُّ الضمير إلى الإعادة ـ بالتاء ـ لأنَّ الضمير العائد إلى ما ينسبك من الفعل وحرف المصدر يذكَّر كما لا يؤنَّث له الفعل إذا لم يكن ضميرا، تقول: أعجبني أن تقيم أي إقامتك، ولا تقول أعجبتني بالتاء، وقيل: الضمير للعود، وهو ضعيف والمعنى صحيح، كأنَّه عجز قائله عما ذكرت.

(نحو) ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَنْ يَّكُونَ قَرِيبًا﴾ الكون تامٌّ اسم «عَسَى»، و«قَرِيبًا» خبر «عَسَى»، أو اسم «عَسَى» مستتر و«قَرِيبًا» خبر «يَكُونَ»، و«أَنْ يَّكُونَ...» خبر «عَسَى»، ونصب «قَرِيبًا» على الخبريَّة، أو على الخبريَّة الظرفيَّة، أي في زمان قريب، ويجوز أن يكون مفعولا مطلقا، أي أن يكون كونا قريبا، والكون تامٌّ.

ومعنى القرب أنَّه متحقِّق الوقوع، فهو كالقريب بل كالواقع ولو بعد، أو إنَّ الدنيا كلَّها قريبة الانتهاء، أو إنَّ ما مضى هو الأكثر وما بقي قليل بالنسبة.

﴿يَوْمَ﴾ المراد: اذكر يوم، أو بدل من «قَرِيبًا» إذا جعلنا «قَرِيبًا» ظرفا، أو متعلِّق بـ«يَكُونُ» أو «يبعثون» محذوفا، أو بالضمير المستتر في «يَكُونُ» لعوده إلى ما يصحُّ التعليق به كما علمت. ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ أي الذي فطركم.

والدعاء بمعنى نفخ البعث على الاستعارة، أو الدعاء استعارة للبعث وتوجُّه الإرادة إليه، ولا نداء ولا كلام في ذلك، ولا موجود يخاطب ويعقل فذلك قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ (سورة يس٨٢) . ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ بالانبعاث، استعار

الاستجابة للانبعاث، والاستعارة في الموضعين تمثيلية والمراد: سرعة الحصول كإجابة تعقّبت نداءً. ويجوز أن يكون الدعاء بمعنى النداء حقيقة ولَكِنَّ الإسناد مجاز، لأنَّ المنادي إسرافيل على الصحيح، أو جبريل لا الله، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِي مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (سورة ق: ٤١) وقوله: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ (سورة ق: ٤٢).

﴿بحَمْدِهِ﴾ متعلّق بحال محذوف، أي ملابسين بحمده على كمال قدرته، أو بأمره، أو بطاعته على التجوُّز في الوجهين، أو معترفين بأنَّ له الحمد، كلٌّ من الكافرين والمؤمنين يخرجون من قبورهم ينفضون رؤوسهم من التراب، يقولون: «سبحانك اللهمَّ وبحمدك».

أو منقادين لبعثه انقياد الحامدين عليه، ولا ينفعهم. يقول إسرافيل على صخرة بيت المقدس في قرن: «أيَّتها العظام البالية، واللحوم المتفرِّقة، والعروق المتقطِّعة، اخرجوا من قبوركم لفصل القضاء» فيخرجون.

روى أبو داود وابن حبَّان عن أبي الدرداء عنه ﷺ: «**إنَّكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فحسِّنوا أسماءكم**»[1] وهذا يناسب أنَّ الدعاء في الآية النداء إلاَّ أنَّه ليس في الحديث أنَّ هذا النداء عند البعث، أو في الموقف ولا بعد، ولا بأس بنداء الجماد بكلام ليصير حيًّا، وذلك حكمة من الله تعالى وقدرة، ولو كان لا يسمع ولا قدرة له على الحياة، وأيضا لله أن يجعل فيه تمييزا وفهما وهو جماد ثمَّ يصير حَيًّا بالله تعالى.

١- رواه **أبو داود** في كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، رقم٤٩٤٨، و**ابن حبَّان** في صحيحه (٢٠) باب الأسماء والكنى، رقم٥٨٤٨. و**أحمد** في مسنده: ج٥، ص١٦٢، رقم ٢١٧٥١. من حديث أبي الدرداء.

ولم يذكر في الآية أنَّ الدعاء للحساب والجزاء للعلم بذلك من أنَّ الدعاء والنداء لأمر معتدٍّ به، وإلاَّ كان عبثا، ودعوة المولى لعبده لا بدَّ أن تكون لمصلحة قَويَّة كالاستخدام، وكالتفتيش عن حاله، وكالحضور ليسجنه أو يضربه أو يعذِّبه أو يكرِّمه، والاستخدام في الآخرة منتف لأنَّها ليست دار تكليف.

﴿وَتَظُنُّونَ إِن﴾ هي «إن» النافية وهي معلَّقة بلا إشكال ﴿لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ لبثا قليلا أو زمانا قليلا استقصارا لمدَّة اللبث في القبور، إمَّا على نفي عذاب القبر فظاهر، ولو عذِّب أوَّلا، وإمَّا على إثباته فقد يحضر الله في قلوبهم جهنَّم على حقيقتها، فيستقصرون ذلك بالنسبة إليها لحضور أوانها، وتحقيق دوامها.

والمدَّة تستطال لشدَّتها ولو قصرت، فكيف إن طالت؟ وإذا طالت عدَّت قصيرة بالنسبة إلى ما هو أطول، فكيف ما يدوم؟.

ويحتمل أن يكون المراد باللبث فيما بين نفخة الموت ونفخة البعث، فإنَّه لا عذاب في ذلك، وقيل: الخطاب للمؤمنين والكافرين **وهو بعيد**، وأبعد منه ما قيل: إنَّ الخطاب من قوله: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ إلى ﴿قَلِيلاً﴾ للمؤمنين لقرينة قوله: ﴿بِحَمْدِهِ﴾ أي بحمده على إحسانه وتوفيقه وإنجاز وعده بالبعث، ولقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ وهو ضعيف، لأنَّ الكلام قبل مع الكُفَّار، ولأنَّ الفاء مرتَّبة على كلامهم، ولا نسلِّم أنَّ قوله: ﴿بِحَمْدِهِ﴾ وقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ...﴾ دليل لذلك لِمَا مرَّ من تفسيرهما، والظنُّ على ظاهره ويجوز أن يكون بمعنى العلم.

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾

مجادلة المخالفين باللين وبالتي هي أحسن

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي﴾ أي الكلمة التي، أو العبارة التي، والجزم في جواب الأمر، أي قل لهم: قولوا التي هي أحسن يقولوا التي هي أحسن، وقيل: مجزوم بلام الأمر، وقيل: مبنيٌّ، لقيامه مقام الأمر المبني، وهو ضعيف، والمراد بالكلمة الكلام.

﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ قل لعبادي المؤمنين يقولوا للمشركين الكلمة التي هي أحسن إذا جادلتموهم بحجج القرآن أو غيره، في شأن البعث أو غيره فلا تُدخلوا في كلامكم سبَّهم أو سبَّ أصنامهم فيزيدوا نفرة وعنادا، وتقوم الفتنة، قال الله ﷻ: ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّواْ اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (سورة الأنعام: ١٠٨) ﴿وَلاَ تُجَادِلُواْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (سورة العنكبوت: ٤٦) ولا يختصُّ هذا بما قبل نزول القتال كما قيل، بل هو قبله وبعده، لأنَّه إرشاد إلى ما يكون سببا للإيمان، أو سببا لعدم زيادة العناد.

والإضافة في «عِبَادِي» للتشريف كما مرَّ أنَّ المراد بهم المؤمنون، كما يدلُّ له قوله ﷻ: ﴿يَقُولُواْ التِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ والتي هي أحسن هو قوله: ﴿رَّبُّكُمُ أَعْلَمُ بِكُمُ إِنْ يَّشَأْ يَرْحَمْكُمُ أَوِ اِنْ يَّشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ ونحو هذا، وليست محصورة في هذا، وما بينهما اعتراض، وإن صرَّحوا لهم أنَّهم من أهل النار زاد كفرهم، وأيضا قد يكون منهم من يتوب بعدُ ولا يعلم الخاتمة إلاَّ الله، فإن ذكر لأحد أنَّه من أهل النار قيل له: إن مت على ما أنت عليه.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمُ﴾ تعليل جملي، يفسد بين المؤمنين والكافرين، لا يقولوا غير الأحسن لأنَّ الشيطان ينزغ بينهم كمن ينزغ إنسانا أو دابة بشوكة، فإنَّ الكلام السيء مثل النزغ لها، فيهيِّج الشرَّ ففي ذلك استعارة تبعية

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ ظاهر العداوة، أو مظهرها ولا يخفيها، فكيف تتّبعونه؟

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أيها المشركون، العلم بعاقبتكم عند الله ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بالتوفيق إلى التوبة والإسلام، فتكونوا من أهل الجنّة ﴿أَوِ اِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ بأن لا يوفّقكم إلى التوبة فتموتوا على الكفر.

والمعنى: قولوا لهم: إن يشأ الله يرحمكم أو قولوا: إن يشأ يعذّبكم، فـ«أو» للتخيير فيما يقولون، ويجوز أن تكون بمعنى الواو فيقولوا ذلك جميعا، وقيل: للإضراب تهديدا.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ...﴾ ليس تمثيلا للتي هي أحسن بل مستأنف خطاب للمؤمنين، إن يشأ يرحمكم بإنجائكم من الكُفّار بإهلاكهم، أو إلقاء الرعب في قلوبهم، وإن يشأ يعذّبكم بتسليطهم عليكم بالأذى كالقتل والنهب.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ رقيبا وكفيلا أن لا يعصوا، أو موكولا إليك أمرهم فتقهرهم على الإيمان، بل أرسلناك مبشّرا ونذيرا ومأمورا أنت وأصحابك بتحمّل أذاهم، ثمّ أمره الله بالقتال فقال: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ واغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (سورة التحريم: ٠٦).

وقد يقال: المراد إنّك لا تسمعهم الحقّ مع ختم الله على قلوبهم ولو بالجهاد كما قال الله ﷻ : ﴿إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَّشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ (سورة فاطر: ٢٢) وهذا يقال به قبل القتال وبعده، إلاّ القهر على الإيمان فإنّه لا إكراه في الدين فيؤمنون بإرادتهم، أو يقتلون.

(سبب النزول) وروي أنّ المشركين أفرطوا في إيذاء المسلمين، فشكَوْا إلى الرسول ﷺ فنزل: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ التِي هِيَ أَحْسَنُ... وَكِيلاً﴾

فالخطاب في قوله ﷻ : ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ...﴾ على هذا للمؤمنين على معنى الإنجاء من الكُفّار وعدم الإنجاء، كما مرَّ قريبا. ويروى أنَّ مشركا شتم عمر فهمَّ بضربه اللائق به أو همَّ بسبِّه مجازاة، فأمر في العموم بالعفو، فيكون سببا آخر لنزول: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي﴾، فالتي هي أحسن على هذين السببين في النزول أن يقال للشاتم: ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ (سورة القصص: ٥٥) أو «هداك الله» أو «عفا الله عنك» ويعني هذه الشتمة فقط، أو «أصلح الله شأنك» وقد مرَّ جواز طلب الهداية، [قلت:] أو يعني بنحو ذلك كلّه أنَّ الشاتم على غير صواب لا الدعاء له.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ هو أعلم من أنفسهم بهم وبأحوالهم فيختار لنبوءته وولايته من يصلح، ولو كان يتيما فقيرا، ولصحابته من يصلح لها ولو حفاة عراة، كما قال ﷻ : ﴿الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالاَتِهِ﴾ (سورة الأنعام: ١٢٤) وكانوا يقولون: « هو يتيم أبي طالب وأصحابه حفاة عراة جُوَّع لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» وذلك كلام منهم منكر، وأفتى بعض المالكيَّة بقتل قائلها، قال في الشفاء: «من قال يتيم أبي طالب قتل».

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيئِينَ﴾ كإبراهيم بالخلّة، وموسى بالكلام ومحمَّد ﷺ بالإسراء، وداود بالزبور ﴿عَلَى بَعْضٍ﴾ بالفضائل النفسانيَّة والعلوم الدِّينيَّة لا بالمال وسعة الملك، وكثرة الأصحاب وقوَّتهم وعدم اليتم، كما فضَّلنا محمَّدًا ﷺ وأصحابه وأمَّته على سائر الأنبياء والأمم، كما قال ﷻ : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنم بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الاَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (سورة الأنبياء: ١٠٥) وهو نبيئنا ﷺ وأمَّته، ولذلك قال ولقول اليهود لا نبيء ولا كتاب بعد موسى والتوراة:

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ فيه ذكر محمَّد ﷺ وأمَّته بأمر الدين، كما أنَّ فضل داود بالزابور لا بما أوتي من الملك، وحسن الصوت وكثرة الأتباع، ولو كان بالمال وسعة الملك لكان سليمان أحقَّ بالتفضيل، ولم يشهر أنَّ داود ممن وصف بعظم حسن الصورة.

[قلت:] والأمَّة خير الأمم لكون نبيئها خير الأنبياء، وكونها خير الأمم بنصِّ القرآن[1]، وقد قيل: ﴿بَعْضَ النَّبِيئِينَ﴾ في الآية هو نبيئنا محَمَّد ﷺ. و﴿زَبُورًا﴾: بمعنى مزبور، أي مكتوب أو عظيم الزبر كصبور، ويضعف أنَّه مصدر في الأصل للتأكيد كأنَّه نفس الزجر، أو الكتابة كالقَبول بالفتح لأنَّ فعولا الذي هو مصدر محصور في ألفاظ قليلة، لم يذكروا فيها زبورا.

(لغة) واسم كتاب داود: "زبور" بدون «الـ»، وإذا دخلت عليه «الـ» كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ (سورة الأنبياء: ١٠٥) فللمح الأصل، وإن قلنا اسمه "الزبور" بـ«الـ» فـ"زبور" بدونها تلويحا لأصله الذي هو نكرة، فجاء بصيغة التنكير للتعظيم، أو لأنَّ المعنى: قطعة منه، ذكر فيها فضل محَمَّد ﷺ وأمَّته على غيرهم، أو المعنى: كتاب من الكتب فزبور نكرة لا عَلَم، ذكر فيه محمَّد وأصحابه.

قيل: هو مائة وخمسون سورة، أطولها قدر ربع القرآن، وأقصرها قدر سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ (سورة النصر: ١) ، وهذا غير معهود بين الناس، **والمشهور خلافه**، والله أعلم، ولعلَّ أهل الكتاب اختصروه وليس فيه حلال ولا حرام، ولا فرض ولا حكم ولا حدٌّ، بل مواعظ ودعاء لله وتحميد وتسبيح.

١- ونضيف إلى ماقاله الشيخ رحمه الله: ولكونها أمَّة القرآن لأنَّ القرآن مشتمل على مزايا لا نجدها في كتب رسل الأمم السابقة.

وفي جملة ما فيه: «أنا الله لا إله إلاَّ أنا مالك الملوك، قلوبهم بيدي فمن أطاعني جعلتهم له رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشتغلوا بسبِّهم، فتوبوا إليَّ لا إليهم أعطف قلوبهم عليكم».

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۝٥٨ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝٥٩ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ۝٦٠﴾

تفنيد آخر لشبهات المشركين

﴿**قُلْ**﴾ للمشركين العابدين لغير الله من العقلاء كالملائكة والجنِّ وعيسى ومريم وعزير، لقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الذِينَ يَدْعُونَ﴾ ﴿**ادْعُوا الذِينَ زَعَمْتُم**﴾ قال ابن عبَّاس: كلُّ زعم في القرآن بمعنى الكذب، ويطلق أيضا على الحقِّ، ويطلق أيضا على ما قيل بلا دليل ولا يقطع بكذبه.

ومن الحقِّ قوله ﷺ: «**زعم جبريل**» على ما قيل من وروده، وقول ضمام بن ثعلبة: «أتانا يا محمَّد رسولك فزعم أنَّك تزعم أنَّ الله أرسل» كذا قيل، [قلت:] والحقُّ أنَّ هذا مِمَّا لم يتبيَّن له دليل فلمَّا قال ﷺ: «**صدق**

رسولي»[1] فتحقّق الأمر عند ضمام أنَّ زعم رسوله جَزْمٌ، وأنَّ زعمه ﷺ جَزمٌ. وقول سيبويه: «زعم الخليل» يحتمل الجزم ويحتمل عدم الدليل.

﴿مِّن دُونِهِ﴾ معنى ﴿مِن دُونِهِ﴾: غيره، فليس المراد أنّهم يعبدون غير الله وحده، وقريش يعبدون الله وغيره، ولا إشكال، ويجوز أن يقال: عبادة غير الله ناقضة لعبادة الله، فكأنّهم اقتصروا على عبادة غير الله، والتقدير: زعمتم أنّهم آلهة أو زعمتموهم آلهة، والأوّل أولى لقلّة نصب «زعم» مفعولين صريحين نحو «زعمتني شيخا»[2]، ولوروده في سائر القرآن بـ«أن». وإن قيل: كان بعض العرب يعبدون طائفة من الملائكة يسمُّونهم الجنَّ، وبعض ـ وهم خزاعة ـ يعبدون طائفة من الجنّ، وأسلم الجنُّ دونهم، ويجعلون للملك الذي يعبدونه تمثالا على صورته التي يتوهّمونها، ويعبدونه.

وعن ابن عبّاس ومجاهد: نزلت في الذين يعبدون المسيح وأمّه وعزيرا والملائكة والشمس والقمر والنجوم، وعليه فقوله: ﴿أُولَئِكَ الذِينَ يَدْعُونَ...﴾ راجع إلى المجموع لا الجميع، لأنَّ الشمس والقمر والنجوم لا تتّصف بابتغاء الوسيلة أيُّهم أقرب، والأصنام كذلك إن أدخلت في الآية، [قلت:] والأَوْلى **تخصيصهم بالعقلاء المذكورين من الملائكة والأنبياء.**

(سبب النزول) وروي أنَّ قريشا أصابهم قحط شديد أكلوا به الكلاب والجيف واستغاثوا برسول الله ﷺ فنزل قوله تعالى: ﴿قُلُ ادْعُواْ الذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ﴾.

١- أورد القِصَّة ابن هشام في سيرته، ص٢٢٨، عند الحديث عن وفد بني سعد بن بكر بدون ذكر لفظ: «زعم».

٢- في البيت:

زعمتني شيخا ولست بشيخ ... إنّما الشيخ من يدبُّ دبيبا

﴿فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً﴾ لا يستطيعون إزالة القحط والمرض والفقر والمصائب عنكم، ولا تحويلا لذلك عنكم إلى غيركم، مِمَّن لا يعبد هؤلاء، ولا سيما أنَّ عزيرا مات فكيف يزيل ذلك، وإنَّما يزيله الله قال الله عَجَلَّ : ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ (سورة النحل: ٥٣).

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المعبودين الذين سمُّوهم آلهة ﴿الذِينَ﴾ نعت أولئك ﴿يَدْعُونَ﴾ يعبدون أو يطلبون منهم إزالة الضرِّ، أو يسمُّونهم آلهة، والواو للمشركين العابدين، ضمير أولئك المعبودين محذوف، أي يدعونهم أو أولئك الذين يدعون الله، أو الناس إلى الهدى، وهم الأنبياء وأشباههم ﴿يَبْتَغُونَ﴾ خبر «أُوْلَئِكَ»، والمعنى: يطلبون ﴿إِلَى رَبِّهِمُ﴾ الله ﴿الْوَسِيلَةَ﴾ القربة إلى الله بالطاعة ﴿أَيُّهُمُ أَقْرَبُ﴾ «أيُّ» بمعنى الذي، بدل بعضٍ من واو «يَبْتَغُونَ»، أو من واو «يَدْعُونَ» والمراد الجنس. و«أَقْرَبُ» خبر لمحذوف والتقدير هو أقرب إلى مناجاة الله عَجَلَّ ، والمراد: أقرب من سائرهم، أو أقرب المخلوقات، فكيف بغير الأقرب؟ ويجوز على مذهب يونس[1] من جواز تعليق غير أفعال القلب أن تكون استفهامية، والجملة مفعول «يَدْعُونَ» أو «يَبْتَغُونَ». والمراد: أقرب قربَ فضلٍ بالعبادة. ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ أن لا يهلكهم، أو الجنة باعتبار عيسى ومريم وعزير، وكذا الملائكة باعتبار أنَّها دار رضى الله، لا للتلذُّذ بنعيمها لأنَّهم لا يتلذَّذون بها، أو مطلق رحمته بحسب ما يصلح لكلٍّ من الآدمي والملك.

﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ كغيرهم والمحتاج الراجي لا يكون إلها، والواوان للذين و يجوز عودها إلى «أَقْرَب» لأنَّه متعدِّد، و لو كان لفظه مفردا على ضعف. ﴿إِنَّ

١- يونس بن حبيب النحوي الضبِّي بالولاء. كان إمام نحاة البصرة في عهده، أخذ عنه سيبويه والكسائي والفرَّاء وغيرهم، قال أبو عبيدة: اختلفت إلى يونس أربعين سنة أملأ كلَّ يوم ألواحي من حفظه، توفي سنة ١٨٢هـ بالبصرة. الأعلام للزركلي، ج٨، ص٢٦١.

عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ على الإطلاق، لا تجد أحدا لا يحذره حتّى الرسل و الملائكة، لا أمن لأحد منه، ومن آمَنَهُ الله منه ينسى فيخافه، أو يتغلّب عليه الخوف و لو لم ينس أنّه أُمِنَ منه، ويكون الخوف منه خوف إجلال.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ «مِنْ» صلة في المبتدأ، أي لا قرية من القرى المخصوصة التي يدخلها الإسلام، أو يبلغها خبره ألاّ تهلك بفتح المسلمين لها، أو تعذّب برعب الإسلام، و لا تفتح كما في قوله ﷺ : **«زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمّتي ما زوي لي منها»**[1] أو قرى الدنيا كلّها على أنّه بلغها خبره كلّها و لو إجمالا

أو المراد: مهلكوها بالموت دون قتل فإنَّ الموت هلاك قال الله ﷻ : **﴿إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ﴾** (سورة النساء: ١٧٦) . أو معذّبوها بالقتل أو الصالحة بالموت والطالحة بالقتل، أو نحو الصاعقة، والخسف إذا تركت أمره ونهيه أو كذّبت الرسول، وعن الضحاك: تهلك مَكّة بالحبشة والمدينة بالجوع والبصرة بالغرق والكوفة بالترك والجبال بالصواعق والرواجف...إلخ.

والمراد إهلاك الدنيا كلّها فتكون قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا و لا أمتا، فيكون الإهلاك يوم القيامة والتعذيب قبل ذلك. و«أو» لتنويع الأضرار، وهو ضعيف **﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾** المذكور من الإهلاك والتعذيب ومنه القحط وسائر المصايب **﴿فِي الكِتَابِ﴾** اللوح المحفوظ **﴿مَسْطُورًا﴾** مكتوبا.

١- رواه **مسلم** في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأُمَّة بعضهم ببعض رقم ٢٨٨٩. وابن **ماجه** في كتاب الفتن، باب ما يكون من الفتن، رقم٣٩٥٢. من حديث ثوبان. وتقدَّم تخريج ما يقربه لفظا، انظر: ج٤، ص٣١٩.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ﴾ الدالاَّت على رسالتك اللاتي اقترحتها قريش منك ﴿إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ فيكذِّبون بها كما كذَّب بها الأوَّلون المهلَكون بالتكذيب، فيستحقُّون الإهلاك كالأوَّلين، وليس في قضائنا إهلاكهم كالأوَّلين بالموت فجأة بمرَّة، أو بالصواعق وبالإغراق أو نحو ذلك، لإتمام أمر محمَّد ومن يؤمن من أمَّته ومن يلدون من المؤمنين.

(سبب النزول) اقترحوا منه ﷺ أن يجعل الصفا ذهبا، و أن يزيل الجبال عن مَكَّة للحرث، ويفجِّر العيون ونحو ذلك، فسأل ا لله فأجابه على أنَّه إن لم يؤمنوا عجَّل إهلاكهم كثمود وقوم عيسى، فقال ﷺ : **«لا أريد إهلاكهم رجاء للإيمان»** فنزلت الآية.

(أصول الدين) والمنع: الصرف عن الشيء قهرا أو استلاء، وا لله لا يقهره أحد ولا يستولي عليه، قيل: فهو بمعنى الترك، والمعنى وما تركنا، وذلك تعبير بالسبب والملزوم عن المسبَّب واللازم وفيه أنَّه لا يتصوَّر أن يكون ﴿أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ فاعل لـ«مَنَعَ» مع أنَّه بمعنى الترك، لأنَّ التارك هو ا لله لا تكذيب، وأجيب بأنَّه لا يلزم اتِّحاد الفاعل في المعنى الحقيقي والمجازي، وهو جواب لا يصحُّ فإنَّه لا بدَّ من موافقة العبارة في المعنى المجازي لها في المعنى الحقيقي.

والمناسب لَتَرَكْنا بإسكان الكاف أن يكون ﴿أَن كَذَّبَ﴾ تعليلا بلام محذوفة. فالواضح أن يفسَّر «مَنَعَنَا» بصرفنا بلا قهر.

(نحو) والباء في «بِالآيَاتِ» صلة في المفعول، أو للملابسة، والمفعول محذوف، أي أن نرسل رسولا ملتبسا بالآيات، والضمير في «بِهَا» للآيات على طريق الاستخدام، لأنَّ ما أرسله على الأوَّلين ليس عين ما يرسله على قريش لو كان يرسله، أو يقدَّر مضاف أي إلاَّ أن كذَّب بمثلها. ويجوز أن يكون «مَنَعَنَا»

بمعنى دعانا، فيقدَّر: إلى أن نرسل. والمراد بالأوَّلين: المهلكون بالعذاب كقوم نوح وعاد وثمود، مِمَّن قريش على طبيعتهم.

وصرَّح ببعض الأوَّلين المكذِّبين بالآيات المقترحين لها المهلكين في قوله ﷻ:

﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ﴾ خارجة من صخرة وبراء عشراء أو يتبعها ولدها على ما في محله ﴿مُبْصِرَةً﴾ مهتدية، إسناد الاهتداء إليها مجاز عقليٌّ لأنَّها سبب فيه لو عقلوا، أو يقدَّر مضاف أي مبصرا أهلها لو عقلوا، وأولى من ذلك أنَّه متعدٍّ، أي مصيِّرة للناس بصرين أو مهتدين لو تأمَّلوا لخروجها من صخرة صمَّاء حاملة بولدها أو خروجها به تابعا لها وعظم جثَّتها وضرعها، أو ذلك للنسب أي ذات بصيرة في نفسها أي اهتداء كالعاقل، أو ذات إبصار للناس.

﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ ظلموا أنفسهم بسببها إذ قتلوها، أو كانوا ظالمين لها بسبب قتلها، وقيل: «ظَلَمُوا بِهَا»: كفروا بها وأهلكهم الله. وخصَّ الناقة بالذكر لأنَّها من أموال العرب وهم عرب، ولأنَّ ثمود عرب ولأنَّهم أجدادهم، ولأنَّهم يمرُّون بمنازلهم في الذهاب إلى الشام فيشاهدونها.

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالاَيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾ ما نرسل الآيات، فالباء صلة أو ما نرسل نبيئا مع الآيات إلاَّ تخويفا للكافرين من نزول العذاب، فإن كانت باقتراح أقوامهم أهلكوا باستئصال إن لم يؤمنوا بعد وقوعها، وإن كانت بغير اقتراح و لم يؤمنوا تُرِك إهلاكهم، ويموتون بدون استئصال وعذِّبوا يوم القيامة، فالتخويف مع الاقتراح بعذاب الدنيا وبعده عذاب الآخرة، ومع غير اقتراح كسائر المعجزات وكُتبِ الله كالقرآن [يعاقبون] بعذاب الآخرة.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ﴾ واذكر إذ قلنا لك بالوحي بواسطة جبريل عليه السلام ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ علما وقدرة، لا يخرجون عَمَّا أراد ولا يعجزه شيء،

فبلّغهم ما أوحي إليك، ولا تخف إنَّ الله يعصمك من القتل ولو كانوا يؤذونك بألسنتهم. و«الناس» عامٌّ دخل فيه قريش، أو أريد به خاصٌّ لأنَّهم المعاندون جدًّا الحاضرون، أو أحاط بقريش أهلكهم يوم بدر أي سيهلكهم يوم بدر، والآية مَكِّيَّة، وذكر ذلك بالماضي لتحقُّق الوقوع بعدُ كأنَّه وقع، من قولك أحاط بهم العدوُّ وكقوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ (سورة الكهف: ٤٢) وهذا تبشير له ﷺ.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾ في المنام، احتجَّ بهذا من قال: الإسراء في المنام لا في اليقظة، [قلت:] وهو مذهب أصحابنا وقوم من غيرهم، وقيل: في اليقظة لمبالغة الكُفَّار في التكذيب، ولو كان في النوم لم يبالغوا تلك المبالغة.

وإطلاق الرؤيا على رؤية اليقظة وارد في لغة العرب قال الراعي[1]:

وكبَّر للرؤيا وهشَّ فؤاده وبشَّر قلبًا كان جمًّا بَلابِله

وأيضا سمَّاها رؤيا مشاكلة لتسميتهم إيَّاهَا رؤيا، وجريانا على زعمهم كما سمَّى الأصنام آلهة، وأيضا يشبه ما في المنام لكونه ليلا وللسرعة وخرق العادة، حتَّى قال بعض من ضعف إيمانه للنبيء ﷺ: لعلَّ ذلك يا رسول الله في النوم، حتَّى ارتدَّ بعض من ضعف إيمانه.

وقال بعض من قال الإسراء في اليقظة: إنَّ الرؤيا هنا غير رؤية الإسراء، بل رؤياه في المنام عام الحديبيَّة دخل مَكَّة، واعترض بأنَّ الآية مَكِّيَّة والحديبيَّة بعد الهجرة، وأجيب بأنَّه رأى في مَكَّة أنَّه سيدخلها بعد الخروج عنها، فحكى

١- هو عبيد بن حصين الملقَّب بالراعي لكثرة وصفه الإبل من أهل بادية البصرة، من فحول الشعراء، عاصر جريرا والفرزدق وهجاه جرير هجاء مرًّا، توفي سنة ٩٠هـ. الأعلام للزركلي، ج٤، ص١٨٨.

الرؤيا في الحديبيَّة، و لم يدخلوها للعمرة التي قصدوها بل رجعوا على أن يدخلوها من قابل، فافتتن بعض، حتّى قال عمر لأبي بكر رضي الله عنهما: قد أخبرنا رسول الله ﷺ أنا ندخل البيت ونطوف به، فقال أبو بكر: لم يقل ندخله في هذا العام وسندخل في عام آخر، ودخله من قابل، ونزل: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ (سورة الفتح: ٢٧).

وقيل: هذه الرؤيا التي في سورة الإسراء رآها في مَكَّة في شأن وقعة بدر أنَّها تقع بعد الهجرة وسمع قريش ذلك فسخروا منه، ويجوز أن يكون رأى في المنام مصارع المشركين وهو في بدر أو قريب منه، فسمع المشركون الخارجون من مَكَّة للقتال فسخروا منه، قال: «**والله لكأنّي أنظر إلى مصارع المشركين، هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان**»(١) ولم يخطئ وفي وقعة بدر نزل: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً﴾ (سورة الأنفال: ٤٣) .

وقيل: هذه الرؤيا في سورة الإسراء هي أنَّه رأى في نومه قوما من بني أميَّة يرقون على منبره وينزون عليه نُزُوَّ القردة، فقال: «**هو حظُّهم في الدنيا يعطونه على إسلامهم**»(٢).

﴿إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ هي تكذيبهم بالإسراء حتّى ارتدَّ كثير من الناس، أو قولهم: وعدنا بالدخول و لم ندخل وهذا في شأن الحديبيَّة، وتساخرهم بقوله: هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان، وهذا في شأن قتلى الكُفَّار في بدر، وقتال معاوية عليًّا، وقتل الحسين ووقعة الحرَّة، وهذا في نزوِّ بني أميَّة على المنبر في الرؤيا.

١- رواه **مسلم** في كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها (١٧) باب عرض مقعد الميِّت من الجَنَّة أو النار... رقم ٧٦ (٢٨٧٣) من حديث أنس.

٢- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢١١، من حديث سهل بن سعد، وقال: أخرجه ابن جرير.

﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ﴾ عطف على «الرُّؤْيَا» أي وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلاّ فتنة للناس، وهي شجرة الزقّوم لعنت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ...﴾ (سورة الدخان: ٤٢-٤٣) فلعنُها: إبعادها عن مقام الخير وأهله، وإنباتها في مقام الشرّ لأهله.

ويجوز أي يراد: الملعون أهلها فحذف المضاف، أو ذلك من المجاز العقلي، وتقول العرب: لكلّ طعام مكروه ضارٍّ: إنّه ملعون، لكونه ضارًّا مكروهًا، فيكون المراد بلعنها أنّها طعام مكروه، أو وصفت بالملعونة لتشبيه طلعها برؤوس الشياطين، والشياطين ملعونون.

ومعنى الفتن بها أنّه لَمَّا سمع الكفار ذلك قالوا: «إنَّ مُحَمَّدًا يزعم أنَّ الجحيم تحرق الحجارة ثمَّ يقول ينبت فيها الشجر، وما نعرف الزقّوم إلاّ التمر بالزبد» قال أبو جهل لعنه الله: يا جارية زقّمينا فأحضرتهما، فقال لأصحابه تزقّموا هذا هو ما يذكر مُحَمَّد، و لم يعلموا أنَّ الله قادر على ذلك، وأنَّ الله أبرد النار على إبراهيم ولباسه إلاّ كتافه، وأنبت النبات في تنّور موسى المحمى.

وفي بلاد الترك دَابَّة صغيرة تسمَّى السمندل لا تؤثّر فيها النار حيَّة أو ميِّتة، ويتّخذ من وبرها منادل فإذا اتسخت ألقيت في النار فيذهب الوسخ فتبقى سالمة، ويقال: في بلاد هند مكان بلاد الترك، ويقال طائر مكان دَابَّة، يقال: السمندر بالراء مكان اللام، والنعامة تبلع الجمر وقطع الحديد المحماة ولا تضرُّها، و لم يعلموا أنَّ نبات النار من جنس النار، والنار لا تحرق النار، وَمِمَّا يشبه ذلك أنَّ البحر المالح ينبت حجارة المرجان، واللحم والدم ينبتان الشعر.

وقيل: الشجرة الملعونة: الشيطان، وأبو جهل فرعون رسول الله ﷺ والحكَم وأبوه أبو العاصي الحكم، قالت عائشة رضي الله عنها سمعت رسول

ا لله ﷺ يقول لمروان: «**الشجرة الملعونة أبوك وجدُّك**» فهؤلاء لعنوا في عموم ذمِّ الكُفَّار في القرآن.

وعن ابن عبَّاس: إنَّ الشجرة بنو أميَّة بن الحكم بن أبي العاصي، وإنه ﷺ رأى في المنام بني مروان يتداولون منبره، وقصَّها على أبي بكر وعمر في خلوة بيت، ثمَّ سمع رسول ا لله ﷺ الحكم يخبر بها فاشتدَّ عليه ذلك واتَّهم عمر بالإفشاء، ثمَّ ظهر أنَّ الحكم تسمَّع إليهم. واعترض بأنَّ الرؤيا بالمدينة والسورة مَكِّيَّة والحكَم فيها، وروي أنَّ عائشة قالت لمروان: لعن ا لله أباك وأنت في صلبه، فأنت أبغض من لعنه ا لله.

والفتنة على هذا أنَّهم طلبوا معجزة قاهرة، فأجيبوا بأنَّه تعالى لم يقضها لهم ليتمَّ أمر النبيء ﷺ والمسلمين، فلا يستأصلوا، فقالوا: إنَّه ﷺ غير صادق، فضاق قلبه وسلاَّه بالآية، وأنَّه لا يضعف أمرك بقولهم. ﴿**وَنُخَوِّفُهُمْ**﴾ من عقاب ا لله في الدنيا والآخرة بالآيات المتلوَّات والمعجزات، والآيات متضمِّنة لشجرة الزقُّوم. ولم يقل: وخوَّفناهم لإفادة التكرار ﴿**فَمَا يَزِيدُهُمْ**﴾ أي التخويف ﴿**إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا**﴾ طغيانا مجاوزا للحدِّ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَآسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

قصّة آدم مع إبليس - أمر الملائكة بالسجود

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ اذكر إذ قلنا، سلاّه بمكابرة إبليس عن مكابرة قومه. والسجود لآدم سجود انحناء تعظيما له، أو سجود في الأرض عبادة لله ﷻ إلى جهة آدم كالقبلة، وهذا متّصل أيضا بقوله ﷻ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَان عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ (سورة الإسراء: ٥٣) بيَّن أنّه عدوٌّ قديم للإنسان من أبيه آدم ﴿فَسَجَدُواْ﴾ مسارعين رضا وفعلا.

﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ هو فيهم كأنّه منهم مخاطب بخطابهم ﴿قَالَ ءَاَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ أي من طين كما في آية أخرى، قيل: أو حال من «مَن» أو من هاء «خلقته» المحذوفة. و«خَلَقْتَ» أوقعت فيه الروح حال كونه طينا فلا إشكال في الحالية، إلاّ أنَّ طينا جامدا وإلاّ أنَّ الروح وقعت فيه وهو يابس لا طين، فيؤوَّل بكونه في الأصل طينا، وتأوَّل الطين بمعنى متأصِّلا من طين، [قال:] كيف أسجد وأنا أشرف منه؟ لأنّه من طين وإيَّاي من نار، ﴿قَالَ﴾ إبليس لله والعياذ با لله منه ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ كافُ «أَرَأَيْتَكَ» حرف خطاب لا ضمير، أكّد به تأكيدا معنويًّا بالتاء، و«هَذَا» مفعول به، و«الَّذِي» نعت، ولا مفعول ثان له لأنّه بصريٌّ مجازا كما قدَّره بعض هكذا: لِمَ كرَّمته عليَّ؟ على أنَّ معنى ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾: أخبرني، والرؤية اعتباريَّة، أي انظر في هذا وتكلّم فيه معي، فالعلم سبب وملزوم للإخبار، والإخبار مسبَّب له ولازم.

(بلاغة) ولعناده ــ أبعده الله ــ قال: «هذا» ولم يقل ذلك بإشارة القرب إهانة له مع إقراره بأنَّ الله كرَّمه عليه، وأطلق الاستفهام وأراد معنى فعل الأمر لجامع الطلب، وأطلق الرؤية للاعتبار على ما قلت، وللإخبار على ما قالوا لأنَّ الرؤية سبب للإخبار والاعتبار.

﴿لَئِنَ اَخَّرْتَنِي إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ,﴾ لأستأصلهم بالإهلاك في دينهم، كما يحتنك الجراد النبات، أي أهلكه بالأكل كلّه، أو لأقودنّهم حيث شئت كما يحتنك الإنسان الدَّابَّة، أي يجعل اللجام أو الرسن، أو يجعل حبلا أو نحوه في حنكها، فيقودها حيث شاء، أو ذلك كمن يأكل شيئا والأكل بالحنك، أو لأهلكنَّهم في دينهم كما يهلك الغراب الشيء أي بحنكه أي بمنقاره ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ عبادك المخلصين كما في الآية الأخرى، لا أطيقهم لقوَّتهم، بالتوفيق والعصمة.

وإنّما جزم بالاحتناك لعلمه من قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا... ﴾ (سورة البقرة: ٣٠) ولم ينكر الله عليهم أنّهم يفسدون ويسفكون، أو لعلم الملائكة وإخبارهم له بذلك، قيل: أو لقياسه الفرع وهو أولاد آدم على أصلهم آدم، إذ عصى بالأكل من الشجرة وهو باطل لأنَّ العصيان بعد كونه في الجنَّة، ومن زعم أنَّ له وسوستين أحدهما بعد خلقته والأخرى بعد كونه في الجنَّة لم يجد دليلا، أو لكونه لَمَّا رآه قبل نفخ الروح فيه أجوف، قال: إنّه لا يتمالك فيكون يعصي، كالجنِّ على أنّهم قبل إبليس وعلم أنّه يأكل وبعد نفخ الروح علم ذلك أيضا من كونه ذا وهم وشهوة وغضب.

﴿قَالَ﴾ الله ﴿اذْهَبْ﴾ على ما رغبت فيه من الإبقاء إلى يوم القيامة والاحتناك، كما تقول لمن خالفك: «افعل ما تريد» على ظاهره، بمعنى اخرج منها فإنّك رجيم، ويفسَّر بذلك كلّه جمعا بين الحقيقة والمجاز، أو حملا على عموم المجاز، وكلٌّ من ذلك ردٌّ عليه وتخطئة فلا يتعيَّن ما ذكرته أوَّلا لقوله: ﴿فَمَن تَبِعَكَ﴾ فإنَّ الوعيد على متبعه مع تلك التخطئة مطلقا ﴿مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ كاملا، اسم مفعول بمعنى اسم الفاعل، وقيل: يجيء «وَفَرَ» متعدِّيا فهو بمعنى مفعول على ظاهره، أي مكمِّلا كقول زهير:

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره، ومن لا يتّق الشتم يشتم

(نحو) والخطاب له ولمن تبعه، غلّب الخطاب على الغيبة، ويجوز أن يكون الخطاب لـ«مَن» خاصَّةً دون إبليس على طريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وإذا قلنا: خبر اسم الشرط جملة الشرط فالرابط هو المستتر في «تَبِعَ» وكذا إن قلنا جملة الشرط والجواب، وإن قلنا الخبر جملة الجواب، فالرابط كاف الخطاب، ولو عادت لغائب لأنَّ مسمَّاهما واحد كما ربط بضمير المتكلّم في قول عليٍّ: «أنا الذي سمَّتني أُمِّي حيدرة» والراجح أن يقول: أنا الذي سمَّته أمُّه ويعالج الوزن، فلم يخل الكلام عن الربط كما ادَّعاه ابن هشام في " تذكرته".

وإن قدَّرنا: فقل لهم إنَّ جهنَّم، فالرابط الهاء المقدَّرة، ولا التفات، وليس في ذلك بيان أنَّ إبليس يجزن بجهنَّم لكن يتضمَّنه. و«جَزَاءً» مفعول مطلق بـ«تجزون» محذوفا، لا بـ«جَزَاؤُكُمْ» لأنَّ معناه نفس الشيء الذي يقال إنَّه جزاء لا المعنى المصدري، وقيل: إنَّه تضمَّن معنى تُجْزَوْنَ فكان ناصبا، ولا حاجة إلى جعله حالا مع أنَّه غير مشتقٍّ إلاَّ أنَّه كثر جمود الحال إذا كانت موطئة كما هنا.

﴿وَاسْتَفْزِزْ﴾ استخفف أي احملهم على الخفَّة وأزعجهم، والأمر تهديد، كَذَا بَاقي هذه الأوامر كما يأتي، ويبعد أن يكون لتعجيزه عن أن ينقص شيئا من ملك الله ﷻ كما يأتي ﴿مَنِ اسْتَطَعْتَ﴾ أن تستفزَّه ﴿مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ بدعائك إلى المعصية كما قال ابن عَبَّاس ﷺ وهو الوسوسة تارة والنطق أخرى، والغالب الأوَّل وهو مجاز، وفي الثاني الجمع بينه وبين الحقيقة.

وعبارة بعض بصوتك بدعائك بالغناء والمزامير، وكلُّ ما يوصل إلى المعصية، وعبارة بعض الغناء واللهو واللعب.

(قصص) أسكَنَ آدم أولاد هابيل في جبل وأولاد قابيل تحته وفيهم بنات حسان، فزمَّر الشيطان تحته فانحدر أولاد هابيل إليهم للذّة ذلك الصوت، فاقترنوا. أو الأمر للتهديد كقولك: اجتهد جهدك فسترى ما ينزل بك، ويبعد أن يكون لتعجيزه عن أن ينقص شيئا من ملك ا لله ﷻ، وكذا الأوامر الثلاثة بعد هذا في قوله:

﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الاَمْوَالِ وَالاَوْلاَدِ﴾

ومعنى «أَجْلِبْ» صِحْ، والجلبة: الصوت، أي سقهم وتصرَّف فيهم بكلِّ ما تريد، و«خَيْلِكَ»: الركاب، كقوله ﷺ: **«يا خيل ا لله اركبي»** إلاَّ أنَّ الآية تحتمل تقدير المضاف أي برجال خيلك، كما جاز أنَّ الخيل عبارة عن الركَّاب مجازا مرسلا لعلاقة الجوار وهذا متعيَّن، في الحديث الخيل بمعنى الركَّاب، ولا يقدَّر: ركَّاب خيل، لأنَّه قال اركبي، ولم يقل اركبوا، وفيه مجاز عقلي، أسند الركوب للخيل لأنَّها آلة الركوب وللجوار.

(لغة) ويجوز أن يكون أَجْلَبَ بمعنى جلب، أي جمع لوروده كذلك، فتكون الباء صلة في المفعول به. والخيل اسم جمع لا مفرد له، ولو قيل: مفرده خايل، وقال الأخفش في مثله: إنَّه جمع، كما في صحب وركب وطير، والرجال خيَّالة وهم راكبوها. والرَّجْلُ: جمع راجل، أو اسم جمع له كما مرَّ في صحب ونحوه، وهو الماشي على رجله.

أي صِح عليهم بكلِّ ما تحت يدك من راكب وماش في معصية، أو اجمعهم عليهم، ولا يخفى أنَّ المراد بخيلك ورجلك الكناية عن الأعوان لا حقيقة الراكب والماشيء ولو كان من الجائز أن يكون له جند بعضه راكب وبعضه ماش.

وجند إبليس يومئذ من الجنِّ، ويجوز أن يراد منهم ومن الإنس، لعلم الله بأنَّه سيكون ذلك، قال ابن عَبَّاس: له خيل ورَجل من الجنِّ ومن الإنس، فمن قاتل في معصية راجلا أو راكبا فهو من جنده.

(بلاغة) ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ...﴾ استعارة تمثيلية بأن شبَّه حرص الشيطان في الإغواء وإعماله جهده فيه بحرص من حرص على الإغارة على الناس، وجمعه لها.

ومعنى المشاركة في الأموال أن يحملهم على كسبها من الحرام ومنع حقِّها، وصرفها في الحرام كالزنى والفخر والذبح للأصنام، وكسب السوائب والبحائر وتضييعها، ومعنى المشاركة في الأولاد أن يكون ماؤهم المتولِّدون هم منه من مال حرام، [قلت:] أو يأتون نساءهم باشتهائهم غيرهنَّ، والاستحضار في القلب، وتسميتهم بعبد العزَّى، وعبد الحرث، وعبد شمس، عبد مناة، وعبد اللات، وحملهم على المعاصي، والإشراك وكسب الأولاد بالزنى، وقتل الولد خوف العيب، والعار، أو الفقر. و[قيل:] إذا لم يسمِّ عند إرادة الوطء انطوى الشيطان على ذكره فشاركه في الولد من ذلك الوطء.

﴿وَعِدْهُمْ﴾ أي احملهم على اعتقاد أن لا بعث ولا عقاب، وأنَّ الآلهة تشفع لهم في الدنيا، وإن كانت الآخرة حقًّا شفعت لهم فيها أيضا، وأنَّ كرم الآباء والأنساب نافع في الآخرة للأولاد، وأنَّ الشفاعة تكون للمصرِّين، وعلى تأخير التوبة وأنَّه لا خلود لسعة رحمة الله.

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ﴾ بذلك ﴿الشَّيْطَانُ﴾ جنس الشيطان أو المعهود وهو إبليس، وهو أولى لأنَّ الكلام بعد فيه فيكون على الالتفات، والأصل: وما تعدهم ﴿إِلاَّ غُرُورًا﴾ إلاَّ وعد غرور، أو وعدا ذا غرور، أو وعدا غارًّا، أو وعدا نفس الغرور مبالغة، أو لأجل غرور، وهو تزيين الخطإ بما يوهم أنَّه صواب.

ويعين على دفع وسوسة الشيطان أن تضع في حالها يمناك على جانب صدرك الأيسر بحذاء قلبك وتقول: «سبحان الملك القدُّوس الخلاَّق الفعَّال» سبعا ﴿إِنْ يَّشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَاتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ (سورة إبراهيم: ١٩، وسورة فاطر: ١٦) .

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ تسلُّط على الإغواء، والمراد عبادي المخلصين فالإضافة للتشريف، بقوله: ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمَخْلَصِينَ﴾ (سورة الحجر: ٤٠ وسورة ص: ٨٣) كما يضاف لِمَا استولى به الحبُّ كعبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد اللحم، وعبد اللبن، وعبد الشيطان لمن استولى عليه ذلك، أو المراد العموم أي لا تقهرهم بل يختارون.

﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ﴾ أيُّها الإنسان، أو يا محمَّد، فلا تخافوا منه فإنَّما سلطانه على الذين يتولَّونه لا على من تولَّى الله، وأجيز الخطاب لإبليس لأنَّ الكلام فيه، والنفس تنفر عن أن يكون له، اللهمَّ إلاَّ على طريق التهديد بأنِّي ربُّك وأنت ساع في مخالفتي **﴿وَكِيلاً﴾** من اتَّخذه مَفزَعًا إذا وَسْوَسَ إليه، أو زلَّ.

﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾

بعض نعم الله على الإنسان

واستشهد لقدرته على حفظ من توكّل عليه بقوله:

﴿رَبُّكُمُ﴾ أَيُّهَا الكافرون، الخبر قوله: ﴿الذِي﴾ أو هو خبر لمحذوف و«الذي» نعت، أي هو ربُّكم الذي، قيل: أو «ربُّكُمْ» نعت لـ﴿الذِي فَطَرَكُم﴾ مع الفصل، ولم يشهر النعت بالربِّ ولو جاز، لأنه بمعنى المشتقِّ كالسيِّد والمالك، أو بدل من «رَبُّ» لأنَّ الباء صلة في الفاعل.

﴿يُزْجِي﴾ يدفع بالأجزاء لِئَلاَّ تغرقوا ولتصلوا مطلوبكم، واختاره عن [لفظ] "يسوق" ليدلَّ على التسخير والقهر، وذلك بآلة القلوع وآلة النار الموجودة الآن وغير ذلك مِمَّا لم نعلمه، أو يحدث كلَّ مقصود بالآية لأنَّه تعالى عالم بحدوثه، ولو لم يعلمه الخلق حتَّى يحدث، إلاَّ أنَّه أريد بالمخاطبين زمان نزول الآية مخصوصين فالمراد: الريح والقلوع، ويقاس عليه ما يمكن لأنَّه تعالى قادر.

﴿لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ يحتمل المفرد والجمع، والأصل المفرد، و«الـ» للجنس فكأنَّه جمع ﴿فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ﴾ تطلبوا ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ مِمَّا تحبُّون، من سمك وتجارة وميرة وغير ذلك. و«مِنْ» للابتداء أو للتبعيض، ويجوز أن تكون صلة في المفعول به فيما قيل، والأصل عدم الزيادة، وللإثبات والتعريف.

[قلت:] وتفسير الفضل بالغزو والحجِّ غير مناسب ولو أريد التمثيل، لأنَّ الخطاب للكفَّار ولا اعتناء لهم بهما.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ إذ جعل لكم سبيلا إلى جلب ما ليس عندكم، ورحيما أيضا بقبول التوبة.

(قصص) لَمَّا لعن إبليس قال: أسـألك يـا ربِّ أن تعينـي علـى بـني آدم، قال: أعنتك، قال: يا ربِّ زدني، قال: ﴿وأَجْلِبْ عَلَيْهِم... وَعِدْهُمْ﴾، فاسـتعاذ آدم عليه السلام بـا لله ﷻ، وقـال: يـا ربِّ جعلـت بيـني وبـين إبليس عـداوة، وقوَّيته عليَّ فأعنِّي عليه يـا ربِّ، قـال: إذا عملـت حسـنة فلـك بهـا عشـر، وإن عملت سيِّئة فواحدة، فقال: يا ربِّ زدني، قال: أغفر لمن أشاء ولا أبـالي، فقـال آدم: حسبي يا ربِّ.

قيل: الرحيم مختصٌّ بالدنيا لحديـث: «**يـا رحمـن الدنيـا والآخـرة، ورحيـم الدنيـا**» وعـورض بحديـث: **يـا رحمـن الدنيـا والآخـرة، ورحيمهمـا**»[1] فـلا اختصاص لأحدهما بالدنيا أو الآخرة بل يفسَّر بحسب المقام.

﴿**وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّـرُّ فِي الْبَحْرِ**﴾ خـوف الغرق، فـإنَّ الخـوف ضـرٌّ، أو الضرُّ: ما يخافون به الغرق كشدَّة موج البحر، ودخول طرف السفينة في تراب، أو شقِّ جبل، أو تعرُّض سمكة عظيمة لها، وشدَّة الريـح وضـرب جبـل، ﴿**ضَـلَّ مَن تَدْعُونَ**﴾ تطلبون أو تعبدون ﴿**إِلاَّ إِيَّاهُ**﴾ كانوا يعبدون معه ويطلبـون الآلهـة فإذا مسَّهم الضرُّ لم يطلبوا ولم يعبدوا إلاَّ ا لله، لعلمهم أن لا ينجِّيهـم مـن الضـرِّ إلاَّ ا لله، فـ«ضلَّ» بمعنـى ذهـب عـن خواطركـم، أو ضـلَّ عـن إغـاثتكم أي لم ينفعكم، أو لم يهتد إلى نفعكم، وإن لم تعتبر عبادتهم ا لله وطلبه لقلَّتها منهم، أو لبطلانها بالإشراك فالاستثناء منقطع.

﴿**فَلَمَّا نَجَّاكُم**﴾ من الغرق ﴿**إِلَى الْبَرِّ**﴾ وبَّخهم على ما مضـى منهـم مـن ذلـك، ولذلـك لم يقـل وإذا نجَّـاكم، كمـا يـدلُّ لـه قولـه ﷻ : ﴿أَمَ امِنـتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ...﴾ (الآيـة: ٦٩) ، ﴿**أَعْرَضْتُـمْ**﴾ عـن تخصيـص ا لله بـالطلب والعبـادة،

١- تقدَّم تخريجه، انظر: ج٢، ص٢٨٦.

ورجعتم إلى الإشراك، وأعرضتم عن ذكره بعد تخصيصه في البحر حين خفتم بالذكر، أو توحيده أو شكره والعبادة.

روي أنَّ عكرمة بن أبي جهل ﷺ فرَّ إلى جدَّة ليركب البحر لَمَّا فتحت مَكَّة، ووافى الرئيس يقول لمن يريد الركوب: أخلصوا، وهم مشركون فيقولون: لا إله إلاَّ الله لِئَلاَّ يصيبهم غرق، فقال: هذا ما يقول مَحَمَّد قد أقرُّوا به ففيم الفرار منه؟ وَاتَّفَقَ أنَّ زوجه أرسلت إليه أن إيت وآمن فإنَّ مَحَمَّدًا ﷺ يقبل من يأتيه مؤمنا، فأتى وآمن.

ويجوز ـ على بُعدٍ لعدم دليل ـ أن يكون معنى ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾: توسَّعتم في المكارم، كمن أخذ في عرض شيء ضدُّ الطول كقول ذي الرمَّة:

عطاء فتىً تمكَّن في المعالي   فأَعْرَضَ في المكارم واستطالا

أي أخذ في عرضها وطولها.

(لغة) وكلُّ جسم له عرض إمَّا بزيادة الطول عنه، أو بالاعتبار كلمح طوله وعرضه سواء، واعتبر الطول بأعلاه والعرض بجوانبه، فالمراد بالعرض العرض العظيم، فإذا عظم العرض فالأصل أن يكون الطول أكثر منه، فالمراد: أعرضتم واستطلتم.

(أصول الدين) يقال: لو كان الله جوهرا لكان له حيِّزٌ واحتاج إلى محلٍّ ومحدث، أو جوهرا لاحتاج إلى ذلك ولم يقدر على أفعاله. فقيل: لعالم أثبت الله لي بلا ذكر جوهر وعرض، فقال: هل ركبت البحر وعصفت الريح وأشرفت على الغرق وأيست مِمَّن معك وغيرهم من الخلق أن ينجُّوك، وتعلَّق قلبك بشيء غيرهم أن ينجِّيك؟ قال: نعم، قال: **فذلك الغير هو الله ﷻ**، فاستحسن ذلك. وكذا كلُّ ما لا يخطر في قلبك معه غير الله سبحانه.

﴿وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا﴾ كثير الكفران وعظيمه في الجملة فلذا أعرضوا. والكفران: جحود النعمة، ومن شأنها أن تشكر بالطاعة، فإذا لم تشكر فكأنّها لم تقع على الكافر لها، فضلا عن أن يشكرها، والمراد مطلق الإنسان على إرادة الجنس لا كلُّ فرد، وإن قلنا: هو هؤلاء المخاطبون فعلى طريق الالتفات، إذ لفت الكلام عن أن يقول: وكنتم كافرين لطفا بهم واستجلابا.

﴿أَفَأَمِنتُم﴾ أأعرضتم، أو أنجوتم، أو أأنجاكم فأمنتم، مع أنَّ الإعراض موجب لأن تخافوا من العقاب، والإنجاء والنجاة موجبان للشكر لا للبقاء على الإعراض. والاستفهام توبيخ وإنكار لللياقة ذلك. ويجوز أن لا تقدَّر جملة بين العاطف وهمزة الاستفهام، ولا سيما إذا أدَّى التقدير إلى تكلُّف ﴿أَنْ يَّخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ أي أن يقلب الله جانب البرِّ الذي هو مأمنكم حال كونه بكم، أي متلبِّسا بكم ومصحوبا بكم، فالباء للملابسة متعلّق بحال محذوفة من جانب خاصَّة لا عامَّة، أو للسببيَّة متعلّق بـ«يَخْسِفَ»، و«جَانِبَ» مفعول به، وأجيزت ظرفيَّته، أي أن يوقع الخسف بكم في جانب البرِّ.

والمراد بجانب البرِّ: الطرف الذي يلي البحر الذي خرجوا منه، فإنّه تعالى قادر على الإغراق في البرِّ، كما قدر عليه في البحر، فكيف تكفرون إذا نجوتم إلى الساحل؟ كأنّه سبحانه لا يقدر على الإغراق في البرِّ ولا على الإهلاك بما شاء في كلِّ موضع، والمواضع في ذلك كلُّها سواء عنده تعالى.

﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ قيل: كما فعل بقوم لوط ﴿عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ ريحا يرمي بالحصباء. والريح يذكَّر ويؤنَّث، والحصباء: الحجارة الدقاق مع التراب، أو نفس الحجارة الدقاق، وإن أريد بالحاصب النَّسب جاز ولو مؤنَّثا، تقول: امرأة لابن أي ذات لبن، ويجوز أن يكون الحاصب نفس ذلك الدقيق بإسناد الرمي إليه أي حصباء

رامية ﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً﴾ «ثُمَّ» للترتيب الذكري بلا تـراخ، بمعنى أنـه لا شيء يمنعكم من وقوع ذلك، ولا من مداركته بالإصلاح بعد الوقوع.

﴿اَمَ أَمِنتُمْ أَنْ يُّعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ أي في البحر تركبونه بإذن ا لله لأمر تريدونه ﴿تَارَةً﴾ مرَّة ﴿اخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ قاطعا من الريح لِمَا أصابته، والقصف: الكسر والقطع، فتكسر فلككم، أو الصوت الشديد فيلزم منه لقوَّتها الكسر.

﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ عطف على محذوف كما علمت، تقديره: فتكسر فلككم فتغرقكم ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ «مَا» مَصدَرِيَّة، أي بكفركم، أو اسم أي بنعم كفرتموها، أو بالنعم التي كفرتموها، أو نعمة الإنجاء التي كفرتموها، فالرابط محذوف أي بما كفرتموه، وهذا مغن عن تكلُّف تقديره هكذا: بما كفرتم به فحذف "به" مع عدم وجود شرط حذفه أو حذف الجارُّ ووصل المضمر، وذلك نعمة. وإن أريد بـ«مَا» ا لله فخلاف المشهور من إطلاق ما على العالم. والباء سببيَّة.

﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ﴾ بالإرسال المعلوم من يرسل أو بالإغراق المعلوم من يغرق، أو بالإرسال والإغراق معا، وعليه فالإفراد بتأويل ما ذكر. ﴿تَبِيعًا﴾ ناصرا لكم بدفع ما أردنا من الإغراق قبل وقوعه، أو بأخذ الثأر مِنَّا بأن يتبعنا بما فعلنا بكم من الإغراق، و«عَلَيْنَا» و«بِهِ» متعلِّقان بـ«تَبِيعًا».

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ﴾ بأشياء لم تجتمع للجنِّ والملائكة وسائر الحيوانات، كحسن الصورة، قال ا لله عَجَلْ : ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ (سورة غافر: ٦٤ وسورة التغابن٣) وقال فيهم: ﴿فَتَبَارَكَ ا للهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ (سورة المؤمنون: ١٤) وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الانسَانَ فِي أَحْسَنِ

تَقْوِيمٍ﴾ (سورة التين: ٤) وكاعتدال المزاج لجعل قوتهم أطيب الأقوات، وجعل لغيرهم ما دونه وما فضل منه وما خبث، وكاعتدال القامة وانتصابها وكالتميز بالعقل، والإفهام بالنطق والإشارة باليد والعين والرأس، **والكتابة، وبها يجتمع لمن تأخّر علوم من تقدَّم**، قال الله ﷻ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾ (سورة العلق: ١) وقال: ﴿نُ وَالْقَلَمِ...﴾ (سورة القلم: ١) ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ (سورة الحقاف: ٤) ، وكالاهتداء إلى أسباب المعاش والعتاد، والتسلُّط على الأرض وحيواناتها وما فيها، كشرب مائها والاغتسال منه والحرث والغرس وأكل ثمارهما وسائر ثمارها، وصيد برِّها وبحرها، ﴿وَهُوَ الذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَاكُلُواْ... ﴾ (سورة النحل: ١٤) وهوائها وهو من موادِّ الحياة ولولا [الريح] لَمَا أمكنت الحياة في الأرض[1]، وبالنار بالاستضاءة بها وبمعادنها، وكتناول الطعام باليد، قال ابن عَبَّاس: «كلُّ حيوان يتناول طعامه بفيه إلاَّ الإنسان فبيده» ويصدر هذا من هرٍّ وقرد إلاَّ أنَّه لا فضيلة لأكلهما باليد لأنَّهما من ذوات أربع، إذ يطآن الأرض بأيديهما، ويمسَّان القاذورات بها، مع قلَّة أكل الهرِّ بها، وكتزيين الرجال باللحى، والنساء بالنواصي، وعبارة بعض بالذوائب، وقيل: وبخلق أبيهم آدم بيده **ومنهم خير أمَّة أخرجت للناس**.

والتكريم: جعل الشيء ذا شيء كريم أي شيء مستحسن، ولا يعتبر في مفهومه الإضافة إلى الغير بخلاف التفضيل.

﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ﴾ على الدوابِّ **﴿وَالْبَحْرِ﴾** على السفن وليس المراد عدم دخولهم في الأرض والماء بالبقاء على ظهرهما، لأنَّ الحيوانات شاركتهم في ذلك كما قيل **﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾** مِمَّا يستلذُّ أكلا وشربا ولبسا

١- في الطبعة العمانية: «ولولا الريح لأنتنت الأرض».

وركوبا واقتناء وغير ذلك ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ قيل: بالتعريض لاكتساب ما فيه النجاة والزلفى، بواسطة ما كرَّمناهم به وشكروه، وقيل: بالغلبة فلزم أن لا يكونوا أفضل من الجنِّ والملائكة، لأنّهم لم يستولوا على الجنِّ والملائكة، فالكثير هم غير الجنِّ والملائكة، وقيل: بالشرف فغير الكثير الملائكة، وهم أفضل من الإنسان ونسب لابن عَبَّاس والزجَّاج.

وقيل: غير الكثير خواصُّ الملائكة فخواصُّهم أفضل من الإنسان، والإنسان أفضل من سائرهم، وخواصُّهم هم: جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وحملة العرش، والذي يكون صفًّا، وسائر الملائكة صفًّا؛ وقيل: الناس أفضل من سائر الملائكة وغيرهم، إلاَّ أنّه فسد من فسد منهم بعد هذا بالمعاصي، فضيَّع هذه الفضيلة، و«كثير» على هذا بمعنى الكلِّ كما يستعمل الأكثر بمعنى الكلِّ، قال الله ﷻ: ﴿هَلُ انَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ... وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ (سورة الشعراء: ٢٢١ إلى٢٢٣) أي وكلُّهم كاذبون وقوله: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّومِنُونَ﴾ (سورة سبأ: ٤١).

وعن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ: **«لَمَّا خلق الله آدم وذرِّيَّته قالت الملائكة: ربَّنا إنَّك أعطيت بني آدم دنيا يأكلون ويشربون وينكحون ويتمتَّعون، ولم تعطنا ذلك! فأعطنا ذلك في الآخرة، فقال: وعزَّتي لا أجعل ذرِّيَّة من خلقته بيدي كمن قلت له كن فيكون»**[1] ومعنى خلقته بيدي أمرت بتراب فاجتمع، بل أمر المَلَك فجمعه وكوَّنه منه، بعد أن كان طينا ثمَّ صلصالا بإرادته، وذلك كعمل باليد.

١- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢١٢، وقال: أخرجه الطبراني عن ابن عمر. وأورده **الهندي** في الكنز، ج١٢، ص١٩٢، رقم ٩٤٦٢٠، وقال: أخرجه الديلمي وابن عساكر عن جابر والبيهقي عن عروة بن رويم الأنصاري.

ولعلَّ الحديث لم يَصِحَّ عنه ﷺ، لأنَّه ليس في طبع الملائكة التلذُّذ بغير العبادة ولا طلبه، فإن صحَّ عنه ﷺ فذلك بأن أحدث الله فيهم ذلك التمنّي ثمَّ أزاله، كما أحدث في طبع هاروت وماروت اشتهاء النكاح وشرب الخمر، ونحو ذلك فيما قيل على أنَّهما مَلَكان بفتح اللام.

وعن أبي هريرة: «المؤمن الواحد أفضل عند الله من جميع الملائكة» لأنَّه أطاع الله مع وجود دواعي المعاصي، وقال الحَنَفِيَّة: خواصُّ بني آدم وهم المرسلون أفضل من جملة الملائكة، وخواصُّ الملائكة أفضل من عوامِّ بني آدم، والأتقياء والزهَّاد أفضل من عوامِّ الملائكة، ويقال : عوامُّ المؤمنين أفضل من عوامِّ الملائكة، وخواصُّ المؤمنين أفضل من خواصِّ الملائكة. وخطَّؤوا الزمخشري في تفضيل جبريل على سَيِّدنَا مُحَمَّد ﷺ. وعبارة بَعْضٍ: الرسل من البشر أفضل مطلقا، ثمَّ الرسل من الملائكة أفضل مطلقا من البشر والملائكة، ثمَّ عموم الملائكة ثمَّ عموم البشر، ونسب لأبي حنيفة وكثير من الشَّافِعِيَّة.

وقيل بتعميم تفضيل الكمَّل من البشر نبيئا أو وليًّا، وقيل بتفضيل الكروبيِّين من الملائكة مطلقا، ثمَّ الرسل من البشر، ثمَّ الكمَّل منهم، ثمَّ عموم الملائكة على عموم البشر، وإسجاد الملائكة لآدم فضيلة لأولاده عليهم.

ومذهبنا تفضيل الملائكة مطلقا، لأنَّه لا تصدر منهم معصية، وما خالف هذا فأخذ من قومنا، ثمَّ إنَّه لا يلزم من تفضيل جنس الإنسان على جنس الملك تفضيل أفراد الإنسان على الملائكة، ولا يلزم من عدم تفضيل جنس الإنسان على الملائكة عدم تفضيل بعض أفراده.

ولا يختلف في أنَّ الملائكة أكثر عددا من الجنِّ والإنس لأحاديث: «**أطَّتِ السماء وحقَّ لها أن تئطَّ، ما من موضع قدم منها إلاَّ وفيه ملك راكع أو**

ساجد»[1] والمراد السماوات، ولا تنزل قطرة إلاَّ ومعها ملك لا يرجع، ويدخل كلَّ يوم البيت المعمور سبعون ألف ملك ولا يعودون إليه.

﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

أحوال الناس مع قادتهم يوم القيامة

﴿**يَوْمَ نَدْعُواْ**﴾ اذكر يوم ندعو، أو اذكر الحادث يوم ندعو، أو اذكر قراءة الكتب، أو اذكر العدل والجزاء يوم ندعوا، دلَّ على ذلك «يَقْرَءُونَ» و«لاَ يُظْلَمُونَ»، ﴿**كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ**﴾ نبيئهم، يا أمَّة فلان أو بمن ائتمُّوا به، أو بمقدَّمهم في الدين، مثل يا حزب جابر بن زيد، ومثل يا أصحاب عامر بن علي، أو بكتابهم: يا أهل القرآن، أو يا أهل الإنجيل، أو يا أهل التوراة، أو نحو ذلك ما عملتم في كتابكم؟، أو يا أهل الكعبة، ويا أهل الصليب فيكون في النار، ويا عبدة البقرة.

عن أبي هريرة عنه ﷺ: «**ينادى يا أمَّة إبراهيم، يا أمَّة موسى، يا أمَّة عيسى يا أمَّة محمَّد، فيقوم أهل الحقِّ الذين اتَّبَعُوا الأنبياء فيأخذون كتبهم بأيمانهم، ثمَّ ينادى الأتباع يا أتباع نمروذ، يا أتباع فرعون، يا أتباع فلان يا أتباع فلان من رؤساء الضلال**»[2] ويدعى أيضا من شاء الله ﷻ من الأفراد

١- رواه **النسائي** في السنن الكبرى في كتاب النكاح، باب ما كان مطالب برؤية مشاهدة الحق... رقم١٣٥٠٠. ورواه **المنذري** في الترغيب والترهيب في كتاب التوبة والزهد، باب الترغيب في الخوف وفضله، رقم٥١١٧. من حديث أبي ذرٍّ.

٢- لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ.

كما تدعى الجماعة، قال رسول الله ﷺ: «**إنّكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فحسِّنوا أسماءكم**»(١).

وفسّر بعضهم الإمام بالقُوَّةِ الداعية للخير وللشرّ، كالقوّة النّظَرِيّة والعَمَلِيّة والغضبيّة والشهويّة، وشهوة الحياة والرئاسة، والشجاعة والصبر، والقناعة، [قلت:] ولا أقبل مثل هذا.

وقيل: الإمام كتاب الأعمال، كما قال الله ﷻ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ اَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (سورة يس: ١٢) وعن أبي هريرة: «**يدعى يا أهل الصلاة من بابها، ويا أهل الصدقة من بابها، ويا أهل الجهاد من بابه، وهكذا**» كما في الحديث بطوله، حتّى قال أبو بكر: وهل يدعى أحد من هذه الأبواب كلّها؟ قال: «**نعم وأرجو أن تدعى منها**»(٢) كما بسط في محلّه.

وقيل: يا صاحب الخير، ويا صاحب الشرّ، وعن ابن عمر عن رسول الله ﷺ: «**إذا جمع الله الأوّلين والآخرين يوم القيامة رفع لكلّ غادر لواء يوم القيامة، فيقال: هذه غدرة فلان بن فلان**»(٣) أخرجه البخاري ومسلم، وفيه نداؤهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، وقيل: بأسماء أمّهاتهم سترا على أولاد الزنى وعلى الأباء، ورعاية لحقّ عيسى، قيل: وإظهارًا لشرف الحسن والحسين تشريفا

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: تفسير الآية رقم ٥٢، من سورة الإسراء في هذا الجزء، ص١٩٣.

٢- رواه **البخاري** في كتاب الصوم باب الريّان للصائمين، رقم ١٧٩٨ و٣٤٦٦. ورواه **مسلم** في كتاب الزكاة، باب من جمع الصدقة وأعمال البرّ، رقم١٠٢٧. ورواه **الترمذي** في كتاب المناقب، باب مناقب أبي بكر وعمر، رقم ٣٦٧٤. من حديث أبي هريرة.

٣- رواه **البخاري** في كتاب الجزية والموادعة، باب إثم الغادر للبرّ والفاجر، رقم٣٠١٦ و٥٨٢٨. و**مسلم** في كتاب الجهاد (٤) باب تحريم الغدر، رقم ٩ (١٧٣٥). من حديث ابن عمر.

بفاطمة رضي الله عنها لأنّها بنت النبيء ﷺ، كما قيل: إنّ إمام جمع أمّ، **ولا تنصت لمثل هذا**، ولو دعي أولاد الزنى بآبائهم لم يعرفوا لأنّهم لم يعرفوا في الدنيا وأيضا ليسوا بآبائهم شرعا. وذكر القرطبيُّ أنّه يقال: يا حنفيُّ يا شافعيُّ يا قدريُّ يا معتزليُّ ونحو ذلك.

وذلك الدعاء لإيتاء الكتب، وللاطّلاع على ما فيها وقراءتها والجزاء، ولذلك رتّب عليه بقوله:

﴿**فَمَنُ اوتِيَ كِتَابَهُ, بِيَمِينِهِ**﴾ من سعداء أولئك المدعوّين، كما فسّر بعض المتأخّرين الدعاء بأنّه يقال: يا صاحب كتاب الخير ويا صاحب كتاب الشرّ، والمراد بكتابه كتاب عمله، والمراد: الجمع، ورُوعِيَ لفظ «مَن» وأفرد، وروعي المعنى فَجُمِعِ في قوله: ﴿**فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ**﴾ فرحين بما فيه ذاكرينه لغيرهم تبجُّحا، وأمَّا الأشقياء فيقرءونه حزنين مغتمّين، ويصعب عليهم قراءته لسوء ما فيه، حتّى كأنّهم لا يقرءونه أو يمتنعون منها ثمَّ يقرءونه، أو غشيهم من الغمّ والخجل ما يحبسهم عن قراءتها ثمَّ يقرءونه، وكذلك لم يذكر قراءتهم في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنُ اوتِيَ كِتَابَهُ, بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمُ اوتَ كِتَابِيَهْ﴾ (سورة الحاقّة: ٢٥) وكذا في سورة الانشقاق [آية ١٠]، وقد جزم بعض المتأخّرين بأنّهم لا يقرؤونه لذلك، وشهر في الآثار أنّهم يقرؤونه حتّى الأعمى يجعل له البصر فيقرأ وليس في عدم ذكر قراءتها نفيها.

﴿**وَلاَ يُظْلَمُونَ**﴾ لا ينقصون من ثوابهم ﴿**فَتِيلاً**﴾ شيئا قليلا مثل الممتدّ في شقّ النواة، أو مثل ما يفتله الإنسان بأصبعيه من الوسخ، قيل: أو مثل قميصها لأنّه يفتل باستخراجه، وهو استعارة وهو مفعول ثان لـ«يُظْلَمُ»، لأنَّ معناه ينقص، وينقص يلزم ويتعدّى لواحد ولاثنين.

﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ﴾ أي في هذه الدار الأولى وهي الدنيا ﴿أَعْمَى﴾ صفة مشبَّهة، كأحمر وأبيض، أي عَمِيَّ القلبِ لا يبصر رشده ﴿فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى﴾ كأعمى البصر لا يجد اتّقاء المضرَّة، فهو في الآخرة هالك مضرور بالعذاب والنار كأعمى يمشي ولا يدري في أيِّ مسلك هو، فإنَّه يصادم الحائط، ويقع في الهوَّة وعلى الشوك، وبين يدي سبع وعلى ما يكره، وهذا كقوله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ (سورة الحاقَّة: ٢٥) فهو مقابل لقوله تعالى قبل هذا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ...﴾ (سورة الحاقَّة: ١٩) والمعنى: لا يجد سبيلا للنجاة.

ولَمَّا نزلت الآية قال ابن أمِّ مكتوم وهو أعمى لرسول الله ﷺ : «أفأكون في الآخرة أعمى؟» فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ...﴾ (سورة الحج: ٤٦) وقيل: الأعمى أعمى البصر في الآخرة عقوبة لهم لقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى...﴾ (سورة طه: ١٢٤) ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾ (سورة الإسراء: ٩٧).

(قراءة) وقيل: «أَعْمَى» تفضيل، ولو كان من العيوب لأنَّه من عيوب الباطن فلا يمتنع صوغ اسم التفضيل فيه نحو أحمق وأبله، ولذلك قيل لم يُمِلْه أبو عمرو ويعقوب لأنَّ ألفه في الوسط بـ«مِن» التفضيليَّة، بخلاف ما إذا كان صفة مشبَّهة فليست من التفضيليَّة مقدَّرة بعده.

[قلت:] ولا نسلِّم ما قيل إنَّ الإمالة لا تحسن وسطا بل حسنت وكثرت كما في كتب النحو والتصريف وعلم القراءة، وقد أمال «أعمى» في موضعين حمزة والكسائي وأبو بكر، وقرأ ورش بَيْن بَين، ولو كانت المتطرِّفة أولى بالإمالة لأنَّها تقلب في التثنية ياء، وأيضا «مِن» التفضيلية كلمة أخرى فلا يعتبر بها ما بعدها وسطا.

﴿وَأَضَلُّ﴾ فيها ﴿سَبِيلاً﴾ منه في الدنيا، لأنّه فيها يمكنه الاهتداء بخلافه في الآخرة.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

محاولة المشركين فتنة النبيء ﷺ وطرده من مكّة

(سيرة) وَمِمَّن هو أعمى وأضلُّ في الآخرة منه في الدنيا مَن لم يتب من ثقيف وقريش، النازل فيهم قوله تعالى:

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذِي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ,﴾ مِمَّا لا يجوز كما طلبوه، أمَّا ثقيف فقالوا إذ وَفَدُوا إلى رسول الله ﷺ من الطائف: لا ندخل في دينك حتّى تعطينا خصالا نفتخر بها على العرب، لا نعطي زكاة الحبوب، ولا تذهب بنا للقتال، ونصلّي بلا ركوع ولا سجود، ونأخذ مالنا من الربا على غيرنا، ولا نعطي ما علينا من الربا، وأن تخلّينا واللات وسائر أصنامنا سنة، وإذا تمّت لم نهدمها بأنفسنا، وأن لا يقطع أحد من وادينا «وجّ» شجرا، ولا نباتا كالحرم، وإن قالت العرب لمه؟ فقل: الله أمرني بذلك.

وفي رواية: من ذلك شرطوا أن لا نصلّي، وفي أخرى: إذا تمّت السنة كسرنا الأصنام بأيدينا، وفي أخرى: أن تمتّعنا باللات سنة من غير أن نعبدها

لنأخذ ما يهدى إليها، وَلَمَّـا قـالوا: لا نركـع ولا نسـجد ولا نصلّي، قـال: «**لا خير في دين لا ركوع فيه ولا سجود**» وأمَّا الأصنام فإنِّي غير ممّتعكم بها، وأمَّا كسرها بأيديكم الآن فلكم، وسكت عن غير ذلـك كأنّـه رجـا أن يـبيحه ا لله عَجَلَّ ليسلموا.

وأمَّا قريش فقيل: قالوا: لا نمكّنك مـن استلام الحجر حتّى تستلم آلهتنـا، وروى: إنّا لا نؤمن حتّى تطرد هؤلاء الضعفاء والموالي الذين أسلموا، وتجعل آية رحمة آية عذاب، وآية عذاب آية رحمة، وحتّى تستلم آلهتنا، فقيل: سكت فطمعوا ونـزل لسكوته: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ بمعنى أنَّ ذلك كلّه حرام وافتراء، ومناقض للوحي، لا يبيحه ا لله.

[قلت:] واستلام الحجر قبل الفتح والسورة مَكّيَّة إلاَّ ثمان آية هذه أولاهنَّ، وأخراهنَّ آية ﴿سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ فلا يتمُّ منعه من استلام الحجر بعد الفتح.

و«إن» مخفَّفة واللام فارقة، والفتن: صرفه عن الوحي ﴿**وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً**﴾ لو اتَّبعتهم إذا لاَّتخذوك خليلا، فتصير بريئا من ولايتي، فحذف "لو" وبقي جوابه، وليس جوابا للقسم كما قيل، لأنَّ إجابة القسم بماض متصرِّف مثبت مجرَّد من "قد" قليل وقد عدُّوا قول امرئ القيس لعنه ا لله:

حلفت لها با لله حلفـة فاجـر ... لناموا وما إن من حديث ولا صالي

من الشواذّ أو الضرائر.

﴿**وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ**﴾ لاتَّبعتهم، فحذف جواب "لو" ﴿**لَقَدْ كِدتَّ**﴾ وا لله لقد كدت ﴿**تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ**﴾ إلى كلامهم ﴿**شَيْئًا**﴾ أي ركونا مفعول مطلق ﴿**قَلِيلاً**﴾ في غير ترك الصلاة أو الركوع والسجود، والتمتيع بالآلهة، وهو غير راكن في ذلك قليلا ولا كثيرا، ولا قريب للركون، وقربه للركون في غير

ذلك ليس قربا من أن يبيحه من عنده، بل قربا من أن يدعو ا لله فيبيحه، ومع هذا عابه ا لله عليه، كمسح الآلهة لم يكد يركن إلى مسحها لأنَّه تعالى نفى قربه إلى الركون القليل، وأخطأ من قال: همَّ بذلك و لم يفعل إذ نهاه ا لله ﷻ، ولا يصحُّ أن يكون المراد: كدت أن ينسب إليك أنَّك ركنت كما يقال لفاعل شيء خطير: كدت تقتل نفسك، أي يقتلك الناس به، لبعده.

﴿إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ﴾ مثل ﴿إِذًا لاَّتَّخَذُوكَ﴾ لو قاربت لعذَّبناك كلَّ عذاب يستحقُّ على ذلك، أو عذَّبناك عذابا يكون بالنسبة إلى ما يزاد عليك كذوق طعام أو شراب ﴿ضِعْفَ الْحَيَوٰةِ﴾ ضعف عذاب الدنيا، ودلَّ على هذا قوله تعالى: ﴿لأَذَقْنَاكَ﴾ وكذا في قوله: ﴿وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ ضعف عذاب الموت، أي ضعف ما يعذَّب به غيرك لو قارب، لأنَّ ذنب العظيم دينا ورتبته أعظم، وذنب من له التقريب أعظم من ذنب غيره، ومن ذلك كثرة النعم ولا سيما الدِّينيَّة.

ومن ذلك الباب قوله تعالى: ﴿يَا نِسَآءَ النَّبِيءِ مَنْ يَّاتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ (سورة الأحزاب: ٣٠) وذلك لقدر الفضل، وأيضا ذو الفضل متبوع، ومن سنَّ سوءً فله وزره ووزر من اتَّبَعَه، ومن [سنَّ حَسَنَةً] عكسه ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ (سورة النساء: ٢٥) وذلك لنقصهنَّ بالرقِّ.

والأصل: عذابا ضعفا، أي مضاعفا في الحياة وعذابا ضعفا في الموت، وحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه، وأضيفت كما يضاف عذاب، وذلك كقوله تعالى: ﴿هَؤُلَآءِ اَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ (سورة الأعراف: ٣٨) وقوله تعالى: ﴿فَزِدْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ (سورة ص: ٦١) والآية كقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ (سورة الأعراف: ٣٨) أي عذاب ضعف.

وقيل: ﴿ضِعْفَ الْحَيَوٰةِ﴾: عذاب الآخرة، ﴿وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾: عذاب القبر، وفسَّر بعضهم بمثلي عذاب المشركين في الدنيا، ومثلي عذابهم في الآخرة.

﴿**ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا**﴾ بدفع العذاب بعد مجيئه، أو قبله، أو بتخفيفه، وَلَمَّا نزل قال ﷺ : «**اللهمَّ لاَ تكلني إلى نفسي طرفة عين**» وازداد تصلُّبا في الدين، وكذا ينبغي لكلِّ مؤمن.

﴿**وَإِن كَادُواْ**﴾ أي أهل مَكَّة كما دلَّ عليه قوله ﷻ : ﴿**لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الاَرْضِ**﴾ أرض مَكَّة بمعاداتهم ﴿**لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا**﴾ فإنَّ الإزعاج من الأرض وإخراجه منها إنَّما يتصوَّر عن أرض هو فيها، وما هو ﷺ إلاَّ في مَكَّة مع أهلها. والاستفزاز: الإزعاج، وهو غير الإخراج، بل آلة له، والمراد: تأثير الإزعاج، فإنَّهم أزعجوه ولم يؤثِّر إزعاجهم فيه، بل كاد يؤثِّر، أو أراد بالإزعاج ما هو فوق ما صدر منهم من الدعاء إلى الخروج، مثل إساءة القول، وسوء العشرة، وعزلهم في شعب بني هاشم، لا يطعمون ولا يسقون، ولا ينكح لأحدهم ولا منهم وقع ذلك بعد نزول الآية، وصار سببا لهجرته ﷺ إلى المدينة.

(نحو) وفي ردِّ الضمير إلى قريش تفكيك الضمائر لأنَّ الضمائر قبلُ لثقيف، ولا بأس في ذلك لوجود القرينة، وإن رددنا الضمائر قبلُ في ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ إلى قريش فلا تفكيك.

﴿**وَإِذًا**﴾ أي وعلى وقوع الإزعاج لو وقع ﴿**لاَّ يَلْبَثُونَ**﴾ يقيمون ﴿**خَلْفَكَ**﴾ بعدك، استعمل للزمان وأصله المكان، وأصله خلف استفزازك، وأوضح من ذلك، أن تقول: خلف ما يلي الشيء من زمان أو مكان، فالمعنى: خلف زمان استفزازك، كما تقول: وقت كذا قبل وقت كذا أو بعده، فذلك حقيقة في الزمان والمكان.

﴿إلاَّ قَلِيلاً﴾ لبثا قليلا، أو زمانا قليلا لكن لم يقع، فما أثَّر فيه استفزازهم فما أخرجوه في هذه القِصَّة، بل خرج وحده فلم يعجِّل إهلاكهم بل تأخَّر إلى بدر، ولو فعلوا لهلكوا في حينهم بِمَا يشاء الله.

ويجوز أن يكون في ذلك أمران: الأوَّل أنَّهم كادوا يستفزُّونه ويخرجونه ولم يكن، وذلك في قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ...﴾ والثاني أنَّهم استفزُّوه وأخرجوه، بمعنى أنَّهم شدَّدوا العداوة حتَّى كانت سببا لخروجه فخرج، فكأنَّهم أخرجوه، كما قال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِن قَرْيَتِكَ الَتِي أَخرَجَتْكَ﴾ (سورة القتال: ١٣) وذلك في قوله: ﴿وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أي استفزُّوه وأخرجوه فلا يلبثون إلاَّ قليلا، فعدَّ ما بين استفزازه وإخراجه وبين قتلهم ببدر قليلا، وهو سنة تقريبا، ويقال: ثمانية أشهر أي قربوا أن يجبروك على الخروج ولو فعلوا لماتوا جميعا، لكن لم يفعلوا فلم يهلكوا، إذ قضى سبحانه أن يؤمن بعضهم، وتخرج منه ذرِّيَّة.

وقيل: نزلت في اليهود حسدوه ﷺ على إقامته بالمدينة فقالوا: «الْحَقْ بمقام الأنبياء الشام الأرض المقدَّسة بعد إبراهيم إن كنت نبيئا فنومن بك، فإن خفت الروم منعهم الله عنك، وما يثرب من مدن الأنبياء»، فقيل: خرج مرحلة أو ثلاثة أميال إلى ذي الحليفة، روايات، وانتظر أصحابه فنزلت الآية فرجع، وقتل عن قريب قريظة وأجلى النضير.

[قلت:] **وأرى هذا باطلا** حاشاه أن يخرج من المدينة مع عزَّته وعزَّة أصحابه فيها ودين الله لقول اليهود دون انتظار أمر الله ﷻ، وليس ذو الحذيفة طريقا إلى الشام، **وزعم بعض** أنَّه غزا تبوك مريدا للشام ولَمَّا بلغ تبوك نزل: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ...﴾ وأمر بالرجوع إلى المدينة ففيها محياك ومماتك، ومنها تبعث، والأرض في هذا القول أرض المدينة.

وقيل: اهتمَّ المشركون كلُّهم أن يخرجوه من أرض العرب، فالأرض أرض العرب، وقيل: إخراجه من الأرض قتله إذ أجمعوا عليه في دار الندوة، فيتبادر أنَّ الأرض الدنيا.

﴿سُنَّةَ مَن قَدَ اَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ أي تذكَّر سنَّة، أو لا تنس سنَّة، فإنَّها تصيبهم على إخراجك، أو اتَّبع سنَّة، أو سنَّ الله سنَّة، أو سنَنَّا سنَّة، أو كسنَّة، والسنَّة: **إهلاك كلِّ قوم أخرجوا نبيئهم من بين أظهرهم مرَّتين** ولو بتسبُّب في خروجه، أو إخراج من بعضهم وتسبُّب لإخراج من بعض. والسنَّة لله وأضيفت للرسل أو لأممهم على تقدير: سنَّة أمم من قد أرسلنا، لأنَّها لأجلهم، وقيل: اتَّبع سنَّة من قد أرسلنا، كقوله سبحانه: ﴿فَبِهُدَاٰيهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (سورة الأنعام: ٩٠) لا تتغيَّر ولو اشتدَّ الأمر، وما تقدَّم أولى وهو أنسب بقوله:

﴿وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ تغييرا أو تبديلا، فلو أخرجوك لم يلبثوا خلفك إلاَّ قليلا، كما هو عادتنا مع من قبلهم، والمراد بنفي وجود التحويل نفي حصول التحويل.

﴿اَقِمِ اِلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ اِلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اِليْلِ وَقُرْءَانَ اَلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ اَلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداًۖ ٧٨ وَمِنَ اَليْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداًۖ ٧٩ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰناً نَّصِيراًۖ ٨٠ وَقُلْ جَآءَ اَلْحَقُّ وَزَهَقَ اَلْبَٰطِلُۖ إِنَّ اَلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقاًۖ ٨١ وَنُنَزِّلُ مِنَ اَلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ اُلظَّٰلِمِينَ إِلاَّ خَسَاراًۖ ٨٢ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى اَلاِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ اُلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوساًۖ ٨٣ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ

﴿شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾

أوامر وتوجيهات للنبي ﷺ

وَلَمَّا ذكر يوم الشدَّة والحساب بقوله ﷻ: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ...﴾ وذكر شدَّة عداوتهم وكيدهم بقوله ﷻ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ...﴾ أمره بالتقوِّي على ذلك والتخلُّص من سوئه بإقامة الصلاة التي هي أفضل العبادة فقال:

﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا...﴾ (سورة طه: ١٣٠) وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ (سورة الحجر: ٩٨).

ودلوكها ودلوك القمر والنجم: ميلهنَّ عن وسط السماء في جميع الفصول، وهو زوالهنَّ عنه، كما قال ﷺ: «**أتاني جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلَّى بي الظهر**». قال جابر بن عبد الله: طعم عندي رسول الله ﷺ وأصحابه، ثمَّ خرجوا حين زالت الشمس، فقال ﷺ: «**هذا حين دلكت الشمس**»[1] وهذا هو الصحيح وعليه الجمهور.

(لغة) وروي عن عليٍّ وجماعة من الصحابة أنَّ الدلوك الغروب، والشمس تدلك من الأفق الظاهر إلى الأفق الباطن، ومادَّة «د.ل.ك» وما أوَّله دال فلام لمعنى الانتقال، كدلج مشى مقارب الخطو لثقل الحمل، ودلج بمعنى مشى بالدلو من البئر إلى الحوض ليفرغها فيه، وسار من أوَّل الليل، ودلع لسانه

١- أورده الطبري في تفسيره: ج١٥، ص٩٣.

خرج، ودلعه أخرجه، ودلف الشيخ قارب الخطا، ودلق الرجل أراق المائع بالقاف، ودله الرجل تحيَّر، أو ذهب عقله من الهوى، ودلهه حيَّره، ودلك بدنه أو ثوبه مثلا في الغسل حكَّه، ودلك الناظر للشمس عينه ليقوى على شعاعها، قد قيل: سمِّي دلوك الشمس لهذا فأضيف إليها لأنَّها السبب.

واللام بمعنى "مِن" الابتدائية، فشمل أربع صلوات يؤدِّي كلاًّ في وقتها. وغسق الليل: شدَّة ظلمته لا خمسا كما قيل، لأنَّ الفجر في غير وقت شدَّتها، ولذكره في قوله: ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ وإن سلَّمنا أنَّ وقته غسق لبقاء ظلمة الليل معه لم يتمَّ لأنَّه يجوز في إسفار، بل نُدِبَ لحديث: «**أسفروا بالفجر فإنَّه أعظم للأجر**»[1] ولو دخلنا أوَّله وأطلنا إلى إسفاره.

وإن حملنا الدلوك على الغروب شمل المغرب والعشاء فقط، وقيل والفجر كما مرَّ آنفا، والغاية داخلة على ذلك كلِّه. وقيل: اللام للتوقيت بمعنى "بَعْدَ" فشمل الظهر والعصر فقط، وكذا إن قلنا بمعنى "في"، وبيَّن الشرع وقت كلٍّ منهما ترجيحا وأباح دخول إحداهما في وقت الأخرى، فنقول: غسق الليل أوَّل ظلمته، وهو آخر وقت العصر، ولو لم يدخل وقت المغرب فلم تذكر المغرب والعشاء في الآية.

وقيل: إنَّ المراد الغروب فقط وإنَّ غسق الليل غيوب الشفق الأبيض في مواضع غيوبته، وهو آخر الوقت.

١- رواه **النسائي** في كتاب المواقيت (٢٧) باب الإسفار، رقم٥٤٧ و٥٤٨. ورواه **أبو داود** في كتاب الصلاة، باب في وقت الصبح، رقم ٤٢٤ بمعناه مطوَّلا. **والترمذي** في كتاب الصلاة (١١٧) باب ما جاء في الإسفار بالفجر، رقم١٥٤ مطوَّلا. عن حديث رافع بن خديج.

(فقه) روي عنه ﷺ أنه: «**جمع بين الظهر والعصر نهارا، وبين المغرب والعشاء ليلا في الحضر بلا غيم ولا مطر ولا خوف**»[1] وذلك لنعلم باشتراك الظهر والعصر من أوَّل الظهر إلى قدر ما تُدرَكَان فيه من آخر وقت العصر، وذلك **تسهيل وقلَّله** [ﷺ]، وكثَّر إيقاع كلٍّ في وقتها لِئَلاَّ نكثر فعل ذلك، وكذا المغرب إلى أن يبقى من آخر وقت العشاء ما تدركان فيه مع الوتر، **فالجمع فيما ذكر جائز لمن لا يَتَّخِذُه عادة**. وجاء الحديث: «إنَّ الشفق هو الأحمر»، اختاروا أنّه موقوف على ابن عمر، وفسَّره بعض بالأبيض، فلا يصلَّى العشاء حتَّى يغيب. و"الأحمر" خبر "إنَّ".

﴿**إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ**﴾ شدَّة ظلمته وهو وقت العشاء حين تظهر النجوم الصغار، متعلّق بـ«أَقِمْ» أو بحال من الصلاة محذوفة جوازا لا وجوبا لكونها كونا خاصًّا، أي ممدودة إلى غسق الليل، وأصل الغسق: السيلان كأنَّ الظلمة تنصبُّ على العالم ﴿**وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ**﴾ صلاة الفجر، سمِّيت باسم جزئها الأعظم وهو القرآن.

(فقه) [قلت:] ولا يدفع وجوب القراءة في الصلاة إلاَّ جاهل، ولا يدفع كونها ركنا في الصلاة إلاَّ مقلّد. ولا مانع من تفسير ﴿**قُرْءَانَ الْفَجْرِ**﴾ بما يقرأ في صلاة الفجر.

(فقه) وينبغي الدخول فيها أوَّل ما ينتشر، كما فعل ﷺ «**بالأغلاس وإطالة القراءة إلى الإسفار**» كما قال ﷺ: «**أسفروا بالفجر فإنّه أعظم للأجر**»[2] فتجتمع ملائكة الليل بالأغلاس وملائكة النهار بالأسفار، وليس كلُّ

١- رواه **الربيع** في كتاب الصلاة، باب القران في الصلاة، رقم ٢٥١. ورواه **أحمد** في مسند بني هاشم، رقم١٨٥٢. من حديث ابن عبَّاس.

٢- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ص ٢٣٤.

يوم يغلس حتّى تخرج النساء ولا يعرفن، بل يفعل تارة وغيره أخرى، لئلاّ يدوم على حال فيتوهَّم أنَّها واجبة، ومن شاء أيضا أسفر بحيث لا يخاف الطلوع، ولو بلا إغلاس بنية ثواب الإسفار.

والعطف على الصلاة فلا حاجة إلى تقدير "أقم"، كما سمِّيت ركوعا لأنّه أوَّل ما يبدو للناظر منها، وسمِّيت سجودا لأنّه أشدُّ خضوعا وظهورا، ولا حاجة إلى تقدير: إلزم، أو عليك، لإغناء «أَقِمْ»، واسم الفعل لا يعمل محذوفا.

﴿**إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا**﴾ إنَّ صلاة الفجر تشهدها الملائكة، وجاز التذكير مع أنَّ معناه: "صلاة" مراعاةً للفظه، تقول: جاء إنسان بالتذكير مع أنَّه امرأة ويجوز جاءت.

ويقال: ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون في صلاة الصبح خلف الإمام، وكذا خلف الفذّ، فإذا سلَّم المصلّي عرج ملائكة الليل وقالت: يا ربِّ تركنا عبادك وقد صلُّوا، وإذا صعد ملائكة النهار قالوا كذلك، وأعمُّ من هذا ما شهر أنَّهم كلُّهم يقولون: «أتيناهم وهم يصلُّون وتركناهم وهم يصلُّون» إلاَّ أنَّ هذا قبل الفراغ، ويقول الله ﷻ في ذلك كلّه: «**اشهدوا أنّي قد غفرت لهم**»[1] والحديث جاء بذلك.

ولا حاجة إلى ما قيل: تشهده شواهد القدرة من تبدُّل الظلمة بالضياء،

١- الحديث كما أورده **البخاري** ـ في كتاب مواقيت الصلاة (١٥) باب فضل صلاة العصر، رقم٥٣٠ و٣٠٥١ و٦٩٩٢، من حديث أبي هريرة ـ هو: قوله ﷺ : «يَتعاقَبونَ فِيكمْ مَلائِكَةٌ بالليلِ ومَلائِكَةٌ بالنَّهارِ، ويجتمعونَ في صلاةِ الفَجرِ وصلاةِ العصر، ثمَّ يَعرُجُ الذينَ باتوا فِيكمْ، فيَسأَلُهُمْ ـ وهوَ أعلمُ بهم ـ : كيفَ تَركتُمْ عِبادِي؟ فيَقُولونَ: تَركْناهمْ وهم يُصلُّونَ، وأَتيناهُمْ وهم يُصلُّون».

والنوم المشابه للموت بالانتباه، وكذلك المصلّي يشاهد ذلك ويخرج من ظلمة المعصية والغفلة بضوء الصلاة كضوء الفجر، وكالخروج من العدم إلى الوجود. ولا يقدر على ذلك إلاَّ الله ﷻ، [قلت:] ولا يجوز تفسير القرآن بمثل ذلك.

أو يشهده كثير من المصلّين عادة كذا قيل، أو من شأنه أن يشهده الكثير، وفي الوجهين إغراء بصلاة الجماعة كما استدلَّ بعض على وجوب القراءة في صلاة الفجر بهذه الآية، ويقاس عليها سائر الصلوات، سواء في الاستدلال فسَّرنا ﴿قُرْءَانَ﴾ بظاهره أو بالقراءة، وخصَّ بعضهم الاستدلال بما إذا فسِّر بالقراءة، وأخطأ من لم يوجبها فقد قال ﷺ: «**لا صلاة إلاَّ بفاتحة الكتاب**»[1] أي في كلِّ ركعة، ويزاد غيرها في محلّه.

وخصَّ صلاة الفجر لحضور القلب فيها لاستراحته بنوم الليل، وللتمهيد لها بقيام الليل، وينعكس نور كلِّ قلب إلى الآخر من قلوب الحاضرين، بأشعة أنوار معرفة الله ﷻ، كالمرايا المتقابلة، وكلُّ يوم تشهده ملائكة غير الملائكة الآخرين، أو ملائكة مخصوصة ترجع، قولان.

﴿**وَمِنَ الْيْلِ**﴾ أي في الليل كلّه أو بعضه كما قيل «مِنْ» للتبعيض متعلّق بقوله: ﴿**فَتَهَجَّدْ**﴾ على أنَّ الفاء صلة، أو في جواب، إمَّا مقابلة لقوله: ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ «وصلاة الفجر»، أو بمحذوف نعت لمحذوف، أي: وزمانا ثابتا من الليل، وهذا الزمان متعلّق بـ«تَهَجَّدْ».

(نحو) وقد قال بعض: إنَّ «مِنْ» التبعيضية اسم، [قلت:] والصحيح

١- أورده **أبو نعيم** في الحلية: ج٧، ص١٢٤ وأوّله قوله: «أمرني النبيء ﷺ أن أنادي لا صلاة...». ورواه **أبو عوانة** في مسنده: ج٢، ص١٢٥. من حديث أبي هريرة.

أنَّ «مِنْ» التي للتبعيض لا تكون اسما، فلا يُرَدُّ على من لم يقبل اسميَّتها بقول من يقول، إذ لا يُردُّ قول مجتهد بقول آخر، فلا إغراء اصطلاحيًّا في ذلك، فإنّه بالاسم أو بنحو "عليك".

(صرف) والتهجُّد: إزالة الهجود وهو النوم، كالتأثُّم لمجانبة الإثم، والتحرُّج لإزالة الحرج، أَزِل النوم، فالتفعُّل هنا للسلب، وأجيز أن يكون للتكلُّف وهو أكثر في التفعُّل، فيكون المعنى تكلّف الهجود أي اليقظة، إلاَّ أنَّ الهجود بمعنى اليقظة غير مسلَّم، إلاَّ بمعنى إزالة النوم فيرجع للسلب.

﴿بِهِ﴾ أي بالقرآن وهو غير قرآن الفجر على طريق الاستخدام، فإنَّ القراءة في صلاة الفجر غير القراءة في الليل، ولو اتَّحَدَ المقروء. أو الباء بمعنى في، والهاء لليل، أو الفاء عاطفة على محذوف، أي قم من الليل، أو اسهر فيه متهجِّدا، ومعنى «تَهَجَّدْ» على هذا: اعبد الله أو صلِّ، وهو مجاز ـ على هذا ـ لغويٌّ، وقيل: الهجود مشترك بين النوم ليلا والصلاة فيه، ولا يصحُّ هذا فإنَّ الهجود حقيقة في النوم إلاَّ إن أريد بالاشتراك أنّه يقع بمعنى النوم لغة، والصلاة شرعا.

﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي فريضة زائدة لك دون أمَّتك فإنّها لم تفرض عليهم، أو فضيلة على الصلوات المفروضة واجبة على نسخ وجوبها عليه، وقيل أمره بقيام الليل ندب، وقيل: وجوب لم ينسخ، وأفعاله لزيادة الثواب، وأفعال أمَّته لتكفير الذنوب، وقيل: وجب عليها ثمَّ نسخ بالصلوات الخمس، وبقي عليه ﷺ.

والنافلة على كلِّ حال: الزيادة، مصدرٌ على وزن فاعل، كالعاقبة والعافية، وهو مفعول مطلق، أي تنفل به نافلة. و«لَكَ» نعت «نَافِلَةً»، قيل: أو مفعول لـ«تَهَجَّدْ» بمعنى صلِّ، أي فصلِّ به نافلة ﴿عَسَى أَنْ يَّبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ اتَّفقَ المفسِّرون أنَّ عسى من الله قطع لأنّه وقع للإطماع، والترك

مع الإطماع عيب، تعالى ا لله عن العيب.

قال أبو هريرة قال رسول ا لله ﷺ: «**المقام المحمود هو المقام الذي أشفع فيه لأمّتي**»[1] رواه أحمد والترمذي والبيهقي والطبري، ويروى: يشفع فيه لأهل المحشر كلّهم فيذهبون عنه إلى منازلهم في الجَنَّة والنار، وعلى كلٍّ حال هو المقام يحمده فيه الأوّلون والآخرون، لاختصاصه يوم الشدَّة بما ليس لغيره. وجاء في الحديث: «**إنَّ الشمس تدنو فيبلغ العرق نصف الأذن فيستغيثون بآدم للشفاعة فيذكر أكله من الشجرة فيردُّهم إلى نوح، فيذكر دعاءه على قومه، وهكذا حتّى يردَّهم إبراهيم لقوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾** (سورة: الأنعام: ٧٨) **و﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾** (سورة الصافّات: ٨٩) **وإنّها أختي، ويردُّهم موسى لقتل القبطي** [سورة القصص: ١٥] **وعيسى لعبادة قومه له، فيقول سيِّدنا محَمَّد: أنا لها أنا لها، فيشفع ويسجد عند العرش أو تحته أو عند باب الجَنّة أربع سجدات كسجدات الصلاة، فيقال له: سَلْ تُعطَ واشفع تشفَّع وقل يُسمع» فذلك المقام المحمود**[2]، وإنّه يرفع رأسه من السجود، ويقول: يا ربِّ أمَّتي فيقال: أدخل من لا حساب عليهم منها من الباب الأيمن، وهم شركاء غيرهم في سائر الأبواب.

(أصول الدين) وروى قومنا من أقوال المقام المحمود: أنّه يجلس ا لله معه في الكرسي، وهو حديث مكذوب تعالى ا لله عن الجهات الستِّ والحلول، وأن يحويه مكان أو زمان، وذلك يستلزم أنّه جسم، والجسم لابدَّ له من محدث، فلزم هؤلاء وصفه تعالى بالحدوث، وصفات الخلق، فلو صحَّ الحديث لفسَّرناه

١- رواه **أحمد** في كتاب مسند المكثرين، رقم ٩٣٠٧. **والترمذي** في كتاب التفسير (١٨) باب تفسير سورة الإسراء، رقم٣١٣٧. من حديث أبي هريرة.

٢- رواه **البخاري** في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا...﴾ رقم ٣١٦٢ من حديث أبي هريرة مع اختلاف في اللفظ.

بمجرَّد التعظيم.

(نحو) واسم الزمان والمكان الميمي لا ينصب على الظرفيَّة إلاَّ بعامل من لفظه ومعناه، فـ«مَقَامًا» ظرف لمحذوف، أي فتقوم مقاما محمودا، أو يضمَّن «يَبْعَثَ» معناه فينصبه، وأجاز الكسائي أن يعمل فيه عامل من غير لفظه ومعناه، أو ناصبه حال محذوفة، أي يبعثك ربُّك قائما مقاما محمودا، وهذا أولى من تقدير: ذا مقام محمود. ويجوز أن يكون مصدرا ميميًّا مفعولا مطلقا، أي قائما قياما محمودا.

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ لَمَّا كان المقام المحمود مبنيًّا على الموت ودخول القبر والخروج منه، أمره ا لله ﷻ أن يقول يا ربِّ أدخلني القبر إدخال صدق بأن أكون على رضاك، وأخرجني منه عند البعث إخراج صدق على طبق رضاك، فألقى الكرامة.

(صرف) و«مُدْخَل» و«مُخْرَج» مصدران ميميَّان من "أَفْعَلَ" مفعولان مطلقان؛ ويجوز أن يكون الأوَّل ظرفا ميميًّا منه أيضا، أي موضع دخول صدق، والثاني مصدرا مفعولا مطلقا، ويجوز أن يكون ظرفا أيضا بأن يسمَّى القبر موضع خروج صدق.

أو لَمَّا كادوا يستفزُّونه من أرض مَكَّة أمره ا لله بالهجرة، وأن يقول: «ربِّ أدخلني المدينة إدخال صدق، وأخرجني من مَكَّة إخراج صدق»، أو «أدخلني الغار إدخال صدق، وأخرجني منه إخراج صدق»، أو هما ظرفان كما مرَّ، أو أمره ا لله ﷻ أن يقول لفتح مَكَّة: ربِّ أدخلني مَكَّة مدخل صدق بالفتح، وأخرجني منها إلى المدينة إخراج صدق، والظرفيَّة جائزة.

وفسَّر بعض الصدقَ بالمرضيِّ، أو إخراج الصدق من مَكَّة بالهجرة: إخراجه

مع أنَّه مخلص لله لا يلتفت قلبه إليها، أو إخراجه منها عند الفتح: السلامة من أذى المشركين، وكذا إدخاله الغار وإخراجه منه سالما من أذاهم وَمِمَّا قد يكون في الغار من السوء، على أنَّ دخول الغار بالوحي.

أو المراد: إدخاله في تبليغ الوحي، وإخراجه بالموت، أو بانقضائه مؤدِّيا حقَّه، أو إدخاله وإخراجه في كلٍّ ما يحاوله من الدين والمباح وسائر أحواله.

﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا﴾ حجَّة قَوِيَّة على من خالفني، أو ملكا قاهرا للكفر، أو كتابا يحوي الحدود والأحكام، أراد إتمام القرآن على ذلك، أو أراد التسليط بالسيف على أهل الشرك، وإقامة الحدود على أصحابها، أو سلطانا في كُلِّ عصر يقيم الدين، وزعم بعض أنَّه هو فتح مَكَّة.

﴿نَّصِيرًا﴾ ينصرني على من خالفني وعلى المشركين، وقال: ودعا في ذلك كلِّه فاستجاب الله عز وجل له ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (سورة المائدة: ٥٦) ﴿لِيُظْهِرَهُ, عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (سورة التوبة: ٣٣) ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ (سورة النور: ٥٥) ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (سورة المائدة: ٦٧) ، وملَّكه فارس والروم.

و«نصير» صفة مبالغة، أي كثير النصر أو عظيمه. وإسناد النصر إلى السلطان مجاز، أو بمعنى منصور.

ويتقوَّى أنَّ الدخول والخروج عند الفتح بقوله عز وجل : ﴿وَقُلْ﴾ عند دخول مَكَّة بالفتح ﴿جَآءَ الْحَقُّ﴾ أي الإسلام، وهو شامل للقرآن والجهاد وعبادته سبحانه وتعالى ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ ذهب الكفر، واستعمل لفظ المقيَّد وهو الذهاب، المقيَّد بكونه ذهاب الروح في مطلق الذهاب، واستعمل منه ذهاب الباطل؛ أو شبَّه ذهابه بذهاب الروح، فيبقى صاحبها ميِّتا لا فعل له، ورمز إلى ذلك بلفظ الزهوق الموضوع لذهابها. ﴿إِنَّ

﴿الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ سبق القضاء بزهوقه.

(سيرة)قال ابن مسعود رضي الله عنه دخل رسول الله ﷺ يوم الفتح وحول الكعبة ثلاثمائة وَسِتُّونَ صنما، فجعل ينكت في عين كلٍّ واحد بعصى صغيرة في يده، ويقول: ﴿جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ فينكبُّ لوجهه. ويروى: ينكث في وجه صنم فيقع على قفاه، وفي قفا صنم فيقع على وجهه، مع أنَّها مثبَّتة بالرصاص والحديد، وبقي صنم لخزاعة من صُفْرٍ أصفر، لا تناله العصا فوق الكعبة، فقال: يا علي ارم به، فصعد فرمى به وكسره. ومن أراد البسط فعليه بقصَّة فتح مَكَّة.

ومن ذلك أنَّه ﷺ حمل عليًّا فأسقطه، وقال: لو شئت لنلت السماء حين حملني، وذلك معجزة له ﷺ ذكرها علي، وقد كان يريد أن يحمل النبيء ﷺ فلم يقدر.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ في الدين ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ﴾ دنيا وأخرى. و«مِنْ» للابتداء، فَكُلُّ ما جاء من القرآن إلى سيِّدنا محمَّد فهو شفاء ورحمة للمؤمنين، أو للتبعيض فكلُّ بعض جاء منه فهو شفاء ورحمة إلى أن تتمَّ أبعاضه، أو للبيان، وأنكره أبو حيَّان لتقدُّمها على المبيَّن، وأجازها في غير ذلك، ولم يمنع «مِنْ» البيانية مطلقا.

أو أنَّها للتبعيض على معنى أنَّ بعضه للشفاء من المرض كالفاتحة وآيات الشفاء، وهنَّ ستٌّ: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ...﴾ (سورة التوبة: ١٤) ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ (سورة يونس: ٥٧) ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ (سورة النحل: ٦٩) ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ...﴾ ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ...﴾ (سورة الشعراء: ٨٠) ﴿قُلْ هُوَ لِلذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ (سورة فصلت: ٤٤).

اشتدَّ ولد القشيري مرضا أشفى به على الهلاك، فقيل له في المنام: «اكتبهنَّ

في إناء واجعل فيه مشروبا وأسقه إِيَّاهُ يبرأ» ففعل فبرئ بإذن ا لله ﷻ. [قلت:] وا لله لا يرى في المنام ولا في اليقظة وكفر من قال بغير ذلك[١].

والتحقيق في تفسير الآية أنَّ القرآن شبيه بالدواء للمريض، والجهل سوء الاعتقاد شبيه بالمرض، فهو مزيل لأمراض القلب، وهذا أولى، لأنَّ القرآن نزل بالذات لذلك، وأمَّا شفاء المرض فتابع إذا تُوُسِّل به من قلبٍ صفيٍّ. وداوى صحابيٌّ بالفاتحة فقال ﷺ: «**ما أدراك أنَّها رقية؟**» وصدقه وأجاز له[٢].

(فقه) ويجوز الاستشفاء بالقرآن تعليقا وغسلا ومسحا بالغسالة وشربا، ولو بفعل الإنسان ذلك بنفسه لنفسه، كما كان ﷺ يقرأ وينفث في يديه ويمسح بهما جسده، وينزع ما علَّق إذا أراد الكنيف أو الجماع، أو يستره كما ورد أنَّه ﷺ يخفى نقش خاتمه إلى باطن كفه عند قضاء حاجة الإنسان، ولا يكتب دفعا لمرض قبل نزوله وأجازه بعض كما جاز الدعاء.

ونهى ﷺ عن النشرة يعني ما تكتبه الجَاهِلِيَّة لا يعرف معناه، وفي الخبر «لا شفى ا لله من لم يستشف بالقرآن».

[قلت:] ووجه كون القصص والأخبار شفاء لمرض القلب أنَّها تتضمَّنُ الثواب والعقاب في الدنيا، وكشف الغيب، وتفيد الاتّعاظ بها والثواب بقراءتها[٣].

﴿**وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا**﴾ لتكذيبهم به إذ كلَّما نزل شيء منه كذَّبوا

١- يردُّ على راوي الحادثة أنَّ القشيري رأى ا لله في المنام.

٢- يشير الشيخ رحمه ا لله إلى الحديث الذي أورده البخاري -وغيره- في صحيحه في كتاب الإجازة (١٦) باب ما يعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب، رقم٢١٥٦. من حديث أبي سعيد.

٣- وهذا ما يؤيِّده علم النفس.

به، فذلك زيادة خسار، وهو فساد الدين بخلاف المؤمنين، فكلّما نزل شيء منه آمنوا به، فذلك رحمة بازدياد الإيمان والثواب، وأيضا عدم انتفاع الكافر به خسار، وعن قتادة: «لم يجالس القرآن أحد إلاّ قام عنه بزيادة أو نقص» قضى الله الذي قضى: ﴿شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ، وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾.

كماء صار في الأصداف درًّا وفي ثَغْرِ الأَفَاعِي صَارَ سمًّا

وفي ذكر الشفاء رمز إلى الاستعارة بالكناية، أو في لفظ «شِفَاءٌ» استعارة تصريحيَّة.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا﴾ بالصِّحَّةِ في بدنه وسعة المال والجاه ﴿عَلَى الاِنسَانِ﴾ المعهود بالكفر مطلقا، أو الوليد بن المغيرة، ذكر الإنعام لأنّه مراد بالذات، والشرُّ لعارض، أو [المراد] الجنس اعتبارا لحال الأكثر، ويكفي الوجود ولو في القليل، ولا يناقضه عدمه في الباقي.

﴿أَعْرَضَ﴾ زاد إعراضا عن ذكر الله، أو عن كلِّ نعمة تقتضي شكرا، وهذا أولى من أن يؤوَّل بدَامَ على الإعراض ﴿وَنَـا بِجَانِبِهِ﴾ لوى عطفه عنه كأنّه مستغن عن الله وعن نعمه، مستقلٌّ بنفسه، فضلا عن أن يشكرها.

أو ذلك كناية عن التكبُّر، فإنَّ الإعراض بالجنب من عادة المتكبِّر، أو ﴿نَـا بِجَانِبِهِ﴾: أعرض بنفسه أي بذاته، يقال: جاء من جانب فلان كذا، أي من فلان، وأصل النأْيِ البعدُ، وفي الأعراض بالجانب بعض البُعْد.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ الفقر أو المرض أو الذلُّ أو أمر ممَّا يكره ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ عظيم الإيَّاس، وقد علمت أنَّ ذلك في الكافر المعهود أو في الجنس باعتبار أكثر الحال وأكثر الناس.

﴿قُلْ كُلٌّ﴾ أي كلُّ أحد ﴿يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ على طريقته التي تشاكل

حاله في الهدى والضلال، أي تماثل حاله، فمن كان حاله الاهتداء فعادته السداد دائما، أو في الأكثر، أو الضلال فبعكس ذلك. سمِّيت الطريقة شاكلة لتلك المشاكلة أي المشابهة لحاله في الهدى والضلال، وإن شئت فقل: على طريقته التي تشبه حاله في السعادة أو الشقاوة المكتوبة في اللوح المحفوظ، من الهدى والضلال، أو تشبه حاله في علمه وقضائه الأزلي.

روى البخاري ومسلم عن عديٍّ بن حاتم ﷺ عن رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلاَّ وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنَّة**» فقالوا: يا رسول الله أفلا نتَّكل على كتابنا ؟ فقال: «**اعملوا فكلُّكم ميسَّر لِمَا خلق له، وأمَّا من كان من أهل السعادة فييسَّر لعمل السعادة، وأمَّا من كان من أهل الشقاوة فييسَّر لعمل الشقاوة**» ثمَّ قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ...﴾ (سورة الليل: ٥)[1].

وفسَّر البخاري الشاكلة بالنية، وبعض بالطبيعة، وبعض بالدين، وبعض بالعادة، ومن مشهور الكلام: «العادات قاهرات». وأجيز تفسير الشاكلة بالروح وأحوالها التابعة لمزاج بدنه، فذو النفس الطاهرة يصدر منها الإيمان والإسلام، وذو النفس الخبيثة غير ذلك.

والنفوس مختلفة بالماهية واختلاف أحوالها وأفعالها لاختلاف جواهرها وماهياتها، وقيل: متساوية بالماهية واختلاف أفعالها لاختلاف أمزجة أبدانها، ويدلُّ للأوَّل أنَّ الله ﷻ بيَّن أنَّ القرآن بالنسبة إلى البعض يفيد الشفاء والرحمة، وبالنسبة إلى البعض يفيد الخسار، وأتبعه بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾

١- رواه **البخاري** في كتاب التفسير (٦) باب قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ رقم٤٩٤٨ و٤٩٤٩. من حديث عبد الرحمن السلمي. **والتبريزي** في كتاب الإيمان (٣) باب الإيمان بالقدر، رقم٨٥ (٧) من حديث عليٍّ كرَّم الله وجهه.

بمعنى أنَّ النفوس الطاهرة يليق بها أن يظهر فيها بالقرآن آثار السعادة، والخبيثة على عكس ذلك، ويبحث بأنَّ القرآن يناسب القول الثاني أيضا لأنَّ اختلاف الأمزجة كاف في ذلك، وأيضا قد يقال من أين اختلاف الأمزجة لم لا تكون واحدة ؟ فما تقولون ؟.

(أصول الدين) والصواب ما أثبته ابن مالك في تفسير حديث: «**اعملوا فكلُّكم ميسَّر...**» من أنَّ السبيل إلى معرفة ذلك التوقُّف، فمن عدل عنه وأجال فيه العقل ضلَّ، لأنَّ القدر سرٌّ ضرب دونه الستر لم ينكشف لأحد من الأنبياء والأولياء، يعني أنَّ حقيقة الإنسان لا تقتضي لذاتها سعادة ولا شقاوة، وإنَّما هما بأمور خارِجيَّة سبق بها القضاء، فالتيسير لِمَا خلق له على هذا: التيسير إلى ما سبق به القضاء، وعلى القولين السابقين التيسير إلى مقتضى جواهرها أو الأمزجة.

وقد يقال: أصل الإنسان الطاعة لقوله: «بلى» بعد قوله ﷻ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ...﴾ (سورة الأعراف: ١٧٢) ومعصيته بعوارض كصحيح البدن يمرض بالعوارض، والأنبياء والكتب أطبَّاء، وفي الحديث القدسي: «**إنِّي خَلَقْتُ عبادي كلَّهم حنفاء، وأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**»[1] وعنه ﷺ: «**كلُّ مولود يولد على فطرة الإسلام، ثمَّ أبواه يهوِّدانه وينصِّرانه ويمجِّسانه**»[2] وعن الصدِّيق رضي الله عنه: «لم أر في القرآن أرجى من هذه الآية لا يشاكل بالعبد إلاَّ المعصية ولا بالربِّ إلاَّ الغفران». وقال عمر: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ (سورة غافر: ٣) » وقدَّم الغفران على قبول التوبة. وقال عثمان: «﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة الحجر: ٤٩) » . وقال عليٌّ: «﴿قُلْ

١- رواه **الطبراني** في الكبير: ج١٧، ص٢٦٣. **والسيوطي** في الدر: ج٤، ص٢٢٠.

٢- تقدَّم تخريجه، انظر: ج٢، ص٣٨٣.

﴿يَا عِبَادِيَ الذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ (سورة الزمر: ٥٣)». وعن محمَّد بن الحَنَفِيَّة: «أرجى آية عندكم أهل العراق قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الذِينَ أَسْرَفُواْ... ﴾ (سورة الزمر: ٥٣) وعندنا أهل البيت: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ (سورة الضحى: ٥) ». وقال أبو عثمان النهدي[1]: « ﴿وءَاخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ (سورة التوبة: ١٠٢) ». وعن عليٍّ: « ﴿وَمَآ أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ بِمَا كَسَبَتَ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ (سورة الشورى: ٣٠) ». فالمصائب بكسب الأوزار فإذا عاقبه الله في الدنيا فالله أكرم من أن يعذِّبه ثانيا، وإذا عفا عنه في الدنيا فهو أكرم من أن يعذِّبه في الآخرة.

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾ أسدُّ طريقا فيثاب عليه، و«أَهْدَى»: اسم تفضيل من الخماسي، وهو الاهتداء على خلاف القياس، وحذف الزائدان: همزة الوصل والتاء، أو من "هَدَى" الثلاثي اللازم بمعنى اهتدى.

(سبب النزول) ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ أي اليهود عند ابن مسعود رضي الله عنه، والدليل معرفته ﷺ بالسائلين ولو لم يتقدَّم ذكر اليهود قريبا، أو قريش بتعليم اليهود عند ابن عبَّاس رضي الله عنه، إذ قالوا لقريش تعنُّتا: اسألوا محمَّدًا عن الروح، ويناسب الأوَّل قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ لأنَّ المتَّصفين بالعلم اليهود لا قريش.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: بينما أنا أمشي مع رسول الله ﷺ وهو يتوكَّأ على عسيب، فمرَّ بنفر من اليهود فقال بعض لبعض: اسألوه عن الروح، وقال بعض:

١- أبو عثمان النهدي عبد الرحمن بن مَلي بن عمرو البصري، مخضرم معمَّر أدرك الجاهِلِيَّة والإسلام، غزا في خلافة عمر غزوات. وثَّقه ابن المديني، وأبو زرعة وجماعة، وكان من سادة العلماء العاملين، مات سنة ٩٥ هـ. تهذيب سير أعلام النبلاء، ج١، ص١٤٠.

لا، لئلاَّ يجيء بما تكرهونه، وقال بعض: اسألوه، فقام رجل منهم، فقال: يا أبا القاسم ما الروح ؟ فسكت، فقلت يوحى إليه، فقمت، فلمَّا انجلى عنه قال: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ...﴾الآية، فقال بعضهم: قد قلنا لكم لا تسألوه، وهذا في المدينة.

وقال ابن عَبَّاس ﷺ : اجتمع قريش أي في مَكَّة، وقالوا: إنَّ مُحَمَّدًا نشأ فينا بالأمانة والصدق، وما اتَّهمناه بكذب قطُّ، فابعثوا نفرا إلى اليهود بالمدينة واسألوهم عنه فإنَّهم أهل كتاب، فبعثوا جماعة، منهم النضر بن حرث، وعقبة بن أبي معيط، وهما أكبر الجماعة، فاقتصر بعضهم عليهما، أو هما المراد بالجماعة، فقال اليهود: اسألوه عن فتية فُقِدوا في الزمان الأوَّل ما كان أمرهم ولهم حديث عجيب، وعن رجل بلغ شرق الأرض وغربها ما خبره؟ وعن الروح، فإن أجاب عن ذلك كلِّه أو لم يجب عن شيء فليس نبيئا، وإن أجاب عن اثنين فقط فهو نبيء، فسألوه ﷺ ، فأخبرهم بأصحاب الكهف، وذي القرنين بعدما رجعوا إليه في مَكَّة وسألوه، فذلك سؤال وقع في مَكَّة ووقع بعد الهجرة والذي تلبَّث الوحي فيه هو سؤالهم بِمَكَّة.

(سيرة) كما روي أنَّهم سألوه فقال: أخبركم غدا، و لم يقل: «إن شاء الله»، فلبث عنه الوحي اثني عشر يوما، وقيل: خمسة عشر، وقيل: أربعين، فقالوا: وعدنا أن يخبرنا غدا فلم يخبرنا، وحزن ﷺ ، وشقَّ عليه ذلك، ثمَّ نزل قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ اِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا اِلاَّ أَنْ يَّشَآءَ اللَّهُ﴾ (سورة الكهف: ٢٤) ونزل في الفتية: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ...﴾ (سورة الكهف: ٩) وفي ذي القرنين قوله تعالى: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ...﴾ (سورة الكهف: ٨٣) ونزل ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ و لم يخبره بالروح، وكانت مبهمة في التوراة، فنقول: وقع السؤال في مَكَّة وفي المدينة، وابن عَبَّاس رواه له

الصحابة بحسب ما وقع في مَكَّة.

ومعنى سؤالهم عن الروح أنَّهم سألوه عن حقيقتها أو محلِّها من الحيوان، أو أقديمة أم حادثة؟ أمجرَّدة أم حالَّة في متحيِّز؟ أتبقى بعد الموت أم تفنى؟ والظاهر السؤال عن حقيقتها.

(قصص) وزعم بعض أنَّ الروح المسؤول عنها ملك هو صفٌّ والملائكة كلُّهم صفٌّ، وبعضٌ: أنَّه جنس من الملائكة على صورة ابن آدم لا ينزل ملك إلاَّ ومعه واحد منهم، وعن مجاهد: لا تراهم الملائكة كما لا نرى الملائكة، وعن سلمان: الجنُّ تسعة أجزاء والإنس جزء عاشر، والملائكة تسعة والجنُّ جزء، والروح تسعة والملائكة جزء، والكروبيُّون تسعة والروح جزء.

وقيل: الروح المسئول عنه جبريل كما قال الله ﷻ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ (سورة الشعراء: ١٩٣) وقيل: القرآن كما قال ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنَ اَمْرِنَا﴾ (سورة الشورى: ٥٢).

﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ﴾ تبعيضية أو بيانية ﴿اَمْرِ رَبِّي﴾ أجبهم بعارض من عوارضها، إذ لم يعرِّفه الله بحقيقتها، وذاتيتها إذ لم يجعل الله علما بذلك لأحد، كما أجاب موسى عليه السلام من قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الشعراء: ٢٣) ولم يقل: قل هي من أمر ربِّي، إظهارا لكمال الاعتبار في شأنها.

(أصول الدين) وفي قوله: ﴿مِنَ امْرِ رَبِّي﴾ أنَّها حادثة مخلوقة لله ﷻ، بقول: «كُنْ» وهو أمره، ومعناه: توجُّه الإرادة إلى وجودها، أو خلق الله لَفْظَ «كُنْ» حيث شاء إلاَّ أَوَّل المخلوقات فيتقدَّمه مخلوق، وهو لفظ «كُنْ» على هذا بلا محلٍّ، ولا ناطق به، والصحيح في أمره وقول «كُنْ» توجُّه الإرادة، على الاستعارة التمثيليَّة، وأمر ربِّي قوله: «كُنْ» ضدُّ النهي، ويجوز أن يكون

﴿أَمْرِ رَبِّي﴾ بمعنى شأنه فيكون بمعنى أمر من أمور الله.

(أصول الدين) والصحيح أنَّ الأرواح حادثة يخلقها الله إذا دخل الجنين في الشهر الخامس، وقيل: الأرواح مخلوقة قبل الأجساد كلِّها، كما قيل: أوَّل المخلوقات روح سيِّدنا محمَّد ونوره، ومن **قال الأرواح قديمة أشرك**، والقول بأنَّها خلقت قبل الأجساد خطأ عند بعض المحقِّقين فيستثنى روحه ﷺ، وقوله ﷺ: «**ينفخ في الجنين الروح**»[1] لا ينصُّ على عدم سبقها لجواز أنَّ الملك يأتي بها من خارج فينفخ بها.

وقيل: ذكر الله الروح في التوراة وأبهمه عنهم وهو جبريل، وقيل: خلق أعظم من الملائكة، وقيل الوحي، وقد علم ذلك كلَّه لكن لم يعلم ﷺ أنَّ ذلك هو المراد في التوراة، أو علم فلم يخبرهم ليطابق قولهم إنَّه يجيب عن اثنين ويسكت عن واحد.

أو يسألوه ﷺ كيف جبريل في نفسه؟ وكيف قيامه في تبليغ الوحي؟ فقال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنَ امرِ رَبِّي﴾ أي من عَالِم الأمر، أو وجوده بأمره ﷻ أو تكوينه، أو ينزل أو يُبلِّغ بأمره، كما قال: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ (سورة مريم: ٦٤) وقد سمِّي روحا في قوله ﷻ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الاَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ (سورة الشعراء: ١٩٣) وقوله: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا﴾ (سورة الشورى: ٥٢).

ومرَّ أنَّ الروح ملك أعظم الملائكة وهو أو جبريل المراد في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفًّا﴾ وأنَّه المراد في السؤال، قال عليٌّ: له سبعون

١- انظر الحديث الذي أورده البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم٣٠٣٦، من حديث ابن مسعود. وأوَّله قوله ﷺ: « إنَّ أحدكم يجمع خلقه في بطن أمِّه...».

ألف وجه لكلٍّ وجه سبعون ألف لسان لكلٍّ لسان سبعون ألف لغة، يسبِّح الله بها، ويخلق الله بكلِّ تسبيحة ملكا، ولا خلق أعظم منه غير العرش، والسماواتُ والأرضون كلقمة له، وهو في صورة الملائكة، ووجه الإنسان، هو عن يمين العرش يوم القيامة، يشفع لأهل التوحيد لولا ستر من نور بينه وبين الملائكة لاحترقوا من نوره.

وعن ابن عَبَّاس: الروح جند الله لهم أيد وأرجل، وقيل: عيسى، ويتَّجه تفسير الروح بالقرآن بتقدُّمه في قوله عَجَّلَ : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ...﴾ وتأخُّره في قوله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالذِي...﴾ إلى قوله: ﴿...ظَهِيرًا﴾ سألوه عنه فقال: إنَّه ليس من كلام الخلق، بل من أمر ربِّي، وقد سمَّاه روحا في قوله عَجَّلَ : ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا﴾ (سورة الشورى: ٥٢) وقوله: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ (سورة النحل: ٢) وكلٌّ من القرآن وجبريل للقلب كالروح للجسد، ومن جملة ما أمر بقوله قوله تعالى: **﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾** تستفيدونه بسمعكم وأبصاركم وسؤالكم وحواسِّكم، ومنها الحواسُّ الباطنة المدركة للوجدانيَّات، ومن فقد حسًّا فَقَدَ علما، ولا يليق بكم معرفة الروح.

والخطاب للناس مطلقا، وقيل: لليهود، قالوا: أوتينا التوراة وفيها العلم الكثير، يدلُّ للأوَّل أنه لَمَّا قال لهم: ﴿وَمَآ أُوتِيتُمْ...﴾ قالوا: أنحن مختصُّون بهذا الخطاب، فقال: بل نحن وأنتم، فقالوا: ما أعجب شأنك ساعة تقول: ﴿وَمَنْ يُّوتَ الْحِكْمَةَ فَقَدُ اوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (سورة البقرة: ٢٦٩) وساعة تقول هذا، فنزل ﴿وَلَوَ اَنَّ مَا فِي الاَرْضِ مِن شَجَرَةٍ... ﴾ (سورة لقمان: ٢٧) فإنَّ معلومات الله لا تتناهى.

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ۝٨٦ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ۝٨٧ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٨٩﴾

إعجاز القرآن

﴿**وَلَئِن شِئْنَا**﴾ أي لو شئنا الذهاب بما كذّبوا به ﴿**لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ**﴾ وهو القرآن، عبَّر عنه بالذي أوحيناه إليك تعظيما له، والذهاب به أبلغ من إذهابه، نذهبه من الصدور ومِمَّا كتب فيه بلا أثرِ محوٍ، كأنَّه لم يكتب، كما يفعل به آخر الزمان.

(أصول الدين) فنقول: لا دليل على ثبوت الكلام النفسيِّ ولا على أنَّ القرآن كلام نفسيٌّ قديم، وأنَّ هذا المتلوَّ ترجمته، فالقرآن هذه الألفاظ الحادثة المخلوقة القابلة للإفناء.

قال ابن مسعود: «اقرءوا القرآن قبل أن يرفع فإنَّه لا تقوم الساعة حتَّى يرفع» قيل: هذه المصاحف ترفع فكيف بما في الصدور، وسارت به الذرِّيَّة ما نسلت؟ قال: «يسرى عليهم ليلا فيرفع ما في الصدور فيصبحون لا يحفظون شيئا ولا يجدون في المصاحف شيئا فيفيضون في الشعر» قال عبد الله بن عمرو بن العاص: «لا تقوم الساعة حتَّى يرجع القرآن من حيث نزل، له دويٌّ كدويِّ النحل، فيقول الربُّ: ما لك؟ فيقول: يا ربِّ أتلى ولا يعمل بي». وفي الحديث: إنَّه يدرس القرآن كما يدرس الثوب ووشيه، ولا يدري ما صوم ولا صلاة، ولا صدقة، يرفعه جبريلُ والتوراةَ والزبورَ والإنجيلَ من الصحف،

حتّى لا تبقى منهنّ آية ولا كلمة ولا حرف، ثمّ بمدّة قريبة يرفعن من الصدور ليلا، فيصبحون يقولون: كنّا نقول شيئا فيرجعون إلى الشعر، ويقول الشيخ والشيخة: أدركنا الناس يقولون: «لا إله إلاّ الله» فنقولها الآن، والمؤمن هو الذي يقولها يومئذ.

فإن صحّ هذا ارتفع عمَّن يقولها التكليف بسائر الشرع، والمعروف أنّه يكون الرفع غضبا لله عن المكلّفين كلّهم، ولكن لله أن يفعل ما شاء، ولا تقوم الساعة حتّى يعدم قول: لاَ إِلَه إلاّ الله أربعين عاما.

﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾ يردُّه محفوظا في قلوبكم مسطورا حيث كان مسطورا قبل ﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ الاستثناء منقطع، بمعنى "لكن" عند البصريِّين وبل عن الكوفيِّين، كأنّه قيل: إلاّ أنّنا أبقيناه إلى قرب قيام الساعة رحمة مِنّا، مننّا عليك بإبقائه، كما مننّا بإنزاله.

[قلت:] ولا يجوز أن تُقدّر مع ذلك ما نصُّه: فلَمْ تحتج إلى من يُتوكّل للاسترداد، لأنّه ﷺ لا يطمع في رادٍّ لو ذهب به، وذكر لفظ «رَبٍّ» مكان ضمير المتكلّم على طريق الالتفات من التكلُّم إلى الغيبة. وأجيز أن يكون [الاستثناء] متّصلا لأنَّ الوكالة المنفية إنّما هي الردُّ، والردُّ رحمة، وكأنّه قيل: لا تجد وكيلا باسترداده إلاّ رحمة من ربِّك إن شاء وجدتها، وفيه أنّه لا يتبادر أنَّ الرحمة وكيلة.

﴿إِنَّ فَضْلَهُ, كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ كإرسالك، وإنزال الكتاب عليك، وإبقائه في حفظك، وإعطاء المقام المحمود، وحفظه عن التغيُّر، كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ, لَحَافِظُونَ﴾ (سورة الحجر: ٩) واصطفائك على غيرك، وختم الأنبياء والرسل بك.

والآيتان ذكر للقدرة لا تهديد بإذهاب ما أوتوا، ليصدَّهم عن سؤال ما لم يؤتوا كعلم الروح وعلم الساعة كما قيل، لأنَّ المؤمنين لا يعتنون بالسؤال بقدر ما يستحقُّون التهديد، وَالكُفَّار لا يعتنون بالقرآن فضلا عن أن يهدَّدوا بدفعه. ولا يتبادر أنَّهما تسلية له ﷺ عن إبطاء الوحي في ذي القرنين والروح وأصحاب الكهف كما قيل.

﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ**﴾ يقدَّر القسم: وا للهِ، أو وعزَّة ا لله، لقوله: ﴿قُل﴾، لا «وعزَّتي» إلاَّ على ضرب من التأويل، بمعنى قل عنّي: وعزَّتي، أو قل لهم هذا المعنى معبِّرًا عنه بما يليق، ولم يذكر الملائكة لأنَّ ا لله ﷻ لم يعطهم بلاغة الكلام، كما أعطاها الإنس والجنَّ، ولأنَّ المقام للتحدِّي على منكري القرآن، وليس من شأنهم إنكاره، قيل: ولأنَّهم الوسائط فيه، والنازلون به، وهم على قلب ملك واحد لا مغايرة بينهم، كما تغاير الثقلان بالإنكار والتصديق، ولأنَّه لم يقل أحد من الثقلين إنَّه كلام الملائكة، ولأنَّ إتيان الملائكة بمثله لا يخرجه عن كونه معجزة لو أتوا به، لأنَّه ﷺ يتحدَّاهم أيضا بأنَّهم ملائكة من ا لله جاءوني به، فهلاَّ جاءوكم به وهم عاجزون كالإنس والجنِّ، ويبعد أن يرادوا في لفظ «الجن» كغيرهم من الجنِّ، ولو أريدوا في قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ (سورة الصافات: ١٥٨).

﴿**عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْءَانِ**﴾ فصاحة وبلاغة ﴿**لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ**﴾ متعلِّق بقوله: ﴿**ظَهِيرًا**﴾ والعطف على محذوف أي: لو لم يكن بعضهم لبعض ظهيرا ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾، ولا يضرُّ الإظهار لأنَّ مثله محذوف. ولا تقل: الواو للحال.

و﴿ظَهِيرًا﴾: معينا في الإتيان بمثله، وفيهم العرب العرباء، وأرباب البيان واللسان، نزل ذلك ردًّا عليهم إذ قالوا: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ (سورة

الأنفال: ٣١) كَذَبُوا ! لا طاقة لهم بفصاحته وبلاغته، كما لا طاقة لهم في إخباره بالغيوب، مع أنَّه مخلوق مثلهم.

(أصول الدين) إذ لا دليل عقليٌّ ولا نقليٌّ على ثبوت الكلام النفسيِّ، وأنَّ القرآن هو الكلام النفسيُّ القديم، وأنَّ هذا المتلوَّ ترجمته، وقد جعله الله من جنس كلامهم وقال لهم: «إيتوا بمثله»، فتبيَّن أنَّه حادث كما لا إشكال، ودعوى أنَّه ترجمة عن الكلام النفسيِّ رجم بما لا يعلمون، والقديم لا يقال بإعجازه، والإعجاز إنَّما هو بالحادث.

ويجوز أن تكون الآية تقريرا أيضا لقوله: ﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُ...﴾ على أنَّ معناه لا تجد وكيلا يعوِّضك مثل القرآن لو ذهب، إذ لا يقدر أحد على أن يؤلِّف مثله، لا على معنى أنَّه لا يردُّ نفس الذاهب.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي كرَّرنا [ونوَّعْنَا] والمفعول به محذوف، أي صرفنا البيِّنات والعبر ﴿لِلنَّاسِ﴾ مطلقا أو أهل مَكَّة ﴿فِي هَذَا الْقُرْءَانِ﴾ أو المفعول محذوف منعوت بقوله: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي أنواعا ثابتة من كلِّ معنى شبيه بالغرابة، والوقوع في النفس للمثل، والمراد: المواعظ والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، والاستدلال على ما يحقُّ اعتقاده، وما يحقُّ العمل به، ويبطل الباطل ليتَّعظوا ويذعنوا.

﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ مطلقا أو أكثر أهل مَكَّة ﴿إِلاَّ كُفُورًا﴾ بِالحَقِّ عنادا، إذ لم يقدروا على الإتيان بمثله، وفي «أَبى» معنى النفي فساغ التفريغ كأنَّه قيل: فما فعلوا إلاَّ كفورا.

﴿وَقَالُواْ لَن نُّومِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ اَلاَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ اَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ اَلاَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ اَوْ تُسْقِطَ اَلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا

﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٣﴾

اقتراح المشركين إنزال إحدى آيات ست

ويتقوَّى أنَّ المراد أهل مَكَّة بقوله:

﴿**وَقَالُواْ لَن نُّومِنَ**﴾ لن نذعن بالإيمان ﴿**لَكَ**﴾...الخ لأنَّ قائلي ذلك أهل مَكَّة. والعطف على «أَبى»، وهذا مِمَّا أدَّاهم إليه عجزهم عن الإتيان بمثله ﴿**حَتَّىٰ تُفَجِّرَ لَنَا مِنَ الاَرْضِ**﴾ أرض مَكَّة ﴿**يَنبُوعًا**﴾ عينا ماؤها كثير لا يزول، ولذلك كان اللفظ بوزن يفعول من النبع، كيعبوب من عبَّ الماء إذا كثر وماج.

(سيرة) اجتمع نفر منهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل، وعبد الله بن أبي أميَّة، وأميَّة بن خلف، وغيرهم عند الكعبة، عند غروب الشمس فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: «يا محمَّد إن جئت بهذا الحديث أي القرآن تبتغي به مالا جمعنا لك ما تكون به أغنانا، أو شرفا سوَّدناك علينا، أو ملكا ملَّكناك علينا، أو غلب عليك جنيٌّ سعينا بأموالنا لنزيله بالطبِّ»، فقال ﷺ: **«لا شيء من ذلك، لكن بعثني الله رسولا إليكم وأنزل عليَّ كتابا، وأمرني أن أكون بشيرا ونذيرا، فبلَّغتكم رسالة ربِّي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مِنِّي فهو حظُّكم من الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصبر لأمر الله ﷻ حتَّى يحكم الله بيني وبينكم»**، فقالوا: «يا محمَّد إن كنت صادقا فسل الله يسيِّر عنَّا هذه الجبال المضيِّقة علينا، ويبسط أرضنا ويفجِّر فيها أنهارا كأنهار الشام

والعراق، نحرث ونغرس عليها، ويبعث علينا من آبائنا من مضى، وليكن منهم قصي فإنّه كان شيخا صدوقا فنسألهم، فإن صدّقوك صدّقناك، وإلاّ فسل ربّك أن يبعث ملكا يصدّقك، وأن يجعل لك جنانا وقصورا، وكنوزا من ذهب أو فضّة تعينك على معاشك»، فقال: «**ما بعثت بهذا**» وقالوا: «إن كنت لا تستطيع الخير لك ولا لقومك فاستطع الشرّ وأسقط علينا السماء كِسَفًا، فإنّ ربّك إن شاء فعل، وأخبر ربّك بما قلنا لك وأخبرنا بما أجابك به، ولن نؤمن لك حتّى تأتينا با لله والملائكة قبيلا يشهدون لك».

وقال عبد ا لله بن أبي أميَّة وهو ابن عمّته ﷺ "عاتكة" : «لا أومن لك حتّى تتّخذ سلّما إلى السماء ترقى فيه، ونحن ننظر فتأتي بكتاب ونفر أربعة من الملائكة يشهدون لك، وأيم ا لله لو فعلت لا أجزم بتصديقك»، فانصرف ﷺ حزينا لبعدهم عن الهدى.

فسلاّه ا لله ﷻ في هذه الشروط الستّة بقوله: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّومِنَ لَكَ حَتَّى تُفجِّرَ لَنَا مِنَ الاَرْضِ يَنبُوعًا﴾ ﴿**اَوْ تَكُونَ لَكَ**﴾ خاصّة ﴿**جَنَّةٌ**﴾ بستان تستر أشجاره الأرض تحتها وبينها ﴿**مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ**﴾ في أرض مكّة دوننا، خصّهما لجلالة قدرهما مع أنّهما الموجود في تلك البلاد ﴿**فَتُفَجِّرَ الاَنهَارَ خِلاَلَهَا**﴾ ظرف، أي وسطها ﴿**تَفْجِيرًا**﴾ تنبعها واسعة ومادة «ف.ج.ر» للتوسيع ﴿**اَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ**﴾ إسقاطا ثابتا كإسقاط الذي زعمته أنّه محذور، أو «مَا» مَصدَريَّة والمصدر بمعنى مزعوم أنّه محذور ﴿**عَلَيْنَا كِسَفًا**﴾ يعنون قوله ﷻ : ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الاَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَآءِ﴾ (سورة سبأ: ٩) ﴿وَإِن يَّرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَآءِ سَاقِطًا... ﴾ (سورة الطور: ٤٤) أي لا يقولون سقط عليهم لكفرهم.

(صرف) والكِسَفُ جمع كِسْفة بكسر فإسكان كقطعة وقطع، وزنا ومعنى، وسدرة وسدر، وكِسرة بكسر الكاف وكِسر، ووجهه إسكان السين في قراءة بعضهم أنَّه ورد ذلك، أو للتخفيف، وإنَّما لا يخفَّف المفتوح إذا فتح ما قبله، أمَّا إذا كسر ما قبله كما هنا أو ضمَّ فإنَّه يجوز تخفيفه لثقله بما سبق من كسر أو ضمٍّ، ولو كان الفتح خفيفا، وذلك سماعيٌّ لا قياسيٌّ.

﴿أَوْ تَاتِيَ بِا للهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً﴾ كفيلا أو مقابلا كالعشير بمعنى معاشر، والجليس بمعنى مجالس، بمعنى يقابلوننا، وهذا كقولهم: ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ (سورة الفرقان: ٢١) أي ليخبرنا برسالتك.

(بلاغة وصرف) وأفرد ﴿قَبِيلاً﴾ لأنَّ مرادهم أنَّ ا لله وملائكته ضامنون بمرَّة كضمان الواحد، وعلى قصد كلِّ فرد، فالإفراد لأنَّ معنى الضمان واحد فيهم، كما سمَّى موسى وهارون برسول لاتّحاد دعواهما صلَّى ا لله عليهما، أو أفرد لأنَّه فعيل بمعنى فاعل، ويجوز إفراده لأنه كالمصدر، أو يقدَّر: قبيلا آخر، بعد قوله: ﴿بِا للهِ﴾ فيبقى الكلام في الجمع والإفراد على أوجهه المذكورة، أو يجعل المذكور لـ«ا للهِ» ويقدَّر لـ«الْمَلاَئِكَةِ» هكذا: "قبِيلِينَ" بالجمع، ويجوز أن يكون بالمعنى: جماعة جمعها الضمان، وهم ا لله والملائكة معا، وهذا غير بعيد عن سفههم.

أو جمع قبيلة أي قبائل الملائكة وفِرَقِها، فليس فيه شيء يعود إلى ا لله عَجَلَّ، وهو في ذلك حال على ما رأيت، وعن الزجَّاج أنَّه بمعنى المصدر فهو مفعول مطلق لمحذوف تقابلنا بهم مقابلة.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي من ذهب على أنَّه وضع اسما للذهب، أو الزخرف: الزينة، استعمل في خاصٍّ وهو الذهب تجوُّزا، لأنَّه أفضل، أو باق على جنس الزينة فيفسَّر بالذهب أو به وبغيره.

﴿أَوْ تَرْقَىٰ﴾ بسلَّم ﴿فِي السَّمَآءِ﴾ إحدى السبع كما هو المذكور في القرآن، والمتبادر عند الإطلاق، وقيل: المكان المرتفع وهو خلاف المتبادر، وفيه أنَّ مطلق المرتفع يشارك ويرقى، وإنَّما يطلق على مرتفع إذا دلَّ عليه دليل أو صرَّح بذلك كقوله:

وقد يسمَّى سماء كلُّ مرتفع وإنَّما الفضل حيث الشمس والقمر

والمعنى: تصعد فيها، عدِّي بـ«في» لتضمّن معنى تدخل، ودخولها يستلزم الصعود إليها، أو «في» بمعنى إلى، والصعود إليها يترتَّب عليه دخولها، أو يبقى على ظاهره، ولكن يقدَّر مضاف، أي ترقى في معارج السماء ومع سفههم يبعد أن يقترحوا عليه الصعود بلا معارج، إذ لا يطلب ذلك عاقل.

﴿وَلَن نُّومِنَ﴾ بك ﴿لِرُقِيِّكَ﴾ لأجله أو به وحده بلا نزول لك بكتاب منها كما قال: ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا﴾ مكتوبا بلا نزول لك، فيه: إنَّك رسول الله، وهذا قيد للإطلاق في قولهم: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَآءِ﴾ ﴿نَقْرَؤُهُ﴾ نعت «كِتَابًا».

﴿قُلْ﴾ لهم متعجِّبا، والتعجُّب واقع في قلبه ﷺ، أمره أن ينطق بما يدلُّ عليه، أو قل منزِّها لله عن ذلك ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ يُذكَر هذا اللفظ الكريم تعجُّبا ويذكر تنزيها، ولا ثواب لذاكره متعجِّبا مع إهمال النية، كما يقوله الغضبان بلا قصد لمعنى التنزيه ولا لمعنى الذكر، وكذا ما أشبهه كـ«لا إله إلاَّ الله» والنبيء ﷺ لا يذكره مهملا ولا يأمره الله بقوله مهملا، والراجح أنَّ المراد التنزيه مصحوبا بتعجُّب، أو دون التعجُّب، فإنَّه منزَّه عن الإتيان الحقيق، لأنَّه يلزم منه أن يكون في موضع، ويلزم الحدّ، وأنَّه جسم أو عرض، ومنزَّه أن يتحكَّم عليه أو يشارك في القدرة.

﴿هَلْ كُنتُ إلاَّ بَشَرًا﴾ كسائر البشر، خبر جيء به للتمهيد لا يتعلّق به إنكارهم، كقولك: زيد رجل قريشيٌّ، فرجل تمهيد للنعت كما أنَّ بشر تمهيد لنعته، وهو قوله: ﴿رَسُولاً﴾ كسائر الرسل، لا يأتون أقوامهم إلاَّ بما يظهر ا لله على أيديهم مِمَّا يلائم حال أقوامهم، و لم يجعل ا لله أمر الآيات إليهم ولا إلى ما يقترحه عليهم أقوامهم، مع أنّه لو أزال جبال مَكّة وسائر الستّة الشروط المذكورة لأهلكهم ا لله على سنّته فيمن طلب أمثالهنَّ و لم يؤمن، وقد علم ا لله أنَّهم لا يؤمنون و لم يجر القضاء بإهلاكهم لإتمام أمره ﷺ.

أو «رَسُولاً» خبر ثان، أو خبر و«بَشَرًا» حال لازمة، ولا يلزم أن تكون له حال غير البَشَرِيَّة، وقوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ جواب إجمال، والجواب بالتفصيل هو الإهلاك المذكور في السورة قبل هذا، وفي قوله ﷻ : ﴿وَلَوْ نزَّلْنا عَلَيْكَ... ﴾ (سورة الأنعام: ٧) وقوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَآءِ... ﴾ (سورة الحجر: ١٤).

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ

عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

الردُّ على منكري بشريَّة الرسل والبعث

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ وقوله: ﴿أَنْ يُّومِنُواْ﴾ مفعول ثان، أو يقدَّر بـ«مِنْ»، أو «عَنْ». ﴿إِذْ﴾ متعلّق بـ«مَنَعَ» أو بـ«يُومِنُواْ» ﴿جَـآءَهُمُ الْهُدَىٰٓ﴾ وظهر لهم الحقُّ و لم تبق لهم شبهة ﴿إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ ا للهُ بَشَرًا رَّسُولاً﴾؟ بالاستفهام الإنكاري.

﴿قُل﴾ مجيبا لهم ﴿لَّوْ كَانَ فِي الاَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ﴾ كبني آدم مشيا لا يطيرون ليستمعوا من ملائكة السماء ما يجب علمه ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ إلى الدنيا ولذّاتها، أو ساكنين فيها كسكنى الإنسان في وطنه، بدون أن يُستفزَّ منه، وفي الأرض ملائكة لكن يطيرون ويمشون.

(نحو) و«مَلاَئِكَةٌ» فاعل «كَانَ»، و«يَمْشُونَ» نعت، و«مُطْمَئِنِّينَ» حال من الواو؛ أو «مَلاَئِكَةٌ» اسمه و«فِي الاَرْضِ» خبره، و«يَمْشُونَ» نعت، و«مُطْمَئِنِّينَ» حال من الواو؛ أو الخبر «مُطْمَئِنِّينَ».

﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولاً﴾ يتلقّون منه لتمكّنهم من الاجتماع به والأخذ عنه، وعامّة البشر لا يقدرون على ذلك إلاّ من قوّاه ا لله عليهم، وهم الأنبياء، مع أنّهم لا يرون الملك على صورته إلاّ سيّدنا محمَّدًا ﷺ، فإنّه رآه على صورته مرّتين مرّة في السماء ومرّة في الأرض، قال ا لله ﷻ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ (سورة الأنعام: ٩) أي على صورة رجل إذ لا تقدرون على صورة ملك، فتقولون: هذا رجل لا ملك. وجَعْلُ البشر كلّهم أو المكلّفين على قوّة

النبيئين فيسمعوا من الملك مخلٌّ بالحكمة، **والجنس بالجنس أليق**، ولو جاءهم ملك على صورة البشر ـ كما جاءه ﷺ بصورة أعرابي يسأله فيجيب وغاب، وقال: «**هذا جبريل يعلّمكم أمر دينكم**»[1] ـ لقالوا إنه بشر لا ملك.

(أصول الدين) وهو ﷺ مرسل إلى الجنّ والملائكة، مع أنّه ﷺ ليس من جنسهم، أمَّا الجنُّ فأرسل إليهم بما أرسل إلينا، وأمَّا الملائكة فأرسل إليهم بالإيمان به، وبما شاء الله ﷻ، وقيل لم يبعث إلى الملائكة، و«ملكا» مفعول به و«رسولا» نعت، أو هو مفعول و«ملكا» حال.

﴿**قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**﴾ على أنّي رسول منه إليكم، وشهادته تعالى: إظهار المعجزة على طبق دعواه، فلا يجب أن يكون النبيء ملكا كما زعمتم، وذلك استعارة تبعيَّة، أو ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾: أنّي بلَّغت ما أرسلني به، وأنّكم لم تقبلوا فيعذرني ربِّي، ويعاقبكم.

﴿**إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا**﴾ ببواطنهم ﴿**بَصِيرًا**﴾ بظواهرهم، وهذا من الله ﷻ تسلية لرسول الله ﷺ، وتهديد لهم بالمجازاة على كفرهم، أو داخل في القول.

(نحو) وإذا تعدَّدت الجمل المحكية فالكلُّ مفعول به لا كلُّ واحدة مفعول به، ومحلُّ النصب للكلِّ فلا تهم، إلاَّ إن قدِّر لكلٍّ واحدة قول، ولا حاجة إلى تقديره.

وليس من القول قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَهْدِ اللَّهُ**﴾ إلى الحقّ ﴿**فَهُوَ الْمُهْتَدِي**﴾ إليه أو إلى ما يطلبه لقوله ﷻ: ﴿**وَمَن يُضْلِلْ**﴾ يخلق فيه الضلال باختياره لا

١- الحديث تَقَدَّمَ تخريجه: «الإحسان أن تعبد الله...»، انظر: ج٣، ص٩.

إجبارا ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ يهدونهم إلى طريق الحقِّ أو طريق يوصلهم إلى طريق الحقِّ، أو طريق يوصلهم إلى ما يصلح من الدنيا، أو الدين أو طريق النجاة مِمَّا أوجبه ضلالهم ﴿مِن دُونِهِ﴾ وإلاَّ قال: فلن أجد لكم، إلاَّ إن جعل ﴿وَمَن يُضْلِلْ...﴾ غير داخل. وفي ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ مراعاةُ لفظِ «مَنْ» ومناسبةِ إفراد التوحيد وهو الهدى، وفي «لَهُمْ» مراعاة معناها مناسبةً لتشنيع طرق الضلال كما قال الله ﷻ : ﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ...﴾ (سورة الأنعام: ١٥٣).

(صرف) والآية من مقابلة أفراد جمع بأفراد جمع، بمعنى لن تجد لواحد وليًّا. وزعم بعض أنَّ المعنى: لن تجد لواحد واحد جماعةٍ جماعةً تنفعه، لو وجد لواحد جماعة لم تنفعه، فكيف ينفعه وليٌّ واحد؟ ولا وليَّ لواحد ولا أولياء.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ﴾ على طريق الالتفات من الغيبة في قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ إذا لم يدخل في القول إلى التكلُّم في «نَحْشُرُهُمْ» ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ متعلِّق بحال محذوفة جوازا، أو من ضمير «نَحْشُرُ» أي ساحبين، أو من الهاء أي مسحوبين، أو مفعول مطلق لتضمين «نَحْشُرُ» معنى السحب أو الإمشاء، أي سحبا مِنا عليها، أو إمشاء لهم عليها.

كما قيل لرسول الله ﷺ : كيف يمشون على وجوههم ؟ قال: «**أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة**»[1]، رواه البخاري ومسلم عن أنس، ومثله للترمذي عن أبي هريرة، وروى الترمذي عن أبي هريرة عنه ﷺ : «**يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة**

١- رواه البخاري في كتاب تفسيرالقرآن، باب قوله: ﴿الذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾، رقم ٤٤٨٢. ورواه مسلم في كتاب صفة يوم القيامة والجنَّة والنار، باب يحشر الكافر على وجهه، رقم٢٨٠٦، من حديث أنس.

أصناف، صنف مشاة، وصنف ركبان، وصنف على وجوههم» فقيل: أما إنّهم يلقون بوجوههم كلَّ حدب وشوك ![1]. ولم يجبه تلويحا بأنّهم أهل لذلك التعذيب بالحدب والشوك، أو ردًّا عليه بأنَّ الأرض يومئذ مستوية لا حدب ولا شجرة، والله أعلم، ولعلَّ الاستواء وعدم الشوك في حقِّ غيرهم.

وعن أبي ذرٍّ في هذه الآية عنه ﷺ: **«إنَّ الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاثة أفواج، فوج طاعمين كاسين راكبين، وفوج يمشون ويسعون، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم»**[2] رواه أحمد والنسائي والحاكم. وأخرج أحمد والنسائي والترمذي عن معاوية بن حيدرة عنه ﷺ: **«إنّكم تحشرون رجالا وركبانا وتجرُّون على وجوهكم»**[3] والخطاب للناس عموما فالجرُّ لكفّارهم.

﴿عُمْيًا﴾ من قبورهم **﴿وَبُكْمًا﴾** لا يقدرون على الكلام **﴿وَصُمًّا﴾** لا يسمعون، وإذا وصلوا المحشر أبصروا وتكلّموا وسمعوا كذا قيل، ويشكل عليه قولهم: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ (سورة يس: ٥٢) فهذا تكلُّم، فيجاب بأنّه إذا خرجوا تكلّموا ثمَّ يخرصون من عند القبور إلى المحشر.

١- رواه **الترمذي** في كتاب التفسير (١٨) باب تفسير سورة الإسراء، رقم٣١٤٢. من حديث أبي هريرة.

٢- رواه **أحمد** في مسنده، مسند الأنصار، رقم ٢٠٤٨٣. **والحاكم** في مستدركه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الإسراء، ج٢، ص٣٩٨، رقم٥٢٦/٣٣٨٩. **والنسائي** في كتاب الجنائز (١١٨) رقم ٢٠٨٥، من حديث ابن عبّاس.

٣- رواه **أحمد** في مسنده، كتاب مسند البصريّين، رقم١٩١٧١. **والترمذي** في كتاب التفسير (١٨) تفسير سورة الإسراء، رقم٣١٤٥. من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه.

وكلٌّ من قوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ (سورة الكهف: ٥٣) و﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا﴾ (سورة الفرقان: ٥٣) و﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ (سورة الفرقان: ١٣) و﴿تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ (سورة النحل: ١١١) و﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (سورة الأنعام: ٢٣) و﴿يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ (سورة الإسراء: ٧١) ونحو ذلك إنما هو في المحشر. أو المراد ﴿نَحْشُرُهُمْ عُمْيًا...﴾ من المحشر إلى النار، أو المراد حين يقال لهم: ﴿اخْسَئُواْ فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ (سورة المؤمنون: ١٠٨) وعليه فالحال مقدَّرة.

أو المراد: لا يبصرون ما يسرُّهم ولا يسمعون ما يلذُّهم، ولا يتكلَّمون باعتذار مقبول، كما لم يستبصروا في الحياة بالآيات ولم يستمعوا لها ولم ينطقوا بالصدق.

(بلاغة) والترتيب في الآية لأنَّ آفة السمع أشدُّ من آفة البكم، وآفة اللسان أشدُّ من آفة البصر، وآية سورة البقرة على التنزُّل. وسَّط البكم فيهما لأنَّه لازم للصمم، فلا يفارقه في الذكر. والنصب على الحال عطفا على الحال السابقة، أو على الحال من الضمير في "مسحوبين على وجوههم" المستتر، أو في "كائنين" إن قدِّر كونا عامًّا، فيجب الحذف أي كائنين على وجوههم.

﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ النار لقوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ سكن لهبها، والموضع لا يلتهب بل ناره، أو جهنَّم الموضع، وضمير «خَبَتْ» للنار المدلول عليها بالموضع، أو أسند ذلك للموضع تجوُّزا للحلول. والمراد بـ﴿خَبَتْ﴾: قرب خبوُها لإتيانها على كلِّ لحومهم وعظامهم وأبعاضهم، ولم تنقطع، إذ لا يخفَّف عنهم العذاب تجدَّد أجسامهم قبل خبوِّها، وجملة: ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ مستأنفة، أو حال من هاء «نَحْشُرُهُمْ» لا من هاء «وُجُوهِهِمْ». و«كُلَّ» ظرف لإضافته إلى مصدر نائب عن الزمان إذ «مَا» مَصدَرِيَّة، والمصدر: الخبو، كأنَّه قال: كلُّ خبوها، أي كلَّ وقت خبوها متعلِّق بقوله:

﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ مصدر، أي سعرا؛ أو هو متعدٍّ بنفسه يقال: سعَّر النار يسعِّرها أي شدَّد إيقادها، سَعَرًا وسَعِيرًا ولا يزال عذابهم يزداد شِدَّة؛ أو المراد بالزيادة الإتيان بمثل ما مضى، وذلك كما كانوا يعقّبون كُلَّ تذكير بإنكار؛ أو اسم مفعول، أي نارا مسعورة. ولم يؤنّث لظهور أنَّ المراد المؤنّث. وهو فعيل بمعنى مفعول، وإذا دلَّ على الأنثى دليل قبل: كحيل أي مكحولة، كما تقول: جاءت كحيل.

﴿ذَالِكَ﴾ المذكور من زيد السعير، أو منه ومن الحشر عميًا وبكمًا وصمًّا ﴿جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِئَايَاتِنَا وَقَالُواْ أَ.ذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا اِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ جزاء وفاقا، كما كذّبوا بالإعادة بعد الإفناء جدَّد الله عليهم على الدوام فناء لأبدانهم وعودة، إلاّ أنّه من غير موت. و«بِأَنَّهُمْ» متعلّق بنسبة الكلام بين المبتدأ والخبر وهما «ذَلِكَ جَزَاءُ»، أي حكم عليهم بذلك بتكذيبهم، أو لتكذيبهم، أي جزيناهم بذلك لأنّهم كذّبوا، ومرَّ تعليقه بـ«جَزَاؤُهُمْ» لتضمُّنه معنى جزينا. و«خَلْقًا» مفعول مطلق لـ«مَبْعُوثُونَ» لأنَّ معناه مخلوقون؛ أو «خَلْقًا» بمعنى بَعْثًا، أو يقدَّر مضاف حال، أي ذوي خَلق.

وهل ما يعاد هو الأوَّل ؟ قولان. والمعذَّب في كلِّ حيٍّ الروح لا الجسد، فلا يقال: كيف يعذَّب ما لم يعص.

﴿أَوَلَمْ يَرَواْ﴾ ألم يتفكّروا ولَمْ يروا، أي لم يعلموا ﴿اَنَّ اللهَ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ قَادِرٌ عَلَىآ أَنْ يَّخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي يخلقهم بعد فنائهم مثل خلقهم الأوَّل، كما قال: ﴿خَلْقًا جَدِيدًا﴾، ومثل الشيء لِمَا كان مساويا له في حالته جاز أن يعبَّر به عن الشيء نفسه، كما يقال مثلك لا يفعل كذا، ويراد أنت لا تفعل، وذلك أنسب بالمقام من أن يقال: إنَّ المعنى قادر على أن يخلق ناسا يعبدون الله ولا يعصونه ويوحِّدونه ولا يشركون به وهم مثلكم في الإنسَانِيَّة.

وليس بعثهم أصعب من خلق السماوات والأرضين ولا الإعادة أصعب من البدء وكلُّ شيء عنده سواء لا أصعب ولا أخفَّ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَاتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (سورة إبراهيم: ١٩ وسورة فاطر: ١٦) وقوله ﷻ: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ (سورة التوبة: ٣٩).

(أصول الدين) وعامَّة آيات البعث إمَّا ظاهرة أو صريحة في أنَّه تبعث الأجسام الذاهبة بعينها، وما بقي لم يفن كالمؤذِّنين، وما بقي من أجزاء ما يفنى ينفخ فيه الروح بعينه، ويردُّ إليه ما فني، وجاء في الحديث: «**إنَّ عجم الذنب لا يبلى، ولا يأكله التراب**»[1] فنقول: فيجمع إليه ما ذهب ويحيى الكلُّ، وفسَّر بعضهم ذلك بأنَّ العجم المذكور لا يفنى بالتراب بل يفنيه الله بلا تراب، كما يفنى ملكُ الموت بلا ملك موت، وذكر بعض أنَّ كلَّ ما بقي يفنى أيضا ثمَّ يعاد، وأمَّا فناء الأحياء بالموت فلا يستثنى منه مخلوق.

﴿**وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ**﴾ هو الموت أو القيامة، والجملة معطوفة على قوله: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوا﴾ لأنَّ معناه قدَر، كأنَّه قيل: قدر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم، وليس الاستفهام منسحبا عليه، وأفرد الأجل لأنَّ المعنى: جعل لكلِّ أحد أجلا هو الموت، أو لأنَّ القيامة أمر واحد، ويجوز أن يراد بالأجل مدَّة الحياة كلِّها لكلِّ أحد، ويجوز عطفها على "خلق" أو "قادر" فيتسلَّط عليها الاستفهام، وهذا ظاهر في التفسير بالموت أو بمدَّة الحياة، وأمَّا في التفسير بالقيامة فباعتبار وضوح أمرها بالدَّلائل حتَّى كأنَّها مِمَّا لا ينكرونه، فيقال: أو لم يروا أنَّه جعل لهم يوم القيامة بلا ريب.

---

١ -رواه **البخاري** في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ رقم٤٦٥١.
ورواه **مسلم** في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين، رقم٢٩٥٥.
من حديث أبي هريرة.

﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ﴾ المشركون مع وضوح الحقِّ ﴿إِلاَّ كُفُورًا﴾ جحودا للحقِّ، وهو القدرة على البعث ﴿قُل لَّوَ انتُمْ﴾ فاعل لـ«تَمْلِكُ» أصله: تملكون، دلَّ عليه قوله: ﴿تَمْلِكُونَ﴾ حذف الفعل وانفصل الضمير، وهذا من التوكيد اللفظيِّ مع الاختصار، وكذا باب الاشتغال في النصب، وقدَّر بعض: لو كنتم تملكون، فحذف "كان" وحده وانفصل الضمير، فـ«تَمْلِكُونَ» خبر لـ«كَانَ»، وذلك بناء على أنَّ "لولا" يليها اسم على طريق إيلائه "إنْ" و"إذا" إلاَّ ضرورة.

﴿خَزَآئِنَ﴾ استعارة للموجودات في علم الله من الخير تحقيقيَّة أو تخييليَّة ﴿رَحْمَةِ﴾ نعمة، وهو مجاز مرسل ﴿رَبِّي﴾ من الرزق والمطر وصحَّة البدن، وغير ذلك ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ﴾ استعمل بمعنى بخلتم، فكان لازما أو بقي على تعدِّيه فيقدَّر له مفعول به، أي لأمسكتم ما بأيديكم لا تنفقونه ﴿خَشْيَةَ الاِنفَاقِ﴾ عاقبة الإنفاق وهي نقصه، أو الفقر وفقدها بالكُلِّيَّة، فيقدَّر مضاف كما رأيت، أو الإنفاق كناية عن لازمه وهو نفاد الكلِّ أو النقص.

أو الإنفاق بمعنى الافتقار كالإملاق في الآية الأخرى، يقال: أنفق مال فلان أي ذهب، ونفق ماله ونفق الزاد ذهب. والبخل لازم لكلِّ أحد فإنَّ كلَّ أحد يختار نفسه بماله عن غيره، وإن أعطاه فلأنَّه يرجو عطاء دنيويًّا أو عوض مدح أو نحو هذا، أو عوضا أخرويًّا، والله ﷻ يعطي بدون ذلك.

وسئل بعض أصحابنا الأغنياء فقال لسائله: خذ من زكاتي فأبى، فقال: هل سمعت بغنيٍّ جواد؟ يعني أنَّ الجود إعطاء جميع ما في اليد والملك، وما كان الإنسان غنيًّا إلاَّ لعدم هذا الجود، ولو جاد كذلك كان فقيرا.

﴿وَكَانَ الاِنسَانُ قَتُورًا﴾ ضيِّقا ممسكا بخيلا، لأنَّه محتاج.

(فقه) ويحرم عليه أن يؤخّر قضاء الدين وقد وجد القضاء، وأمكنه سواء كان الدين لخاصٍ أو لعامٍّ، لميِّت أو لحيٍّ، كالأموال التي تجب للفقراء كالزكاة، وما لا يعرف له ربٌّ، وأنواع الكفّارات، فمؤخّرها مع الوجود والإمكان داخل في قوله ﷺ وآتاه الوسيلة: «**مطل الغنيِّ ظلم**»[1]. ومن ذلك تأخير أموال الأوقاف والوصايا مع الوجود والإمكان، ولا سيما تأخير شيء من ذلك كلّه إلى ما بعد الموت مع الوجود والإمكان، والدرهم في الحياة كسبعين بعد الموت، وسبعون بعد الموت كواحد في الحياة، وتأخير الواجب مع الوجود والإمكان من الرغبة والرهبة.

والحجُّ ليس حقًّا لمخلوق فلا بأس بتأخيره، وهو مكروه إلاّ حجًّا أوصي به فيعجِّل الوارث والخليفة به.

(فقه) ووصيَّة الأقرب لا تنفّذ قبل الموت إذ لا يتعيَّن الأقرب إلاّ بعد الموت، وليس في ذكر الوَصِيــَّة في القرآن والحديث إجازة تأخير حقوق الناس إلى الموت، بل يجب إنفاذها، وإلاَّ فلا أقلَّ من الإيصاء بها فذكرها فيهما يشمل الإيصاء بالواجب، وبئس ما فعل من تأخيره، ويشمل الإيصاء بغير الواجب.

ولشحِّ الإنسان كان إنّما ينفق لرجاء عوض، وهكذا حاله ولو كان غنيًّا، ويحتمل أن يراد أنَّ غالب الناس بخلاء لا كلُّهم، قال الكرخي: «إنَّ من الإنسان الأجواد الكرام حتّى إنَّ منهم من يجود بنفسه، وقد قيل: الجود بالنفس أقصى غاية الجود». حصلت لي نسخة منه عتيقة قوبلت على أصله.

١- رواه **البخاري** في كتاب الحوالة، باب إذا أحال على مليٍّ فليس له ردٌّ، رقم٢١٦٦. ورواه **مسلم** في كتاب المساقاة، باب تحريم مطل الغنيِّ، رقم١٥٤٦. من حديث أبي هريرة.

وقيل: الخطاب قبل هذا للقائلين: ﴿لَن نُّومِنَ لَكَ...﴾ وأنَّهم المراد بـ«الإنسان»، ولَمَّا قالوا: ﴿لَن نُّومِنَ لَكَ...﴾ أجابهم الله بأنَّا قد آتينا موسى آيات مساويات لِمَا ذكرتم أو أعظم، ولكن علمنا أن لا تؤمنوا لو أعطيناكم ما طلبتم، كما لم يؤمن قوم موسى كما قال:

﴿وَلَقَدَ -اتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَّسْتَفِزَّهُم مِّنَ الَارْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ اَسْكُنُواْ الَارْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلَ -امِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُومِنُوٓاْ إِنَّ الذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلَاذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلَاذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾.

الآيات التسع لموسى عليه السلام وصفة إنزال القرآن

﴿وَلَقَدَ - اتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَاتٍۭ بَيِّنَاتٍ﴾ اليد والعصا والطوفان والجراد والقمَّل ـ وهو سوس ـ والضفادع والدم والطمس على أموالهم بمسخها حجارة والسنين ونقص الثمرات؛ أو العصا واليد والجراد والقمَّل والضفادع والدم وانفجار الماء من الحجر وانفلاق البحر ونتق الجبل على بني إسرائيل؛ أو الطوفان والسنون ونقص الثمرات مكان الثلاثة الأخيرة؛ أو يجمع الكلُّ لأنَّ ذكر العدد لا يفيد الحصر.

ويبحث بأنَّ الحجر والطور ليسا من الآيات المذهوب بها إلى فرعون، وفلق البحر ليس على التحدِّي، قلت: كلُّ ما علم به أو شهده فهو آية جيء بها له، وذكروا منها موت البهائم، وبردا ونارًا أهلكا كلَّ ما مرَّا به من نبات وحيوان، وظلمة وموتا عمَّ كبار الآدميِّين وجميع الحيوان.

وروى الترمذي والنسائي وابن ماجة عن عبد الله بن سلمة عن صفوان بن عسال أنَّ يهوديا سأل النبيء ﷺ عن الآيات، فقال: «**ألاَّ تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلاَّ بالحقِّ، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تقذفوا محصنة، ولا تفرُّوا من الزحف، وعليكم خَاصَّة اليهود لا تعدوا في السبت**»[1] فقبَّل اليهودي يده ورجله. وفي رواية عنه أنَّه جاءه يهوديان اتَّفقَا أن يسألاه، فسألاه فأخبرهما بذلك فأسلما فقبَّلا يديه ورجليه.

وهؤلاء عشر لا تسع فيجوز أن تفسَّر الآية بالتسع المذكورة في هذا، والاعتداء في السبت خاصٌّ بهم قبل بعث رسول الله ﷺ، فهنَّ آيات تعمُّ كلَّ أمَّة، وبعد بعثه ﷺ يجوز لهم الصيد في السبت من البحر كغيرهم. وكُسِرَ «بَيِّنَاتٍ» جرَّ على أنَّه نعت «ءَايَاتٍ»، أو نصب على أنَّه نعت «تِسْعَ».

﴿فَسْئَلْ﴾ يا محمَّد ﴿بَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾ عن الآيات العَامَّة غير المنسوخة الموحاة إلى موسى، أو سلهم عن موسى فيما جرى بينه وبين فرعون وقومه سؤال تقرير ﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾ أي إذ جاء موسى آباءهم بالوحي من الله، والهاء لبني إسرائيل على حذف مضاف كما رأيت، وذلك تسلية لرسول الله ﷺ،

١- رواه **الترمذي** في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل، رقم٣١٤٤. ورواه **النسائي** في كتاب تحريم الدم، باب السحر، رقم٤٠١٠. من حديث صفوان بن عسال.

وإعلام بأنّه لو أعطي ما اقترحوا لم يؤمنوا كما لم يؤمن قوم فرعون بآيات موسى، وزيادة في قُوَّة يقينه بتتابع الآيات.

والمراد بالسؤال كون بني إسرائيل من أهل علمه لا أن يخبروه، و«إذْ» متعلّق بـ«ءَاتَيْنَا»، واعترض بما بينهما للمسارعة إلى الأمر بالسؤال لتبكيت المشركين، ولِمَا مرَّ من النكت، أو متعلّق بـ«يخبروا» محذوفا مجزوما في جواب الأمر، أي سلهم يخبروك إذ جاءهم كذا قيل، [قلت:] وهو غلط لأنَّ مجيء موسى في زمانه والإخبار في زمان رسول الله ﷺ؛ أو منصوب بـ«اذكر» مستأنفا أو بلفظ الحادث، أي واذكر الحادث إذ جاءهم.

ويجوز أن يكون «اسئَل» على حذف قول معطوف بالفاء على «ءَاتَيْنَا»، أي فقلنا لموسى: سل بني إسرائيل، ويدلُّ لهذا قراءة ابن عباس «فَسَالَ» بصيغة الماضي، فإنَّ ضميره لموسى إلاَّ أنّه قلب الهمزة ألفا وهو لغة، وعلى هذا «سَلْ» بمعنى اطلب فرعون أن يعطيك بني إسرائيل، أي اسأل فرعون بني إسرائيل وكانوا تحته كالأسرى، أو بمعنى الاستفهام أي سل يا موسى بني إسرائيل عن دينهم، و«إِذْ» متعلّق بـ«قلنا» المقدَّر لا بـ«سَلْ» لأنّه قال: ﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾ ولم يقل: إذ جئتهم فقال لك، ويتعلّق بـ«سَالَ» في قراءة صيغة الماضي.

﴿**فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا**﴾ فسد عقلك بسحر أحد لك، أو بما تأتينا به من السحر، فصرت تأتينا بما لا يليق، أو بمعنى ساحر كميمون ومشئوم، على أنَّ مفعولا يجيء من المتعدِّي للنسب. سمَّاه ساحرا إذ رأى منه العجائب كالعصا. وعطف «قَالَ» على «جَاءَ».

﴿**قَالَ**﴾ موسى عليه السلام ﴿**لَقَدْ عَلِمْتَ**﴾ يا فرعون ﴿**مَآ أَنزَلَ هَؤُلَآءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ**﴾ هؤلاء الآيات التسع أو العشر ﴿**بَصَآئِرَ**﴾ آيات يعتبر

بها، نصَّت الآيات على أنَّ فرعون معتقد في نفسه رسالة موسى ﷺ، وأنَّ الآيات من الله، ولكنَّه أنكر عنادا بلسانه.

ولعلَّه لا يصحُّ عن عليٍّ إيجاب ضمِّ تاء «عَلِمْتَ» كما هو قراءة، وإنَّ فرعون غير عالم بذلك.

(نحو) و«بَصَائِرَ» حال من «هَؤُلَاءِ» عند من جوَّز أن يعمل «مَا» قبلُ إلاَّ فيما بعدها ولو لم يكن مستثنى أو تابعا له، نحو: ما ضربت إلاَّ عمرا لعصيانه، والمانعون يقدِّرون محذوفا، أي ضربته لعصيانه، فيقدَّر هنا: أنزلها بصائر، ولو فرضنا أنَّه لم يعلم لصحَّ أن ينزل منزلة من علم.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أوقن أنَّك مثبور، أو عبَّر بالظنِّ لمجانسة قول فرعون: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ وكلا الظنَّين جزم، لأنَّ فرعون أيضا جازم لفظا بأنَّ موسى كاذب، وعالم بأنَّه صادق.

(صرف) و﴿مَثْبُورًا﴾: مُهلكا ومصروفا عن الخير، يقال: ما ثبرك عن هذا؟ أي ما صرفك، وثبر يتعدَّى كهذا، ويلزم بمعنى هلك، وقيل: «مَثْبُورًا» مفعولا للنسب من اللازم، كما يأتي من المتعدِّي، أي ذا هلاك أو ذا نقصان عقل أو ذا خلاف للحقِّ، والصحيح ما ذكرته أوَّلاً.

﴿فَأَرَادَ﴾ أي فرعون ﴿أَنْ يَّسْتَفِزَّهُم﴾ أي موسى وبني إسرائيل أو بني إسرائيل واستفزازهم استفزاز له ﴿مِّنَ الاَرْضِ﴾ أرض مصر، بالإخراج أو بالقتل لهم كلِّهم، بل القتل ولو بلا دفن إخراج من أرضها، لأنَّ الميِّت بمنزلة المعدوم إذ لا تتوقَّع منه مضرَّة ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ, جَمِيعًا﴾ في بحر القلزم جزاء وفاقا لإرادته، فإنَّ خذلانه باتِّباع موسى إلى جهة البحر وإغراقه فيه استفزاز له

ولقومه، وإخراج من أرض مصر، إذ لو لم يغرقوا ورجعوا إلى مصر لكانوا غير مخرجين من أرضها الإخراج المراد.

﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد شانه، وهو إغراقه وإغراق قومه، أو من بعد إغراقه، فإنَّ إغراقه إغراق للكلِّ لو لم يغرقوا، لأنه ليس فيهم من يعاند عناده ﴿لِبَنِي إِسْرَآئِيلَ اسْكُنُواْ الاَرْضَ﴾ أرض مصر والشام، فبعض ذهب إلى الشام وبعض بقي في أرض مصر، أو اسكنوا الأرض إباحة وامتنانا لا إيجابا، فمن شاء ذهب إلى الشام وسكنها، وقيل: لم يدخل موسى وقومه أرض مصر بعد فالمراد أرض الشام، أو مطلق الأرض اختيارا منه لا وجوبا ولو شاء لسكنها بعد.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الاَخِرَةِ﴾ أي قيام الساعة، وكأنَّهُ قيل: وعد الدار الآخرة، أو الحياة الآخرة، أو الساعة الآخرة، كما ذكرت في مواضع، أو الكرَّة الآخرة ﴿جِئْنَا بِكُمْ﴾ الباء للتعدية، أي جئناكم، أي صيَّرْناكم جَائين أي حاضرين ﴿لَفِيفًا﴾ حال من الكاف، بمعنى مختلطين، ثمَّ نميِّز سعداءكم وأشقياءكم، سمِّيت الجماعات لفيفا لأنه لفَّ بعضها ببعض، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه، وقيل: اسم مصدر يقال لفَّهُ لفًّا ولفيفا.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ الباء للملابسة والتقديم للحصر، وهو حال من الهاء أو من «نا» أو متعلِّق بـ«أنزل» ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ هو كالأوَّل، والحقُّ واحد لأنَّه معرفة أعيدت، وهو للأوَّل كالمطاوع، نحو وصلته فاتَّصلَ، كأنَّهُ قيل: توجَّهَتْ إِرَادَتُنَا لِإِنزَالِهِ فنزل، أو أردنا إنزاله فنزل، وذلك أنَّه قد يريد أحد الشيء ويشرع له ولا يكون ويعالجه فلا يتَّفق له، تعالى الله عن المعالجة، فنفى الله ذلك بقوله: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾. أو المعنى: ولم يتغيَّر.

والهاء وضمير «نَزَلَ» عائدان إلى القرآن في قولـه: ﴿بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْءَانِ﴾ ولـو بَعُدَ، كما جرى في كلام العرب ذكر الشيء واستطراد أشياء بعده ثمَّ العود إليـه، أو إلى القرآن المعلوم كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (سورة القدر: ١) ولو لم يجر له ذكـر قريبـا. ويقويـه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بالجنَّة ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين بالنار، عليك التبليغ فقط، وما عليك من عنادهم واقتراحهم شيء.

أو المعنى: مـا أنزلنـاه إلاَّ بالحكمـة المقتضيـة لإنزالـه، ومـا نـزل إلاَّ بالحكمـة والهداية إلى كلِّ خير، والمعاني التي شملها، فالحقَّـان متغـايران، كمـا إذا قلنـا: مـا أنزلناه من السماء إلاَّ محفوظا بالرصد مـن الملائكـة، ومـا نـزل علـى الرسـول إلاَّ محفوظا بهم من تخليط الشياطين، وكما إذا فسَّرنا الحقَّ الأوَّل بالتوحيد، والثـاني بالوعد والوعيد، والأمر والنهي.

وأجيز عـود الهـاء وضمـير «نَـزَلَ» إلى موسـى كقولـه ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَـا الْحَدِيدَ﴾ (سورة الحديد: ٢٥) أو إلى كتابه، أو يقـدَّر مضـاف أي أنزلنـا كتابـه، أو إلى الوعد، أو إلى الآيات التسع، وعلى هذا أفـرد الضمـير مذكَّـرا لأنَّهـنَّ بمعنـى الدليل، والعود إلى القرآن أولى، فيعلَّق الكلام إلى قوله: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَـتِ...﴾ أو إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾.

﴿وَقُرْءَانًا﴾ مفعول به لمحذوف حال معطوف علـى «مُبَشِّرًا»، أي وقارئـا قرآنا، أو تاليا قرآنا، أو ذا قرآن، أو مفعول لـ«آتيناك» محذوفا كما قال: ﴿وَلَقَـدَ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ﴾ أو منصوب على الاشتغال ولو كان نكرة لأنَّ لهـا مُسوِّغا وهـو التعظيم، أي وفرقنا قرآنا ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ وعلى الحالية والمفعوليَّة بـ«آتينـاك» محذوفـا يكون «فَرَقْنَاهُ» نعتا لـ«قُرْءَانًا». ومعنى ﴿فَرَقْنَاهُ﴾: أنزلناه شيئا فشيئا، أو شيئـا ثـمَّ شيئا، كقولـه تعـالى: ﴿كَذَٰلِـكَ﴾، أي شـيئا بعـد شـيء ﴿لِنُثَبِّـتَ بِـهِ فُؤَادَكَ﴾ (سورة الفرقان: ٣٢) ويدلُّ له قوله ﷻ:

﴿لِتَقْرَأَهُ, عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ على مهل ليسهل حفظه وفهم معناه، ولأنَّ نزوله كثيرا ما يكون بحسب الحوادث كالسؤال، وكبعض السآمة من الناس كما قال: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ شيئا بعد شيء على حسب الحوادث والدواعي لا إنزال بمرَّة، كالتوراة وسائر كتب الله فإنَّها أنزلت مكتوبة بمرَّة. ولو فسَّرنا ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ بقولنا: فرقنا الحقَّ والباطل لم يناسبه قوله ﴿لِتَقْرَأَهُ,...﴾ مناسبة ظاهرة، مع أنَّه يحتاج اللفظ إلى تقدير الجارِّ، أي فرقنا فيه مع أنَّه ليس من محالِّ تقديره.

فتحصَّلنا على أنَّ تنزيله شيئا بعد شيء لِعلَّة أن يُفهم، وأن يسهل حفظه، وأن يوافق حدوثه حدوث الدواعي، ردًّا على اليهود [القائلين:] هلاَّ نزل بمرَّة كالتوراة والزبور، إذ نزل في عشرين سنة، أو في ثلاث وعشرين، قيل أو في خمس وعشرين على الخلاف في سنِّه ﷺ.

وكان ينزل خمس آيات خمس آيات، كما قال عمر ﵁: «تعلَّموا القرآن خمس آيات خمس آيات، فإنَّ جبريل كان ينزل به خمسا خمسا»[1] رواه البيهقي، قال أبو نصرة: «كان أبو سعيد الخدري يعلِّمنا القرآن خمس آيات بالغداة، وخمس آيات بالعشي، ويخبر أنَّ جبريل عليه السلام كان ينزل به خمسا خمسا»، قال ابن عساكر: قلنا لعلَّ هذا في الغالب وحين كان النزول لغير حادث حدث، وقد صحَّ أنَّه ينزل أقلَّ وأكثر.

و«عَلَى» في الموضعين متعلِّق بـ«تَقْرَأَ» لتخالُف معناه، لأنَّ الأوَّل للاستعلاء المجازي والثاني بمعنى في، أو يعلَّق الثاني بمحذوف حال من ضمير «تَقْرَأَ».

﴿قُلْ﴾ يا محمَّد لهؤلاء المعاندين المقترحين إنكارا عليهم وتهديدا ﴿ءَامِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُومِنُواْ﴾ أمر ونهي للتهديد، وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ وأمر

١- رواه أبو نعيم في الحلية: ج٩، ص٣١٩. من حديث ابن عمر.

بالإعراض عنهم، كأنّه قيل: دعهم ولا تبال بهم، فإنّ إيمانهم به وعدمه لا يزيده ولا ينقصه.

﴿إِنَّ الذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ﴾ قبل القرآن قبل نزوله، وهم مؤمنوا أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وكعب الأحبار مِمَّن عرف حقيقة الوحي وأمارات النبوءة، وتمكّن من الفرق بين الحقّ والباطل، أو رأى نعتك في الكتب السابقة ولم يغلبه هواه عليك، وكعب الأحبار ﷺ أدرك النبيء ﷺ وآمن به، إلاّ أنّه لم يره، فهو من التابعين لا من الصحابة، وهذا تعليلُ ﴿ءامِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُومِنُواْ﴾ كأنّه قيل: لا أبالي بكم لأنّه قد آمن به من هو خير منكم، وهو من مقول القول، أو مستأنف من الله ﷻ تسلية له ﷺ بأن لا يبالي بكفر السفهاء لإيمان العلماء المحقّقين فهم عضد لك.

﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ ضمير «يُتْلَى» للقرآن ﴿يَخِرُّونَ﴾ يسرعون بالسجود كسقوط الحجر لا يملك الوقوف في الجوّ، تعظيما لأمر الله وشكرا لإنجاز الله ﷻ، وبعدا لفترة ما رغبوا فيه، واشتاقوا إليه من الحقّ ووصف محمّد في الكتب قبله وكتابه ﴿لِلاَذْقَانِ﴾ على الأذقان، أو بالأذقان، متعلّق بقوله: ﴿سُجَّدًا﴾ تعظيما وشكرا لإظهار الحقّ بعد خفائه.

وقيل: المراد الانقياد لا سجود على الأرض، ويجوز تعليقه بـ«يَخِرُّونَ» كما علّق به الذي بعده. واختير لفظ اللام تلويحا إلى اختصاص الذقن بالقرب من الأرض قبل سائر الوجه، فإنّ السجود بالرجلين فالركبتين فاليدين فالذقن والأنف فالجبهة، والرفع بالجبهة فالأنف فاليدين فالركبتين **ولا يضرُّ غير ذلك**، وليس اختصاص باللام المذكور في النحو حصرا بيانيًّا كإلاّ وإنّما. والمراد: على وجوههم، وعبَّر عن الوجه بجزئه، وهو الذقن على أنّه من الوجه، أو بمجاوره على أنّه ليس منه، وهو مجتمع اللحيين أسفل الوجه.

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ عن النقائص كإخلاف الوعد بمحمَّد وكتابه، وإقامة الدين به، ويدلُّ لقصد الوعد قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾ ببعث محَمَّد ﷺ وكتابه ﴿لَمَفْعُولاً﴾ لا يتخلَّف. و«إِنْ» مخفَّفة، واللام للفرق.

(أصول الدين) ومن وصفه بصفة الخلق القول بأنَّ صفاته غيره. قال ابن العربي: نحن لا نقول بالزائد ولا يخالف كشفنا بأنَّ الصفات الإلهيَّة عينه لا غير، فإنَّ من يقول إنَّها غيره واقع في قياس الحقِّ تعالى على الخلق في زيادة الصفة على الذات، فما زاد هذا على الذين قالوا: إنَّ الله فقير إلاَّ بحسن العبارة فقط، فإنَّه جعل كمال الذات لا يكون إلاَّ بغيرها، فنعوذ بالله أن نكون من الجاهلين، قاله في الباب السبعين بعد أربعمائة من "الفتوحات المكّيَّة". وقال: إنَّ القول بأنَّها غيره غلط وإنَّه جهل عظيم، وقال: إنَّ جماعة من المتكلّمين قالوا بما قلنا: «إنَّها عينه».

وابن العربي هذا رجل مُروَّع، وذكر عن نفسه أنَّ له إلهاما من الله، ولا يقول إلاَّ عن كشف.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ﴾ يميلون بلا سجود لشدَّة البكاء، متعلّق بمحذوف، وقوله: ﴿يَبْكُونَ﴾ من وَعْظِ القرآن، ويجوز تقدير «سجَّدا» كالأوَّل فيكون كإعراب الأوَّل، وكرَّره لزيادة ذكر البكاء، أو الأوَّل حال قراءة القرآن أو سماعه، والثاني في سائر أحوالهم، أو الأوَّل للشكر على إنجاز الوعد، والثاني لتأثير وعظ القرآن فيهم.

وجاء في الحديث: «**إنَّه ما من عمل إلاَّ له وزن، إلاَّ الدمعة فتطفئ بحورا من نار، وتحرِّم جسدها على النار**»[1] وإن فرقت على الخدِّ لم يرهق وجهه قتر

١- أورده المنذري في الترغيب والترهيب، كتاب التوبة والزهد، باب الترغيب في البكاء من =

ولا ذلّه، وإنّه «**عينان لا تمسّهما النار: عين بكت من خشية الله تعالى، وعين باتت تحرس في سبيل الله تعالى**»[١] و«**إنّه لا يلج النار رجل بكى خشية الله تعالى حتّى يعود اللبن في الضرع**»[٢] وعن عبد الأعلى التيمي: من أوتي من العلم ما لا يُبكيه فقد أوتي من العلم ما لا ينفعه، لأنَّ الله تعالى وصف أهل العلم فقال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾.

﴿**وَيَزِيدُهُمْ**﴾ يزيدهم القرآن من الإسناد للسبب ﴿**خُشُوعًا**﴾ لزيادة علم به ويقين بالله، ويجوز أن يكون السجود عبارة عن كمال الانقياد على طريق الاستعارة التمثيليّة.

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾

دعاء الله بالأسماء الحسنى

﴿**قُلْ**﴾ يا محمّد للمشركين ﴿**ادْعُواْ**﴾ سمُّوا واذكروا، بنداء ولا نداء ﴿**اللّهَ**﴾ لفظ الجلالة ﴿**أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـٰنَ**﴾ لفظ الرحمن ﴿**أَيًّا مَّا تَدْعُواْ**﴾ أيًّا

خشية الله، رقم ٥٠٣٦. من حديث مسلم بن يسار.

١- رواه الترمذي في كتاب فضائل الجهاد باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله رقم١٦٣٩. من حديث ابن عبّاس.

٢- رواه الترمذي في كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الغبار في سبيل الله، رقم١٦٣٣. ورواه النسائي في باب فضل من عمل في سبيل الله، رقم٣١٠٨. من حديث أبي سعيد الخدري.

منهما تذكروا ﴿فَلَهُ﴾ فلِلْمَعْنِيِّ بهما [وهو الله تعالى]، أي أصبتم وأحسنتم، وناب عنه التعليل وهو قوله: ﴿فَلَهُ﴾ ﴿الاَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي أيًّا ما تذكروا أصبتم لأنَّ له الأسماء الحسنى، ومنها الاسمان، فالضمير في «لَهُ» عائد إلى واجب الوجود وهو الله، لا لقوله: ﴿اللهَ﴾ ولا لقوله: ﴿الرَّحْمَٰنَ﴾ لأنَّ المراد بهما اللفظ؛ أو عائد إلى أحدهما على طريق الاستخدام. و«أَوْ» للإباحة لحصول الفضيلة في الجمع بين ذكر الله أو لفظ الرحمن، وإذا لم تحصل الفضيلة في الجمع بين شيئين كانت للتخيير. و«ما» صلة لتأكيد عموم «أَيًّا».

(سبب النزول) قيل سمع المشركون رسول الله ﷺ يقول: «يا الله يا رحمن» فقالوا: ينهانا محمَّد أن نعبد إلهين وهو يدعو إلها آخر مع الله، فنزلت الآية. ويروى عن ابن عَبَّاس: سجد رسول الله ﷺ ذات ليلة فجعل يقول في سجوده: «يا الله يا رحمن» فقال أبو جهل: إنَّ محمَّدًا ينهانا عن الهتنا وهو يدعو إلهين ! فأنزل الله هذه الآية. وقيل: إنَّ اليهود قالوا: لا يكثر محمَّد ذكر الرحمن وهو كثير في التوراة، أي لمراعاة ما خلق الله تعالى في موسى عليه السلام من الشدَّة، فنزلت الآية.

[قلت:] وقدَّم لفظ الجلالة لأنَّه أعظم. ومن قال: «لا إله إلاَّ الرحمن محمَّد رسول الله» لم يكفه في التوحيد وإنَّما يكفي: «لا إله إلاَّ الله محمَّد رسول الله». وحسن الأسماء الحسنى: دلالتها على محاسن المعاني وصفات الجلال، والإحسان إلى الخلق. و«الْحُسْنَى»: اسم تفضيل، كما أنَّ الأحسن اسم تفضيل.

وعن ابن عَبَّاس: قراءةُ ﴿قُلُ ادْعُواْ اللهَ...﴾الآية حِفْظٌ لِلمَنْزِلِ، قرأها رجل من المهاجرين حين اضطجع فجمع سارق ما في بيته فوجد الباب مغلقا، فوضع

المتاع فرآه مفتوحا فحمله، فعل ذلك ثلاثا فضحك الرجل وقال: بيتي محصَّن[1]، قال ﷺ : «**ما من مسلم يقرأها عند منامه بين شياطين وهوام فتضرّه**».

﴿**وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ**﴾ بقراءة صلاتك، فحذف المضاف، أو سمَّاها باسم محلّها، أو الجزء باسم الكلّ ﴿**وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا**﴾ في الصلاة وغيرها وكذا غيرها، ففي الجهر يسمع المشركون، فيسبُّون القرآن ومنزّله ومن يقرأه، ويصفّقون ويرفعون أصواتهم للتخليط عليهم، ﴿وَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لِهَذَا القُرْءَانِ وَالْغَوْاْ فِيهِ...﴾ (سورة فصلت: ٢٦) . في الخفت به ـ أي الأسرار، أعني ضعف الصوت ـ يفوت سماع الحاضرين معك في الصلاة أو غيرها من المسلمين.

﴿**وَابْتَغِ**﴾ اطلب واقصد ﴿**بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً**﴾ بين المذكورين من الجهر والخفاء، والتوسُّط محمود. روى الترمذي أنَّ أبا بكر يخفت ويقول: «أناجي ربِّي وقد علم حاجتي»، وعمر يجهر ويقول: «أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان»، ويروى أنّهما كانا كذلك، وسألهما ﷺ فقالا ما ذكر. وبلال يقرأ من هذه السورة ومن هذه، وسأله فقال: أخلط طيِّبا بطيِّب، فقال: إذا دخلت سورة فأتمّها، فنزلت الآية، وأمر الصدِّيق يبعض الرفع، وعمر يبعض الخفض.

وقيل: لا تجهر بصلاتك كلّها ولا تخافت بها كلّها بل خافت بها نهارا واجهر بها ليلا، وهذا لا يناسبه كلَّ المناسبة قوله: ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ وأيضا الفجر نهار ولا يخافت فيه.

١- أورده **السيوطي في** الدر: ج٤، ص٢٢٧. **والألوسي** في تفسيره: ج٥، ص١٩٥. وقالا: أخرجه البيهقي في الدلائل من طريق نهشل بن سعيد عن الضحَّاك عن ابن عَبَّاس. بدون ذكر الحديث.

(فقه) ونقول: يخافت في الثالثة من المغرب، والأخيرتين من العشاء، ولا يجهر في ركعة فيها الفاتحة وحدها إلاَّ بالتكبير، والإمام يجهر بـ«سمع الله لمن حمده» في ذلك ليؤخذ عنه، والمأموم يسرُّه في ذلك، وعن ابن عبَّاس: لا تخفض حتَّى لا تسمع أذنيك، وعن أبي هريرة: لا تسمع أذنيك في صلاة السرِّ، واسمعهما في صلاة الجهر، والإمام يُسمع من يصلِّي به ما قدر، ولا نسخ في الآية.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ, شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ أمره الله ﷻ بالحمد له لتنزُّهه عن صفات النقص، وانفراده بالملك العام وإنعامه.

والملك: الخلق والرزق والإبقاء والإحياء والإماتة، والزيادة والنقص، والعبادة وكلُّ موجود سواه فهو ملكه، وليس معنى الملك كونه إلها إلاَّ أن يراد لازم الأُلوهيَّة، وهو أنَّه يملك كلَّ شيء من الأجسام والأعراض، ولا ولد له كما زعم اليهود والنصارى: في عزير وعيسى وبعض العرب، والنصارى في الملائكة، ولا شريك له كما تقول الثنوية وقريش وغيرهم.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ لا وليَّ له يدفع عنه الذلَّ، لأنَّه عزيز كلَّ العزِّ، بل لا ذلَّ له فضلا عن أن يكون له أحد يلي أمره من أجل الذلِّ، ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ عن كلِّ نقص، وكلُّ كامل يكون ناقصا بالنسبة إليه.

(أصول الدين) وكلُّ معصية وقعت فبإرادته وعلمه وخلقه لها، وإلاَّ لزم النقصان بأن وقع في ملكه ما لم يرده. اِلْتقى عبد الجَبَّار المعتزلي الهمذاني مع القاضي أبي إسحاق الإسفراييني، فقال: سبحان من تنزَّه عن الفحشاء، يعيب عليه اعتقاده أنَّ الله خلق المعصية، فأجابه الإسفراييني فقال: سبحان من لا

يجري في ملكه إلاّ ما يشاء، ووقع مثل هذا لأبي عبيدة مسلم رحمه الله مع بعض المعتزلة أيضا[١].

وكان ﷺ إذا أفصح الغلام من بني عبد المطّلب علّمه هذه الآية. وعن عمر ﵁ : «إذا قال العبد: "الله أكبر"، فهو خير له من الدنيا وما فيها». ويقال: افتتحت التوراة بفاتحة سورة الأنعام واختتمت بخاتمة هذه السورة. وفي مسند أحمد عن معاذ الجهني عن رسول الله ﷺ أنّه كان يقول: «آية العزّ: ﴿**الْحَمْدُ لِلهِ الذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ, شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا**﴾»[٢].

ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم
وصلّى الله على سيّدنا محمّد وءاله وصحبه

١- يذكر الدرجيني في الطبقات أنّ المعتزلي هو واصل بن عطاء، ج٢، ص٢٤٦.

٢ - رواه أحمد في مسنده، كتاب مسند المكيّين، رقم١٥٨١، من حديث معاذ الجهني.

تفسير سورة الكهف وآياتها ١١٠

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)﴾

مهامُّ القرآن العظيم والثناء على الله بإنزاله

﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ إخبار بأنَّ الله أهل للحمد، أو المراد: قل على طريق الإنشاء: ﴿الْحَمْدُ للهِ...﴾ أو المراد ذلك كلُّه، جمعا بين الحقيقة والمجاز، وهو ضعيف من جهة هذا الجمع، وفيه زيادة الفائدة، والأوَّلان أولى.

رتَّب الحمد في آخر السورة قبل هذه على الفضائل، لأنَّه الذي يستحقُّه، لكماله قدرة وسلطانا ونزاهة، ورتَّبه أوَّل هذه السورة على الفواضل، وهو الإنعام بإنزال القرآن الذي تعلَّقت به منافع الدنيا والآخرة كلُّها، وفي تسميته بـ«عَبْدِ» وإضافته لله تشريف له ﷺ، وإيذان بأنَّ شأن الرسول أن يكون عبدا لمرسله لا إلها كما زعمت النصارى في عيسى عليه السلام. و«الكِتَاب»: القرآن كلُّه ما أنزل وما سينزل، لأنَّه كحبل ممتدٍّ، أو غلَّب النازل على ما سينزل.

﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ, عِوَجًا﴾ مَّا من العوج، باختلال في اللفظ وتناف في المعنى وانحراف عن الحقِّ، وهو في المعاني كاللفظ والعرض والدِّين، [والعوج] بالكسر كالعَوج بالفتح في الجسم كالحائط والعود كذا قيل، واعترض بقوله تعالى: ﴿لَاَ تَرَى فِيهَا عِوَجًا﴾ (سورة طه: ١٠٨) بالكسر مع أنَّ الأرض جسم، وأجيب بأنَّ المراد هنا ما خفي من الاعوجاج حتَّى احتاج إلى مقياس الحقِّ بما هو عقليٌّ، وردَّ بأنَّ رؤية البصر المجرَّدة تنافي هذا، فقيل: المكسور أعمُّ من المفتوح؛ وقيل: لا فرق بينهما. ﴿قَيِّمًا﴾ مفعول لمحذوف، أي بل جعله قيِّما، أو حال من الهاء، فيكون ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ, عِوَجًا﴾ معطوفا على جملة الصلة، أو ﴿قيِّمًا﴾ حال من «الْكِتَابَ» على أنَّ الواو في ﴿وَلَمْ يَجْعَل﴾ للحال لا عاطفة لِئَلاَّ يلزم الفصل بين أجزاء المعطوف عليه ـ ومنها الحال ـ بأجنبي.

قال بعض المتقدِّمين: أصل الكلام: أنزل على عبده الكتاب قيِّما و لم يجعل له عوجا، وكان حفص يقف وقفة خفيفة على ﴿عِوَجًا﴾ فترحَّم عليه بعض لذلك، لأنَّها لدفع أنَّ «قَيِّمًا» نعت لـ«عِوَجًا».

ومعنى ﴿قَيِّمًا﴾: مستقيم معتدل، لا تشديد فيه ولا ترخيص كلِّي، أو قيِّم بمصالح العباد الدِّينيَّة وَالدُّنيويَّة ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (سورة الأنعام: ٣٨) كقائم الأطفال أو المساجد أو الأموال، فالقرآن كامل في ذاته مكمِّل لغيره، أو قائم على كتب ا لله المتقدِّمة بالشهادة على ما زيد أو نقص فيها أو غيِّر أو حرِّف؛ أو خاليا عن الرذائل حاليا بالفضائل.

وعلى تفسيره بالاستقامة والاعتدال يكون كالتكوير تأكيدا على عادة كلام العرب، فإنَّ ما لا عوج فيه معتدل مثل قوله تعالى: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ (سورة النساء: ٢٥) فإنَّ المحصنات غير مسافحات.

﴿لِّيُنذِرَ﴾ متعلّق بـ«أنزلَ». واختلف في أفعال الله هل تعلّل بالأغراض؟ والمانع لذلك يجعل اللام للعاقبة وهو المذهب. ومفعوله الأوّل محذوف للعلم به، أي لينذر الله أو عبدُه أو الكتابُ الكفّار، والثاني قوله: ﴿بَأْسًا﴾ أي ضرًّا أو عذابا ولا يختصُّ بالشديد فليس قوله: ﴿شَدِيدًا﴾ نعت تأكيد كما قيل، بل نعت تأسيس، ويجوز أن لا يقدَّر مفعول أوّل لـ«يُنذِر» بل له واحد، والأوّل لم يسق له الكلام، بل يكون المراد بالذات أنَّ المنذَر به هو ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾ كما تقول: زيد يعطي الدنانير، تُبَيِّنُ لمن جهل ما يعطي، أو تردُّ على من قال: الدراهم. ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ من عنده، وقيل: هو أبلغ من عندَ وأخصُّ، متعلّق بمحذوف وجوبا نعت لـ«بَأْسًا» أو حال من الضمير في «شَدِيدًا» أو جوازا، أي صادرا من لدنه.

﴿وَيُبَشِّرَ﴾ قدّم الإنذار على التبشير لأنَّ التخلية قبل التحلية، ولإظهار كمال الترغيب في الزجر عن الكفر ﴿الْمُومِنِينَ الذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ﴾ أي بأنَّ ﴿لَهُمُ, أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الجنّة لأجل إيمانهم وعملهم.

﴿مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ فيه دليل على جواز أن لا يبرز الضمير في النعت الجاري على ما ليس له، أو الحال الجاري كذلك، ومثلهما الخبر، فـ«مَاكِثِينَ» حال من «أَجْرًا» أو نعته، وإن جعل حالا من المستتر في «لَهُم» فلا دليل فيه، وذلك إذا لم يكن لبس، ومقتضى مذهب البصريِّين إذا جعل نعتا لـ«أَجْرًا» أو حالا منه أن يقال: ماكثا هم، فـ«هم» فاعل «ماكثا». وهاء «فِيهِ» للأجر.

﴿وَيُنذِرَ الذِينَ قَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ هم الكفرة الذين قالوا الملائكة بنات الله، والنصارى القائلون: عيسى ابن الله، واليهود القائلون: عزير ابن الله، ولم يذكر المنذر به وهو البأس لدلالة ما تقدَّم، أي وينذره الذين، الهاء مفعول ثان

مقدَّم، و«الذِينَ» أوَّل، أو لا يقدَّر ثان على أنَّ المراد استعظام القول بالولد كأنَّه قيل: ويل لهم، أو لا تنس سوءهم فإنَّه أعظم سوء، فلو قيل: إنَّهم أقبح من منكر الله، لأنَّ في قلوبهم إنكاره إذ وصفوه بصفة الخلق وزادوا على هذا الإنكار ذلك الوصف لم يَبْعُدْ.

(بلاغة) وليس ذلك عطف خاصٍّ على عامٍّ، لأنَّ الذين كفروا لم يذكروا في قوله: ﴿لِيُنذِرَ﴾ ولا يتعيَّن تقديره، وليس في ذكر الإنذار تأكيد للأوَّل لأنَّه لا يتمُّ الكلام بلا ذكر له، وأنت خبير بأنَّه حذف من الإنذار الأوَّل المنذر وذكره في الثاني، ومن الثاني المنذر به وذكره في الأوَّل، وذلك احتباك. والإشراك أعظم من الإشراك الذي بالتبنِّي، فيعلم بالأولى. وقدَّر بعض: لينذر العالم، وبعضٌ: لينذر العباد، على معنى مجرَّد الإخبار فيعمَّ الموحِّد.

﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ ما لهم علم بالولد، أو باتِّخاذه المأخوذ من «اتَّخَذَ»، أو بالقول المأخوذ من «قَالُوا»، أو بـ«الله» لو علموه ما نسبوا إليه الولد ﴿وَلاَ لأَبَآئِهِمْ﴾ واحد بعد واحد، بل قالوه عن جهل مفرط، حيث لا تحكم به عقولهم، ولا يؤدِّي إليه فكرهم.

أو عن تقليد بعض لبعض من غير علم بالمعنى الذي أراد قائله الأوَّل وهو التعظيم، فإنَّه أراد بالأب العظمة، كما تقول البربر: «بَابَه رَبِّي» حتَّى إنَّه يروى عن عيسى عليه السلام: «لا أشرب الخمر حتَّى ألقى أبي فأشربها في الجنَّة» وأراد بالأب التعظيم، وكأنَّه لمَّا قال ذلك توهَّموا ظاهر كلامه، أو أراد الأوَّل بالأب المؤثِّر وبالولد الأثر، وكذا العرب تزعم بعض عن بعض أنَّ الملائكة بنات الله عزَّ وجلَّ.

(فقه) وأفادت الآية أنَّه لا يجوز التكلُّم بما يوهم الباطل لئلاَّ يعتقد السامع أنَّه حقٌّ إلاَّ مع البيان.

﴿كَبُرَتْ﴾ في الزيغ، كالتشبيه بالخلق في التجسيم، والحاجة إلى ولد يعينه ويخلفه ﴿كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنَ اَفْوَاهِهِمُ﴾ أي كبرت قولتهم أو كلمتهم هذه، أو «كبرت هي» بمضمر مستتر مفسَّر بتمييز بعده، و«كَلِمَةً» تمييز لأنَّه لَمَّا أضمر الكلمة أو القولة حصل الإبهام، وجملة «تَخْرُجُ» نعت «كَلِمَةً» أو نعت لمخصوص محذوف تقديره: كلمةٌ تخرج بالرفع. والوصف بالخروج من الفم ذمٌّ زائد على الذمِّ بالاعتقاد، لأنَّ الإنسان قد يضمر أمرا قبيحا ولا يبوح به، وهؤلاء باحوا به وأكثروه، ولم يروه عيبا.

(أصول الدين) والخارج من الأفواه الهواء الحامل للحروف فالكلمة خارجة مع الهواء فبطل استدلال النظَّام بالآية على أنَّ اللفظ جسم، لوصفه بالخروج الذي هو من خواصِّ الأجسام، وأجيب بأنَّ النظَّام قائل بأنَّ اللفظ هو نفس ذلك الهواء المكيَّف، والأصل في الإسناد الحقيقة.

﴿إِنْ يَّقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ إلاَّ كلاما مكذوبا فيه ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ ءَاثَارِهِم﴾ شبَّه الله تعالى حال رسول الله ﷺ في شدَّة الوجد على إعراضهم عن الإيمان وكمال الحزن عليهم بحال من يتوقَّع منه إهلاك نفسه إثر فوت ما يحبُّه من أهل. والفاء للتفريع على قوله: ﴿إِنْ يَّقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾.

عاتبه الله على شِدَّة حزنه حتَّى كاد يقتل نفسه لقولهم ذلك، مع أنَّه قول كذب، أو على قوله: ﴿كَبُرَتْ...﴾ أو لمجرَّد الترتيب الذكري.

(نحو) ولا يجوز أن تقول: الجملة جواب شرط والفاء رابطة، لأنَّ الصحيح أنَّ جواب الشرط لا يتقدَّم ولو جاز تقدُّمُه لورود: تقم إن قام زيد، بجزم تقمْ، ولعدم وجوب اقتران الجملة التي لا تصحُّ شرطا بالفاء إذا تقدَّمت، نحو: قم إن قام زيد، أو أنا قائم إن قمت، وليست واردة بالفاء إلاَّ باعتبار ما

قبلها، ولا أقبل قولهم أيضا: الجواب محذوف دلَّ عليه ما قبله في نحو: أقوم إن قام زيد، وإنَّما الصواب أن يقال: لا جواب له، لأنَّه أغنى عنه ما قبله، والمقدَّر في ذلك لا يقصده المتكلِّم فكيف يقدَّر؟.

ومعنى ﴿بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾: قاتلها، والبخع القتل مطلقا لا ما قيل: إنَّه القتل حزنا، وإنَّه لا يستعمل في القتل بغير الحزن. والآية تسلية لرسول الله ﷺ لاجتماع عتبة بن ربيعة وأخيه شيبة بن ربيعة، وأبي جهل والنضر بن الحارث، وأميَّة بن خلف، والعاص بن وائل، والأسود بن المطَّلب، وأبي البختري، وأمثالهم من عظماء قريش على تكذيبه.

و«لَعَلَّ» للترحُّم، كما نقول: هي في كلامنا للإشفاق، والحثِّ على ترك التحزُّن، وأجاز الكوفيُّون أن تكون للاستفهام، وهو توبيخ وإنكار، قيل: هي هنا للنهي أي لا تبخع. و«عَلَى» للتعليل. و﴿ءَاثَارِهِمْ﴾ جمع أثر، وهو ما قالوه، كقوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَارَهُمْ﴾ (سورة يس: ١٢) ؛ أو الكلام استعارة تمثيليَّة، بأن شبَّه ما بداخله من الوجد على كفرهم بمن فارقته أحبَّته، فيتحسَّر بعدهم.

﴿إِن لَّمْ يُومِنُواْ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ القرآن ﴿أَسَفًا﴾ تعليل لقوله: ﴿بَاخِعٌ﴾ ولا حاجة إلى جعله حالا لاحتياجه إلى التأويل بآسفا، أو بذا أسف، أو للمبالغة كأنَّه نفس الأسف، وقدَّر بعضٌ: تأسف.

والأسف: الحزن والغضب معا، ويستعمل في أحدهما أيضا وحده، والآية قابلة لذلك، وفسَّرها قتادة بالغضب، وروي عنه بالحزن، وفسَّره البخاري بالندم، ومجاهد بالحزن، ويقال: إذا جاء التفسير عن مجاهد كفى قوَّة، وجُمِعا في قوله تعالى: ﴿غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ (سورة الأعراف: ١٥٠ وسورة طه: ٨٦) تأكيدا، أو أسفا

بمعنى حزنا، أو غضبان على بعض، أسفا على بعض، ومن قدر على الانتقام غَضِبَ، أو لم يقدر حَزَنَ.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ﴾ من الحيوان والنبات والشجر والمعادن والأنهار والبحور، فإنَّها على الأرض، وما يخرج منها من اللؤلؤ والمرجان والسمك، وكالسفن، وكالعلماء والصالحين، الأمراء والرجال والنساء، وأدخل بعض في ذلك نحو الحيَّة والعقرب فإنَّه زينة من حيث دلالتها على الله تعالى.

﴿زِينَةً لَّهَا﴾ ولأهلها، أو يقدَّر مضاف أي زينة لأهلها ﴿لِنَبْلُوَهُمْ, أَيُّهُمْ, أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ بالتوحيد والعمل الصالح، والتقوى والشكر، والاستنفاع بذلك قصدا إلى إقامة الدين، ونفع خلق الله به صدقة، وأداء لحقِّه، أو بالزهد فيه، والاقتصار على ما لا بدَّ منه، وبأخذه بوجه حلال، وبعدم الاغترار به، وبعدم الإعجاب به وبصرفه في الطاعة لا في المعصية، أو التضييع وفيما لا يعني، وقومك الكافرون ونحوهم لم يشكروا ذلك الإنعام، وأخذوه بوجه حرام وصرفوه في حرام، فويل لهم وسترى ما يحلُّ بهم.

(نحو) والجملة استفهاميَّة مفعول لـ«نَبْلُوَ» معلَّقا عنها لتضمُّنه العلم، أو «أيُّ» بمعنى الذي بدل من الهاء قبله، والتقدير: أيُّهم هو أحسن عملا، وهي مبنية.

وسئل ﷺ عن الأحسن عملا فقال: «**أحسنكم عقلا وأورع عن محارم الله تعالى، وأسرعكم في طاعته سبحانه**»[1]. وعن الحسن: «أحسنهم عملا أشدُّهم للدنيا تركا» وقال غيره: «أحسنهم من زهد وقنع من الدنيا بزاد

١- أورده **الألوسي** في تفسيره، ج٥، ص٢٠٧، في تفسيره لهذه الآية، وقال: أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم في التاريخ. وأورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢٣٣. من حديث ابن عمر.

المسافر»، [قلت:] ودونه حَسَنٌ وهو من استكثر من حلالها وصرفه في وجوهه، ومَنْ دون ذلك قبيح: من احتطب حلالها وحرامها وأنفقه في شهواته. وهذه تسلية لرسول الله ﷺ، وتعليل للنهي، كأنَّه قيل: لا تحزن فإنِّي منتقم منهم، ولا بدَّ من عقابهم بعد الفناء المذكور بقوله:

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ تشبيه بليغ كقولك: جعل الله زيدا أسدا، فـ«صَعِيدًا» مفعول لا منصوب على نزع الجارِّ، والصعيد: التراب، ووجه الشبه أنَّه يصيِّره الله كالتراب لا يرغب الناس فيه، وذلك يوم القيامة يوم لا يرغب الناس في المعادن ولا في غيرها إلاَّ في العمل الصالح، ولا يجدونه إلاَّ ما قدَّموه في الدنيا، وهو كقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (سورة الرحمن: ٢٦) وقوله: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لاَ تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا﴾ (سورة طه: ١٠٧) وذلك تزهيد في الدنيا.

والجرز: الأرض التي قطع نباتها، والجرْز بإسكان الراء: القطع، والمراد مطلق الإذهاب وإزالة النفع بذلك كلِّه، ولا يختصُّ بالنبات، ويقال: الجرز الموضع الذي لا نبات فيه ولا ماء، والصعيد: المستوي من الأرض، ويقال: وجه الأرض مطلقا. وهو نعت «صَعِيدًا» أو مفعول بعد مفعول ثان.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۝١٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝١٣ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَٰهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ۝١٤ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا

مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم
مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن
كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ
مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾
وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم
بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا
﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ
بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ
فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾
إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ
أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ
بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ
لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ
سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ
بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۝ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ
فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ
ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟

لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٦﴾

قِصَّة أصحاب الكهف

(نحو) ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ «أَمْ» منقطعة، فهي حرف ابتداء مقدَّرة بـ«بل» والهمزةِ الاستفهامية عند الجمهور، وبالهمزة وحدها عند قوم، وبـ«بل» عند قوم، والهمزة المقدَّرة للاستفهام الإنكاري وفي كلٍّ موضع بما يصلح له، وبل للانتقال لا للإبطال ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُواْ مِنَ ـ ايَاتِنَا عَجَبًا﴾ أفرده مع أنه خبر «كَانُوا» أو حال، لأنَّه مصدر بمعنى معجوبا بهم، والمعنى: أتظنُّ أنَّ قصَّتهم عجب، وتغفل عَمَّا هو أعجب كخلق السماوات والأرض وغيرهما، و لم يتَّعظ قومك بهما، و لم يؤمنوا فلهم الويل مِمَّا يصفون، بلغ بهم الإنكار حتَّى بلغوا إلى السؤال عن أصحاب الكهف تعنُّتا، و لم يعلموا أنَّ جعل ما على الأرض صعيدا بعد تمكُّنه فيها من أعظم الآيات، لا خصوص أصحاب الكهف.

[قلت:] والذي يتبادر لي إثبات أنَّهم عجب، وإخبار به، كما تقول لمن يعلم بقيام زيد: أعلمت أنَّه قام؟ ولا ضعف في هذا كما قيل، فهو تنبيه على قدرته تعالى.

والكهف: هو الغار الواسع في الجبل، وإن لم يتَّسع لم يسمَّ كهفا، وقيل: الغار فيه مطلقا، وقيل: فيه أو في الأرض. و«الرقيم»: اللوح من حجر أو حديد أو رصاص أو ذهب، رقمت فيه أسماؤهم، وقال بعض: رقمت فيه قصَّتهم وأمرهم، وجعل على باب الكهف، وقيل: في تابوت في فم الكهف، وقيل: وضع تحت

جدار اليتيمين، وقيل: في سور المدينة، فرقيم بمعنى مرقوم، كقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ (سورة المطفّفين: ٩) ، وقيل: في ذلك اللوح دين عيسى لأنّهم من الروم أخذوا بدينه، وهو رواية عن ابن عَبَّاس، وقيل: من حين قبل عيسى.

وقال قتادة: الرقيم دراهمهم التي معهم، وقيل: اسم الجبل الذي فيه كهفهم، وقيل: اسم الوادي الذي فيه كهفهم، وعليه ابن عَبَّاس، وعنه: واد دون فلسطين قريب من أيلة، وقال كعب الأحبار: إنّه اسم قريتهم، وقيل: اسم كلبهم قال أميَّة بن أبي الصلت:

وليس بها إلاَّ الرقيم مجاورا وصيدهم والقوم في الكهف همَّدًا

أردا بالرقيم الكلب، كما قال الله ﷻ: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾، وهمَّدا: حال بمعنى نوام، فللعرب معرفة بأصحاب الكهف ولو لم يضبطوا تفصيل قصَّتهم.

وقيل: أصحاب الرقيم قوم آخرون والرقيم واديهم أو جبلهم، وكهفهم غير ذلك الكهف، والمراد بالكهف الأوَّل. ويقدَّر مضاف، أي: وأصحابَ الرقيم.

(قصَّة أصحاب الرقيم) وذلك أنّه خرج ثلاثة نفر ينظرون أين النبات والماء ليرعى أهلوهم عليه مواشيهم، فاشتدَّ عليهم المطر، فدخلوا غارا فسقطت صخرة سدَّت بابه فقال أحدهم: توجَّهوا إلى الله بما عملتم من البرِّ، فقال أحدهم: استعملت أجراء فجاء رجل وسط النهار وعمل في بقيته مثل عملهم، فأعطيته مثل أجرهم، وهو فرق من أرز، فغضب أحدهم وترك أجره جانب البيت، فاشتريت به فصيلة وتجرت له وأنسلت الفصيلة فرجع إليَّ بعد مدَّة شيخا ضعيفا لا أعرفه وقال لي: عندك حقٌّ فذكره فعرفته فأعطيته الجميع، فقال: أتهزأ بي ؟ فقلت: لا بل هو حقُّك، اللهمَّ إن كنت فعلت ذلك لأجلك فأفرج عنَّا.

فتحرَّكت حتَّى رأينا الضوء.

وقال آخر: كنت غنيًّا وافتقر الناس، فطلبت منِّي امرأة معروفا فأبيت إلاَّ بجماعها فرجعت، ثمَّ عادت ثلاثا، وذكرت لزوجها فقال: أغيثي عيالك فلما كشفتها ارتعدت، فقلت: مالك؟ فقالت: أخاف الله، فقلت: خِفْتِه حال الاحتياج، وكيف لا أخافه في الرخاء؟ وتركتها وأعطيتها ما طلبت، فانتقلت الصخرة حتَّى تعارفوا.

وقال الثالث: لي أبوان كبيران جدًّا وكنت أطعمهما وأسقيهما، ثمَّ أرجع إلى غنمي فحبسني المطر يوما، فأتيت أهلي وأخذت محلبي فحلبت لهما، فوجدتهما نائمين، وكرهت إيقاظهما فتوقَّفت جالسا ومَحْلَبِي على يدي حتَّى أيقظهما الصبح، فسقيتهما، اللهمَّ إن فعلت ذلك لوجهك ففرج عنَّا، فتحرَّكت حتَّى خرجوا[1]. وفي رواية: إنَّ صاحب المحلب وقف الليل كلَّه ومحلبه بيده، والبرد شديد حتَّى قطرت يده دما، ويروى أنَّه ينصدع لهم الجبل عن الصخرة. والقصَّة من رواية النعمان بن بشير وابن عَبَّاس وأنس.

﴿إِذَ اوَى﴾ التجأ ﴿الْفِتْيَةُ﴾ جمع فتى، وهو الشاب من كلِّ حيوان، وهم مرد. وأظهرهم للتنصيص على وصفهم بصغر السنِّ.

(قصص) [قلت:] والصحيح أنَّ الكهف في ناحية طرسوس في المشرق لا في الغرب، ففي الشام كهف فيه موتى، يزعم مجاوروه أنَّهم أصحاب الكهف، وعليهم مسجد وبناء يسمَّى الرقيم، ومعهم رمَّة كلب، وقال الإمام أبو حيَّان: في جهة غرناطة قرب «لوشة» كهف فيه موتى ومعهم كلب رمَّة انجرد

١- رواه **البخاري** في كتاب الأدب (٥) باب إجابة دعاء من برَّ والديه، رقم٥٩٧٤. **ومسلم** في كتاب الذكر والدعاء (٢٧) باب قِصَّة أصحاب الغار الثلاثة... رقم١٠٠ (٢٧٤٣).

لحمه وتماسك بعضه، وقد مضت قرون و لم نجد من علم شأنهم، ويزعم ناس أنَّهم أصحاب الكهف، قال أبو حيَّان: قال ابن عطيَّة[1]: دخلت عليهم فرأيتهم سنة أربع وخمسمائة وهم بهذه الحالة، وعليهم مسجد، وقريب منهم بناء رومي يسمَّى الرقيم، كأنَّه قصر مخلق قد بقي بعضه، وهو في فلاة من الأرض خربة، وبأعلى قصر غرناطة مِمَّا يلي القبلة آثار مدينة قديمة، يقال لها: مدينة دقيوس، وجدنا في آثارها غرائب، قال أبو حيَّان: وحين كُنَّا بأندلس كان الناس يزورون هذا الكهف ويذكرون أنَّهم يغلطون في عدَّتهم إذا عدُّوهم، وإنَّ معهم كلبا يرحل الناس إلى لوشة لزيارتهم، قال: وقد مررت مرارا كثيرة على المدينة القديمة العظمى المذكورة، وشاهدت فيها حجارا عظيمة، قال: ويترجَّح كون ذلك بأندلس لكثرة دين النصارى بها، ولأنَّ الأخبار بما هو أقصى من أرض الحجاز أغرب وأبعد أن يعرف إلاَّ بوحي من ا لله ﷻ، [قلت:] وهو مخالف لِمَا يذكر عن معاوية أنَّه مرَّ بالكهف وأراد دخوله فمنعه ابن عَبَّاس[2].

﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾ «إِذْ» ظرف لـ«عَجَبًا» أو مفعول لـ«اذكر»، لا متعلّق بـ«حَسِبْتَ»، لأنَّه ليس ﷺ في وقت أَوْيهم إلى الكهف، وكانوا شبَّانا كما سمَّاهم «فتية»، وهم من أشراف الروم على سنٍّ واحد أو متقاربون آمنوا با لله وبعيسى عليه السلام، أرادهم دقيانوس على الإشراك وهو ملك الروم، فهربوا إلى الكهف قريبا من بلدهم.

وقيل: كان ذلك قبل عيسى عليه السلام في فترة، فكان إيمانهم عبرة وتفكُّرًا في

١- ابن عطية عبد الحق بن غالب الغرناطي: مفسرٌ وقاض عارف بالأحكام والحديث، له شعر، من فقهاء المَالِكِيَّة من أهل غرناطة، توفي سنة ٥٤٢ هـ، له تفسير: "المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز". معجم المفسرين، ج١، ص٢٥٧.

٢- أبو حيان. النهر الماد من البحر المحيط: ج٣، ص٦١٥-١١٦.

عظمة ملك ا لله وقدرته، و لم يأتهم وحي، و لم يقرءوا كتابا و لم يعلّمهم أحد، بعثه ا لله ﷻ وهم في الكهف ورفعه ا لله بعد ثلاث وثلاثين سنة، ومضى بعد ذلك زمان طويل فبعثهم ا لله من نومهم، واطّلع أهل ذلك العصر على حالهم ليعلموا أنَّ ا لله يبعث الموتى.

تزوَّدوا من بيوت آبائهم وتصدَّقوا وهربوا خوفا من أن يقهروا على عبادة سلطانهم دقيانوس، وهم معه في مدينة أفسوس من مدائن الروم، والعرب تسمِّيها طرسوس، وقيل: كانوا يبعثون واحدا منهم يشتري لهم الطعام من المدينة خيفة، قيل: جلسوا يوما عند الغروب يتحدَّثون فألقى ا لله عليهم النوم، كما قال ا لله ﷻ : ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ...﴾الآية.

﴿**فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً**﴾ إنعاما بالمغفرة والرزق والأمن من العدوِّ، والنجاة من الشرك ﴿**وَهَيِّئْ لَنَا مِنَ اَمْرِنَا رَشَدًا**﴾ يسِّر لنا أو احضر لنا صوابا وأصل التهيئة إحداث هيئة الشيء، واستعمل في مطلق إعداده وإحضاره.

و﴿أَمْرِنَا﴾: الأمر الذي نحن عليه من مفارقة الكُفَّار والأهل والوطن. و«مِنْ» للابتداء أو للسببيَّة. والرَّشَدُ: الصواب بأن تثبِّتنا على الهداية والانقطاع عن الدنيا بعبادتك، أو استخرج من أمرنا الذي نحن عليه من الحقِّ رشدا، مبالغة منهم بأن يتولَّد من صوابهم صواب آخر، وذلك من التجريد البديعي الواقع بـ«مِنْ» نحو: رأيت من زيد الأسد، ورأيت منه البحر، في مبالغة وصفه بالشجاعة والجود، ويكون بفي وبغيرها كما ذكرته في بيان البيان[1].

(دعاء وتضرُّع)

١- مخطوط للشيخ في علم البلاغة.

يارب هيِّء لنا من أمــــرنا رشدا	واجعل معونتك الحسنى لنا مددا
ولا تكلنا إلى تدبير أنفســـنـا	فالنفس تعجز عن إصلاح ما فسدا
أنت الكريم وقد وجهت يا صمد	إلى جنابك وجها سائلا ويدا
وللرجاء ثواب أنت تعلمـــه	فاجعل ثوابي دوام الستر لي أبدا

فأجب دعائي يا جواد كما أجبت دعاءهم في ضمن قولك تباركت وتعاليت: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ حجابا مانعا من السمع ﴿فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ أي أنمناهم.

(بلاغة) واستعمل ما وضع لضرب الحجاب على الشيء حتّى لا يحسَّ في معنى الإنامة، على الاستعارة المكنية والتخييليَّة لجامع إسقاط الإحساس. و«عَدَدًا» نعت سنين وصفها به تقليلا لها، لأنَّ لبثهم كيوم أو بعضه عنده، وهي ثلاثمائة سنين وتسع سنين، وذلك كتقليل الكثير في مقابلة ما لا يحصى كثرة أو تكثُّرا لأنَّها في نفس الأمر عدد كثير، والله قادر على تلك الكثرة.

ومعناه: سنين معدودة، أو ذوات عدد، وقدَّر بعضهم: تعدُّ عددا، والكثرة تناسب كمال القدرة، والقلَّة تناسب نفي كون قصَّتهم عجبا من دون سائر الآيات العجيبة التي كثرت في القرآن. ونصَّ على الآذان لأنَّه يحصل النوم بالضرب عليها، وبالنوم يبطل كلُّ إحساس.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أيقظناهم من نومهم، استعارة على متعارف الشرع في لفظ البعث، وحقيقة لغويَّة ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾ أي ليظهر علمنا خارجا عند الناس، أو لتطابق حالهم علمنا الأزلي.

(أصول الدين) وكلُّ ما حدث فالله عالم بحدوثه علما مطابقا لعلمه الأزلي، ولا يتَّصف بالنسيان ولا بحدوث شيء عليه سبحانه.

والحزبان: أصحاب الكهف والملوك الذين على المدينة وغيرهم واحدا بعد واحد، أو هم أصحاب الكهف وأهل المدينة الذين بعثوا على عهدهم، أو طائفة مؤمنة وطائفة كافرة، أو الحزبان: الكافران اليهود والنصارى، وهو قول السدِّيِّ.

[قلت:] وساء أدبا من قال: الحزبان الله تعالى والخلق، كقوله تعالى: ﴿ءَآنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّٰهُ﴾ (سورة البقرة: ١٤٠) أو هم أصحاب الكهف فريق يقول يوما أو بعض يوم، وفريق يقول: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ وفي ذلك كلّه لا علم لأحد من الملوك ولا أصحاب الكهف بالمدَّة، فإمَّا إنَّ اللام للتعليل فلم يقع العلم به كقولك: خلق فلانا للعبادة ولم يعبد، وإمَّا للعاقبة أنَّ الله أظهر لنا ثلاثمائة سنين وتسعا. و«أَمَدًا» مفعول، وذلك أنَّ قول بعضهم: «ربُّكم أعلم» ليس معرفة بالعدد بل صواب وتوحيد.

ويجوز أن يكون الاختلاف بين أصحاب الكهف هل طالت المدَّة؟ فمن قائل: يوم أو بعض يوم، ومن قائل: طالت المدَّة وهو القائل: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ﴾، فجعل الله قوله بالطول علما بها لأنَّها طالت، وليست يوما أو بعضه، وذكر الفرَّاء أنَّ ﴿الْحِزْبَيْنِ﴾ طائفتان من المؤمنين في زمان أصحاب الكهف. و«أَمَدًا» مفعول به لـ«أَحْصَى» واللام متعلّق بـ«أَحْصَى»، أو بمحذوف حال من «أَمَدًا» و«مَا» مَصدَرِيَّة، أي للبثهم.

(نحو) [قلت:] ولا حاجة إلى جعل «أَحْصَى» اسم تفضيل من الرباعي، بإسقاط همزته لشذوذ مثل هذا، وأجازه بعض قياسا مطلقا وبعض إن كانت الهمزة لغير التعدية، كأصبح وأشرق وأضاء وأشكل وأطعم، ولا إلى جعل اللام زائدة وجعل «ما» اسما موصولا أو نكرة موصوفة مفعولا به لـ«أَحْصَى» و«أَمَدًا» تمييز، ويردُّه أنَّه يكون تمييزا لاسم التفضيل أو فاعلا في المعنى له.

﴿نحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يا محمَّد ﴿نَبَأَهُم﴾ خبرهم تفصيلا بعد قصّه إجمالا ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالصدق، وقد خاض الناس فيه بالباطل ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ سبعة، وزعم بعض أنَّهم ثمانية ﴿ـ امَنُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ الهاء لجماعة أصحاب الكهف، لا لسيِّدنا محمَّد ﷺ، فلا يقال: إنَّه على طريق الالتفات من الخطاب في «عَلَيْكَ» إلى الغيبة في هاء «رَبِّهِمْ»، فلا تهم، وإنَّما الالتفات من تكلُّم ﴿نحْنُ نَقُصُّ﴾ وما قبله إلى غيبة لفظ «ربّ»، ومقتضى الظاهر: آمنوا بنا ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ بالاطِّلاع على دلائل أخر وبالتثبيت حتَّى إنَّهم لم يكتفوا بإظهار الحقِّ بل زادوا جدَالاً بالبرهان، فقد قيل: زادهم هدى بإنطاق الكلب أنَّهم على الحقِّ، وقيل: جاءهم ملك فقوَّاهم على الحقِّ، وأخبرهم بالنبيء ﷺ أنَّه سيجيء إلى الناس كلِّهم فآمنوا به، ولا يلزم بذلك أن يكونوا أنبياء وقيل: بعضهم نبيء.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمُ, إِذْ قَامُواْ﴾ شددنا الإيمان على قلوبهم، كما يربط شيء على آخر، فاختاروه على الوطن والأهل والمال والأصحاب وعشرة الملك. حَتَّى إنَّهم قاموا بين يدي الملك دقيانوس الرومي في بلدتهم، وهي أفسوس، وقيل: طرسوس، وقيل: بلدة واحدة أفسوس، العرب تسمِّيها طرسوس، وأمرهم بالسجود له أو للصنم، وكان يقتل المسلمين ويعلِّق لحومهم على سور البلد، وأظهروا الحقَّ بين يديه، ولم يخافوه، لجرأة قلوبهم لربط الله عليها فلا يخرج منها الإيمان.

والربط مستعار للشدِّ والتثبيت، تصريحيَّة أو مكنية تخييليَّة. وكانوا قعودا فقاموا لإظهار الدين، وقيل: القيام التثبيت، وقيل: الاجتهاد في دعاء الناس إلى الإسلام ﴿فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إِلَهًا﴾ لن نعبد غير الله وحده، ولا مع الله.

(قصص) وكان دقيانوس يدعوهم وغيرهم إلى أن يعبدوه، وقيل: يدعو إلى عبادة صنم له كان يعبده، ويذبح له، ويأمر الناس بالذبح له وعبادته، فخيَّرهم بين أن يكونوا كالناس في ذلك وبين أن يقتلهم، فقال أكبرهم: لنا إله يملك السماوات والأرض وكلَّ شيء فاصنع ما بدا لك، فأمر بنزع لباسهم وما عليهم من السوار والطوق، وكانوا من أهل الملك والشرف معه، وقال: أخرتكم لعلَّكم تتفكَّرون لأنَّكم شباب، وسافر إلى نينوى فخافوا قهره إذا رجع، فكانوا يرسلون تمليخا ـ بالمثناة الفوقيَّة وقيل التحتيَّة ـ من الكهف يشتري لهم الطعام بعد انقضاء زادهم مستخفيا، فبينما هو في المدينة سمع برجوعه فأتاهم بطعام وأخبرهم عند الغروب، وزادوا تضرُّعا وذكر ا لله ﷻ على ما هم عليه، فقال لهم: يا إخوتاه كلوا وتوكَّلوا على ربِّكم، وتكلَّموا وتواصوا وأنامهم ا لله، وأنام كلبهم، فلما رجع فتَّش عليهم فوجدهم وعيونهم شديدة النظر، فقال: إنَّ ربَّهم الذي هربوا إليه يعذِّبهم فسدَّ عليهم باب الكهف ليموتوا جوعا، بإشارة بعض من معه، إنَّك إن قدَّرت عليهم قتلهم فالبناء عليهم قتل لهم، ولا يدري أنَّهم نوَّمٌ وقيل: موتى.

وقيل: هم عظماء المدينة اجتمعوا خارجها بلا ميعاد، وكلٌّ يخفي حاله عن الآخر، فقال أكبرهم: في قلبي أنَّ ربِّي ربُّ السماوات والأرض، فقالوا: كذلك نجد في قلوبنا، فقالوا جميعا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إِلَهًا﴾.

(قصص) وقيل: جاء حواريٌّ إلى بلدهم فقيل له: لا تدخل إلاَّ إن سجدت للصنم عند الباب، فلم يدخل، ودخل حمَّاما عند الباب واستجاره الحمَّامي، رأى منه بركة، وشرط الحواريُّ: أنَّ الليل لي ولا تمنعني من الصلاة، فكان يعلِّم الأولاد توحيد ا لله فاجتمع له عدد، ودخل ابن الملك الحمَّام مع أجنبيَّة جميلة فوعظه فاستحيى، وعاد ليلا آخر فزجره فلم ينزجر، فدخل وبات معها في الحمَّام فماتا فقيل: إنَّه قتلهما، فخاف فهرب بالأولاد وهم أصحاب الكهف.

﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا﴾ إذ عبدنا غير الله، وقلنا إنه الله بعد البيان، أو إذ فعلنا ذلك فيما مضى ﴿شَطَطًا﴾ قولا ذا شطط أي بُعْدٍ عن الحقِّ، مفرط في الظلم والكذب والجور ﴿هَٰؤُلَآءِ قَوْمُنَا﴾ خبر أوَّل موطِّئ للثاني وهو قوله: ﴿اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ أو هذا خبر و«قَوْمُنَا» بدل أو بيان، واللفظ إخبار والمعنى إنكار للياقة عبادة غير الله ﷻ، كما يدلُّ له قوله ﷻ: ﴿لَّوْلَا﴾ تحضيض إنكاريٌّ، واتِّخاذ الآلهة: صنعها ونحتها ليعبدوها، والمفعول واحد وهو «آلِهَةً» أو الاتِّخاذ: تصييرها آلهة تعبد، فيكون له مفعولان أحدهما «آلِهَةً» والثاني مقدَّر، أي أربابا لهم، أو «آلِهَةً» ثان والأوَّل محذوف، أي: وَاتَّخَذُوا الأصنام آلهة.

﴿يَاتُونَ عَلَيْهِم﴾ أي لهم، أي لأنفسهم أو لآلهتهم، أو يقدَّر مضاف أي على عبادتهم لغير الله، أو على عبادة الآلهة ﴿بِسُلْطَانٍ﴾ برهان قويٍّ يتسلَّط على ما هو الحقُّ بالإبطال ﴿بَيِّنٍ﴾ ظاهر **إذ لا تصحُّ الديانة تقليدا بلا دليل.**

﴿فَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ بعبادة غير الله، وهذا آخر جدالهم للملك خاطبوه بثلاث جمل آخرهنَّ: «شَطَطًا» والثلاث بعدُ قالوهنَّ فيما بينهم بعد الخروج، آخرهنَّ «كَذِبًا» والجملة ستٌّ، وقيل: قالوا ذلك بحضرة الملك، وعن ابن عبَّاس: هذا وما قبله وما بعده إلى «مَرْفِقًا» قالوه فيما بينهم. وكبيرهم "تمليخا"، وقيل: "مكسلمينا"، وكان أحدهم وزيرا للملك ولعلَّ "تمليخا" كبيرهم سنًّا و"مكسلمينا" كبيرهم شرفا. والفاء لإفادة سَبَبِيَّة ما قبلها بإخبار ما بعدها، والمعنى: إنَّهم أظلم من كلِّ ظالم.

﴿وَإِذِ اِعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ فَأْوُواْ إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنَ اَمْرِكُم مِّرْفِقًا﴾ قال بعضهم لباقيهم كما يدلُّ له: ﴿فَأْوُواْ إِلَى الْكَهْفِ﴾، فإنه ليس من غيرهم «وَإِذِ اِعْتَزَلْتُمُوهُمْ» وأنا

معكم في الاعتزال والأَوْيِ إلى الكهف، وكذا تقول في مثل ذلك من خطاب بعض جماعة لباقيهم، وكذا لو قال اثنان فصاعدا للباقين.

وعبارة بعض: إنَّ فيه تغليب الخطاب على التكلُّم، كأنَّه قيل: فإذا اعتزلتُ أنا وأنتم، ويعارضه ﴿فَأْوُواْ﴾ فإنَّه يقتضي لام الأمر ومضارع التكلُّم: فلأْوِ أَنَا وأنتم، بأمر المتكلِّم نفسه، وهو قليل كقوله ﷺ: «**قوموا فلأُصلِّ بكم**» مع أنَّه في رواية: «فلأُصلِّيَ» بالنصب، ولأنَّ رواة الحديث قد لا يضبطون العَرَبيَّة إلاَّ الصحابة ومثلهم مِمَّن يتقنها.

وجملة ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ﴾ قيل: معترضة من كلام الله و«مَا» نافية، ولفظ الجلالة منصوب على التفريغ، وواو «يَعْبُدُونَ» لأصحاب الكهف، ولا بأس به.

(نحو) [قلت:] إلاَّ أنَّ مذهبي أنَّ جملة الاعتراض إن قرنت بواو تكون معطوفة قبل تمام المعطوف عليه، ولا أقول بذلك في غير الاعتراض، وحجَّتي في ذلك أنَّه ليس الاعتراض ولا الاستئناف معنى للواو، لأنَّ الاعتراض معلوم بنفسه، وكذا الاستئناف، ولو صَحَّت واو الاستئناف لجاز أن تقول: وزيد قائم، أو تقول: وقام زيد بالواو بلا تقدُّم شيء ولا تقدير له، وقد عاب ابن هشام قول المعرِّبين: إنَّ ألا بالفتح والتخفيف حرف استفتاح بأنَّ الاستفتاح موضع لها وإنَّما معناها التنبيه والتوكيد.

(نحو) وإن كانت الجملة من كلام أصحاب الكهف فالواو عاطفة على الهاء، و«ما» نكرة موصوفة واقعة على صنم مثلا، وصفت بجملة «يَعْبُدُونَ» أي يعبدونه، وبقوله: «إِلاَّ اللهَ» كما يقال في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلاَّ اللهُ﴾ (سورة الأنبياء: ٢٢)، أو موصول اسمي، أي والذي يعبدونه، أو حرفي، أي وعبادتهم.

(نحو) والاستثناء على الوجهين منقطع، أي لَكِنَّ الله هو أهل العبادة، وإن قلنا: هؤلاء يعبدون الله وغيره، فمتّصل كما روي عن عطاء الخراساني[1]، وقيل: يعبدون غير الله فقط. و«إِذْ» متعلّق بما بعد الفاء، والفاء صلة للربط أو رابطة لجواب «إِذْ» على تضمُّن «إِذْ» معنى الشرط، ولو لم تكن بعدها «مَا»، وأجيز أن تكون تعليليَّة لقوله: ﴿فَأْوُواْ﴾ والتحقيق أنَّ التعليل في «إِذْ» التعليليَّة مستفاد من مدخولها مثل استفادة العلَّة من تعليق الحكم بالمشتقِّ، والمعنى: التجئوا بأبدانكم إلى الكهف كما اعتزلتموهم بدينكم.

(صرف) والماضي أوى، والمضارع يأوي بهمزة ساكنة قبل الواو، ولأنَّ مَادَّة الأوي تصحُّ همزتها، وهو من باب ضرب يضرب، والأمر «اِأْوِ»، بهمزة وصل مكسورة فهمزة مسكَّنة هي فاء الكلمة فواو مكسورة هي عين الكلمة، فياء محذوفة لشبه الجزم، حذفت همزة الوصل للدرج بالفاء وضمَّت الواو لواو الجماعة بعدها المحذوفة في الخطّ.

و«يَنشُرْ»: يبسط ويوسِّع، ومفعوله محذوف، أي ينشر لكم ربُّكم الرزق في الدارين، و«مِنْ» للابتداء، والداخلة على «أَمْرِكُمْ» له أو للتبعيض أو للبدل، متعلّقة بـ«هَيِّءْ»، أو بمحذوف حال من «مَرْفِقًا». والمرفق: ما يرتفق به، أي ينتفع به؛ قالوا ذلك لخلوص يقينهم.

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ﴾ يا محمَّد أو يا من يصلح للرؤية لو رأيتهم، أو بمعنى: تعلم على معنى إنشاء العلم من إخباره تعالى ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَّاوَرُ﴾ تميل، تتزاور

١- عطاء بن مسلم بن ميسرة الخرساني: مفسِّر ومحدِّث معروف بالفتوى والجهاد من أهل سمرقند سكن الشام ومات بأريحا سنة ١٣٥هـ، ودفن ببيت المقدس، من آثاره: تفسير القرآن استخدمه الطبري في تفسيره. معجم المفسِّرين، ج٥، ص٣٤٦.

أبدلت التاء زايا وأدغمت لبعد التاء عن الزاي، ومنه زيارة أحد لأنّها ميل إليه ﴿عَن كَهْفِهِمْ﴾ لا يقع شعاعها عليهم فيؤذيهم، لأنَّ الكهف ساحته وداخله في جانب الجنوب، فيكون بابه في جانب الشمال ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أي جهة صاحبة اليمين، ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ تنقطع بهم، من القرض بمعنى القطع.

(صرف) وقال الفارسي: المعنى تعطيهم بعض الضوء ويزول سريعا، كالقرض يستردُّه صاحبه، ويردُّه أنّه لم يسمع ثلاثيٌّ لهذا، وإنّما هو "أقرض" بالهمزة وأما القرض الثلاثيُّ فاسم مصدر.

﴿ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي جهة ذات الشمال ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ﴾ في متّسع ﴿مِّنْهُ﴾ ينالهم روح الهواء الطّيِّب، لا كرب الغار ولا حرَّ الشمس، فبقيت ألوانهم وثيابهم على حالها كذا زعموا، **وهو غفلة وسهو**، وإنّما بقوا بلا تغيُّر بقدرة الله، وإلاّ فطول المدَّة يغيِّرهم ويغيِّر ثيابهم على أي حال كانوا، وقد يقال: يناسب ما ذكروا قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ بأن أجرى الله الأمر على ما ذكروا، كما أجرى الأمر على التقليب مع أنّه قادر على أن لا تأكلهم الأرض بلا تقليب، كما أنّه تعالى يجري غالب الأشياء على أسباب.

وقد قيل: تدخل عليهم الشمس ولا تضربهم، وذلك ينافي أنَّ الغار قد سدَّ، وما قيل: إنّه سدَّه ملك مؤمن بجعل حائط مسجد سدًّا له، والآية بيان لتمايل الشمس عن كهفهم لا بيان لأنّه فتح ولا تناهم، ولا لأنّه لو فتح لنالتهم.

(فلك) وباب الكهف في مقابلة بنات نعش الصغرى، وأقرب المشارق والمغارب إلى محاذاته مشرق رأس السرطان ومغربه، والشمس إذا كان مدارها مداره تطلع مائلة عنه مقابلة لجانبه الأيمن، وهو الذي يلي المغرب، وتغرب محاذية لجانبه الأيسر، وإنّما سُمِّيَ الذي يلي المغرب يمينا لأنّه يمين

المتوجِّه لبابه في داخل الكهف، وإذا غربت كانت على شماله، وعبارة بعضٍ: المراد يمين الداخل وشمال الداخل، وكلُّ نقطة على الأفق تطلع منها الشمس تسمَّى مشرقا، ولَمَّا كان الكهف في جانب شمال منطقة البروج كان الأقرب إلى محاذاة الكهف مشرق رأس السرطان، أي نقطة على الأفق تطلع منها الشمس إذا كانت في رأس السرطان، أي أوَّله لأنَّ مشرق رأس السرطان أقرب إلى القطب من سائر المشارق، فلا بدَّ أن يكون أشدَّ محاذاة للكهف من سائر المشارق، فإذا طلعت من هذا المشرق يقع شعاعها في الجانب الغربي من الكهف، وإذا غربت في مغرب رأس السرطان يكون أقرب محاذاة إلى الكهف من سائر المغارب، لأنَّ هذا المغرب أقرب إلى القطب الشمالي، وكلُّ نقطة تغرب فيها الشمس فهي مغرب.

وقيل: منع الله ﷻ ضوء الشمس عنهم مع أنَّها تقابلهم عند الطلوع والغروب، ولا تغيِّرهم، أو لا تقع عليهم مع مقابلتها لهم، وذلك خرق للعادة إكراما لهم، وعليه الزجَّاج، على أنَّ الباب غير مسدود.

ويناسبه قوله ﷻ : ﴿ذَٰلِكَ مِنَ ـ ايَاتِ اِ للَّهِ﴾ إذا رددنا الإشارة إلى بقائهم فإنَّه الذي يكون مخالفا للمعتاد لطول الزمان، ويجوز أن تكون الإشارة إلى أَوْيِهم أو إيواءهم إلى الكهف، أو إخباره ﷺ الناس بقصَّتهم، أو ما ذكر من إزورار الشمس وقرضها.

واستحسن بعض أنَّ الإشارة إلى مجموع هدايتهم إلى التوحيد ومخالفة قومهم، وعدم الاكتراث بهم، وبملكهم وسطوتهم، مع أنَّهم شباب، وإيوائهم إلى الكهف تلك صفته، وعن ابن عَبَّاس: ما أوتي أحد نبوءة ولا علما إلاَّ وهو شابٌّ، يعني غالبا، فصاحب الأربعين شابٌّ، لأنَّ صاحب النبوءة يعطاها على أربعين.

﴿**مَنْ يَّهْدِ اللهُ**﴾ هداية توفيق كأصحاب الكهف ﴿**فَهُوَ الْمُهْتَدِي**﴾ أفاد أنّه لا اهتداء إلاّ بهداه، وكفى بهذا مغايرة بين الشرط والجواب، أو معناه: مصيب الفلاح ﴿**وَمَن يُّضْلِلْ**﴾ يخذل كدقيانوس وقومه، بأن لم يهدهم إلاّ هداية بَيَانٍ ﴿**فَلَن تَجِدَ لَهُ, وَلِيًّا مُّرْشِدًا**﴾ يهديه هداية توفيق.

والآية مدح لأصحاب الكهف في العموم وذمٌّ لدقيانوس وقومه في العموم، وتنبيه **على أنَّ الآيات كثيرة لكن المنتفع بها من وفّقه الله للاعتبار بها**، وهي متّصلة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنَ ـ ايَاتِ اللهِ﴾ ومقتضى الظاهر: «فهو الضالُّ»، عبّر عنه بذلك للفاصلة.

﴿**وَتحْسِبُهُمُ, أَيْقَاظًا**﴾ جمع يَقِظٍ بكسر القاف كنَكِد وأنكاد، أو بضمِّها كعَضُد وأعضاد ﴿**وَهُمْ رُقُودٌ**﴾ جمع راقد كما نصَّ ابن مالك على صحّة جمع فاعل على فُعول، فلا حاجة إلى جعله مصدرا بمعنى الوصف، أو إلى تقدير مضاف، ومعناه نوَّام، وقيل: موتى، شبَّه نومهم بالموت، كقوله تعالى: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ (سورة يس: ٥٢) والأوَّل أولى، والمعنى: إنَّك تظنُّهم لو رأيتهم غير نائمين أو غير موتى، لانفتاح عيونهم وشدَّة نظرها بحسب صورتها، وهم لا ينظرون بها، والنبيء ﷺ لا يظنُّهم أيقاظا مع علمه بأنَّهم رقود، لَكِنَّ المراد أن يراهم بصورة الأيقاظ، أو لو رآهم قبل علمه بعدم يقظهم، أو الخطاب لمن يعلم به لو رآهم ﴿**وَنُقَلِّبُهُمْ**﴾ وكلبَهم ﴿**ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ**﴾ يقول لتقلُّبهم: «كن» فيكون، أو تقلّبهم الملائكة.

وروي أنَّ أهل تلك الجهة يقلّبونهم ويقلّمون أظفارهم، لو لم يقلّبهم لأكلتهم الأرض كما قال ابن عَبَّاس، والله قادر على أن لا تأكلهم بلا تقليب، ولكن يجري الله ﷻ غالب الأمور على أسباب، كما يجمع ﷺ ماء قليلا، أو

يأتي بماء قليل أو يجمع طعاما قليلا فيبارك فيه فينمو، ولو شاء ا لله لخلق له كثيرا بلا جمع.

قيل: أو تقليبهم جريا على عادتهم في النوم من التقلُّب عن جنب إلى جنب، وذلك تشريف لهم، والتقليب مرَّة في كلِّ تمام ستَّة أشهر فيما روي عن ابن عَبَّاس رضي الله عنه، وقيل: يوم عاشوراء في كلِّ سنة وقيل في تسع سنين[1]، ولا يخفى أنَّ المضارع للتجدُّد. و«ذَاتَ» ظرف، أي وقع التقليب في جهتهم اليمنى إلى اليسرى وفي اليسرى إلى اليمنى.

﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ الواو للحال.

(قصص) واسمه "قطمير"، وعن مجاهد: "قطمور"، وقيل: "ثور" وقيل: كلب تبعهم، وقيل: "ريان" وهو أصفر اللون، وقيل: أسمر، وقيل: كلون السماء، وقال رجل من أهل الكوفة: رأيته أحمر كأنَّه ثوب أنبجاني، قال قومنا: إنَّه رجل لا يتَّهم بالكذب، وإنَّ اسمه "عبيد" وقيل: فيه نمرة بيضاء ونمرة سوداء، وهو لواحد منهم، تبعه فطردوه فأنطقه ا لله: إنِّي مؤمن ومحبٌّ لأحباب ا لله، وقيل: لراع مرُّوا به مع غنمه فاتَّبعهم الراعي إيمانا با لله إذ أخبروه بقصَّتهم، فتبعه كلبه فطردوه ورفع يديه ودعا فأنطقه ا لله بذلك، وبأنِّي لا أضرُّ بل أنفعكم إذا رقدتم أحرسكم، ولَمَّا ناموا نام، ولَمَّا استيقظوا يقظ، ولَمَّا ماتوا مات معهم.

ويدخل الجنَّة كناقة صالح وكبش إسماعيل، وهو كلب حاله من أخسِّ الأحوال نال درجة الأبرار لحبِّه إيَّاهُم وصحبتهم، حتَّى كان يتلى في القرآن في مقام المدح. قال رجل: يا رسول ا لله متى الساعة؟ فقال: «**ما أعددت لها؟**» فقال: ما أعددت كثير صيام ولا صدقة ولا صلاة، ولكن أحبُّ ا لله ورسوله،

١- سيقول الشيخ فيما بعد: لا يصحُّ من ذلك شيء.

فقال: «**فأنت مع من أحببت**» وقال: «**المرء مع من أحبَّ**» قال أنس: فما فرحنا بعد الإسلام بأشدَّ من قول النبيء ﷺ: «**فأنت مع من أحببت**» قال أنس: فأنا أحبُّ الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم ولو لم أعمل بأعمالهم[1].

وقيل: كلبهم راعيهم، فساغ ما قيل: إنَّ أصحاب الكهف ثمانية، ولكن لا يلزم أن يكون منهم، ويناسبه قرآءة ﴿وَكَالِبُهُمْ﴾ أي صاحب كلب شبِّه به على أنَّه الباسط للذراع لا كلبه، ووجه الشبه الحفظ، ونصب «باسط» المفعول مع أنَّه للماضي غير مقرون بـ«الـ» لجعل الله حالهم الماضية كالحاضرة المشاهدة، لأنَّ المشاهدة تزيد قوَّة.

و«الوصيد»: الموضع الواسع أمام الكهف، أو هو الباب، أو العتبة، أو التراب، ولا باب ولا عتبة للكهف، فالمراد موضعهما منه لو بنيا، ويحتمل أنَّهما بنيا، وقيل: لا يختصَّان بما بني بل هما ولو للغار.

(قصص) وتقليبهم لئلاَّ تأكلهم الأرض، ردٌّ على من قال: إنَّهم في توابيت من ساج، إلاَّ أن يقال: نزعوا منها وجعلوا على الأرض أو ما يليهم من التابوت مثل الأرض، كما روي أنَّ ملكا مسلما جعلهم في توابيت من ذهب، فقالوا له في المنام: إنا لم نخلق من الذهب بل من الأرض، وإليها نعود فارددنا في التراب، فجعلهم في توابيت من ساج.

(قصص) ويروى أنَّ مؤمنَيْن من بيت "دقيانوس" كتما إيمانهما كَتَبَا

١- رواه **مسلم** في كتاب البرِّ والصلة (٥٠) باب المرء مع من أحبَّ، رقم١٦٣، من حديث أنس. ورواه **التبريزي** في كتاب الآداب (١٦) باب الحبُّ في الله ومن الله، رقم ٥٠٠٨. من حديث ابن مسعود.

عدَدَهم ودينهم وأحوالهم وأنسابهم وفرارهم من "دقيانوس" في لوحين من رصاص، وجعلاهما في تابوت من نحاس، وجعلا التابوت في البنيان لعلَّ الله يظهرهم لقوم مؤمنين، فيعلموهم، وقيل: كتب ذلك في لوح وجعل في خزانة الملك، وملك المدينة بعده رجل مؤمن اسمه "بيدروس"، وشقَّ عليه قول من يقول إنَّ الله يبعث الأرواح دون الأجساد، فتضرَّع إلى الله عَجَلَّ فألقى الله في قلب رجل أن يهدم سدَّ الغار، ويجعله حظيرة لغنمه ففتحه وبعثهم الله فرحين لم يتغيَّروا، وبعث كلبهم فأخبر الناس بهم فجاؤوهم.

(قصص) وروي أنَّهم بعد هذا الإحياء أرسلوا "تمليخا" للطعام فوجد المدينة تغيَّرت وغلب عليها أمر الإسلام، فجاؤوا به إلى الملك فأخبره "تمليخا" بشأنهم، فقال: يا قوم لعلَّ هذه آية من الله عَجَلَّ لنا، فانطلقوا بنا ليرينا أصحابه، فانطلق "ربوس" و"أسطيوس" من عظمائهم، وأهل المدينة فدخلا عليهم فوجدا في أثر البناء اللوحين في التابوت، فقرآهما فأرسلوا إلى الملك: أن أعجِل تر آية بعث الله فتية ماتوا أكثر من ثلاثمائة، فأتى وقال: أحمدك يا ربَّ السماوات والأرض تفضَّلت عليَّ، فاعتنقهم، ووقف بين أيديهم وهم جلوس على الأرض يسبِّحون الله ويحمدونه، فقالوا له: نستودعك الله، والسلام عليك ورحمة الله، حفظك الله وحفظ ملكك، ونعيذك بالله من شرِّ الإنس والجنِّ، فناموا، وتوفَّى الله أنفسهم، فجعل الملك عليهم ثيابهم وجعلهم في توابيت من ذهب على حدِّ ما مرَّ، وسدَّ الغار بحائط مسجد بناه عليهم، وجعل لهم عيدا عظيما في كلِّ سنة.

﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يا محمَّد أو يا من يصلح، ونظرت إليهم ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ﴾ «مِنْ» للابتداء، أو بمعنى عن ﴿فِرَارًا﴾ مفعول مطلق لـ«وَلَّيْتَ» وأجيز الحال والتعليل ﴿وَلَمُلِّئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ خوفا يملأ قلبك، لِمَا ألبسهم الله من الهيبة، أو عظم أجسامهم، أو انفتاح عيونهم وشدَّة صورة نظرها وبريقها، أو

وحشة مكانهم، أو كلٌّ ذلك، أو منعهم ا لله بالرعب حتّى لا يراهم أحد.

(قصص) وعن سعيد بن جبير عن ابن عَبَّـاس ﵁: غزونا مع معاوية نحو الروم، فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف، فقال معاوية: لو كشف لنا عن هؤلاء نظرنا إليهم، فقال ابن عَبَّاس: قد منع من ذلك من هو خير منك ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا...﴾ فقال معاوية: لا أنتهي حتّى أعلم علمهم، فبعث رجالا فقال: اذهبوا فانظروا، فلمّا دخلوا الكهف بعث ا لله عليهم ريحا فأحرقتهم، ويروى فأخرجتهم.

ظنَّ معاوية أنَّ منعهم عن الرؤية إنّما هو في زمانه ﷺ، أو ظنَّ أنّه قد ضعف حالهم بعدُ، أو ظنَّ أنّه قبل أن يبعثهم ا لله، أو رجا أنَّ ا لله قد خلق من لا يرعب، وابن عَبَّاس حمل الرعب على الدوام، وهو الظاهر لأنّه إذا كان ﷺ يرعب فغيره أولى، أو حمل الخطاب على العموم البدليّ لكلٍّ من يصلح، ودخل رجل شديد عليهم فابيضّت عيناه وتغيّر شعره إذ دخل، فكان يصفهم ويقول: هم سبعة وهم باقون إلى الآن بلا تغيير. ولا يصحُّ ما قيل: إنّه دخل عليهم رجل فوجدهم عظاما. وقيل: الرعب لطول شعورهم وأظفارهم، ويردُّه قول بعضهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ولو طالت ذلك الطول المفرط المدّعى لم يقل: ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ إلاّ أن يقال: قال ذلك قبل النظر إلى أظفارهم وشعورهم، وصحّح ابن عطيّة أنّهم بقوا على حالهم لم تزد شعورهم وأظفارهم وإلاّ كانت أهمَّ لهم، وهم لم ينكروا إلاّ تغيُّر بناء المدينة والإسلام فيها وعلى بابها.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما أَنَمْنَاهم أو أمتناهم آية لتطاول المدّة ﴿بَعَثْنَاهُمْ﴾ أيقظناهم أو أحييناهم ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ﴾ يديروا السؤال بينهم عن حالهم ومدّة لبثهم، فيتوصّلوا إلى ذكر حفظ ا لله لهم عن "دقيانوس"، وبعد أن يعلموا

طول المدَّة يزدادوا شكرا في توفيقهم إلى الحقِّ من البعث وأنَّ الله هو الربُّ وأنَّ له القدرة التَّامَّة.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ "مكسلمينا"، وهو كبيرهم ورئيسهم، ويناسبه عادة أنَّ "تمليخا" دونه ودونهم في الشرف، إذ كانوا يبعثونه لشراء الطعام لكن قد يكون ذلك لأنَّه أعرف بالطرق والإخفاء، وقيل: القائل صاحب نفقتهم "تمليخا".

والمعنى: قال لباقيهم وهو تابع لِمَا قد يصحُّ من قولهم إن قالوا ووافقوا الحقَّ، إلاَّ أنَّهم لم يعلموا إلاَّ بعد الإكشاف للناس.

﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ يا أصحابي وأنا معكم في الحساب. «كَمْ» ظرف زمان، أي: كم زمانا أو كم مدَّة، أو مفعول مطلق أي: كم لبث لبثتم، وذلك أنَّ الزمان والمدَّة واللبث تطلق على أدقِّ دقيق، وتطلق على قطع من ذلك، أو يقدَّر: كم يوما ﴿قَالُواْ﴾ أي الباقون ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا اَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ «أَوْ» للشكِّ على الصحيح، وتحتمل تنوُّع القول، أي قال بعض: يوما، وقال بعضهم: بعض يوم، وهو ضعيف، وقيل: للإضراب، ومع ضعفه هو أولى من التنويع، وكلاهما لا دليل عليه، ويقال: قالوا: لبثنا يوما لظنِّهم أنَّ الشمس غربت ثمَّ رأوها لم تغرب فقالوا: لبثنا بعض يوم، وفيه تفسير البعض بالأكثر، وذلك أنَّهم دخلوه عند طلوعها وبعثوا عند غروبها، ثمَّ تأمَّلوا شعورهم وأظفارهم فعرفوا أنَّ المدَّة طالت، و لم يدروا كم هي، فقالوا: كما قال الله ﷻ عنهم وقيل: راعهم ما فاتهم من الصلاة فقالوا ذلك.

﴿قَالُواْ رَبُّكُمُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ بلبثكم، أي بمدَّة لبثكم، أو بمدَّة لبثتموها، أو بالمدَّة التي لبثتموها، وقد مرَّ تصحيح أنَّهم لم يتغيَّروا بزيادة ولا نقص، وذلك في حال لم يجعل لهم الله هيبة، فعليه لم تطل شعورهم وأظفارهم، وإن صحَّ أنَّها

طالت فلعلّهم لم ينتبهوا لها عقب إيقاظهم، وانتبهوا لها فقالوا: ﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ...﴾ ومرَّ أنّه قيل: يُدخل عليهم فتقصُّ شعورهم وأظفارهم، ويقال: يقلّبون في كلِّ جمعة أو في كلِّ شهر أو في كلِّ عام **ولا يصحُّ من ذلك شيء.**

﴿فَابْعَثُواْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ بعثوا "تمليخا". والورِق: الفضّة، يؤنّث كما هنا ويذكّر، وهي الفضّة مسكوكة كما هنا، وهي كحافر البغل، أو غير مسكوكة.

(أصول الدين) والكسب لا ينافي التوكّل لأنَّ المتوكّل يعتقد أنَّ كسبه لا ينفع ولا يؤثّر إن لم ينفعه الله به، ولم يؤثّره.

والمدينة "طرسوس" بفتح الراء من بلاد الروم. و«لِيَنظُرْ» أي أهلها فحذف المضاف ﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أحلى وأرخص وأكثر، وأحلَّ لأنّهم نشأوا على ذلك، أو أرادوا الحلَّ فقط لا ربا ولا مغصوبا، ونحوهما من المحرَّمات.

وعن الضحَّاك: كان أكثر مال أهلها غصبا وهم زهّاد بعد الهروب، أو تحرَّزوا عن الذبائح التي تذبح للأصنام، وعن لحم الخنزير، وقيل: الأزكى الأرز وقيل: التمر، وقيل: الزبيب، وفي المدينة مؤمنون مستخفون وكافرون فيما قيل حين هربوا، وهو عن ابن عبَّاس، ويقال: فيها مسلمون مستخفون ومجوس، والإشارة إلى دراهمهم التي أخذوها من بيوت آبائهم حين هربوا، بل إلى ما بقي منها بعد صرف ما صرفوا، وضعوها عند رؤوسهم فوجدوها حين بعثهم الله.

وقيل: المدينة "أفسوس" بضمِّ الهمزة وإسكان الفاء، وقيل: هما واحدة تسمَّى في الجاهِلِيَّة "أفسوس" وفي الإسلام أو عند العرب "طرسوس"، وهذا يحتاج إلى نقل صحيح، والظاهر التغاير. ومنها خرجوا وقيل: غير التي خرجوا، والصحيح الأوَّل. و«أَيُّ» موصولة حذف صدر صلتها، أو استفهاميَّة علّق عنها

النظر على أنَّه قلبيٌّ وهو الظاهر.

(بلاغة) والآية من باب الأسلوب الحكيم، ويقال: أسلوب الحكم، ويقال: أسلوب الحِكم بالإضافة، وفي الأوَّل تجوُّز في الإسناد، وذلك الأسلوب هو تلقِّي المخاطب بما ليس مناسبا لكلامه، لحمله على وجه آخر لحكمة، ولذلك حصل اتِّصالها بما قبلها حتَّى فرِّعت بالفاء.

لَمَّا التبس الأمر عليهم في مدَّة اللبث قالوا: خذوا في الأهمِّ، وهو تحصيل المأكول، كما قال الحجَّاج لرجل: لأحملنَّك على الأدهم، يعني الحديد يقيِّده به، فقال الرجل: مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب، والأدهم: الفرس الأسود، ودلَّ له بذكر الأشهب أي الفرس الأبيض.

﴿فَلْيَاتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ ما تأكلوه، والهاء للطعام، و«مِنْ» للابتداء أو للتبعيض، وقيل: الهاء له أو للورق كما مرَّ أنَّه يذكَّر ويؤنَّث فـ«مِنْ» للبدل ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ يحتل في المعاملة لِئَلاَّ يغبن، وفي التخفِّي لِئَلاَّ يعرف فيها، أو في الذهاب أو الرجوع ﴿وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمُ, أَحَدًا﴾ تصريحا ولا كناية، أو تلويحا بما يعرفوننا به ولا بالتقصير في الإخفاء.

وعلَّلوا ذلك بقولهم: ﴿اِنَّهُمُ,﴾ إنَّ أهل المدينة التي خرجوا منها ﴿إِن يَّظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي يطَّلعوا عليكم بالمعرفة بعد الخفاء، أو إن تغلَّبوا عليكم بالظفر بكم ﴿يَرْجُمُوكُمُ,﴾ أي بالحجارة حتَّى تموتوا ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ﴾ يصيِّروكم، أو قال ذلك لأنَّهم كانوا قبل ذلك فيها، وإن لم يبلغوا فلنشأتهم معهم ومتابعتهم، ولو كانوا لا ذنب عليهم ﴿فِي مِلَّتِهِمْ﴾ من الشرك، بالقهر حتَّى تدخلوها أو تصيروا في تعب شديد من التقيَّة والمداراة، ولم يقولوا: «إلى ملَّتهم» بل «فِي مِلَّتِهِمْ» ذكرا لِمَا هو أشدُّ كراهة منهم له،

وهو التمكُّن في الكفر.

﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا﴾ إذ دخلتم، أو إذا دخلتم فيها ﴿أَبَدًا﴾ في الدنيا ولا في الآخرة، ولو كانوا يتّقون بإظهار الكفر لأنَّ قلب المسلم يأبى من هذا أيضا، وأيضا ربَّما أدَّتهم التقيَّة إلى دخول الكفر إلى القلب، وقيل: التقيَّة بلفظ الكفر لا يجوز لمن قبلنا، وأيضا قد لا يكتفون منهم بالقول بل يجبرونهم على الذبح للأصنام، أو السجود لغير الله.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما أيقظناهم أو أحييناهم، أو كما أنمناهم وأيقظناهم ﴿أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أوقفنا الناس أو أهل مدينتهم عليهم، وعلى حالهم لتزداد بصيرة من قال ببعث الأجساد والأرواح معا، وليؤمن بالبعث من أنكره أو شكَّ فيه، وأصل العثور السقوط مطلقا، وقيل: للوجه، واستعمل في الإطلاع على الشيء مجازا، وذكر بعض أنَّه حقيقة، وعلى الأوَّل العلاقة السَّببيَّة لأنَّ الساقط ينظر بأيِّ سبب سقط.

﴿لِيَعْلَمُوٓاْ﴾ أي ليعلم من أعثرنا عليهم ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ ببعث الأرواح والأجساد معا، أو موعود الله وهو البعث، وقيل: المراد كلُّ وعد وكلُّ موعود، فيدخل البعث بالأولى، وأكَّد ذلك بذكر الساعة بعدُ، تخصيصا بعد تعميمٍ ﴿حَقٌّ﴾ فكما قدر على إبقائهم مدَّة طويلة لا تعتاد بلا أكل ولا شرب نائمين أو موتى، وبعثهم بعدها يقدر على إحياء غيرهم من الموتى.

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ يوم القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ لأنَّ ثلاث مائة سنة وتسعا لا فرق بينها وبين ما هو أكثر ﴿إِذْ﴾ مفعول لمحذوف أي اذكر، أو ظرف متعلّق بقول محذوف، أي اذكر قولهم: «إِذْ...»، لا ظرف لـ«أَعْثَرْنَا» لأنَّ التنازع بعد الإعثار لا في حاله إلاَّ تجوُّزا للجوار أو توسُّعا في الوقت بأن يعدَّ

وقت الإعثار ووقت التنازع واحدا، وقع الإعثار في بعضه والتنازع في بعضه ﴿يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمُ, أَمْرَهُمْ﴾ الضمائر لأهل مدينة أصحاب الكهف، أو للناس المعثرين. و«أَمْرَهُمْ» مفعول لـ«يَتَنَازَعُونَ» كأنَّه قيل: يقتسمون أمرهم ويتجاذبونه، فبعضهم يقول: تبعث الأرواح وتبقى الأجساد معدومة، وبعضهم يقول: تبعث الأرواح والأجساد؛ أو الضميران الأوَّلان لأهل المدينة، وهاء «أَمْرَهُمْ» لأصحاب الكهف، بعضهم يقول: نبني عليهم بنيان بَيْعَةٍ لأنَّهم على ديننا فنعمل صليبا وناقوسا فيها، وقال المسلمون: نبني عليهم مسجدا يصلِّي فيه الناس بلا كفر، لأنَّهم على ديننا، وقال المشركون: نبني عليهم بنيانا على معتادنا، وقيل: «أمرهم»: مدَّة لبثهم، وقيل: عددهم، وقيل: هو كونهم بعد ذلك الإطلاع عليهم ماتوا أو ناموا كأوَّل مرَّة.

﴿فَقَالُواْ ابْنُواْ عَلَيْهِم﴾ حولهم ﴿بُنْيَانًا﴾ يسترهم، قال ذلك غير المسلمين والبنيان: مسجد، أو مدينة يسكنها الناس. والعطف على «يَتَنَازَعُونَ» وقيل: على محذوف، أي تحقَّقوا الآية من الله فقالوا: ﴿رَّبُّهُمُ, أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ بأبدانهم ونسبهم ومدَّة لبثهم وأحوالهم، هذا من كلام المتنازعين، وقيل: من كلام الله ﷻ ردًّا على الخائضين فيهم من المتنازعين، أو مِمَّن كان على عهده ﷺ من أهل الكتاب.

﴿قَالَ الذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ أمر الفتية بِالقُوَّةِ والتمكُّن ونفاذ الكلمة وهم المسلمون، وقيل: أهل أصحاب الكهف، وقيل: أكابر البلد ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ إسلاميًّا يُصلَّى فيه، فبنوه وسدُّوا به باب الكهف كما مرَّ.

(قصص) مرَّت أعوام بعد "دقيانوس" وملك المدينة مؤمن ، وفي المدينة قوم ينكرون بعث الأجساد إلاَّ الأرواح، فلبس المسوح وقعد على الرماد، وتضرَّع إلى الله فأعثرهم الله على أصحاب الكهف فآمن كثير ببعث الأجساد،

فقيل: علم الناس طول المدَّة بطول الشعور والأظفار طولا غير معتاد، وبقراءة ما في اللوح أو اللوحين المذكورات، ولأنَّهم ذهبوا بدراهم فيها اسم "دقيانوس" فأنكروها، وذهبوا به إلى الملك وهو مؤمن اسمه "بندوسيس"، فتبيَّن أمرهم وزمانهم بإخباره، وقال: أردت شراء التمر لأصحابي المختفين من "دقيانوس"، وقيل: قال: بعت كرمة لي أمس فعلم أنَّه لم يجد كنزا كما اتَّهمه الناس فأظهر الله أمرهم، فشكر الله، لَمَّا رأى شخصه ودرهمه استنكرهما فقال: لعلَّه من الفتية الهاربين عن "دقيانوس"، فقد كنت أسأل الله أن يرينيهم وسأله، فأخبره فقال لقومه: سيروا معه إلى الكهف لعلَّ الله يرينا آية، ولَمَّا وصلوا قال "تمليخا": أنا أدخل أوَّلا لئلاَّ يرهبوا، فأخبرهم أنَّ الأمَّة مسلمون، فقيل: خرجوا إلى الملك وعظَّموه وعظَّمهم فرجعوا إلى الكهف، وأكثر القول أنَّهم ماتوا حين كلَّمهم "تمليخا" ودفنهم الملك.

(فقه) وليس في ذكر بناء المسجد عليهم ما يبيح بناءه على القبر لأنَّ كهفهم ليس قبرا ولأنَّ جدار المسجد سدٌّ لباب الكهف، وليس المسجد على الكهف، ولأنَّ الكهف ليس قبرا وليسوا موتى، ولأنَّه تعالى لم يذكره بالجواز، ولصحَّة الحديث في النهي عن البناء على القبر، ففي مسلم بسنده عن أبي الهياج الأسدي قال لي عليٌّ: أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: **«أن لا تدع تمثالا إلاَّ طمسته ولا قبرا مُشْرِفًا إلاَّ سوَّيته»**[1] وقد روي عنه ﷺ: **«لعن الله الذين يتَّخذون المساجد على القبور»**[2].

١- رواه **مسلم** في كتاب الجنائز (٣١) باب الأمر بتسوية القبر، رقم٩٣ (٩٦٩) من حديث أبي الهياج الأسدي.

٢- رواه **البخاري** في كتاب المساجد (٢٢) باب الصلاة في البيعة، رقم٤٢٥ و٤٢٦... **ومسلم** في كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، رقم٥٣١. من حديث عائشة =

﴿سَيَقُولُونَ﴾ الواو هنا وفي الموضعين بعده للناس على عهد رسول ﷺ، أي سيقول بعضهم كذا ويقول بعضهم كذا، وقيل: لليهود الخائضين فيهم على عهد رسول الله، وقيل: الأوَّلان لنصارى نجران، والثالث للمؤمنين. و"نجران" قرية للنصارى بين الشام واليمن والحجاز كذا قيل، وفيه قصور، لتباعد ما بين تلك المواضع.

قيل: سيقولون لك يا محمَّد يخبرونك إذا سألتهم، وذلك أنَّ نصارى نجران عرب، وقيل: الأوَّل لليهود والثاني للنصارى والثالث للمؤمنين، وقيل: الواوات لمن في زمان بعثهم وبعده، لا في زمانه ﷺ، فالاستقبال بالسين لاعتبار ما قبل قولهم، أو السين للتأكيد.

﴿ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي أصحاب الكهف ثلاثة رجال معهم كلب، لأحدهم أو للراعي أو تملّكوا كلبا وصحبوه، وقدَّر بعض: ثلاثة أشخاص واختير لقوله: ﴿رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ لأنَّ الكلب غير رجل بل شخص، ولا يلزم ذلك لجواز استصحاب غير الجنس كأنَّه قال: ثلاثة رجال يربعهم كلب، ولا سيما أنَّه لأجل صحبتهم المباركة يعدُّ كأحدهم، ففيه إغراء على صحبة الأخيار، ولا يضرُّنا أنَّه تخيُّل شعريٌّ، لأنَّ له داعي الإغراء.

ويقال: الملك الذي بعثهم الله في زمانه نصرانيٌّ مؤمن يقول: عيسى رسول الله لا إله ولا ابن إله، لَمَّا جيء إليه بـ"تمليخا" وتكلَّم معه وأخبره، قال هو ومن معه: إنَّ آباءنا أخبرونا أنَّ فتية فرُّوا بدينهم من "دقيانوس" فلعلَّهم هؤلاء، فانطلقوا إليهم وتبعهم أهل المدينة مؤمنهم وكافرهم، ومن ذلك تدَّعي النصارى

=

وابن عبَّاس.

أنَّ أصحاب الكهف منهم، فقال السَّـيِّد: من نصارى نجران على عهـد رسـول الله ﷺ ثلاثة رابعهم كلبهم، وهو يعقوبيٌّ، ونسب هذا القـول إليهـم، ويقـال: وفـد نصـارى نجـران على النبيء ﷺ فجرى ذكـر أصحـاب الكهـف، فقـال اليعقوبيَّة من النصارى: ثلاثـة رابعهـم كلبهـم، وقـال النسـطوريَّة: منهـم خمسـة سادسهم كلبهم، وقال المؤمنون: سبعة وثامنهم كلبهم.

وكان أصحاب الكهف بعد عيسى عليه السلام، وقيل: قبله، وقيل: قبـل موسـى عليه السلام، لأنَّ علم اليهود بهم يوجب أن يذكروا في التوراة لكفر اليهود بـالإنجيل، فلا يذكرون ما فيه، وهو قول الحسـن وأبي بكـر وغيرهمـا، وصحَّحـه بعـض، والنسطوريَّة هم القائلون: إنَّ الله ثالث ثلاثـة، واليعقوبيَّـة هـم القـائلون: إنَّ الله هو المسيح ابن مريم، والملكانيَّة يقولون: عيسى عبد الله ورسوله.

﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ﴾ هم خمسة رجال أو خمسة أشخاص، والعطـف علـى مدخـول السين، فيكـون حكمهمـا منسـحب علـى «يَقُولُـونَ» كأنَّـه قيـل: وسيقولون، وكذا في الثالث، ويجوز العطف فيهما على السين ومدخولهـا، فـلا ينسحب حكمها عليهما، فيستفاد الاستقبال من المضارع ﴿سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ هـو قـول النصـارى أو العـاقب منهـم، وهـو مـن النسـطوريَّة، وجملـة «رَابِعُهُـمْ كَلْبُهُمْ» نعت لـ«ثَلاَثَةٌ»، و«سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ» نعت لـ«خَمْسَةٌ»، أو مسـتأنفتان ﴿رَجْماً بِالْغَيْبِ﴾ تعليـل لمحذوف، أي يقـول أصحـاب القولـين ذلـك رجمـا بالغيب، أو راجمين بالغيب، أو ذوي رجم، أو يرجمون رجما، فيجوز نصبه علـى المفعوليَّة المطلقة بـ«يَقُولُونَ». والكلام استعارة له من الرجم بالحجارة. والغيـب: الغائب من الإخبار، أو بمعنى المظنون. والباء للتعدية، شبَّه الغائب المظنـون بحجـر يرمى به ولا يصيب.

لأهل الكتاب، لعلمه ﷺ بمرجع الضمير.

(فقه) روي أنَّه سأل نصارى نجران عنهم فنهاه الله، ولا يحلُّ لمسلم أن يراجع أهل الكتاب في شيء من العلم إذ لا تؤمن خيانتهم وجهلهم.

(سبب النزول) وقد سأل أهل مَكَّة اليهود فقالوا: سلوه عن ذي القرنين وأصحاب الكهف والروح كما مرَّ فسألوه، فقال: «**غدا أخبركم**» ولم يقل: إن شاء الله، فلبث الوحي خمسة عشر يوما أو غيرها كأربعين وكثلاثة كما مرَّ، تأديبا له فنزل قوله تعالى: **﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ﴾** لأجل شيء، أو في شأن شيء **﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ﴾** شيئا ما من الأشياء بحسب الأحوال **﴿غَدًا﴾** أو بعد غد من المستقبل، وقيل: غدا عبارة عن مطلق المستقبل **﴿إِلَّا أَنْ يَّشَآءَ اللَّهُ﴾** الاستثناء منقطع، أي لكن المعتبر مشيئة الله. و«أَنْ» مَصدَرِيَّة أي إلاَّ مشيئة، أو مفعول لحال محذوفة أي إلاَّ شارطا مشيئة الله، أو إلاَّ ذاكرا مشيئة الله، أو إلاَّ ملتبسا بـ«إن شاء الله»، أي بذكر مشيئة الله، أو إلاَّ مقيِّدا بمشيئة الله.

ولا يصحُّ تقدير: «إلاَّ وقت مشيئته»، لأنه ليس المعنى على أنَّ القول وقت مشيئة الله، لأنَّا لا ندري الوقت الذي أراد الله إيقاع الفعل فيه من الفاعل.

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ﴾ بالاستثناء إذا ذكرت أنَّك لم تستثن كما قال: **﴿إِذَا نَسِيتَ﴾** الاستثناء وهو قولك: ﴿إِن شَآءَ اللَّهُ﴾ حال العقد لشيء أو الحلف، وذلك تدارك من الناسي لِمَا فاته لا إسقاط للحنث إذا فصل، أو لم ينو حال الحلف أن يستثني.

(فقه) وَلَمَّا نزلت الآية قال ﷺ: «**إن شاء الله**» فالاستثناء لا حدَّ له ولو طالت المدَّة، وكذا من جهل ثمَّ تعلَّم المسألة، يقول إذا تعلم: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» ولو طالت المدَّة وذلك كلُّه ما لم يحنث. قال ابن عَبَّاس: يستثني ولو بعد

سنة أو أكثر أبدا ما لم يحنث لدليل الآية، وعنه سنة، وعنه شهر، وعن سعيد بن جبير: أربعة أشهر، وعن الحسن وطاوس وعطاء: ما دام في المجلس، وروي عن عطاء: حلب ناقة، وعن مجاهد: سنتان، وقيل: ما لم يأخذ في كلام آخر، وذلك على الإطلاق، وقيل: لا يصحُّ الاستثناء ولو باتِّصال إلاَّ إن نوى أنَّه إذا تمَّ عقده أو يمينه استثنى، وقيل: يجوز في كلام الله فقط الفصل مطلقا لا في كلام غيره، إذ لا يغيب عنه بشيء، فهو مراد له، وقيل: يجوز الفصل للنبيء ﷺ لا لغيره من الناس، بحيث لا يخالف الآية.

(فقه) وخالف الفقهاء ابن عَبَّاس وأهل تلك الأقوال بالانفصال إلاَّ بنحو تنفُّس أو سعال، وإلاَّ لم ينعقد إقرار ولا طلاق ولا عتاق، ولم يعلم صدق ولا تخلف، وبهذا قال أبو حنيفة فأمر المنصور بإحضاره لينكر عليه، فقال: هذا يرجع عليه، فإنَّه يبايعك الرجل ويحلف وإذا خرج أو بدا له استثنى وقال: «إن شاء الله»، أو قال: «إلى وقت كذا»، أو: «إلاَّ إن كان أو لم يكن»، واستثنى في قلبه، أو سرًّا كما لا تسمع، فاستحسن كلامه ورضي عنه.

وحجَّة الفقهاء آيات وجوب الوفاء بالعهد وأحاديثه، وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فلا يختصُّ بما قال ابن عَبَّاس، فإنَّه يجوز أن يكون بمعنى إذا نسيت الاستثناء فاستغفر، وهو من باب التغليظ لأنَّ ترك الاستثناء ولو نسيان ذنب يجب الاستغفار منه.

ويجوز أن لا يكون راجعا لِمَا قبله بل بمعنى: اذكر عقاب ربِّك أو ربَّك وعقابه إذا تركت بعض ما أمرك به، أو بمعنى: اذكر ربَّك إذا غفلت عن ذكره واعتراك النسيان، والنسيان بمعنى الترك وارد، ولا مفعول للنسيان، ويبعد ما قيل: صلِّ صلاة نسيتها لأنَّ المحلَّ ليس لها.

(قصص) ويروى أنَّ مغربيًّا عالما أراد معرفة مرتبة علماء بغداد فسافر ودخلها من باب الكرخ، ومشى خلف رجلين يبيعان البقل في أطباق على رؤوسهما، وقال أحدهما للآخر: يا فلان كيف أجاز ابن عبَّاس تأخير الاستثناء؟ لو كان كما قال لقال ﷻ لأيُّوب: استثن الآن، ولم يقل له: ﴿فَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ﴾ (سورة ص: ٤٤) فرجع للمغرب، فقيل له فقال: رأيت من بائع البقل على رأسه ما ردَّ به على ابن عبَّاس، فكيف علماؤهم المتصدُّون للعلم! قال بعض علماء بغداد: **لا يثبت هذا النقل**.

﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَنْ يَّهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا﴾ من خبر أهل الكهف في الاحتجاج على رسالتي ﴿رَشَدًا﴾ مفعول ثان لـ«يَهْدِي» أو مفعول مطلق أي هداية، أو تمييز. وقد أجاب الله ﷻ دعاءه فآتاه قصص الأنبياء وأممهم وسائر المعجزات والأخبار الغائبة الماضية واللاحقة إلى قيام الساعة.

أو المراد أقرب رشدا مِمَّا نسيت، وقيل: هذا من جملة ما أمر بأن يقوله إذا نسي، قال بعض الكوفيِّين: إذا تذكَّر أنَّه لم يستثن فتوبته أن يقول: ﴿عَسَىٰٓ أَنْ يَّهْدِيَنِي رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ ولا يدلُّ عليه حديثٌ، ولا الآية، وإنَّما هو استحسان.

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاَثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ كما اختلف الناس في عددهم اختلفوا في مدَّة لبثهم، فهذا من جملة كلام الناس في أهل الكهف، قيل: قال بعض اليهود: ثلاثمائة سنين، وبعض: ثلاثمائة سنين وتسع، كما قال ﷻ: ﴿وَازْدَادُواْ تِسْعًا﴾ أي أصحاب الكهف لا الناس، أو أهل الكتاب كما قيل، ولكونه من كلامهم لا من كلام الله ﷻ.

﴿قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ بلبثهم أي بمدَّة لبثهم، فيكون من حيز قوله ﷻ: ﴿سَيَقُولُونَ...﴾ ويناسبه قراءة: ﴿وَقَالُواْ لَبِثُواْ﴾ وعلى أنَّه من كلامه تعالى فالمعنى: إنَّهم لبثوا ثلاثمائة وتسعا، وهو أعلم به، وهو الحقُّ لا ما خاض الناس فيه من غير هذا العدد. وواو «ازْدَادُوا» للناس، أي ازدادوا في العدِّ، أو لأصحاب الكهف، أي ازدادوا في اللبث، والصحيح أنَّه من كلام الله سبحانه.

لَمَّا نزلت الآية قالت نصارى نجران: أمَّا ثلاثمائة فقد عرفناها، وأمَّا التسع فلا علم لنا بها، فنزل: ﴿قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ أي لبثوا ثلاثمائة وتسع سنين قمريَّة، أو ثلاثمائة عجمية شمسيَّة، فتكون ثلاثمائة وتسعا عربيَّة قمريَّة كما روي عن عليٍّ، ولذلك البيان وللردِّ على من خالف قال ما نزل ولم يقل: ثلاثمائة سنين وتسعا ونسب ذلك لأهل الكتاب.

(فنك) وقيل: عن الحساب والمنجِّمين السنة الشمسيَّة ثلاثمائة وخمس وَسِتُّونَ يوما وخمس ساعات وتسع وأربعون دقيقة، والقمريَّة ثلاث مائة وأربعة وخمسون يوما وثمان ساعات وثمان وأربعون دقيقة، والتفاوت بين الحسابين قليل، وقيل: قال بعض أهل الكتاب: ثلاثمائة، وقال بعض: ثلاثمائة وتسع، ومعدود تسع سنون كما هي المذكورة قبل، ولو أريد تسع ساعات أو ليال جمع ليلة أو تسع جُمَعٍ لذكر ذلك، ولو أريد تسعة أيَّام أو أشهر لقرن بالتاء على الأفصح، ولذكرت الأيَّام أو الأشهر إذ لا دليل عليها.

ومنتهى ذلك العدد وقت نزول القرآن فيهم عند مجاهد، ووقت موتهم عند الضحَّاك، ووقت تغيُّرهم بالبلاء في قول، ووقت إطلاع الناس عليهم في آخر. ويروى أنَّ ابن عبَّاس مرَّ في غزوة بالكهف فوجد هو ومن معه عظاما، فقالوا: هي عظام أهل الكهف، فقال: أولئك قوم فقدوا مدَّة طويلة وفنوا، فقال راهب: ما كنت أحسب أنَّ أحدا من العرب يعرف ذلك، فقيل له: هو ابن عمِّ

نبيئنا ﷺ.

[قيل:] وعنه ﷺ: «**ليحجّنّ عيسى وأصحاب الكهف ويعتمرون، ويمرُّون بالروحاء، وهم حينئذ حواريُّون، ويتزوّج ويولد له، ويزورني في قبري، ويموتون عند رفع القرآن والكعبة**»[1] **والله أعلم بصحّة هذا.**

و«سِنِينَ» عطف بيان بالنكرة أو بدل، ولو كان لا يصحُّ في المعنى جعله في مقام المبدل منه على أن يراد بقولهم: في نية طرح المبدل منه أنَّ المقصود بالذات البدل. وعن الضحَّاك نزل: ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ﴾ فقيل: يا رسول الله أيَّامًا أم أشهرًا أم سنين؟ فأنزل الله: ﴿سِنِينَ﴾.

﴿**لَهُ**﴾ لا لغيره ﴿**غَيْبُ**﴾ علم غائب ﴿**السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ أي ما غاب عنكم فيهما، فهو العالم بأصحاب الكهف وشأنهم كلّه على الحقيقة.

(نحو) ﴿**أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ**﴾ أي به، حذف لشبه الفضلة لفظا كأمرر بزيد، وإلاَّ فالهاء فاعل والفاعل لا يحذف إلاَّ للضرورة أو للساكن صارت هنا ضمير رفع، والباء صلة وأساغ ذلك دخول الباء فكانت على أصلها من أنَّها ضمير، إمَّا للجرِّ أو للنصب، وذلك أنَّ "أبصر" و"أسمع" فعل ماض على صورة الأمر جاءت الباء لكونه على صورة الأمر، ولأنَّها لا تدخل على المستتر فبرز لتدخل عليه، وذلك عكس ما شهر من مجيء الماضي بمعنى الأمر أو الدعاء، وبهذا ضَعُفَ هذا القول وهو لسيبويه، وضعَّفه بعض أيضا بأنَّ زيادة الباء في الفاعل قليلة نحو: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (سورة الفتح: ٢٨)، وأنَّ من المطَّرد زيادتها في المفعول.

١- لم نقف على تخريجه.

(نحو) ومذهب سيبويه مبنيٌّ على أنَّ "مَا أَفعَلَهُ" و"أَفْعِلْ" بمعنى صار ذا كذا، ولا نسلّم أنَّ زيادة الباء مطَّردة في المفعول. وقال الأخفش: فعلُ أمرٍ خطابًا لكلِّ أحدٍ على البدليَّة لا الشمول، فالباء زائدة في لفظ يقال له مفعول به إن كانت همزة "أَفْعِلْ" للتعدية، وإن كانت للصيرورة فالباء للتعدية، وقد علمت أنَّا لا نسلّم زيادة الباء في المفعول اطّرادا، وهمزة التعدية أكثر من همزة الصيرورة كـ"أحسن" بمعنى صار ذا حسن مقيسة دون همزة الصيرورة، لا كما قيل: كلتاهما غير مقيسة، ويجوز أن تكون الهمزة معدِّية ويقدَّر المفعول أي أبصر الناس بدينه وأسمعهم به، ومعنى أحسن بزيد على مذهب الأخفش الأمر لكلِّ أحد أن يصفه بالحسن، أي صِفْهُ بالحسن كيف شئت فإنَّه أهل لأن يوصف بكلِّ خير لأنَّه جَمَع الخيور، وهذا المعنى أظهر في التعجُّب، والمعنى عند سيبويه: صار ذا كذا ثمَّ نقل إلى التعجُّب، ثمَّ نقل إلى صيغة الأمر بمعنى الإنشاء الذي في مثل قولك في الدعاء: «رحمه الله» و«رضي عنه» لا الذي هو معنى فعل الأمر نحو: «قم».

والآية تعجيب لعلم الله الأشياء المبصرة بالعين كلّها، وعلمه الأصوات كلّها لا يخفى عنه شيء من ذلك، وإن دقَّ. وعلمه بكلِّ شيء من السياق من قوله: ﴿وَلِلهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ (سورة هود: ١٢٣) ومن غير الآية، أو ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ عبارة بالكناية عن كلِّ شيء ولو كان مِمَّا لا يسمع ولا يبصر كالاعتقادات.

﴿مَا لَهُم﴾ لأهل السماوات والأرض المدلول عليهم بذكر السماوات والأرض، ودخل فيهم أصحاب الكهف ومن اختلفوا في عددهم دخولا أوَّليًا، لأنَّ الآية في شأنهم، لا كما قال ابن عطيَّة: الهاء لكفّار عصر رسول الله ﷺ، ولا لمؤمني السماوات والأرض كما أجيز، ولا للمختلفين في مدَّة لبث أصحاب

الكهف كما قيل: ﴿مِن دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يتولى أمرهم، من خير أو شر أو غيرهما ﴿وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ﴾ في قضائه، أو في أمره الشامل للفعل، لا يشاركه أحد في قول أو فعل، ولا يعاونه ولا يشاوره ﴿أَحَدًا﴾ من خلقه.

﴿وَاتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٧ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ۝٢٩ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَآئِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۝٣١﴾

توجيهات للنبيء ﷺ وللمؤمنين

﴿وَاتْلُ﴾ على الناس أو على أصحابك، أي اقرأ؛ ويجوز أن يكون اتّبعْ بالعمل ﴿مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ القرآن، ليستقرَّ في ذهنك ما فيه من شأن أهل الكهف، وسائر الأخبار الفرائض وغيرها، وتطّلع على ما لم يطّلع عليه أهل الكتاب، وتردَّ عليهم وتُتّبع على ذلك، ولا تكثرت بقولهم: ﴿ايتِ بقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا﴾ (سورة يونس: ١٥) . و«مِنْ» للتبعيض لأنّه يوحى شيء فشيء، أو للبيان أو للابتداء ﴿لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ لا يهمُّك مخالفة أهل الكتاب لك وإنكارهم، ولا قول قومك: ﴿ايت بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ فإنّه حقٌّ يجب

الوفاق فيه، لا يبدِّله الله، ولا يغيره أحد بنسخ ولا إبطال، والنسخ بالغير تبديل، والنسخ لا إلى شيء تغيير شبيه بالتبديل، فيجمع بين الحقيقة والمجاز، أو يراد مطلق التغيير، ولا قدرة لأحد على ذلك لأنَّ الله ﷻ حفظه، وهو مستمرٌّ مخبر بالغيوب، كما أخبرك عن شأن أهل الكهف. والآية أمر للنبيء ﷺ بالبقاء على ما هو عليه، وتهييج على زيادة التمكُّن فيه.

﴿**وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ**﴾ من دون الكتاب أو من دون الله ﴿**مُلْتَحَدًا**﴾ موضع ميل تميل إليه عنه، لو هممت به، لكنَّك لا تهتمُّ به.

﴿**وَاصْبِرْ**﴾ احبس ﴿**نَفْسَكَ**﴾ ولو أبت ﴿**مَعَ الذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم**﴾ يعبدونه مطلقا، أو يسألونه حوائجهم، أو يصلُّون الخمس، أو يقرؤون القرآن، أو يذكرون الحلال والحرام، روايات عن السلف، وأضعفها الأخير، **والصحيح الأوَّل** ﴿**بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ**﴾ عبارة عن إكثار الدعاء لا خصوص الوقتين، أو الغداة من الفجر إلى الزوال تسمية للكلِّ باسم الجزء، والعشيُّ: بمعنى المساء، أو الغداة صلاة الفجر يصلُّونها، والعشي: وقت الظهر والعصر يصلُّونهما، ويستثنى بالسُّنَّةِ الصلاة عند الغروبِ والتوسُّطِ والطلوع فيعبدون فيهنَّ بغير الصلاة، أو يسألون حوائجهم.

﴿**يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ**﴾ يريدون الله، أو الوجه بمعنى الرضى والطاعة، لأنَّ من رضيت عنه تُقْبِل إليه بوجهك، وقيل: بمعنى التوجُّه، أي التوجُّه إليه، وعلى كُلٍّ لا رياء.

(أصول الدين) وسلف قومنا يجعلونه وجها حقيقا بلا كيف فضلُّوا، ولم تغنهم البلكفة، وبعض سلفهم توقَّف.

﴿**وَلاَ تَعْدُ**﴾ عدا يعدو يتعدَّى بنفسه، وعدَّاه بـ«عَنْ» لتضمّن نبت عينه عنه

تنبو بمعنى احتقره ولو جالسه، فاختار لفظ «تَعْدُ» ليفيد أيضا معنى المباعدة مع الاحتقار؛ ويجوز كونه من المتعدِّي فيقدَّر المفعول به، أي لا تصرف عيناك عنهم النظر ﴿عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ نهى الله ﷻ النبيء ﷺ عن مجاوزتهم، والإعراض عنهم بتركهم بلا بدل أو ببدل.

(سبب النزول) والمراد نهيه هو عن أن يحتقر فقراء المسلمين كعمَّار وسلمان وصهيب وابن مسعود وبلال لفقرهم، ورثَّة ثيابهم ونحو ذلك من أمور الدنيا، التي لا تقدح في الدين، كما روي أنَّ أميَّة بن خلف ونحوه من كبار قريش، وعيينة والأقرع من المؤلَّفة قالوا: اطرد هؤلاء الفقراء لضعفهم، واتِّساخ ثيابهم بمجالسك، وننقل عنك، فنزلت الآية، لكن أميَّة في مَكَّة والمؤلَّفة في المدينة، والصحيح أنَّ السورة مَكِّيَّة، وقيل: إلاَّ هذه الآية، وقيل: السورة مَدَنِيَّة، وقيل: مَكِّيَّة إلاَّ أوَّلها إلى ﴿جُرُزًا﴾ [من الآية ١ إلى الآية ٨].

وَلَمَّا نزلت الآية قام رسول الله ﷺ يلتمسهم فوجدهم في مؤخَّر المسجد يذكرون الله تعالى، فقال: «**الحمد لله الذي لم يمتني حتَّى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمَّتي، معكم المحيا والممات**»[1] وهذا دليل على أنَّها نزلت في المدينة.

﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ أي زينتها الموجودة عند كُفَّار رؤساء قومك، وما وجد في المسلمين منها فجالسه لله ﷻ لا لها. والجملة حال من الكاف المضاف إليها، لأنَّ المضاف جزء من المضاف إليه هنا، ولأنَّه يقوم مقامه، كما

١- أورده **أبو نعيم** في الحلية: ج١، ص٣٤٥. في حديث طويل أوَّله قوله: «جاءت المؤلَّفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ عيينة بن حصين والأقرع بن حابس، وذووهم...». **والقرطبي** في تفسيره: ج١٠، ص٣٩١. من حديث سلمان الفارسي.

تقول: لا تعد، أي أنت، وهذه الحال جاءت على مقتضى طبع النفس بمعنى: إنَّه لو عدتهم عيناك لكان ذلك لحالهم الرثَّة، وذلك مقتضى المقـام، والقصـد: أن لا تعدو عنهم مطلقا، تريد زينة الحياة الدنيا أو لم تردها، إلاَّ أنَّ قومه قالوا له: اطرد الفقراء عنك ومن لا شأن له نؤمـن بـك ونجالسـك نحن، زيادة على شرطهم الأوَّل، وهو إن أخبرهم بقصَّة أهل الكهف، وذي القرنين آمنوا، فـنزل: ﴿وَاتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ... إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا﴾ فقـام ﷺ يلتمسـهم فوجدهـم في مؤخَّـر المسجد يذكـرون ا لله تعـالى، فـالتلاوة: القـراءة المستلزمة للعمل بما تضمَّنته.

﴿وَلاَ تُطِعْ مَنَ اَغْفَلْنَا قَلْبَهُ, عَن ذِكْرِنَا﴾ جعلنا قلبه غافلا، كأميَّة بن خلف من جملة من دعاك إلى طرد الفقـراء المسـلمين، ومـن لا يعبأ بـه مـن المسـلمين، والآية صرَّحت بغباوتهم لانهماكهم في المحسوسات الظاهرة وإعراضهم عَمَّا به الشرف الدائم دنيا وأخرى، وهو زينة الدين.

(أصول الدين) والآية نصَّت علـى أنَّ ا لله خلـق المعصية كمـا خلـق الطاعة، والجهلَ كما خلق العلـم، وإذا قلنـا: أغفلنـا قلبـه بـالخذلان فـالمراد نفـي الإجبار، لا الهروب عن خلق ا لله للمعصية، ومنعت المعتزلة ذلك، فقالوا: المعنـى وجدنا قلبه غافلا، أو نسبنا الغفلة إلى قلبه فرارا منهـم عـن نسبة القبيـح إلى ا لله سبحانه، كأجبنه بمعنى وجده جبانا، وأبخله بمعنى وجـده بخيـلا، وأقحمـه بمعنـى وجده مقتحما، أو نسبه لذلك، كقول معدي ركب لبني سليم: «قاتلنـاكم فمـا أجبنَّـاكم، وسـألناكم فمـا أبخلنـاكم، وهجونـاكم فمـا أقحمنـاكم» وفيـه نسـبة المصادفة إلى ا لله تعالى، وهي ممنوعة للزوم تقدُّم الجهل عنها، فالمعتزلة بل بعضهم يقولون: لا يعلم ا لله فعلا حتَّى يكون، وهو في معنى الإشراك.

أو أهملناه و لم نوفِّقه، وبه قال الرماني من المعتزلة، كقولهم: أغفـل إبلـه، إذا

تركها بلا وسم، عكس الذين كتب في قلوبهم الإيمان، قال الكميت وهو من الشيعة:

وطائفة قد كفّروني بحبّكم وطائفة قالوا مسيء ومذنب

أي نسبوني إلى الكفر، وذلك منهم خطأ فإنَّ الله هو القادر متأثِّر القدر لا قبح له في خلقه وهو خالقهم، وإنَّما القبح هو قولهم: إنَّه يقع في ملك الله ما لم يرده، وهو خلق العبد ما هو قبيح إذ نسبوا الخلق في ذلك إلى الفاعل، وليس في مذهبنا سوى أنَّ الله نهى عن القبيح وقد خلقه، فعصى عصيانا قارنه خذلان.

(أصول الدين) ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ استدلَّ به المعتزلة على مذهبهم في تفسير «أَغْفَلْنَا»، إذ لو كان المعنى كما قلنا: صيَّرنا قلبه غافلا، لقال: فاتَّبع هواه بالفاء التفريعيَّة، والتسبُّب على تصييرها غافلة، فلم يسند الاتِّباع إلى مشيئته تعالى، بل إلى شهواتهم، [قلت:] ويجاب بأنَّ القدرة المؤثِّرة ليست إلاَّ لله، كما قال: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ (سورة النساء: ٧٨) وللعبد قدرة كاسبة يصحُّ إسناد أفعاله الاختياريَّة إليه بسببها، وفعل العبد يكون بكسبه وبفعل الله، والإسناد إلى الكاسب حقيقة وإلى الخالق تعالى مجاز فيما هو كسب، وأيضا ليس النصُّ على التفريع وإنَّما هو بحسب القصد، فإنَّ المراد هنا الإخبار بوقوع شيئين الإغفال واتِّباعهم الهوى كما تقول: جاء زيد وأكرمته، إذا أردت الإخبار بأنَّه جاء وإنَّك أكرمته هكذا، وإن أردت التصريح بما هو سبب قلت: فأكرمته بالفاء، ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ تقدُّما على الحقِّ بحيث يكون خلفهم منبوذا.

(لغة) والمادَّة منبِّئة عن العجلة، كما يقال: فرط منه قول قبيح أي سبق، وفرس فرط: يسبق الخيل، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ (سورة طه: ٤٥) وفرطت القوم: سبقتهم إلى الماء، وفارط الغنم متقدِّماتها

إلى الوادي والماء، وفي الحديث: «**أنا فرطكم على الحوض**»[1] وأفرط جاوز الحدَّ. و«فُرُطًا» في الآية بمعنى: فارطا، أو مسرفا، أو مضيِّعا، أو مفروطا فيه.

[قلت:] ولا يقال: لم لا يطردهم جلبا للكثير والكبراء ليقوى الإسلام، لأنَّا نقول في ذلك إهانة للإسلام وللسابق إليه، وكسر لقلبه وتنفير عنه، وتقليل لمن يدخل فيه وتسبُّب في ردَّة من أسلم، وإساءة ظنّ بتفضيل أهل الدنيا، وأكثر الناس ليسوا بأصحاب مال ومرتبة، **وإنَّما الإسلام المرتبة العظيمة**، فمن سبق إليها فهو الفائز، والإسلام غير محتاج إلى شرف الناس، بل من أعرض عنه كُبَّ، ففي ذلك بيان من الله لهؤلاء الأشراف أنَّ نحو سلمان وعمَّار هو الشريف، وهكذا قل، ولا تحتاج أن تقول: إنَّ الله عالم بأنَّ هؤلاء لا يؤمنون، أو يؤمنون إيمانا ضعيفا.

ويدلُّ لِمَا قلت قوله تعالى: ﴿**وَقُلِ**﴾ لهؤلاء الذي أغفلنا قلوبهم ﴿**الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ**﴾ مبتدأ وخبر، أي الحقُّ آت أو ثابت من ربِّكم، لكن إذا قدرنا آت فالخبر «آت» لا «مِن رَّبِّكُمْ»، **وما أتى من غير الله مِمَّا لم يأذن به الله ليس بحَقّ، بل مجرَّد هوى.** أو «الْحَقُّ» خبر لمحذوف و«مِن رَّبِّكُمْ» حال مؤكّدة، أو خبر ثان، أي ذلكم الحقُّ من ربِّكم، أو هذا الحقُّ، أو الذي آتيتكم به، والمراد ما مرَّ من أوَّل السورة أو كلُّ ما أوحي إليه.

﴿**فَمَن شَآءَ فَلْيُومِن**﴾ بهذا الحقِّ المذكور، أو بالنبيء أو بالقرآن، وهذا من مقول القول، أو من الله تعالى ﴿**وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ لا أبالي بإيمانكم وكفركم، فإنِّي مثاب على تبليغي ولو لم تعملوا به، ولا يضرُّني كفركم ولا

١- رواه **البخاري** في كتاب الرقاق، باب في الحوض، رقم٦٢٠٥، من حديث ابن مسعد. ورواه **مسلم** في كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبيئنا ﷺ وصفاته، رقم٢٢٨٩، من حديث جندب.

أطرد الفقراء، آمنتم أو كفرتم؛ أو استعارة للخذلان بتشبيه من هو كذلك بحال المأمور بالكفر، والجامع عدم المبالاة.

(أصول الدين) والآية لا تقتضي استقلال العبد بفعله لأنَّ مشيئته الإيمان أو الكفر لا تكون إلاَّ بمشيئة الله ﷻ، ولا ينفذّها إلاَّ بإنفاذه تعالى، فإنَّه خالق لمشيئة العبد وإنفاذه لها ومشيئة العبد غير مؤثّرة، وأيضا قال الله ﷻ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَنْ يَّشَآءَ اللهُ﴾ (سورة الإنسان: ٣٠) والشرط لا يلزم أن يكون علَّة تَامَّة للجزاء، بل يكفي أن يكون سببا في الجملة كما في "المطوَّل"، ولو كانت مشيئة العبد مؤثّرة لاحتاجت إلى تقدُّم مشيئة لها عليها، فيتسلسل، بخلاف مشيئة الله لمشيئة العبد فإنَّها تقطع التسلسل، والآيات دالَّة على اختصاص الخلق بالله.

[قلت:] وأيضا كيف يكون العبد خالقا لفعله مع جهله بأجزاء فعله وغفلته وحاله وكيفيَّته؟ وأيضا قد يفعل بلا عمد كيف يخلق بلا عمد؟ ومذهبنا ومذهب الأَشعَرِيَّة واحد، وزعم أبو منصور الماتردي[1] أنَّ مشيئة العبد ليست بمشيئة الله بل مستقلَّة.

ومجموع الأمرين تهديد ويكفي، ولو اقتصر على الثاني لكفى تهديدا لا على الأوَّل. ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ هيَّأنا ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالإشراك، ويلتحق بهم الفسَّاق ﴿نَارًا اَحَاطَ بِهِمْ﴾ يحيط بهم ﴿سُرَادِقُهَا﴾ فسطاطها.

والإضافة بمعنى "من" التبعيضية، فهم على بعضها وتحت بعض هو

١- هو محمَّد بن محمود الماتردي، نسبة إلى «ماتريد» محلَّة بسمرقند شمال إيران، من أيمَّة المتكلّمين، وهو أصوليٌّ. من تصانيفه: «كتاب التوحيد» و«مآخذ الشرائع» في الفقه، و«الجدل» في أصول الفقه. الموسوعة الكويتية، ج١، ص٣٦٨.

سرادقها، ولو كانت كلُّها سرادق، والإضافة للبيان، وإلاَّ لزم أن يكونوا في أرض غير النار والنار سرادق عليها، نعم يجوز أن تكون السرادق من غير النار وهم في النار. وأضافها إلى النار لأنَّها في النار، وهي سرابيل من قطران غير النار، بل خلقة من الله، أو لباسهم وطعامهم وشرابهم المحرَّمة التي يتمتعون بها صيرت لهم سرادق.

ويجوز أن تكون الإضافة من أضافة المشبَّه به إلى المشبَّه. وقيل: السرادق جدار دائر بهم عرضه مسيرة أربعين عاما، وفي الحديث: «**سرادق النار أربعة جدر، كلُّ جدار مسيرة أربعين سنة**»[1] والمراد أنَّ هذه الجدر محيطة بهم كلِّهم.

وقيل: ﴿سُرَادِقُهَا﴾: دخانهما الشبيه بالسرادق على ما مرَّ من الاستعارة وبيان الإضافة والتشبيه الإضافي؛ وقيل: هذا الدخان هو المراد في قوله تعالى: ﴿انطَلِقُواْ إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ﴾ (سورة المرسلات: ٣٠) وإنَّه قبل دخول النار، وعن ابن عَبَّاس: حائط من نار، وعن الكلبي: عنق يخرج ويحيط بهم في المحشر، وزعم بعض أنَّ البحر المحيط يكون عليهم نارا، وزعم أنَّه ﷺ قال: «**البحر من جهنَّم**» وتلا الآية.

﴿وَإِنْ يَّسْتَغِيثُواْ﴾ من العطش **﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾** [المهل:] ما أذيب من حديد أو نحاس أو ذهب أو فضَّة أو رصاص ونحو ذلك، حتَّى صار في السيلان كالماء، وقيل: كدردي الزيت، ويقال: قيح ودم أسود، ويقال: ضرب من القطران بالغ في الحرارة.

(بلاغة) وذلك تهكُّم وتحقير حيث أجيبوا بضدِّ مطلوبهم، طلبوا

١- أورده **القرطبي** في تفسيره: ج١٥، ص١٥٧. **والبغوي** في كتاب شرح السنَّة: ج١٥، ص١٤٥.

ماء فأوتوا بعذاب، إذا قرب من وجوههم سقطت لحومها، وإذا شربوه قهرا خرجت أمعاؤهم من أدبارهم، ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ (سورة محمد: ١٥) ثمَّ يعادون كما قال [في آية ٥٦ من سورة النساء].
﴿بِيسَ الشَّرَابُ﴾ ذلك الماء، جملة «بِيسَ» مستأنفة، ولا يبعد أن تكون مقولا لنعت محذوف، أي مقول فيه: «بِيسَ الشَّرَابُ»، وهذا النعت كالنعت قبله، وهو «يَشْوِي» منعوته «مَاءً»، وكذا «كَالْمُهْلِ» نعت لـ«مَاءً»، أي ثابت كالمهل.

(نحو) أو النعت الكاف على أنَّها اسم مضاف لِمَا بعدُ، قيل: فيستتر فيه الضمير، لأنَّه بمعنى مشابه. وأجيز أن يكون «يَشْوِي» حالا من المستتر في الكاف، أو من ضمير الاستقرار، على أنَّ الكاف حرف، أو حال من «الْمُهْلِ» لأنَّ المهل ولو سيق للتشبيه لكن نعته بـ«يَشْوِي» تكميل لوصف الماء، فيكون كإيراد الشيء مع دليله.

﴿وَسَآءَتْ﴾ بيست النار ﴿مُرْتَفَقًا﴾ متَّكئا، وهو اسم مكان بمعنى موضع ارتفاق، أي اتِّكاء على مرفق اليد، أو هو مصدر ميميٌّ، أي ساء ارتفاقها، أي الارتفاق فيها، وعن ابن عَبَّاس: منزلا، وهذا مقابل لقوله: ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ وقوله: ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا...﴾ جيء على التهكُّم، فإنَّه لا اتِّكاء لأهل النار فيها كما تهكَّم بقوله: ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ﴾ كقوله: "تحيَّة بينهم ضرب وجيع"، وأمَّا قوله:

غضبت تميم أن يقتَّل عامر يوم النثار فأعتبوا بالصَّيْلم[1]

أي بالداهية، والنثار: ماء لتميم، فلا يلزم أن يكون تهكُّما لجواز أن يكون

١- البيت لبشر بن أبي حازم. لسان العرب، ج٩، ص٣٠، مَادَّة «عتب».

معناه: اصبروا للصيلم ولا تجزعوا، وذلك على صيغة الأمر لَمَّا كان مبنيا للمفعول فتهكّم.

(نحو) ﴿إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنَ اَحْسَنَ عَمَلاً﴾ خبر لـ«إِنَّ» الأولى والرابط «مَن» فهو من وضع الظاهر موضع المضمر، على أنَّ المراد بـ﴿مَنَ اَحْسَنَ عَمَلاً﴾ هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا يمنع هنا تنكير العمل، فإنَّه للتعظيم. اعتبر وضع الظاهر موضعه على وجه التعظيم، وإن أريد بالأوَّل الخصوص وبالثاني العموم كان الرابط العموم، أو بالعكس فالرابط محذوف، أي من أحسن منهم عملا، أو هذه الجملة معترضه، فيكون خبر «إِنَّ» الأولى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ وإذا جعلنا الخبر هو ﴿إِنَّا لاَ نُضِيعُ﴾ كانت هذه مستأنفة، أو خبرا ثانيا لـ«إِنَّ» الأولى.

والعدن: الإقامة ومنه المعدن لإقامة الجواهر فيه، والعمل الصالح: هو إحسان العمل، وإحسان العمل قيد في العمل الصالح، لأنَّ الإنسان قد يعمل صالحا ولا يحسنه، وعلى وضع الظاهر موضع المضمر، فالإحسان مراد في ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ وعلى غيره يكون الإحسان قيدا مخرجا لمن لم يتمَّ عمله، ولمن رَاءَى به، ولمن عمل محبطا، أو يراد الإحسان الذي هو: «**أن تعبد الله كأنَّك تراه**»[1] فتكون الآية في نوع من المؤمنين.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الاَنْهَارُ﴾ خبر ثالث أو مستأنف أو نعت «جَنَّاتُ» أي من تحت غرفهم كما قال ﷻ: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ (سورة سبأ: ٣٧) ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنَ اَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ خبر رابع أو مستأنف أو نعت

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٣، ص٩.

«جَنَّاتُ»، والمفعول الثاني محذوف منعوت بـ«مِنَ اَسَاوِرَ»، أي يحلّون فِيهَا حُلِيًّا مِن أسَاوِرَ، و«مِنْ» هذه للتبعيض من هذا المحذوف، أو بيان له، ويجوز أن يكون متعدِّيا لواحد فقط بمعنى يُعطَوْن حليًّا، فتكون «مِنْ» للابتداء، و«مِن ذَهَبٍ» نعت لـ«أَسَاوِرَ»، و«مِن ذَهَبٍ» بيان لـ«أَسَاوِرَ»، أو تبعيض له يتعلّق بمحذوف نعت «أَسَاوِرَ».

(صرف) والمفرد: إسورة وأسورة جمع سوار، وقال أبو عبيدة: جمع أسور بحذف الألف بعد الواو، ولو اعتبرت لقيل أساوير بالياء، أو حذفت من أساوير الياء، وقال أبو عمرو بن العلاء: إسوار مفرد لا جمع، وجمعه أساور بحذف ألف المفرد وكذا قال قطرب[1] وأبو عبيدة. وتنكير «أَسَاوِرَ» و«ذَهَبٍ» للتعظيم، والسوار: حلقة تلبس في اليد وفي الزند.

وكانت الملوك يزيّنون في أيديهم ويتوّجون في رؤوسهم في الدنيا، وتزيّن بها الأطفال الذكور أيضا، فلا عيب في لبس أهل الجَنّة لها بل جعلها الله لهم زينة يحبّونها، ولو كانوا لا يحبّونها في الدنيا طبعا، ولكلّ واحد من أهل الجنّة ثلاثة أسورة واحد من ذهب كما في هذه الآية، والثاني من فِضّة لقوله تعالى: ﴿وَحُلُّواْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ (سورة الإنسان: ٢١) والثالث من اللؤلؤ لقوله تعالى: ﴿وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (سورة الحج: ٢٣) أو لبعض من ذهب ولبعض من فِضّة ولبعضهم من اللؤلؤ بحسب أعمالهم، وأكثر التسوير في الدنيا للنساء، ويشترك فيه النساء والرجال في الآخرة.

١- هو محمّد بن المستنير بن أحمد أبو علي المشهور بقطرب، من أهل البصرة من الموالي، أخذ النحو عن سيبويه، وكان يرى رأي المعتزلة النظّاميّة. من تصانيفه: «معاني القرآن» و«متشابه القرآن». توفّي سنة ٢٠٦ هـ. معجم المفسِّرين، ج٢، ص ٦٣٦.

(لغة) والأصل دِسْتَاوِره، لفظ عجميٌّ تصرَّفت فيه العرب، فقالوا: سورت الجارية، وقالوا: سِوَار بحذف ألف "دست" وهاؤه وتاؤه وداله، **والصحيح أنَّه عربيٌّ**. وقيل: معرَّب "دسواره".

قال عكرمة: إسورتهم ذهب وفضَّة ولؤلؤ أخفُّ عليهم من كلِّ شيء، إنَّما هي نور، وعن أبي هريرة عنه ﷺ: «**تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء**»[1]، وعن كعب الأحبار: لله تعالى ملك يصوغ حليَّ أهل الجَنَّة من يوم خلق إلى يوم قيام الساعة، لو بدا واحد لأزال ضوء الشمس.

﴿**وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا**﴾ لأنَّ للخضرة طراوة زائدة على حسن الزرقة والسواد والبياض والحمرة والصفرة، ويتقوَّى بها نور البصر، ولا سواد في الجنَّة، والأخبار لا تخلو عن إثباته إلاَّ أنَّا لا ندري صحَّتها، كما يقال: لهارون لحية تضرب إلى سرَّته فنظنَّ أنَّها سوداء، وكما يقال: يفرق سواد بلال رضي الله عنه نقطا في خدود نساء الجنَّة.

(بلاغة) [قلت:] وإنَّما بنيت الحلية للمفعول واللباس للفاعل لأنَّه لعملهم الصالح الذي تناولوه هم، ولأنَّ المعتاد أن يلي الإنسان لباس نفسه ولا سيما إذا كان فيه ستر العورة أو مسُّها، والحليُّ أعطوه وهو زيادة من الله والملوك تلبسهم الحليّ ونحوه الخدم.

﴿**مِن سُندُسٍ**﴾ ما رقَّ من الحرير وأصله فارسيٌّ أو هنديٌّ، قولان، وأصله بالهنديَّة: "سندون"، وغيَّرته الروم إلى "سندوس" والعرب إلى "سندس" ﴿**وَإِسْتَبْرَقٍ**﴾ ما غلظ منه، وقيل: حرير منسوج بالذهب، فارسيٌّ عرِّب، وأصله:

١- رواه **مسلم** في كتاب الطهارة (١٣) باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء، رقم ٤٠ (٢٥٠) من حديث أبي هريرة.

استبر بلا هاء، أو رومي أصله استبره بالهاء، أو استبره بالباء الفارسية بعد التاء وبالهاء، وقيل: هو عربيٌّ من البريق، وهو استفعل كاستخرج جعلوه اسم جمع.

لهم ذلك لأنَّ لهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ العين وكلٌّ قد يشتهي لغرض، وفي قوله تعالى: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الاَنفُسُ﴾ (سورة الزخرف: ٧١) تلويح بأَنَّ في الجَنَّة غير الخضرة، لأنَّ الحرير أبيض ما لم يصبغ، وفي الجَنَّة خلقه الله أخضر بلا صبغ، قيل: يا رسول الله ثياب الجنَّة منسوجة أو مخلوقة؟ قال ﷺ: «**تنشقُّ عنها ثمار الجنَّة**»[1] وعن أبي الخير مرثد بن عبد الله[2]: «**في الجَنَّة شجرة تنبت السندس ثيابا لأهل الجنَّة**»[3] وعن سليم بن عامر: «**إنَّ الرجل يكسى في الساعة الواحدة سبعين ثوبا وإنَّ أدناها كشقائق النعمان**»[4] وعن كعب: «**لو أنَّ ثوبا من الجنَّة بدا لصعق أهل الدنيا وما حملته أبصارهم**»[5].

﴿مُتَّكِئِينَ﴾ حال من واو «يَلْبَسُونَ» ﴿فِيهَا عَلَى الاَرَآئِكِ﴾ السرر في الحجلات بهيئة المتنعِّمين من الاتِّكاء، قال ﷺ: «**يمكث الرجل في متَّكاه أربعين سنة ما يملُّه**»[6] عن ابن عَبَّاس: «**الأرائك فرش منضودة في السماء**

١- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢٤٤، وقال: أخرجه الطيالسي والبخاري في تاريخه والنسائي والبزار وابن مردويه والبيهقي في البعث، عن ابن عمر.

٢- أبو الخير مرثد بن عبد الله اليزني المصري، عالم الديار المصرية ومفتيها، حدَّث عن أبي أَيُّوب الأنصاري وغيره. تُوُفِّيَ سنة ٩٠ هـ. تهذيب سير أعلام النبلاء، ج١، ص١٤٦.

٣- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢٤٤. وقال: أخرجه البيهقي عن أبي الخير مرثد بن عبد الله.

٤- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢٤٤. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم عن سليم بن عامر.

٥- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢٤٤. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم عن كعب.

٦- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢٤٤. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم عن الهيثم بن مالك الطائي.

مقدار فرسخ»[1] وأصله من الأراك وهو شجر، أو من الأروكة وهي الإقامة على رعي الأراك، وهو عربيٌّ ﴿**نِعْمَ الثَّوَابُ**﴾ الجنة وما فيها ﴿**وَحَسُنَتْ**﴾ أرائكهم ﴿**مُرْتَفَقًا**﴾ موضعَ اتّكاءٍ وهو حال، أو اتّكاءً وهو تمييز، ولو كان معناه من المتّكئين لا من السرر.

وَلَمَّا ذكر الله ﷻ جزاء الظالمين أصحاب الأموال المحتقرين للمسلمين الفقراء الناهين، ذكر مثل ذلك بضرب المثل برجل مشرك متعظّم بماله على رجل مسلم ينهاه فقال:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ

١- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢٤٤. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عبَّاس.

عُقْبًا ﴿٤٤﴾

صاحب الجنتين

مثل الغنيّ المغترّ بماله والفقير المعتزّ بعقيدته

﴿وَاضْرِبْ لَهُم﴾ للمشركين ﴿مَثَلاً رَّجُلَيْنِ﴾ للكافرين والمؤمنين ضعفاء المؤمنين، وصناديد المشركين الطالبين لطردهم عن مجلسه ﷺ، أو مطلق المؤمن والكافر، فيدخل هؤلاء دخولا أوَّليًّا، أو لا يلزم أن يكون المشبَّه به محقَّقا، بل يجوز أن يكون مقدَّرا مفروضا.

(قصص) والصحيح أنَّهما كانا رجلين موجودين، فقيل: كانا أخوين إسرائيليَّين، كافر اسمه "قُرطوس" بقاف مضمومة، وقيل: بفاء مضمومة، وقيل: "قطفير"، ومؤمن اسمه "يهوذا" ورثا من أبيهما ثمانية آلاف أنصافا، فاشترى الكافر بسهمه ضياعا وعقارا، وجعل المؤمن سهمه في وجوه الخير، وقيل: كانا حدَّادين جمعا مالا، ويروى أنَّ الكافر اشترى أرضا بألف فتصدَّق المؤمن بألف لأرض في الجَنَّة، أو دارا بألف فتصدَّق المؤمن بألف لدار في الجنَّة، أو تزوَّج امرأة بألف فتصدَّق المؤمن بألف للحور، أو اشترى خدما بألف، فتصدَّق المؤمن بألف لولدان الجنَّة، وفي كلِّ ذلك يقول: «لك يا الله» وافتقر وتعرَّض لأخيه في طريقه فمرَّ به مع حشمه فوبَّخه على تصدُّقه ولم يعطه.

وقيل: الرجلان أخوان من بني مخزوم بطن من قريش، وقوله تعالى: ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ لا ينافي الأخوَّة، كافر وهو الأسود بن عبد الأشد، بالشين المعجمة، وبعض ضبطه بالمهملة، ومؤمن وهو أبو سَلَمة عبد الله زوج أمِّ سَلَمة قبل النبيء ﷺ، بفتح سين سَلَمة ولامه في أبي سَلَمة وفي أمِّ سَلَمة، وهي من

أُمـَّهَات المؤمنين.

﴿جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنَ اَعْنَابٍ﴾ مستأنف تفسيرا للمثل، أو نعت لـ«رَجُلَيْنِ» مفيد للتمثيل، والمعنى: بستانان من شجر الأعناب على تقدير مضاف، والأعناب: شجر العنب مجاز أو يقدَّر مضاف، أي من شجر أعناب ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ جعلنا النخل حافَّة بهما، أي محيطة، والجنَّة عبارة عن شجرها فبيَّنها بقوله: ﴿مِنَ اعْنَابٍ﴾ و«مِنْ» للبيان، أو يقدَّر: شجرها من أعناب، والنخل مقوٍّ لها فالعنب أشرف من التمر، والتمر أشرف من غيره، والنخل خارج عن الجنَّتين لأنَّهما جنَّتان بالعنب، والنخل أحاط بهما.

(لغة) ويقال حفَّه القوم أحاطوا به، وحففته بالقوم جعلتهم حافِّين، فالباء للتعدية إلى مفعول ثان كهمزة التعدية، كأنَّك قلت: أحففتهم إيَّاهُ، أي جعلتهم حافِّينه بنصب محلِّ الهاء على المفعوليَّة، وتعديته بالباء أولى منها بالهمزة. والمراد: كلُّ جنَّة منهما مدوَّر عليها بنخل على حدة.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا﴾ بين كلِّ جنَّة ونخيلها والأخرى ونخيلها ﴿زَرْعًا﴾ فيحصل من ذلك القوت العظيم والبقول، كلُّ وقت بما ناسبه من المحروث، ولا يحتاج مالكهما إلى غيرهما، لأنَّ ذلك برٌّ أو شعير أو نحوهما وفواكه وعنب، ولا يختصُّ الزرع بنحو البرِّ، بل يصدق أيضا بنحو البطيخ، والزرع بمعنى المصدَرِيَّة أي قبول الحرث، أو مفعول أي ننبت بينهما ما يحرث، أو يقدَّر: أرض زرع.

﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتُ اكْلَهَا﴾ مأكولها، أي ما يؤكل مِمَّا فيها، ولم يقل: آتتا، لأنَّ المعنى: كلُّ واحدة آتت أكلها، وتقول: كلٌّ من المرأتين قامت، ولا تقول: قامتا إلاَّ بنظر للمعنى، وهو ضعيف، ويناسب ما ذكر قراءة: ﴿كُلَّ

الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَى أُكُلَهُۥ﴾.

(صرف) و«كِلْتَا» مفرد اللفظ مثنّى المعنى عند البصريِّين، وهو المشهور، ومثّى لفظا ومعنى عند البغداديِّين، وتاؤه عند البصريِّين بدل من واوه، وأصله كلوى، وهو قول سيبويه، وألفه للتأنيث وتاء التأنيث لا تكون وسطا وما قبلها لا يكون ساكنا صحيحا، فيعرب بحركة على الألف، رفعا وعلى الياء جرًّا ونصبا وقال الجرمي[1] منهم: تاؤه زائدة وألفه بدل عن واو.

﴿وَلَمْ تَظْلِم﴾ لم تنقص ﴿مِنْهُ﴾ من أكلها ﴿شَيْئًا﴾ من شأنه أن يؤتى به، أو شيئا يعهد في سائر البساتين، والثمار عادة تارة تِتمُّ وتارة تنقص، هذا تفسير ابن عَبَّاس ﷺ، وهو تفسير باللازم على أنَّ أصل الظلم التعدِّي في حقِّ الغير وهو نقص، فإن كان بمعنى النقص اللازم فـ«شَيْئًا» مفعول مطلق، أي لم تنقص منه نقصا، أو من النقص المتعدِّي فمفعول به، وهو المتبادر من قوله: ﴿مِنْهُ﴾، والمعنى: لم تترك من أكلها شيئا؛ وإسناد عدم الترك إليها مجاز عقليٌّ، والواضح أنَّ الظلم أصله النقص وهو حقيقة فيه مجاز في التعدِّي، فظلمه بمعنى نقصه واحتقره.

﴿وَفَجَّرْنَا﴾ أنبعنا بتوسيع ﴿خِلَالَهُمَا﴾ وسط كلِّ واحدة ليدوم شربهما وبهاؤهما ﴿نَهَرًا﴾ فذلك نهران اثنان، أو ﴿خِلَالَهُمَا﴾: بينهما، كالزرع، أو من جانب إحداهما، أو بإزاء الزرع، فهو نهر واحد تسقيان منه، ويدخلهما ماؤه فكأنّه مفجَّر في داخلهما، وليس ضمير التثنية في «خِلَالَهُمَا» مراعاة لمعنى «كِلْتَا» بل للجنّتين. ويقال: ذلك في الرملة من أعمال مصر القاهرة يسمَّى نهر

١- الجَرْمي إمام العَرَبيَّة صالح بن إسحاق البصري، صاحب التصانيف، كان صادقا ورعا خيِّرا أخذ العَرَبيَّة عن الأخفش وغيره، له كتاب «غريب سيبويه»، وكتاب «العروض». توفي سنة ٢٢٥ هـ. تهذيب سير أعلام النبلاء، ج١، ص٣٩٤.

"أبي فرطس".

﴿وَكَانَ لَهُۥ﴾ للأحد ﴿ثُمُرٌ﴾ أنواع من المال غير الجنَّتين والزرع والنهـر، من الذهب والفضَّة والدوابِّ والمتاع وغير ذلك، هذا مقتضى كلام ابن عَبـَّاس، من ثَمُرَ ماله إذا كثر، أي ثمر كثيرة، فالكثرة من المَادَّة ومن التنكير، وقال مجاهد: الذهب والفضَّة، وقيل: المال والولد، جمع ثمار، وثمار جمع ثمر فجمع الجمع علـى وِزَانِ جمع المفرد ككتاب وكتب، أو جمع ثَمَر بفتحتين كخشب وخشب.

﴿فَقَالَ﴾ الرجل الكافر ﴿لِصَاحِبِهِۦ﴾ هو الرجل الآخر المؤمن، عبَّر عنهمـا بعنوان الصحبة والاقـتران وذلـك لا ينـافي الأخـوَّة ﴿وَهُوَ﴾ أي الرجـل الكـافر صاحب الجنـتين، أو المؤمن الصاحب وكذا يجوز فيمـا بعـد، والأَولى أنَّ «هُـوَ» هنا للكافر وهنـاك للصـاحب المؤمـن. والـواو للحـال، وصـاحب الحـال ضمـير «قَالَ» أو «صَاحِبُ» ﴿يُحَاوِرُهُۥ﴾ يراجعه في الكلام، الكـافر يرغـب في الدنيـا ويصوِّب رغبته، ويتكلَّم بشأنها ويفخر، والمؤمن ينهاه عن ذلك ويعظه.

﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ رجالا، مـن العشـيرة وأولاده وحشـمه، وكلُّ من ينفر معه في شدَّة ويذبُّون عنه، وعشيرتهم واحدة، وللكافر منها أعوان دون المؤمن، فلا دليل على أنَّهما من عشيرتين بـلا أخـوَّة، أو بـأخوَّة مفـترقتين، وإنَّما ذلك لو فسَّرنا النفر بنفس العشيرة، لا برجال منها، وقيـل: النفـر الأولاد، ويدلُّ له قول الآخر: ﴿أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا﴾.

﴿وَدَخَلَ﴾ مع صاحبه المؤمن آخذا بيده ليريه بهجة الجنَّة وحسـنها، ويـدلُّ لدخوله معه إشارة الحضور في قوله: ﴿هَذِهِۦ﴾ وهـو الطـالب لدخـول الصـاحب ﴿جَنَّتَهُۥ﴾ حقيقة الجنَّة لتشمل الجنَّتين، أو الإضافة للاستغراق، أو أفرد لاتِّصـال الجنَّتين فكأنَّهما واحدة، أو تكلَّـم علـى الـتي دخـل أوَّلا ويدخـل بـه بعـد ذلـك

الأخرى فنعلمه بالقياس.

أو أفرد على معنى أنَّ لصاحبه المسلم ومثله جنّة الآخرة ولذلك الكافر جنّته في الدنيا، وهي الجنّتان لا جنّة له في الآخرة، ولا يأبى عن هذا أنّه دخل كما قيل، لأنَّ المعنى دخل فيما هو عوض عن حظّه في جنّة الآخرة، وعلى هذا فالعهد المفاد بالإضافة معتبر بعلم ا لله جنّة الآخرة.

﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بشركه وعجبه الذي أفضى به إلى السوء، وفسَّر هذا الظلم بقوله: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾ تنقطع ﴿هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ إلى قوله: ﴿مُنقَلَبًا﴾، أدَّاه عجبه ومبالغته فيه إلى أن ذهب حسُّه عَمَّا شاهده من فناء الشجر وغيره، فلم يَظُنَّ أن تبيد وظنَّ أن تدوم أبدا.

ويحتمل أن يريد بالأبد مدَّة حياته، أو مع حياة أولاده بعده إن حيوا بعده، والإشارة إلى الجنَّة المذكورة بأوجهها آنفا، وقيل: الإشارة إلى السماوات والأرض وأنواع الخلق أو إلى الدنيا.

﴿وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ﴾ المعهودة عندك أَيُّهَا المؤمن وعند مثلك ﴿قَآئِمَةً﴾ ثابتة ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ بالبعث كما تزعم أَيُّهَا الصاحب المؤمن وأمثالك ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهُمَا﴾ من الجنّة، إمَّا أن يضمر لصاحبه بضمير الجنّتين لحضورهما وعلم صاحبه بهما، وإمَّا أن يجرى كلام بينهما في شأنهما معا فردَّ الضمير إليهما له، وإمَّا أن يذكرهما لصاحبه بلفظ الجنّتين، فذكرهما ا لله سبحانه بالمعنى، وهو ضميرهما، والذي هو خير منهما جنّتان أفضل منهما في الآخرة أو جنّات أفضل أيضا.

﴿مُنقَلَبًا﴾ موضع انقلاب أَنْقَلِبُ إليه ويدوم لي، على تقدير صحَّة أنَّ الساعة ستقوم موضع ما يعطى في الآخرة، والموضع الجنّة فيها خير من موضع

جنّتيه وهو الدنيا، أو معناه: انقلابا، ونسبة الانقلاب لأنَّ الانقلاب إلى ما يعطاه في الآخرة خير من الانقلاب من داره مثلا في الدنيا إلى جنّتيه فيها، وإلاّ فليس الانقلاب فعلا لهما ولا لِمَا في الآخرة له لو كان، بل اتّصفَ ذلك بالانقلاب إليه، ظنَّ لعنه الله أنَّ الله أعطاه الجنّتين في الدنيا مع [ما] معهما لتأهُّله لذلك، وأنّه يستحقُّ ذلك بعد موته أيضا ويتأهَّل له، ولم يدر أنَّ فتح باب من أبواب الدنيا قد يكون استدراجا لصاحبه.

(أصول الدين) أمَّا كفره بقوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ فواضح وهو كفر شرك، وأمَّا كفره بقوله: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾ فقد قيل به، **وفيه نظر** إلاّ إن أريد بدوامها أنّه لا قيامة فهو إنكار للساعة كقوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ والواجب الجزم بها، والظانُّ بها والشاكُّ والمرجِّح لعدمها كالمنكر لها، وأمَّا قوله: ﴿لَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ فإشراك باقتصاره على الشكِّ ولم يجزم بالبعث، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيَ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ (سورة فصّلت: ٥٠) وأمَّا دخول الجنّة إن اعتقده مع شرك فإشراك، أو مع توحيد وفسق فنفاق.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ أخوه المؤمن **﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥ أَكَفَرْتَ بِالذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾** بخلق أبيك آدم منه والمخلوق مِمَّن خلق من تراب مخلوق من التراب، أو بخلقك من طعام أصله من الأرض، وجعل عدم الإيمان بالبعث شركا من طريق أنّه من لم يستكمل خصال التوحيد فهو مشرك، كخطاب الوضع، ويجوز أن يكون من طريق أنّه شبَّه الله بخلقه، في عجزه عن البعث، فكأنّه جعل لله شريكا وهو خلقه، إذا اشتركا في العجز عن البعث تعالى الله عن العجز عن البعث، وهو قادر عليه وفاعل له.

(أصول الدين) والأوَّل شامل لمن أنكر البعث لعدم إمكانه في زعمه، وعدم تعلُّق القدرة بالممتنع حقٌّ، فإنَّ من أنكره بهذه الطريقة أو لم يجزم به مشرك أيضا، ويدلُّ على أنَّ هذا الكفر إشراك تعريض صاحبه بقوله: ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيَ أَحَدًا﴾. أو يقال: المراد أكفرت مثل كفران قدرته العليَّة على كلِّ ممكن ؟! ومن جملته القدرة على الإعادة، فيكون منكرا للواجب تعالى، لأنَّ واجب الوجود من له قدرة كاملة، وإنكار القدرة الكاملة إنكار لواجب الوجود وهو إشراك.

(أصول الدين) وكذا تقول في سائر الصفات، واجب الوجود: من له علم محيط بكلِّ شيء، وواجب الوجود: من لا أوَّل له، وكذا أفعاله، مثل أن تقول: واجب الوجود هو الخالق، وكلُّ واحد من الشكِّ في قدرة الله على البعث، والشكِّ في إخباره ﷻ بالصدق، والشكِّ في أنَّ البعث لحكمةٍ شركٌ. وقد قيل: إنَّه مشرك قبل قوله ذلك، ألا ترى إلى تعريض صاحبه بالشرك له إذ قال: ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيَ أَحَدًا﴾ ونفس قوله: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمُ اشْرِكْ بِرَبِّيَ أَحَدًا﴾.

والاستفهام توبيخ وإنكار، وعلَّق الحكم بالخلق لمزيد القبح في إنكاره مَن هو خالق له، والتلويح بأنَّه كما قدر على خلقك قدر على بعثك، وهذا أهون في بادئ الرأي، كيف لا يقدر على خلقه من يخلق الشيء إذا شاء لا من شيء. ومعنى خلقه من تراب: خلق أصله البعيد من تراب، وهو آدم أو أصله القريب وهو مأكوله المتولّد من النبات المتولّد من التراب، أو الدم المتولّد من المأكول المتولّد من النبات المتولّد من التراب.

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ متولّدة من الدم المتولّد مِمَّا ذكر ﴿ثُمَّ سَوَّيٰكَ رَجُلًا﴾ أي ثمَّ سوَّاك فعدَّلك كما في سورة الانفطار [آية ٨] إلى أن صرت رجلا، فإنَّ التسوية جعل الأعضاء سليمة مسوَّاة معدَّة لمنافعها، والتعديل: جعل البنية معتدلة

متناسبة الأعضاء، ولعلَّ التسوية هنا تعمُّ التعديل إذ لم يذكره، أو لم يذكره هنا لذكره في سورة أخرى [الانفطار]. و«رَجُلاً» مفعول ثان لأنَّ التسوية جعل، وقيل: حال، وفي كونه رجلا زيادة دلالة على القدرة وامتنان بالرجوليَّة.

﴿لَكِنَّا﴾ نقلت فتحة همزة «أنا» إلى نون «لكن»، فحذفت الهمزة فالتقت النونان فأدغمت الأولى بعد إسكانها في الثانية، كما سكِّنت نون «مَكَّنَ» المفتوحة فأدغمت في نون الوقاية في قوله تعال: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ (سورة الكهف: ٩٥) وذلك أنَّ الهمزة تحذف بعد نقل حركتها.

(صرف) فلا يقال هذه الدعوى كاللعب، هلاَّ حذفت الهمزة متحرِّكة وتبقى النون على سكونها فتدغمها، ومن شأن الهمز الحذف بعد نقل حركتها، فالقاعدة حذفها بعد نقل حركتها، لا حذفها مع حركتها مرَّة واحدة، وعبارة بعض: حذفت بعد نقل حركتها ليمكن الإدغام، وألف «أنا» بعد النون لا ينطق بها لعدم الهمزة المضمومة أو المفتوحة بعدها. قال بعضهم: الأصل إثبات ألف في «أنا» في الوقف وحذفها في الوصل

(قراءات) وفي رواية عن نافع إثباتها وقفا ووصلا، وذلك لغة تميم، وغيرهم لا يثبتها في الوصل إلاَّ ضرورة، وقيل: إثباتها في الوصل غير فصيح، وإنَّه إنَّما أثبتها بعض القرَّاء هنا لشبهه بألف «نا»، ولأنَّ الألف عوض عن الهمزة المحذوفة، وقيل: إجراء للوصل مجرى الوقف، ولدفع اللبس بلكنَّ المشدَّدة، وأبو جعفر يحذفها وصلا ووقفا.

(نحو) ﴿هُوَ﴾ ضمير الشأن وجملة قوله ﷻ: ﴿اللهُ رَبِّي﴾ خبر «هو»، والمجموع خبر المبتدأ الأوَّل، وهو «أنا»، أو هو عائد إلى «الذِي خَلَقَكَ»، و«اللهُ رَبِّي» خبران له، أو «اللهُ» بدل من «هو» العائد إلى «الذِي

خَلَقَكَ» و«رَبِّي» خبر «هُوَ»، والمجموع خبر «أنا».

ووجه الاستدراك أنَّ كون ذلك الكافر أخاه وصاحبه، وأنَّه ذو مال وشأن يوهم أنَّه يتبعه في كفره المعلوم من قوله: ﴿أَكَفَرْتَ﴾.

﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ العطف على قوله: ﴿ا للهُ رَبِّي﴾ أو على ﴿هُوَ ا للهُ رَبِّي﴾ ذلك الكافر لم يجعل أحدا شريكا لله يعبده لكن هذا المسلم رحمه ا لله زاد التصريح بنفيه المعلوم من الحصر في الجملة قبل هذه، أو راعى أنَّ منكر البعث بل الشاكّ فيه سوَّى بين ا لله وغيره في العجز، فا لله شريك لغيره في العجز، وغيره شريك له فيه في زعم ذلك الكافر، وراعى جانب مشاركة أحد له فنفاها، لكن المتبادر العكس وإلاَّ أوهم أنَّ ا لله أصل في العجز وذلك كلُّه باطل وضلال لا يعتقد.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ا للهُ﴾ الخبر محذوف أي ما شاء ا لله كائن أو يكون.

(نحو) أو حذف المبتدأ أي الأمر ما شاء ا لله، أو ما فاعل لمحذوف أي يكون ما شاء ا لله، وما موصولة، وإن جعلت شرطية قدِّر ما شاء ا لله يكن أو فهو واقع. و«لَوْلَآ» تحضيض كذا قيل، وفيه أنَّ التحضيض لِمَا يستقبل والدخول هنا ماض، فإنَّ «إِذْ» للزمان الماضي، ودخلت للماضي، إلاَّ إن أوِّل ذلك بالاستقبال ـ وهو خلاف الأصل ـ فهي للتوبيخ على ما مضى لا للتحضيض. و«إِذْ» متعلّق بـ«قُلْتَ».

(أصول الدين) والآية صرَّحت أنَّ ما أراد ا لله من عصيان عاص أو طاعة مطيع واقع لا كما قالت المعتزلة: إنَّ ا لله لا يريد المعصية. والمراد ما شاء

ا لله من إبقاء جنّتك والتنعيم بها وعدم ذلك، وقدّر القفّال[1] كذلك ـ وهو من المعتزلة ـ : هذا ما شاء ا لله، يعني ما في الجنّتين من الثمار، وقال الكعبي والجبّائي ـ وكلاهما منهم ـ : الإشارة إلى ما تَولّىَ ا لله فعله، وكلُّ ذلك معنى واحد هربوا به من أن يشاء الله عصيان العاصي، زعموا أنّه يجوز أن يكون في ملكه ما لا يشاء كما يكون فيه ما نهى عنه، ويتخلّف فيه ما أمر به، **وذلك باطل لأنّ مشيئته قضاء وهو لا يتخلّف.**

﴿**لاَ قُوَّةَ**﴾ لي على التمتّع بها ﴿**إِلاَّ بـا للهِ**﴾ فإن شاء أثبتها وقوّاني على التمتّع بها، وليس كما تقول: «مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ» فإن شاء ا لله أبادها، وإن شاء أبقاها ولا تتمتّع بها لمرض أو غصب أو موت عاجل.

قال ﷺ : «**من أعطي خيرا من أهل أو مال فقال عند ذلك: ما شاء ا لله لا قُوَّة إلاَّ با لله لم ير فيه مكروها**»[2] ولفظ القرطبي عن أنس: «لم يضرّه» أي لم يضرّه الإعجاب، أي لا يصيبه عين الإعجاب. قالت أسماء بنت عميس: علّمني رسول ا لله ﷺ كلمات أقولهنَّ عند الكرب: «**ا لله ربِّي لا أشرك به شيئا**». قال أبو هريرة قال لي رسول ا لله ﷺ : «**ألا أدلُّك على كنز من كنوز الجَنّة تحت العرش؟**» قلت: نعم، قال: «**أن تقول: لا قُوَّة إلاَّ با لله**»[3]، قال

١- محمَّد بن علي بن إسماعيل الشاشي المعروف بالقفّال الكبير، إمام عصره بما وراء النهر، محدِّث مفسِّر أصوليٌّ لغويٌّ أديب. من تصانيفه: «تفسير القرآن». توفي سنة ٣٦٥ هـ. معجم المُفَسِّرين، ج٢، ص٥٧٦.

٢- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢٤٤. وقال: أخرجه أبو يعلى وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أنس.

٣- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢٤٦. وقال: أخرجه أبو يعلى وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أنس.

عمر بن قرَّة: من أفضل الدعاء قولك: «ما شاء ا لله»، وعن أنس عن رسول ا لله ﷺ : «**ما أنعم ا لله على عبد نعمة في أهل أو مال أو ولد، فيقول: "ما شاء ا لله لا قُوَّة إلاَّ با لله"، إلاَّ دفع ا لله عنه كلَّ آفة حتَّى يموت**»[1] وقرأ الآية. وعن أنس عنه ﷺ : «**من رأى ما أعجبه من ماله فقال: "ما شاء ا لله لا قوة إلاَّ با لله" لم تصب ذلك المال آفة**»[2] وقرأ الآية. وجاء الأثر أنَّه يقال ذلك عند رؤية ما يعجبه في بدنه أو ماله أو ولده أو فيما لغيره حفظا عن العين.

﴿**إن تَرَنِ أَنَآ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا**﴾ استدلَّ بعض بذكر الولد هنا على أنَّ النفر هنالك الأولاد. والرؤية بصريَّة و«أَنَا» توكيد لياء المتكلِّم المدلول عليها بنون الوقاية و«أَقَلَّ» حال، أو عِلمِيَّة و«أَنَا» توكيد كذلك، أو فصل و«أَقَلَّ» مفعول ثان.

(نحو) وضمير الفصل حرف لا محلَّ له من الإعراب وسمِّي ضميرا باعتبار أصله وكونه ضميرا تأكيدٌ أوَّلي، لأنَّ ضمير الفصل يستعمل في الحصر، ومعنى الحصر هنا بعيد، إذ معناه: إن ترن أنا أقلَّ مالا لا أنت أقلَّ مالا. ووجهه كونها بصريَّة مع أنَّ القلَّة لا تبصر اعتبار متعلَّقها وهي الأولاد والأموال، لأنَّهم يبصَرون.

﴿**فَعَسَىٰ رَبِّيَ أَنْ يُّوتِيَنِي**﴾ في الدنيا والآخرة، وقيل: في الدنيا وهو الظاهر، والجملة جواب الشرط والمعنى: فأنا أرجو أن يقلب حالك للفقر وحالي للغنى لإيماني وكفرك، وقدَّر بعض: فلا بأس، أو لم يضرَّني قلَّة المال والولد ﴿**خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ**﴾ المراد: جنَّتان على حدِّ ما مرَّ، واقتصر على ذكر الجنَّة لأنَّها أعزُّ

١- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢٤٥، وقال: أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد عن أبي ذر.

٢- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢٤٦. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم عن أنس.

أموال ذلك المفتخر، أو المراد بالجنَّة مطلق ما يتمتَّع به، فيتناول الأموال كلَّها والأولاد، و لم يذكر الأولاد اكتفاء مع إرادتها أو لكون الافتخار بالمال أكثر، وإمَّا لأنَّه لا قصد له في الأولاد، وإمَّا لأنَّ له من الأولاد ما يكفيه، أو لأنَّ المراد بالخير الأولاد والجنَّة فهما معا خير من جنَّة الكافر، **وهو وجه ضعيف**، أو لأنَّه أراد الآخرة ولا ولادة فيها، ويبحث بأنَّه جاء أنَّه من طلبها في الجنَّة كانت له.

﴿**وَيُرْسِلَ**﴾ لكفرك ﴿**عَلَيْهَا**﴾ أي على جنَّتك، المراد بها جنَّتان على حدِّ ما مرَّ ﴿**حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَآءِ**﴾ مرامي، جمع حسبانة، أو اسم جمع، وهي الصواعق التي هي قطع من النار، أو أصله سهام صغار ترمى في القسي الفارسية، سمِّيت حسبانا لكونها تعدُّ ويرمى بها جملة، وكذلك الصواعق تعدُّ وتحسب لأهلها، وقال أبو بكر الأصم[1]: عذابا على حساب ما عملوا. ويقال: أصاب الأرض حسبان أي جراد، أو شبَّه الصواعق بتلك السهام أو الجراد، تشبه الأعلى بالأدنى اعتبارا لتقريب الإفهام.

أو الحسبان: مصدر كالغفران والبطلان، إمَّا على معنى مفعول أي شيئا مِمَّا يعدُّ من العذاب المترتِّب على الكفر، أو على معنى أنَّا لم نهملها عن حسابه عليها، وكأنَّه قيل: أنزلنا عليها مقتضى الحساب الأزلي، وهو تخريبها، أو على معنى الحساب على الأعمال بقدرها، ثمَّ إنَّه لا يخفى أنَّ التخريب لازم للحساب ومسبَّب له في الجملة، والمرامي: جمع مرماة، وهي ما يرمى به.

وهذا المؤمن دعا على صاحبه بزوال جنَّتيه بالصواعق دفعة، أو بزوالهما تدريجا بإذهاب النهر المفجَّر بينهما، ودعا أن يعطيه الله أفضل مِمَّا أعطاه

١- هو يوسف بن محمَّد الكردي المتوفَّى سنة ١٠٠٢هـ الشهير بالأصم، فقيه شافعيٌّ مفسِّر، له «منقول التفاسير» في تفسير القرآن. معجم المفسِّرين، ج٢، ص٧٤٩.

﴿فَتُصْبِحَ﴾ العطف على «يُؤتِيَنِي». والحسبان: ما يترتّب عليه الزلق والغور كالحكم الإلهي بالتخريب، وليس كلُّ ما يترتّب عليه الزلق يترتّب عليه الغور، أو العطف على «يُرْسِلَ» فيجوز عليه أن يفسَّر الحسبان بكلِّ ما أمكن من الأوجه، أي تصير، أو يرسل عليها ذلك ليلة فتصبح في يومها، وقد قيل: إنَّ الآفات السماويَّة أكثرها يطرق ليلا ﴿صَعِيدًا﴾ ترابا أو أرضا ﴿زَلَقًا﴾ يزلق عليها لا يجد ما يتعلّق به من شجر ونخل لانحطاطها إلى الأرض فوق عروشه، والزلق مصدر وصف به للمبالغة، أو لتأويله بمفعول أي مزلوقا فيه، بمعنى من شأنه أن يزلق فيه.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ مصدر أخبر به عن الذات وهي الماء مبالغة، كأنّه نفس الغور، وهو ذهاب الماء إلى داخل الأرض، أو يقدَّر بغائر أو بذا غور، أو يصبح شأن مائها غورا، وإن لم نجعل لـ«يُصْبِحَ» خبرا فيكن المنصوب حالا فكذلك لأنَّ الحال خبر معنوي عن صاحبه. ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ, طَلَبًا﴾ أي يذهب على وجه لا قدرة لك معه على ردِّه، وقيل: الهاء لمطلق الماء الذي لابدَّ للجنّة منه وإلاَّ ضاعت، فيكون ذلك استخداما، ومعنى نفي استطاعة طلب الماء نفي استطاعة الوصول إليه، فإنَّ ما لا يستطاع لا يطلب وغير الممكن لا يطلب.

وهنا تمَّ كلام الصاحب المؤمن وأخبرنا الله لاستجابة دعائه في قوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ﴾ بعد الليل أو صار ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ إلاَّ أنّه تعالى لم يخبرنا أنّه أهلكها بالحسبان، أو بإغارة الماء، ويتبادر أنّه أهلكها بالصاعقة لقوله: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي ساقطة على عروشها الساقطة على الأرض بأن تسقط عروشها أوّلا، فتسقط ثانيا عليها؛ أو «على» بمعنى "مع". والعروش: ما يجعل للشجر يعمد عليه، وخصَّ الأعناب بالذكر لأنّها أعظم عنده من التمر والزرع، ولأنّه بحسب الظاهر إذا سقطت ولها معتمد

فأولى أن يسقط ما لا عريش له، أو لأنَّ الإنفاق عليها أعظم من الإنفاق على الزرع والنخل.

(بلاغة) وتقليب الكفَّين كناية عن الندم لأنَّ النادم يفعل ذلك تحسُّرا يكرِّر جعل ما بطن من يده إلى جهة الأرض ثمَّ إلى جهة السماء، أو يضع باطن إحداهما على ظهر الأخرى ويعكس. والتكرير مأخوذ من التشديد، وهو يفيد المبالغة أيضا، ولو في مرَّة، ومأخوذ من حال النادم، كما تقول الإنسان: يأكل ويشرب، و«عَلَى» لتضمُّن التقليب معنى الندم، أو للتعليل، أي لأجل ما أنفق عليها بالشراء وبالإصلاح بعد الشراء، وما تقوم به.

(بلاغة) ومعنى الإحاطة بثمره إهلاك ثماره التي في الجنَّة، أو إهلاك أمواله، وفي «أُحِيطَ بِثُمُرِهِ» استعارة تمثيليَّة بأن شبَّه هيئة توجُّه الإهلاك إلى أمواله واستئصالها به من حيث لا يدري بهيئة توجُّه العدوِّ على غفلة إلى قوم من كلِّ جهة والإيقاع بهم واستئصالهم، وذلك هو ما حذَّره منه صاحبه المؤمن، ولم يلق له بالا، أو ذلك على الاستعارة التبعيَّة أو الكنائيَّة.

و«مَا» اسم موصول، أو نكرة موصوفة، أي على ما أنفقه في شأنها، أو مَصدَرِيَّة، أي على إنفاقه في عمارتها. ووجه ندمه على ما أنفق أو على الإنفاق أنَّ الندم على الفعل الاختياريِّ لا على ذات الشيء، وأنَّه أنفق طمعا في بقائها، ولو علم أنَّها لا تبقى لادَّخر ما صرف فيها، وقوله: «أَصْبَحَ» يناسب أنَّ الإهلاك بمرَّة، بآفة سماويَّة أو أرضيَّة لا بتدريج كتيبُّس شيئا فشيئا.

﴿وَيَقُولُ﴾ عطف على «يُقَلِّبُ»، ولا حاجة إلى جعله حالا من ضمير «يُقَلِّبُ» لاحتياجه إلى الحمل، على القلَّة من مجيء المضارع حالا مقرونا بالواو مثبَتا، أو بناء على القول بقياسه، أو تقدير مبتدأ يكون معه حالا أي وهو يقول

﴿**يَا لَيْتَنِي**﴾ تنبيه، أو يا صاحبي ليتني ﴿**لَمُ اشْرِكْ بِرَبِّيَ أَحَدًا**﴾ علم أنه أتي من شركه، يحتمل التوبة النصوح إذ لا يمنع قبول التوبة عند مشاهدة شدَّة دُنيَوِيَّة، ويحتمل توبة غير خالصة، أو مجرَّد ندم لِمَا شاهد من الشدَّة المترِّتبة على شركه.

ولا شكَّ أنَّ قوله: «لو لم أشرك بربِّي أحدا لم تهلك جنَّتي يا ليتني لم أشرك فتبقى» ليس إسلاما، فقد يقول: أمَا إذ هلكت ففاتت فلا حاجة إلى توحيد مع ذهابها فيصرُّ مغاضبة لله عَجَلَّ، فذلك كقوله عَجَلَّ: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الْفُلْكِ دَعُوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (سورة العنكبوت: ٦٥) وقصَّة سورة «نون» أقرب إلى التوبة إذ قالوا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَآ﴾ (سورة القلم: ٢٩) وَقَالُواْ: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ (سورة القلم: ٣٢) **وليس قوله ذلك ندما عن المعصية بل لأجل ما أصابه بها.**

وأمَّا قوم يونس فالعقوبة الآتية لهم لا تردُّ عن مثلهم لأنَّها إهلاك أبدانهم فهي أخرويَّة كمشاهدة الموت، وخصُّوا بقبول التوبة، وقيل: قوله: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمُ اشْرِكْ بِرَبِّيَ أَحَدًا﴾ حكاية لِمَا يقول الكافر يوم القيامة.

﴿**وَلَمْ تَكُن لَّهُ, فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ, مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا**﴾ لا طائفة تنصره بدفع إهلاك جنَّته أو بردِّها بعد هلاكها، أو بتعويض مثلها، ولا قدرة له على الانتصار لنفسه بشيء من ذلك، لا يقدر على ذلك إلاَّ الله، والله لا يريد فعل ذلك له فلا ينال ذلك.

﴿**هُنَالِكَ**﴾ أي في مقام إعزاز وليِّ الله وإذلال عدوِّه، وهو خبر لقوله: ﴿**الْوَلاَيَةُ**﴾ أي النصرة، أو التولِّي للأمر والغلبة ﴿**للهِ الْحَقِّ**﴾ حال من المستتر في «هُنَالِكَ» ينصر الله من قضى بنصره ويذلُّ من قضى بذلِّه ولا يتخلَّف ذلك ﴿**هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا**﴾ على الأعمال الصالحة في الآخرة ﴿**وَخَيْرٌ عُقْبًا**﴾ يعقب

الإنسان في الدنيا بما فاته بردِّه أو بمثله، أو ثوابا في الدنيا وعقبى في الآخرة.

ويبعد أن تكون الإشارة للآخرة إذ لم يجر لها ذكر، وذكر بعض أنَّه يناسبها قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقُبًا﴾ وأنَّه كقوله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (سورة غافر: ١٦) وجاز تعليق «هُنَالِكَ» بـ«مُنتَصِرًا» فيكون الإشارة لذلك المقام ويكون «الْوَلاَيَةُ» مبتدأ و« للهِ» خبره.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ انزَلْنَـٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْاَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَـٰحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْبَـٰقِيَـٰتُ الصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ اَمَلاً ﴿٤٦﴾﴾

ضرب مثل للحياة الدنيا

﴿**وَاضْرِبْ لَهُم**﴾ أي للمشركين المتكبِّرين القائلين: اطرد المؤمنين الفقراء بمجالسك نحن ﴿**مَثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا**﴾ أي اذكر لهم ما تشبهه الدنيا كلُّها، وذلك تشبيه لها ببعضها في السرعة وزوال زينتها كما قال: ﴿**كَمَآءٍ انزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الاَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ**﴾ خبر لمحذوف تقديره: ذلك الذي أشبهته كماء...الخ.

ودخل بالكاف غير ذلك من الأمثلة، مثل أن تقول: كريح أو كظلٍّ أو كسحابة. أو «اضْرِبْ»: بمعنى صيِّر، فيكون «كَمَاءٍ» مفعولا ثانيا، ويكون المراد: اضرب مثلا في الغرابة، والباء للسببيَّة، أي اتَّصلَ النبات بعضه ببعض لسبب الماء إذ نما به، وازداد كلُّ نبات إلى جهة الآخر.

أو المعنى: اختلط الماء بنبات الأرض ونفذ فيه فازداد نضارة، فتكون الباء للتعدية، لكن عكست العبارة لأنَّ كلاًّ من المختلطين يصدق عليه أنَّه مختلط

بالآخر، وذلك مبالغة، كأنَّه جاء النبات إلى الماء، لأنَّ المتعارف دخول الباء على الكثير غير الطارئ، كما إذا كان الماء كثيرا وخلطت إليه شيئا من اللبن، تقول خلط اللبن بالماء، وفي العكس خلطت الماء باللبن.

(بلاغة) وهناك حذف تقديره: «فمضت مدَّة فَأَصْبَحَ هَشِيمًا»، أي فصار في أيِّ وقت لا خصوص الصباح يابسا مهشوما مكسورا تطيِّره الرياح، والمشبَّه به ليس الماء ولا حاله بل كَيفِيَّة منتزعة من المشبَّه والمشبَّه به، فالمشبَّه الكَيفِيَّة التي انتزعت من أمور الدنيا وهي حالها، والمشبَّه به الكيفية المنتزعة من النبات وأحواله.

والمراد: تشبيه حال الدنيا في نضرتها وما يعقبها من الفناء بحال النبات الحاصل من الماء، يكون شديد الخضرة يتعجَّب منه الناظرون، ثمَّ يصير حطاما كأن لم يغن بالأمس، [قلت:] وقد تقرَّر أنَّه يجوز التشبيه بمفروض غير واقع فيجوز أن يكون المعنى: تشبيه حال الحياة الدنيا بحال نبات أخضر بماء، فييبس من حينه بلا مضيٍّ مدَّة فلا يقدَّر قولك: ومضت مدَّة، ويجوز أن يكون في «اخْتَلَطَ» ضمير الماء أي كثر وعمَّ فـ«بِهِ» خبر و«نَبَاتُ» مبتدأ ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ قديرا جدًّا أي كامل القدرة[1].

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ يتزيَّن الإنسان فيها بالمال والبنين، ويقربهم الزوال، وذلك كما افتخر صاحب الجنَّتين، وقدَّم المال مع كون الأولاد أعزَّ ـ قيل عند أكثر الناس ـ لعراقته في الزينة والإمداد وغير ذلك، ولعمومه في الأوقات وفي الآباء والأولاد، وليس كلُّ أحد يتمنَّى الولد ولأنَّ الحاجة إليه أمسُّ منها إليهم، ولأنَّه أقدم منهم وجودا ولأنَّه زينة مع عدمهم أيضا، ولا زينة بهم مع الفقر، وَلَكِنَّ أكثر الناس لو خيِّروا بين سلامة أولادٍ وُجِدُوا ومالٍ لاختاروا

١- وذلك لأنَّ من معاني صيغة افتعل المبالغة في المعنى، كاكتسب أي بالغ في الكسب.

سلامتهم وفقْدَ المال، عافانا ا لله ﷻ.

﴿وَالْبَاقِيَاتُ﴾ الأعمال الدائمة الثواب ﴿الصَّالِحَاتُ﴾ كالصلوات الخمس والحجِّ والعمرة وصوم رمضان وطلب العلم والتعليم، ونحو ذلك **وسبحان ا لله والحمد لله ولا إله إلاَّ ا لله وا لله أكبر ولا حول ولا قُوَّة إلاَّ با لله العليِّ العظيم** وسائر الأذكار، والكلام الطيِّب وسائر الحسنات ولا سيما ما يستمرُّ **كالصدقة الجارية والتعليم**، قال ﷺ لجلسائه: «**خذوا جُنَّتكم**» قالوا: أحَضَر عدوٌّ؟ قال: «**جُنَّتكم من النار قولوا: "سبحان ا لله والحمد لله ولا إله إلاَّ ا لله وا لله أكبر ولا حول ولا قُوَّة إلاَّ با لله العليِّ العظيم" فإنَّهنَّ المقدِّمات وهنَّ المعقِّبات، وهنَّ الباقيات الصالحات**»[1] رواه أنس. قال ﷺ: «**إن عجزتم عن الليل أن تكابدوه، وعن العدوِّ أن تجاهدوه، فلا تعجزوا عن قول: "سبحان ا لله والحمد لله ولا إله إلاَّ ا لله وا لله أكبر"، فقولها فإنَّها الباقيات الصالحات**»[2] وكذلك روى أبو سعيد الخدري، وأبو الدرداء عنه ﷺ: «**إنَّ الباقيات الصالحات سبحان ا لله...**»[3]. زاد أبو الدرداء مرفوعا قوله: «**وهنَّ يحططن الخطايا كما تحطُّ الشجرة ورقها، وهنَّ من كنوز الجنَّة**»[4] وكذا روى ابن عَبَّاس بدون: «ولا حول ولا قُوَّة»، وعنه: الصلوات الخمس، وعنه: **جميع الأعمال الصالحات**، وعن قتادة: كلُّ ما أريد به وجه ا لله تعالى، وعن الحسن: النيات الصالحات.

١- رواه **الحاكم** في مستدركه، كتاب الدعاء: ج١، ص٧٢٥، رقم١٩٥ (١٨٥). ورواه **المنذري** في الترغيب في التسبيح والتكبير: ج٢، ص٤٣٢، رقم ٣٣. من حديث أبي هريرة.

٢- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢٨٤. وقال: أخرجه ابن مرذويه عن أبي هريرة.

٣- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢٤٧. وقال: أخرجه ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عبَّاس.

٤- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢٤٧. وقال: أخرجه الطبراني وابن شاهين في الترغيب في الذكر وابن مردويه عن أبي الدرداء.

﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ من المال والبنين والجاه وسائر منافع الدنيا، ومعنى ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ في حكمه، أو في الآخرة ﴿ثَوَابًا﴾ أجرا ﴿وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ لأنَّ صاحبها يأمل بها خير الدنيا وخير الآخرة، وكرَّر لفظ «خَيْرٌ» للمبالغة ولاختلاف جهتي الخير.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾

بعض أهوال يوم القيامة وحال المجرمين فيها

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ ظرف لـ«نقول» محذوفا ناصبا لقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ أو مفعول لـ«اذكر» محذوفا، أو معطوف على «عِندَ» أي خير عند ربِّك في الدنيا يثيبك عليها في الدنيا بما هو دنيوي وزيادة ما هو ديني.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ أي يوم القيامة، وتسيير الجبال أمرارها كإمرار السحاب إلى حيث شاء الله بعد جعلها كالرمل الهائل، وفي الخفَّة كالصوف المندوف، أو في لون ما صبغ فإن كانت تغيب في الأرض قلعت وفعل بها ذلك؛ أو تسييرها: تفريقها بعد ذلك كالهباء، وعبارة بعض: إنَّها تنفصل أوَّلاً عن الأرض وتسير في الجوِّ ثمَّ تسقط وتصير ﴿كَثِيبًا مَّهِيلاً﴾ (سورة المزمل: ١٤) ثمَّ ﴿هَبَآءً مُّنبَثًّا﴾ (سورة الواقعة: ٦).

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ ظاهرة من تحت الجبال ومن كلِّ ما يستر بعضها

من كدية أو جبل أو بناء أو شجر أو بحار أو غيرها، وتسويتها كالصفحة البيضاء المنبسطة ﴿**وَحَشَرْنَاهُمْ**﴾ إلى الموقف، وصيغة الماضي لتحقُّق الوقوع، وكذلك يتحقَّق التسيير ورؤية الأرض بارزة، لَكِنَّ الحشر أحقُّ بذلك لأنَّه أكثر ذكرا في إنكار المشركين؛ أو صيغة الماضي للدلالة على أنَّ الحشر قبل التسيير، ليشاهدوا ما وعد لهم من التسيير للجبال وظهور الأرض وغير ذلك من الأهوال، على أنَّ الواو للحال قبل «قدْ» المقدَّرة؛ وقيل: ذلك قبل البعث، وقيل: التسيير والبروز عند النفخة الأولى وفساد العالم، والحشر عند الثانية.

﴿**فَلَمْ نُغَادِرْ**﴾ نترك ومنه الغدر بمعنى ترك الوفاء بما وعد به، أو ترك الوفاء بما اعتيد، ومنه غدير الماء لذهاب السيل عنه ﴿**مِنْهُمُ, أَحَدًا**﴾ أي من المشركين المنكرين للبعث وفيهم الكلام، كما قال: ﴿**بَلْ زَعَمْتُمُ, أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا**﴾ ولو كان البعث لكلِّ ذي روح الملائكة والجنِّ والإنس وسائر ما فيه الروح.

﴿**وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا**﴾ ليحاسبهم ويأمر فيهم وهو عالم بهم ولا يتخلَّف أحد عنه، ولا عن البعث بل حتَّى السقط، كما يعرض الجند على الملك ليعرفهم أو يأمر فيهم؛ وقيل: استعارة تمثيليَّة، والماضي هنا وفي «لَمْ نُغَادِرْ» كالماضي في «حَشَرْنَاهُمْ». و«صَفًّا» حال، وهو مصدر مبالغة، وهو مصدر كأنَّهم نفس الاصطفاف، أو مصدر يستعمل من يصطف، أو ذوي صفٍّ أي اصطفاف، أو صافِّين أو مصفوفين، وهو حال من واو «عُرِضُوا».

والمراد: صفوف لا صفٌّ واحد، كما قال ﷺ: «**يجمع الله الأوَّلين والآخرين في صعيد واحد صفوفا**»[1] وقال ﷺ: «**أهل الجنَّة مائة وعشرون**

١- أورده **القاضي عياض** في كتاب الشفا: ج١، ص٣٢٤. **وأبو عوانة** في مسنده، ج١، ص١٧٢.

صفًّا أنتم منها ثمانون صفًّا»[١] وعن معاذ بن جبل أنَّ النبيء ﷺ قال: «**إنَّ ا لله تعالى ينادي يوم القيامة: يا عبادي أنا ا لله لا إله إلاَّ أنا، أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين، أحضروا حجَّتكم ويسِّروا جوابا فإنَّكم مسئولون محاسبون، يا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفا على أطراف أنامل أقدامهم للحساب»**[٢].

وقيل: تقام كلُّ أمَّة صفًّا، وقيل: الخلائق صفٌّ واحد، وهو أبلغ في القدرة، وعليه فتارة يكونون صفًّا كظاهر الآية وتارة صفوفا، وقيل: معنى الصفِّ هنا القيام، كقوله تعالى: ﴿فاذْكُرُواْ اسْمَ ا للهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ (سورة الحج: ٣٦).

﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ جئتم إلى محلٍّ لا حكم فيه لغيرنا، والخطاب للكفَّار **﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾** مقول لقول مقدَّر مستأنف، أي نقول: «لَقَدْ جِئْتُمُونَا»، أو مقول لقول مقدَّر قبل ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ﴾ كَمَا مَرَّ، أو حال من واو «عُرِضُوا» وقد قيل لهم: «لَقَدْ جِئْتُمُونَا». والمعنى: كما خلقناكم أوَّل مرَّة بلا لباس ولا مال ولا ولد ولا ناصر، كما قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ...﴾ (سورة الأنعام: ٩٤) وأحياء بعد عدم حياة، وبلا نقص واحد منكم عن البعث.

[قلت:] والتحقيق أنَّ الكاف توصل الحدث إلى مدخولها فهي متعلِّقة، لا كما قيل: إنها لا تتعلَّق كالحرف الزائد، فهي متعلِّقة بـ«جِئْتُمُونَا» أو بمحذوف نعت لمفعول مطلق، أي مجيئا ثابتا كخَلْقِنا لكم.

١- رواه **أحمد** في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، رقم ٤٠١٠٠، من حديث ابن مسعود.

٢- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢٤٩، وقال: أخرجه ابن منده في التوحيد عن معاذ بن جبل.

﴿بَلْ﴾ للإضراب الانتقالي من قصَّة إلى أخرى هي أهمُّ منها، وهي تقريع الكُفَّار بتصديق الرسول ﷺ ﴿زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ وقت وعد للبعث فيه لا نخلفه، أو وعد البعث لا يخلفه بل جعلناه لكم كما أخبركم الرسول ﷺ وهو صادق سيظهر لكم صدقه، و«أَنْ» مخفَّفة واسمها ضمير الشأن، أو يقدَّر: إنَّنا لن نجعل، أو إنَّكم، وكذا غيركم لن نجعل لهم.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ «ال» للحقيقة، فيصدق بالكتب، أو للاستغراق على إرادة التقريع بأن كتبكم كلَّها تحضر فتحاسبون بما فيها لا يفوتنا كتاب أحد، وذلك كتب الأعمال توضع في الأيمان للسعداء وفي الشمائل للأشقياء، أو تكتب الأعمال كلُّها في كتاب واحد ولكلِّ أحد كتاب مفرد أيضا، أو ذلك كناية عن وضع الحساب.

﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ المعاندين لك، أو مطلق المجرمين، فيدخل هؤلاء بالأولى ﴿مُشْفِقِينَ﴾ مضطرِّين خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ من الذنوب ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾ يا هلكتنا، اللفظ لفظ نداء هلكتهم لتحضر لوقتها الحاضر، والمراد: التفجُّع، شبهت بإنسان يطلب إقباله ورمز بلازمه وهو النداء، فذلك استعارة مكنية تخييلية، وقيل: المنادى محذوف، أي: يا من بحضرتنا. و«ويل» مفعول مطلق لمحذوف أي هلكنا، ﴿وَيْلَتَنَا﴾: أي هَلْكَتَنَا. ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ﴾ كلُّ أحد يقول في شأن هلاكه بالذنوب التي رآها في كتابه وشأن كتابه: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ﴾ وفصلت اللام في الخطِّ إشارة إلى أنَّ المجرمين لشدَّة الكرب يقفون على بعض الكلمة بل على كلمة لا تتمُّ إلاَّ بما بعدها. والاستفهام تعجبيٌّ ﴿لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً﴾ فعلة صغيرة من الذنوب ﴿وَلاَ كَبِيرَةً﴾ فعلة كبيرة منها، والفعلة تشمل الاعتقاد وترك الواجب قيل: الصغيرة كالمسِّ، والكبيرة كالزنى، وقيل: الصغيرة كالتبسُّم عند المعصية، أو بالاستهزاء بالمسلم، والكبيرة

كالضحك، والمسُّ عندنا كبيرة، ولا إثـم على مـن تبسَّـم أو ضحـك ضـرورة ﴿إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ عدَّها وأحاط بها، سرَّها في الدنيا أو أعلنها في حـقِّ ا لله، أو في حقِّ المخلوق من الفروع أو الأصول.

﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ﴾ من الذنوب أو جزاء ما عملوا ﴿حَاضِرًا﴾ لم يغب منه شيء، كلُّه مكتوب، و لم يجدوا حسنة من حسناتهم لأنَّها أحبطـت بالشـرك ﴿وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ لا يتعدَّى فيه بزيادة شـيء مـن الذنـوب لم يفعلـه، أو بزيادة على عذاب يستحقُّه، وإحباط حسناته إنَّما هو بإشراكه في الدنيا.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝٥١ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۝٥٢ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣﴾

النهي عن اتباع إبليس وأعوانه

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ﴾ كلّهم، وقيل: ملائكة الأرض، وقيل: الملائكـة غـير المهمّين ﴿اسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُواْ﴾ كلُّهـم ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ السـجود لآدم خضوع له وتعظيم، أو كسجود الصلاة لله تعالى لكن إلى جهـة آدم وهـو قبلـة لهم، وفيه تعظيم له أيضا.

واستثناء إبليس متّصل، لأنَّه قيـل: إمَّـا ملـك خلق مـن نـار ثـمَّ نسخ إلى صورته الجنّيَّة وعقب، ولو نسخ بخلاف سائر ما نسخ فإنَّه لا يعقـب بـل يخلق

ا لله ﷻ مثله، وهذا القول ضعيف، وإمَّا لأنَّه ولو لم يكن منهم إلاَّ أنَّه نشأ فيهم وكساه كسوتهم، كأنَّه واحد منهم وهو أوَّل الجنِّ وأبوهم.

وقيل: كان الجنُّ قبله وولد منهم، عصوا ا لله بعد العبادة فأمر ا لله الملائكة فقاتلوهم وطردوهم إلى البحور والشعاب، وقيل: كان مع الملائكة وكان رئيسهم لاجتهاده في العبادة أكثر منهم وما ترك موضع شبر في السماوات والأرض إلاَّ سجد فيه، والواضح أنَّ الاستثناء منقطع.

وكرِّرت قصَّة أمره بالسجود لآدم في مواضع بحسب ما يناسب كلَّ موضع، فهنا ذكر ليشير إلى أنَّ صاحب الجنَّتين متَّبع لإبليس في تكبُّره وكفره ورغبته في الدنيا، وأنَّ صاحبه المؤمن متَّبع لآدم والملائكة في طاعة ا لله والاتِّضاع والزهد، وهكذا سائر ما يُكرَّر في القرآن، وفي تكرير قصَّة السجود تذكيرٌ لنا بعدوِّنا القديم لئلاَّ نغفل.

(أصول الدين) والملائكة كلُّهم معصومون، وزعم بعض أنَّ ملائكة الأرض غير معصومين وأنَّ إبليس منهم.

﴿**كَانَ مِنَ الْجِنِّ**﴾ حال بإضمار «قد»، أو استئناف لبيان أنَّه ليس من الملائكة وأنَّه لو كان منهم لم يعص لأنَّهم معصومون، وقيل: الجنُّ نوع من الملائكة يمكن منهم العصيان، وهو قول باطل، وزعم بعض أنَّ الجنَّ في الآية ملائكة يصوغون الحليَّ لأهل الجنَّة.

﴿**فَفَسَقَ**﴾ بسبب كونه من الجنِّ لأنَّ العطف على «كَانَ...»، وقيل: الفاء تعليل لقوله: ﴿**إِلاَّ إِبْلِيسَ**﴾ وعندي يجوز كون الفاء سَبَبِيَّةً ولو بلا عطف، وإباؤه من السجود يعتبر سببا لاتِّصافه باسم الفسق، أو هو سبب لسرائر فسقه بعدُ ﴿**عَنَ اَمْرِ رَبِّهِ**﴾ خرج عنه لأنَّه غير ملك كما يعصي الآدمي، وكما

يعصي الجنُّ بل يعصي جلُّهم، وأمر بالسجود في جملة الملائكة فلم يسجد، وأمر الملائكة ونهيهم أمر له ونهي له إذ كان مغمورا فيهم. و«عَنْ» للمجاوزة على أصلها لأنَّ المعنى: مائل عن أمر ربِّه ومعرض عنه، ولا حاجة إلى جعلها سَبَبِيَّة، وإلى أنَّ الأمر بمعنى المشيئة، لأنَّ المشيئة لله تتخلَّف وكذا إرادته، والتحقيق أنَّه تخلَّف عَمَّا أمر به وعصى.

فـ«أَمْرِ رَبِّهِ» بمعنى ما أمر به من السجود، نعم يجوز على خلاف الأصل أنَّها سببيَّة، وأنَّ مشيئته التي فسَّرنا بها أمر ربِّه مشيئته التي بمعنى القضاء، وهي التي ذكرت أنَّها لا تتخلَّف، أي فسق بسبب قضاء الله ﷻ عليه بالخذلان.

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ, وَذُرِّيَّتَهُ,﴾ أي المشركين منهم، وأمَّا المؤمنون فليسوا في هذا المقام، ولا يدعون إلى عبادة غير الله، ومن عبده فقد ضلَّ وحده ﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي﴾ أتجهلون عداوته فتتَّخذونه؟ أو أتكفرون نعمتي فتتَّخذونه وذرِّيَّته أولياء بدلا منِّي؟ وتطيعونهم بدل طاعتي؟ أو الذرِّيَّة: أتباعه مطلقا من الجنِّ والإنس تسميةً للكلِّ باسم البعض.

قيل: إبليس لم يتزوَّج ولم يلد وإنَّما الجنُّ والشياطين مِمَّن قبله، وقيل: كان ملكا وَلَمَّا عصى مسخ وجعل يتزوَّج، وقيل: يُدخل ذنبه في دبره فيلد فيبيض وتفلق البيضة عن شياطين، وهو قوله تعالى: ﴿وَذُرِّيَّتَهُ﴾ وهو الصحيح، والمانع يقول: **ذرِّيته أتباعه كما يقال للأتباع الإخوان**، ولا يولد آدميٌّ إلاَّ ولد معه شيطان يقرن به.

(قصص) ويقال: ولد خمسة: "تبر" وهو صاحب المصائب، و"الأعور" وهو صاحب الزنى، و"راسم" يدخل مع الرجل الذي يدخل بيته ولم يسلم ويأكل معه إذا لم يسمِّ، و"مسوط" وهو صاحب الصخب، وقيل: صاحب

أخبار الكذب يلقيها على أفواه الناس، و"زلينور" وهو الذي يفرِّق بين الناس ويبصر الرجل عيوب أهله، وقيل: صاحب الأسواق. ويقال: إنَّ جميع ذرِّيَّته من خمس بيضات، ويجتمع على المؤمن الواحد أكثر من ربيعة ومضر.

ويجوز أن يراد بالذرِّيَّة أولاده وأتباعه جمعا بين الحقيقة والمجاز أو حملا على عموم المجاز.

﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ في الدين والدنيا، والمعنى: والحال أنَّهم أعداء لكم كما أنَّهم أعداء لله، وذلك كفر لنعمة الله وصداقة لأعدائه ﴿بِيسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ من الله، والمخصوص بالذمِّ محذوف تقديره: إبليس وذرِّيَّته، وهم مخلوقون خلقهم الله وليسوا خالقين للسماوات والأرض ولا لأنفسهم، فكيف يستحقُّون العبادة ؟ وعرَّض لذلك بقوله:

﴿مَآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ ما أحضرتهم، أي إبليس وذرِّيَّته ﴿خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ حين خلقت ذلك فاللفظ لنفي إحضارهم، والمعنى: لكون الله الخالق لا هم، فكيف يعبدون ؟ أو ليسوا مِمَّن يبالي بهم فكيف أحضرهم عند خلق السماوات والأرض وخلق أنفسهم؟ فهذا تعريض بحقارتهم هم لا يعتبرون إلاَّ بالانتقام منهم ولا يتقوَّى بهم، والله كامل القُوَّة لا يتقوَّى بهم ولا بغيرهم.

وإن قلت: حضور الشيء لنفسه قبل وجوده محال فكيف قال: ولا خلق أنفسهم؟ قلت: المعنى ولا أشهدت بعضا منهم موجودا لخلق بعض منهم غير موجود، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ﴾ (سورة النساء: ٢٩)، أو ما أحضرت بعضا خلق بَقِيَّة جسده.

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ كعضد اليد أتقوَّى به، يقال: عَضَدَهُ قوَّاه، و﴿الْمُضِلِّينَ﴾: إبليس وذرِّيته، من وضع الظاهر موضع المضمر ليعيب

عليهم بذكر الإضلال، فهم سفهاء مناقضون لِمَا دعوا إليه من الحكمة، والحكيم لا يتّخذ السفيه عضدا، فكيف أحكم الحكماء بأسفه السفهاء؟!.

قال النسفي: قال لي رجل: هل لإبليس زوجة؟ فقلت: ذلك العرس ما شهدته، أراد نفي الزوجة، فتذكّرت قوله تعالى: ﴿وَذُرِّيَّتَهُ﴾ والذرِّيَّة لا تكون إلاّ من زوجة فقلت: نعم له زوجة، وهذا أظهر.

[قلت:] ومن جملة ذرِّيَّته أولاد الزنى والأولاد الذين من أموال حرام، والولد من جماع استحضر الرجل عند جماعه امرأة غير زوجه أو سريَّته في قلبه، **ولا يحسن استحضارهما.**

ويجوز على تفكيك الضمائر أن يكون قوله ﷻ: ﴿مَآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ لمشركي قريش على عهد رسول الله ﷺ على ما مرَّ من وضع المضلِّين موضع الضمير، ومرَّ التعريض بحقارتهم وانتفاء صلوحهم للتقوية بهم، ولا تطمع في أنّهم لو آمنوا لآمن الناس كما يزعمون، وكما تظنُّ. وأفرد العضد لأنّه يعمُّ بسياق النفي إذ هو نكرة واختار ذلك للفاصلة، ولأنَّ الجمع في حكم الواحد في عدم الصلوح للاعتضاد.

﴿**وَيَوْمَ يَقُولُ**﴾ الله لِلْكُفَّارِ، والعطف على «يَوْمَ» والقول [يكون] بخلق الكلام حيث شاء كالجوِّ أو بواسطة ملك ﴿**نَادُواْ**﴾ للإغاثة ﴿**شُرَكَآئِيَ الذِينَ زَعَمْتُمْ**﴾ زعمتموهم شركاء كقوله:

زعمتني شيخا ولست بشيخ إنّما الشيخ من يدبُّ دبيبا

أو زعمتم أنَّهم شركائي وهو الكثير الوارد في القرآن، والمعنى: شركائي في الأُلوهِيَّة والعبادة، ويجوز أن يكون شركاء بمعنى شفعاء، سمَّاهم شركاء لمعنى أنّهم يسعون فيما لم يرد الله، وهذا إشراك، وهو دعوى أنَّهم يمنعونهم من

عذاب الله الموجَّه إليهم، وأضافهم لنفسه على زعمهم للتوبيخ، والمراد: كلُّ ما أشركوا، أو إبليس وذرِّيَّته.

﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ نادوهم ليغيثوهم بالتنجية من العذاب، ولا يظهر أنَّهم نادوا الأصنام لمعرفتهم بأنَّها لا تجيبهم ولو دخلت في أمر الله هم بالدعاء لِمَا عبدوا تبكيتا لهم، بل دعوا من عبدوا من الجنِّ أو الإنس أو الملائكة ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ لم يغيثوهم إذ قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلَ اَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ (سورة إبراهيم: ٢١) أو أنجونا البتَّة لأنَّا عبدناكم جدًّا، وعدم الاستجابة ظاهر ومع ذلك ذكره الله ﷻ تهكُّما بهم، وإيذانا بحمقهم حتَّى إنَّهم لا يَفهمون إلاَّ التصريح.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ جعلنا بين الكُفَّار وآلهتهم موضع وبق، أي موضع هلاك يشتركون فيه وهو النار، فمعنى البينيَّة الاشتراك، و﴿مَّوْبِقًا﴾: اسم مكان، وقيل: الموبق واد في جهنَّم يجري بالدم والصديد، وعن عكرمة: «نهر في النار يسيل نارا على حافَّتيه حيَّات كالبغال الدهم إذا ثارت إليهم التجئوا إلى الوقوع في النار منها» وقيل: الموبق المحبس، أو المعنى: حاجرا بينهم وبين نفع ما عبدوه من دون الله ﷻ لهم.

أو جعلنا بين فريقين: الفريق الأوَّل عيسى والملائكة المعبودون، ويكونون في الجنَّة، والفريق الثاني المشركون وأصنامهم ويكونون في النار، وهي موبق بين الفريقين.

أو ﴿مَّوْبِقًا﴾: مصدر ميميٌّ بمعنى عداوة، عبَّر عنها بالهلاك لأنَّها سببه وملزومه، أو لأنَّها تؤول إليه كما يقال: لا يكن بغضك تلفا، بمعنى لا تشتدَّ فيه حتَّى يجرَّ إلى التلف، كما قال عمر ﷺ: **«لا يكن حبُّك كلفا ولا بغضك تلفا»**.

(نحو) و«بَيْنَ» ظرف مفعول ثان و«مَوْبقًا» أوَّل، أو متعلّق بـ«جَعَلْنَا» بمعنى خلقنا و«مَوْبقًا» مفعول به له، ويجوز أن يكون البين بمعنى الوصل من الأضداد بمعنى: جعلنا تواصلهم في الدنيا هلاكا يوم القيامة أو عداوة، فيكون «بَيْنَهُمْ» غير ظرف مفعولا أوَّلاً و«مَوْبقًا» ثانيا.

﴿وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ بأبصارهم قال ﷺ: «**يرى الكافر النار من مسيرة أربعين سنة**»[1] ﴿فَظَنُّواْ﴾ رجَّحوا ولم يجزموا، لظنّهم أنَّ ما يعبدون من دون الله ينجِّيهم منها، أو لم ييأسوا من رحمة الله ﷻ، أو «ظنُّوا» بمعنى علموا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ واقعون فيها وقوعا عظيما، لأنَّ من معاني المفاعلة المبالغة، أو مخالطوها لأنَّ شدَّة المجاورة للشيء تؤدِّي إلى الدخول فيه، ويقال لها مواقعة، أو علموا جزما بدخولها وظنُّوا أنَّها تخطفهم في الحال ولم تخطفهم في الحال.

﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا﴾ عطف على محذوف، أي فدخلوها ولم يجدوا عنها ﴿مَصْرِفًا﴾ صرفا من أحد يصرفهم عنها، فهو مصدر على أنَّ مصدر يفعِل بالكسر قد يجيء على مَفعِل بالكسر، وهو ضعيف؛ أو بابًا موضعَ صرفٍ يخرجون عنها منه، فهو اسم مكان؛ أو هو اسم مصدر، أي انصرافا؛ أو المراد: موضع انصراف، قيل: أو مكانا ينصرفون إليه أو يدومون فيها أبدا، لا وقت لصرفهم عنها، فهو اسم زمان ميمي.

١- رواه **ابن حبَّان** في صحيحه، في ذكر الأخبار عن وصف المسافة التي يرى الكافر في القيامة نار جَهَنَّم منها: ج٩، ص٢٢٣، رقم ٧٣٠٨، من حديث أبي هريرة. ورواه **الحاكم** في كتاب الأهوال: ج٤، ص٦٣٩، رقم ٩١/٨٧٦٦، من حديث أبي سعيد، وهذا الأخير بدون ذكر: «مسيرة أربعين سنة». وأوَّل الحديث: «ينصب للكافر يوم القيامة مقدار خمسين ألف سنة...».

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا ءَايَٰتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ۝٥٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ۝٥٧ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ۝٥٨ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ۝٥٩﴾

بيان القرآن ومهمّة الرسل وظلم المعرض عن الإيمان وسبب تأخير العذاب لموعد معيّن

﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا**﴾ كرّرنا أو بيّنّا ﴿**فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ**﴾ أي في هذا الكتاب المقروء لأنّ اسم الإشارة ينعت باسم الجنس، ولو جعلناه علَما لهذا الكتاب كان بدلا أو بيانا ولم يجز أن يكون نعتا ﴿**لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ**﴾ من كلِّ جنس يحتاجون إليه، ومفعول «صَرَّفْنَا» محذوف منعوت بقوله: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، أي نوعا ثابتا من كلِّ مثل، ولا نقدِّر: معنى ثابتا من كلِّ مثل، لأنَّ لفظ المعنى لم يستعمله العرب كما نستعمله، وذلك كما يقال: العرب لا تعرف المعنى، ومن أجاز زيادة «مِنْ» في الإثبات أجاز كون «كُلِّ» مفعولا لـ«صَرَّفْنَا».

(لغة) والمثل في العرف كلام شبّه مضربه بمورده أي بالمعنى الذي ورد فيه أوّلاً، والمضرب ما يشبّه بذلك الوارد أوّلاً، ويستعمل مجازا بمعنى ما

يستغرب، كما شبَّه الله عَجَلَّ تقرير دلائل الوَحْدَانِيَّة والنبوءة والبعث والوعد والوعيد والقصص بالمثل السائر، لأنَّها أمور مهمَّة يحتاج إليها.

﴿وَكَانَ الإنسَانُ﴾ الجنس، وقيل: النضر بن الحارث، وقيل: ابن الزبعري، وقيل: أُبي بن خلف لعنه الله أتى بعظم رمَّ وفتّه بيده وقال: أيقدر الله تعالى على بعث هذا؟ وَيَدُلُّ على الجنس ما في البخاري عن عليٍّ أنَّ رسول الله ﷺ جاءه وفاطمة ليلا، فقال: «ألا تصلّيان؟» فقلت: يا رسول الله إنَّما أنفسنا بيد الله تعالى إن شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف وضرب فخذه وقال: ﴿وَكَانَ الإنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾، قلت: كأنَّه ﷺ يريد منه أن يقول: قصَّرنا يا رسول الله ادعُ الله لنا، أو نحو ذلك، وذلك هو المتبادر، ومن الجائز ـ على بُعدٍ ـ أن يمثّل بالآية لهما مع أنَّهما في نحو "أُبيٍّ" حاشاهما عنه فيكون ذكرها تعجُّبا من سرعة جوابه لا تشبيها له به حاشاه، فلعلَّه عذره في هذا الجواب.

﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ﴾ يمكن منه الجدل ﴿جَدَلاً﴾ تمييز، أي جدله أكثر من جدل كلِّ شيء سواه، كما يقال: تمييز اسم التفضيل محوَّل عن المبتدأ، فقولك: زيد أفضل منك أبا، بمعنى أبو زيد أفضل من أبيك. ومن جدال الإنسان بالباطل قوله للأنبياء: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ (سورة يس: ١٥) وقوله: ﴿مَآ أَنزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ (سورة الأنعام: ٩١) . ومن ذلك قوله في الناسخ والمنسوخ والمتشابه بما لا يجوز أن يقال وقوله بقدم القرآن، ولو قبل الحقَّ لامتلأ نورا.

(لغة) واسم التفضيل المضاف إلى النكرة يكون موصوفه داخلا في معناها، فالإنسان داخل في جملة الأشياء المجادلة. والجدال: شدَّة الخصام بحقٍّ أو باطل، ولا تختصُّ بالباطل بل أكثر استعمالها فيه، وهي من الإلقاء على الجدالة

أي الأرض بالشدَّة، ويقال: المجادلة المقاتلة في الأصل، وقيل: الملاواة، فكلٌّ خصم يلتوي على خصمه.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ من أن يؤمنوا، أي من الإيمان أو إيمانا، فلا تقدَّر «مِن» فإنَّه يقال: منعه من طعام ومنعه طعاما ﴿إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَى﴾ البيان على لسان الرسول ﷺ من القرآن وسائر الوحي، ولا داعي إلى جعل الهدى بمعنى القرآن، كما قيل: إنَّه القرآن، وكما قيل: إنَّه رسول الله ﷺ مبالغة ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ أي يطلبوا المغفرة من ربِّهم لذنوبهم، وهي عدم العقاب عليها حتَّى كأنَّها الشيء المستور، أي من أن يستغفروا، أو استغفارَ ربِّهم على حدِّ ما مرَّ في ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾. والمراد بالناس الكُفَّار على عهد رسول الله ﷺ القائلين بتلك الأباطيل، أو ما يعمُّهم وغيرهم لا ما يعمُّ من قبله لذكر من قبله في قوله:

﴿إِلاَّ أَن تَاتِيَهُمْ سُنَّةُ الاَوَّلِينَ﴾ وهو فاعل «مَنَعَ» أي ما منعهم إلاَّ إتيان مثل سنَّة الأوَّلين، و﴿سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾: إهلاك الأوَّلين المصرِّين على الكفر، والمعنى: سنَّة الله فيهم، وأضافها إليهم لوقوعها فيهم.

والمراد: إلاَّ طلب إتيان سنَّة الأوَّلين، أو انتظار إتيان سنَّة الأوَّلين، أو تقدير إتيان سنة الأوَّلين، ومع ذلك ليسوا بطالبين إتيانها ولا منتظرينه، ولا مُرْتَقِبِينَهُ إلاَّ مجازا تشبيهيًّا. وحقيقة الآية أنَّ إصرارهم على الكفر يوجب لهم سنَّة الأوَّلين، إلاَّ أنَّ الله سبحانه وتعالى أخرها عنهم، ثمَّ إنَّه إذا جاءتهم السنَّة لم يمكنهم الإيمان، فالمراد استفراغ ما قبل الإتيان بالكفر.

ويجوز أن يكون المراد: إلاَّ تقدير ربِّهم وقضاءه أن لا يؤمنوا حتَّى يستأصلهم بمثل سنَّة الأوَّلين، وهو عذاب بدر، وقدَّر بعض إلاَّ تقدير الله عذابهم كالأوَّلين، وفسَّره بعذاب بدر وأُحد.

والمراد: الذنوب مطلقا لا خصوص الشرك، فالآية دليل على خطاب المشركين بالفروع، واستدلَّ بعضهم بها على أنَّ الإيمان بدون استغفار لا يَجُبُّ ما قبله، والظاهر غير ذلك، لكن ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ ما هو أحسن إشارة إلى أنَّ الإيمان النافع ما يصاحب صاحبه الاستغفار.

﴿أَوْ يَاتِيَهُمُ الْعَذَابُ قِبَلاً﴾ حال من «الْعَذَابُ» أي مواجها، أو من الهاء أي مواجهين له، وهو عذاب الآخرة، مصدر بمعنى الوصف، أو يقدَّر مضاف أي ذا قبل أو ذوي قبل، أو مفعول مطلق على تضمين «يأتي» معنى يقابل، أو منصوب بمقابل أو مقابلين مقدَّرا. والحصر إضافيٌّ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُّومِنُواْ إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ (سورة الأسراء: ٩٤) فإنَّ المانع هنا إرادة الله تعالى وهي الحقيقة بالمنع، وفي الآية الأخرى مانع عادي وهو استغراب بعث البشر رسولا.

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ﴾ للمؤمنين بالجنَّة والسعادة ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ للمشركين والفسَّاق بالنار والشقاوة، وذلك خطاب على الإجمال، وليس [الرسول] يقول لأحد أنت سعيد أو أنت شقي إلاَّ قليلا أوحى الله إليه به.

﴿وَيُجَادِلُ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ رسول الله والمؤمنين ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ بالجدال الباطل كجدالهم باقتراح الآيات كتسيير الجبال عن مكَّة، وتفجير العيون، وتكليم الموتى، وكالسؤال عن أصحاب الكهف والروح وذي القرنين تعنُّتا، وقولهم: ﴿وَلَوْ شَآءَ اللهُ لأَنزَلَ مَلاَئِكَةً﴾ (سورة المؤمنون: ٢٤) و﴿مَآ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ (سورة يس: ١٥) ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ الْحَقَّ﴾ الذي جاءت به الرسل ليقطعوه البتَّة، ويزيلوه أو ليخفوه عن الظهور.

﴿وَاتَّخَذُواْ﴾ صيَّرُوا ﴿ءَايَاتِي﴾ القرآن، قيل: وما كان فعلا من الآيات التكوينيَّة ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ «ما» اسم والرابط محذوف منصوب أي: وأشياء أنذروها، أو الأشياء التي أنذروها، بالتعدِّي لمفعولين، كقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا﴾ (سورة الليل: ١٤).

ولا يحسن تقدير: «وما أنذروا به» لعدم وجود شرط الحذف الرابط المجرور، نعم لم يشترط بعض إلاَّ ظهور المعنى، أو حرف مصدر، أي وإنذارهم أي إنذاريهم ﴿هُزُوًا﴾ نفس الهزء، أو ذا هزء، أي شيئا يُستهزأ به.

والاستهزاء من جانبهم ولا يبعد عن المشركين أن يقولوا كلام الله ورسوله استهزاء من الله ورسوله، حاشى الله ورسوله عن ذلك، والآيات ألفاظ القرآن وما أنذروا به معانيه المنذِرة لهم، وما يقوله رسول الله ﷺ من سائر الوحي وما يلتحق به، والأسواء التي أنذروا بها كالنار.

﴿وَمَنَ اظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِئَايَاتِ رَبِّهِ﴾ القرآن أو جنس الآيات. قال بعضهم: «العاصي ظالم لنفسه ولغيره، ضالٌّ مضلٌّ، ولو كانت المعصية في نفسه لأنَّه يجسِّر الناس على المعاصي» ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ لم يتفكَّر فيها احتقارا لها فلم يتذكَّر بها، والمراد: هؤلاء المعاندون المعهودون، أو أعمُّ، أو من علم الله تعالى أنَّه يموت بلا إيمان ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من المعاصي مطلقا، **لا أظلم منه لأنه ظلم نفسه والنبيء ﷺ والمؤمنين ، وأعان على كلِّ كفر وإشراك وكلِّ معصية.**

﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ وضعنا ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمُ, أَكِنَّةً﴾ جمع كنان أي أثبتنا على قلوبهم أغطية باختيارهم، لا بإجبارهم لأنَّهم قادرون على التوحيد والإسلام، والجملة تعليل للإعراض والنسيان ﴿اَنْ يَّفْقَهُوهُ﴾ أي عن أن يفقهوه، أو كراهة

أن يفقهوه، أو لِئَلاَّ يفقهوه، أفرد ضمير الآيات لأنَّها بمعنى القرآن أو عاد الضمير إليه لظهور المراد، وجمع ضمير «مَن» نظرا إلى معناها بعد أن أفرد نظرا إلى لفظها، وكذا ضمائر الجمع بعد.

ويجوز جعل قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا...﴾ على نسق قوله: ﴿وَيُجَادِلُ الذِينَ كَفَرُواْ...﴾ لا على قوله: ﴿وَمَنَ اظْلَمُ...﴾ فلا يكون قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ تعليلا للإعراض والنسيان بل هذا أولى لأنَّ قوله: ﴿وَمَنَ اظْلَمُ﴾ إلى قوله: ﴿يَدَاهُ﴾ سيق معترضا للتوبيخ ﴿وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ثقل سَمْع شبَّه عدم انتفاعهم بما يسمعون بعدم السمع لجامع عدم تولُّد شيء، وقوله: ﴿فِي ءَاذَانِهِمْ﴾ عطف على قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَقْرًا﴾ عطف على قوله: ﴿أَكِنَّةً﴾ ولو اختلف الحرفان: «على» و«في»، ويجوز جعل «في» بمعنى على.

﴿وَإِن تَدْعُهُمُ, إِلَى الْهُدَىٰ﴾ إلى الاهتداء، أو إلى ما به الاهتداء ﴿فَلَنْ يَّهْتَدُواْ إِذًا اَبَدًا﴾ إدراكا للحجَّة وعملا بها ولا تقليدا. كان رسول الله ﷺ حريصا على إيمانهم كما قال الله ﷻ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ ءَاثَارِهِم...﴾ (سورة الكهف: ٦) وكأنَّه قال: لا أترك دعاءهم إلى الإسلام ولو جعل على قلوبهم أكنَّة وفي ءاذانهم وقرا، ومن شأني الدعاء فلا أتركه ما لم ينهني الله ﷻ، فأجابه الله ﷻ بقوله: ﴿وَإِن تَدْعُهُمُ, إِلَى الْهُدَىٰ...﴾ من غير منع عن الدعاء، فـ«إذًا» حرف جواب وجزاء، فإنَّ الجواب اشتمل على الشرط الذي هو سبب فكان ما بعد «إِذًا» جزاءً مسبَّبا عنه.

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ﴾ لكلِّ ذنبٍ مَا لم يصرَّ عليه، لا يعاظمه ذنب. وصفة المبالغة لعظم غفرانه وكثرته، كما تقول: زيد ضروب أي ضربه عظيم شديد غليظ، ومن يضربه كثير ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ ذو الإنعام، أو منتفي القسوة، كالحيِّ

بمعنى انتفاء الاتّصاف بالموت، لا حقيقة الحياة ولا حقيقة ما يقبل اللين والقسوة، تعالى الله عن ذلك. وقُدِّم الغفران عن الرحمة لأنَّه تخلية وهي تحلية، و«الـ» في «الرَّحْمَةِ» للكمال، أو لعهد الرحمة التي وسعت كلَّ شيء، و"ذو فعل كذا" أبلغ من "فاعل كذا"، لأنه أدلُّ على الرسوخ، كأنَّه قيل: ذو ماهية كذا، فذو الرحمة أبلغ من الغفور.

﴿لَوْ يُوَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ﴾ من الذنوب خصوصا السعي في الجدل والإعراض والاقتراح، وإطفاء نور الله ﷻ، والإفراط في عداوة رسول الله ﷺ، والمراد: بما كسبوه، أو بأشياء كسبوها، أو بكسبهم، وهكذا قل في نحو الآية واغن عن التكرير.

﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ لكن قضى الله تأخيره، ورحمتُه سبقت غضبه فأمهل لهم ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ زمان وعد مستقبل، والوعد سابق في الأزل، ولو حدث كتبه في اللوح المحفوظ وذلك الزمان يوم بدر، وليس المراد يوم القيامة، كما ذكر إهلاك القرى بوقت في الدنيا بعد، وقيل: المراد يوم القيامة، وأجيز أن يكون اسم مكان هو جهنَّم أو أرض بدر ﴿لَنْ يَّجِدُواْ مِن دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ موضع رجوع يرجعون إليه قبل مجيئه، أو عند مجيئه، أو زمان رجوع أو رجوعا. والهاء للموعد، وقيل: للعذاب، فلا تكون الجملة حينئذ نعتا لـ«مَوْعِدٌ» وهو أبلغ، لأنَّ مَنْ ملجَأُه العذاب لا يتصوَّر أن ينجو مع أنَّ نفس ملجئه وهو العذاب، وقيل: الضمير في ﴿مِن دُونِهِ﴾ لله سبحانه وتعالى.

﴿وَتِلْكَ﴾ مبتدأ على حذف مضاف، أي وأهل تلك ﴿الْقُرَى﴾ أي وأهل تلك القرى عاد وثمود وقوم لوط ونحوهم، وخبر المبتدأ قوله: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ والإشارة للقرى المعهودة لقريش، ويجوز أن تكون للأقوام المذكورين.

(نحو) فالقرى خبر المبتدأ على حذف مضاف، أي وتلك الأقوام أصحاب القرى، فـ«أَهْلَكْنَاهُمْ» خبر ثان؛ أو "أصحاب" المقدَّر بدل ناب عنه «الْقُرَى» و«أَهْلَكْنَاهُمْ» خبر، أي وأصحاب تلك القرى أهلكناهم؛ أو القرى اسم لأهلها. والإشارة تنزيل للمشار إليه منزلة المحسوس.

﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ كظلم قريش بالإشراك وغيره ﴿وَجَعَلْنَا لِمُهْلِكِهِم﴾ زمان إهلاكهم ﴿مَّوْعِدًا﴾ وعدا، أو مهلك بمعنى الإهلاك، و﴿مَوْعِدًا﴾: زمان وعد، فلا يغترَّ قريش فقد يهلكون كما أهلك مَن قبلهم، فـ«مُهْلَك» اسم زمان أو مصدر ميميٌّ من الرباعي بالزيادة، وكذا «مَوْعِد» من الثلاثي.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ

أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَاكِيَةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾

قصّة موسى عليه السلام مع الخضر

(١)

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ هو ابن عمران، وكذَّب ابن عبَّاس نوفًا البكّالي[1] إذ قال: إنَّه غيره، كما قال في البخاري ومسلم والترمذي والنسائي[2]، وكذا زعم بعض المحدِّثين والمؤرِّخين إنَّه موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب، وقيل: موسى بن إفرائيم بن يوسف، وكذا قال اليهود: أنكروا أن يأخذ عن نبيء وأن يكون الخضر أعلم من موسى بن عمران، وان يكون خرج من التيه.

قلت: لا مانع من تعلُّم نبيء من نبيء، ومن تعلُّم نبيء مِمَّن هو دونه، كما قيل: إنَّ الخضر ليس نبيئا، وإنه لا مانع من خروجه ثمَّ رجوعه إلى التيه، وإنَّه لا مانع من التقائه مع الخضر قبل التيه، وقد يخرج ولا يخبرهم، أو يقول لهم أخرج إلى عبادة وأرجع. و«إِذْ» عطف على «إِذْ» الأولى، فـ«اذكر» المقدَّر هنالك مسلَّط عليه، كأنَّه قيل: واذكر إذ قال موسى.

﴿لِفَتَاهُ﴾ هو يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف فإنَّه كان يخدمه ويتبعه،

١- نوف البكالي بن فضالة سامي، ذكره ابن حبَّان في الثقات، وإنَّما كذَّب ابن عبَّاس ما رواه عن أهل الكتاب، توفي بعد ٩٠ هـ. ابن حجر: تقريب التهذيب، ج٢، ص٣١٤.

٢- رواه البخاري في كتاب التفسير (٢١٥) باب ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ...﴾ رقم ٤٤٤٨، ورواه **مسلم** في كتاب الفضائل، باب فضائل الخضر عليه السلام، رقم ٢٣٨٠. ورواه **الترمذي** في كتاب التفسير (١٩) باب ومن سورة الكهف، رقم٣١٤٩. من حديث أُبي بن كعب.

فسمِّي فتاه، وهذا هو المشهور، والعرب تسمِّي الخادم فتى لأنَّ الخدم أكثر ما تكون في سنِّ الفتوَّة، وقيل: هو ابن أخت موسى، وقيل: هو أخو يوشع، أنكر اليهود أن يكون له أخ، وقيل: فتاه عبده قال ﷺ : «**ليقل أحدكم فتاي وفتاتي، ولا يقل عبدي وأمتي**»[1] وهذا خلاف الأولى لا محرَّم ولا مكروه، وقيل: القول بأنَّه عبده باطل.

[وكأنَّه قال:] اذكر يا محمَّد لهؤلاء المتكبِّرين على الفقراء الذين آمنوا قصَّة موسى وتواضعه للخضر في تعلُّمه منه، وفيها تلويح بمدح المؤمنين على تواضعهم للنبيء ﷺ ، وتقريع لأهل الكتاب والمشركين على عدم التعلُّم من النبيء ﷺ ، كما ارتحل موسى إلى التعلُّم.

﴿**لَآ أَبْرَحُ**﴾ لا أزال، والخبر محذوف تقديره: لا أبرح سائرا، أو لا أبرح أسير، ولا خبر له، بمعنى: لا أنتقل عن السير والطلب، أي لا أتركهما، ويدلُّ على تقدير السير الحالُ وهي أنَّه في السفر، واللفظُ وهو قوله: ﴿**حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ**﴾ ولا مانع من حذف خبر "باب كان" لدليل، مثل أن يقال: من كان بوَّابا؟ فتقول: كان عمرو، أي كان عمرو بوَّابا. و﴿مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾: هو الموعود له من الله ﷻ : بحر الروم الجاري على الجزائر وأعمالها وأندلس والبحر المحيط،، وعليه سبتة، ومجمعهما: ما بين سبتة وطنجة من البحر، إذ قيل: فتح ذو القرنين ذلك الموضع، وكان غير بحر والبحر المحيط، أو فتحه إلى المحيط، فاتَّصل البحران.

ودع عنك التفسير ببحر الروم وبحر فارس الذي في المشرق كما روي عن مجاهد وقتادة، وعليه فما معنى التقائهما وأين يلتقيان؟ فيتكلَّف له أنَّهما في موضع يقرب التقاؤهما وإلاَّ فلا يلتقيان إلاَّ في المحيط، بخلاف ما بين طنجة

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٧، ص١٠٨.

وسبتة فإنَّه كان برًّا فاشتكى أهل أندلس من أهل السوس فحجز بينهما ذو القرنين بخلط البحرين، وبهذا قال محمَّد بن كعب القرظي.

وقيل: بحر مالح وبحر عذب وملتاقاهما في الجزيرة الخضراء في الأندلس، قلت: لا نعرف بحرا عذبا في ذلك إلاَّ أن يراد به نهر عظيم جار فلا بأس، وقيل: الكروالرس بأرمينية[1]، وقيل: بحر القلزم وبحر الأزرق، وقيل بإفريقيَّة، قلت: لا نعرف هذا إلاَّ أن يراد ما يشمل طنجة أو ما يشمل الإسكندريَّة، فالنيل ينصبُّ في البحر المالح، وهذا المجمع جار أيضا على أندلس لأنَّ جزيرة أندلس طويلة مِمَّا قبل مِمَّا يلي سبتة من تلك العدوة إلى مرسية، والذي يليها جبل طارق من تلك العدوة.

وسبتة من عدوتنا وبقي مسيرة ثلاثة أيَّام أو خمسة لم يغلقه الماء يخرج منها إلى البرِّ الكبير وهو برٌّ وراء بحر الجزائر هذا، وفي عدوته من تلك الجهة باريز ويقال: "بريش" وهو الأصل وحرِّف. ودع عنك ـ لمخالفة الظاهر ـ تفسير البحرين بموسى والخضر ولو كان كالبحر في علم الباطن وموسى كالبحر في علم الظاهر.

﴿أَوَ اَمْضِيَ﴾ أسير ﴿حُقُبًا﴾ مفرد لا جمع، أي دهرا طويلا، أو ثمانين سنة أو سبعين أو سنة و لم أبلغه وأيستُ فأرجعُ أو عجزت، ولا بدَّ من هذا التقدير أو نحوه على أنَّ العطف على «أَبْلُغَ»، ويجوز أن تكون «أَوْ» بمعنى إلاَّ أو إلى، أي ليكوننَّ منِّي بلوغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا في سيري أعجز بها أو آيس، ومعنى كون «أَوْ» بمعنى إلى أنِّي لا أزال أسير حتَّى أبلغ المجمع، أو إلى أن يحصل لي زمان عجز عن السير فيه.

(قصص) خطب موسى عليه السلام في مصر بعد غرق فرعون خطبة عجيبة

١- لَعَلَّهُ هو البحر الأسود كان يعرف بهذا الاسم.

مشتملة على علوم كثيرة، وأعجب بها، فقيل له: هل تعلم أحدا أعلم منك؟ قال: لا، فأوحى الله ﷻ إليه: عبدي الخضر أعلم منك وهو بمجمع البحرين، ومعنى كون الخضر أعلم من موسى أنَّ الله ﷻ أعطاه علم ما لم يعط موسى من الغيوب، فهو أعلم من موسى بالباطن، وموسى أعلم منه بالظاهر؛ أو لَمَّا كان أصل العلم إدراك ما غاب أطلق أنَّه أعلم منه، ولموسى طرف من الباطن وللخضر طرف من الظاهر، بل ورد التفضيل باعتبارين ولو لم يشترك الطرفان، نحو: الخلُّ في حموضته أشدُّ من العسل في حلاوته.

ويلزم في الرسول أن يكون أعلم أمَّته في أمر الشرع، والخضر من أمَّته وهو أعلم منه فيه، وقيل: هو نبيء مستقلٌّ، وقيل: غير نبيء، وهل هو إسرائيليٌّ؟ قولان.

(قصص) وقيل: سأل ربَّه: أيُّ عبادك أحبُّ إليك؟ قال: «الذي يذكرني ولا ينساني» قال: فأيُّ عبادك أقضى؟ قال: « الذي يقضي بالحقِّ ولا يتّبع الهوى» قال: فأيُّ عبادك أعلم؟ قال: «الذي يبتغي علم الناس إلى علمه، عسى أن يصيب كلمة تدلُّه إلى هدى أو تردُّه عن ردى» قال: إن كان في عبادك أعلم منّي فادللني عليه، قال: أعلم منك الخضر، قال: فأين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة، قال: كيف لي به قال: تأخذ حوتا ملحا مشويا في مكتل فحيث فقدته تجده، فقال لفتاه: إذا فقدت الحوت فأخبرني ولا أكلّفك سوى هذا، قال: ما كلّفتني كثيرا، فذهبا يمشيان حتّى بلغا مجمع بينهما فرقد موسى للعياء فاضطرب الحوت وهو مشويٌّ عند الصخرة فاضطرب إلى البحر، ويقال: توضّأ يوشع في ذلك المكان من عين تسمَّى ماء الحياة لا يصيب ماؤها شيئا إلاَّ حيي، فأصاب الماء الحوت فحيي فاضطرب إلى البحر من المكتل، وقيل: انفجر هنالك عين من الجنَّة ووصلته قطرات فحيي، ووثب إلى البحر، وكان الخضر في أيَّام أفريذون، [قيل:] وكان على مقدِّمة ذي القرنين الأكبر وبقي إلى أَيَّام موسى، ويحيى إلى أن يرفع القرآن والكعبة، وهو نبيء على الصحيح غير رسول وعليه الجمهور، وقيل: رسول وهو

من ولد سام بن نوح لقي إبراهيم عليه السلام وطاف ذو القرنين الدنيا والخضر على مقدِّمته وسدَّ على ياجوج ماجوج وبنى الإسكندرية.

(قصص) وأمَّا ذو القرنين الأصغر فهو الإسكندر بن فيلبوس اليوناني، الذي قتل دارى وسلب ملكه وتزوَّج بنته، واجتمع له ملك الروم وفارس، وطاف الدنيا وبلغ الظلمات وبلغ المغرب ـ كما ذكر الله عز وجل بعد ـ والمشرق، وأقصى الشمال لأنَّ فيه السدَّ، وفي داخله الروم. لَمَّا مات أبوه فيلبوس جمع ملوك الروم بعد أن كانوا طغاة، ثمَّ جميع ملوك العرب وقهرهم، وأمعن حتَّى انتهى إلى البحر الأخضر، ثمَّ عاد إلى مصر وبنى الإسكندريَّة، وسمَّاها باسم نفسه وهو إسكندر، فكان الناس ينسبونها إليه وتركوا كونه اسما لها، ثمَّ دخل الشام وقصد بني إسرائيل وورد بيت المقدس وذبح في مذابحهم، وانعطف إلى أرمينية، وباب الأبواب، ودان له أهل العراق والبربر والقبط، توجَّه إلى دار ابن دارى وهزمه مرارا حتَّى قتله صاحب حرسه، فاستولى الإسنكدر على ممالك الفرس، وقصد اليمن والهند، وغزا الأمم البعيدة ورجع إلى خراسان، وبنى مدائن كثيرة، ورجع إلى العراق ومرض في شَهْرَزُورَ ومات فيها، وكان تلميذا لأرسطاليس الكافر، بعد ان أسلم على يد الخضر.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ﴾ موضع الجمع ﴿بَيْنِهِمَا﴾ بين البحرين، وأصل المجمع أن يضاف إلى البحرين لا إلى «بين»، لكن أضيف إلى «بين» توسُّعا، أو تقول: «بين» بمعنى الوصل. وكنت أقول الهاء عائدة إلى موسى والخضر ثمَّ تذكَّرت أنَّه لم يجر للخضر ذكر؛ أو عائدة إلى موسى وفتاه، أي موضع اجتماعهما مع غيرهما وهو الخضر ولم يذكر غيرهما، وذلك على الوجوه كلِّها هو الموضع الذي قضى الله أن يجتمعا فيه مع الخضر عليهم السلام سكن فيه الخضر أو في قريب منه.

﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ نسي موسى أن يطلبه من فتاه أن يحضره له، ونسي أن يأكل منه ويتعرَّف حاله، ونسي يوشع أن يذكر له حياته ووقوعه في البحر وارتحلا على ذلك النسيان، وحاصل ذلك أنهما نسيا شأن الحوت كلٌّ واحد نسي ما من شأنه أن يذكره.

ووجه قريب أنَّ موسى عليه السلام أخبر فتاه بما قال له الله عز وجل في الحوت، ونسي يوشع أن يخبره، وقد قيل: إنَّه قال: لا أذكر له حتَّى يستيقظ، وما استيقظ إلاَّ وقد نسي، وذلك كلُّه أولى من أن يقال: النسيان لموسى وجمع الله معه فتاه حكما على المجموع، وأولى من تقدير مضاف أي نسي أحدهما وهو موسى.

﴿فَاتَّخَذَ﴾ أي الحوت ﴿سَبِيلَهُ, فِي الْبَحْرِ﴾ متعلّق بـ«اتَّخَذَ» وحال من «سَبِيل» أو من قوله: ﴿سَرَبًا﴾ مسلكا، صار الماء له جدار وسقفا كما فعل الله لموسى عليه السلام في البحر حين اتَّبَعَه فرعون، إلاَّ أنَّه لم يسقف على موسى بل بدا طريقه للسماء، كما سئل عليٌّ: على أيِّ موضع طلعت عليه الشمس مرَّة واحدة ؟ فأجاب: بطريق موسى وبني إسرائيل في بحر القلزم.

روى الطبري وابن أبي حاتم[1] من طريق العوفي عن ابن عبَّاس رضي الله عنه: جعل الحوت لا يَمُسُّ شيئا من البحر إلاَّ يبس حتَّى كان صخرة، وكذا روى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي أنَّ الله عز وجل أمسك جرية الماء عن الحوت فصار عليه مثل الطاق أي القوس، قال أبو حامد الأندلسي رأيت سمكة بقرب مدينة سبتة من نسل الحوت الذي تزوَّده موسى وفتاه عليهما السلام وأكلا منه،

١- ابن أبي حاتم عبد الرحمن بن محمَّد التميمي الحنظلي الرازي أحد مشاهير المحدِّثين في عصره، مفسِّر عالم بالفقه والقراءات، قال أبو يعلى: «كان بحرا في العلوم ومعرفة الرجال» وهو صاحب كتاب «الجرح والتعديل»، تُوُفِّيَ سنة ٣٢٧. عادل نويهض: معجم المُفَسِّرِين، ج١، ص٢٧١.

وهي سمكة طولها أكثر من ذراع وعرضها شبر وأحد جنبيها شوك وعظام وجلد رقيق على أحشائها، ولها عين واحدة ونصف رأس من ورائها من جانب، استقذرها وحسبها مأكولة، ومن جانب آخر صحيحة، يتبرك بها وتهدى إلى المواضع، وقال أبو شجاع في كتاب الطبري: أتاني به رجل فرأيته فإذا هو شقُّ حوت وليس له إلاَّ عين واحدة، قال ابن عطية: وأنا رأيته وعلى شقّه قشرة رقيقة ليس تحتها شوكة.

[قلت]: لعلَّ بعضا كما قال أبو حامد، وبعضا كما قال ابن عطيَّة ولعلَّ ذلك انقطع بعد، أو غفل الناس ولم يتعرَّفوا ذلك، ونصَّ محمَّد بن كعب القرظي كما مرَّ على أن البحرين بحر طنجة التقى هناك المحيط مع البحر الآخر المذكور، ويقوِّي ذلك مدينة الجدار في الغرب، وأيضا لا مجمع بين بحري فارس والروم ولو تقاربا إلاَّ في المحيط أعني أنَّه أصلهما.

﴿**فَلَمَّا جَاوَزَا**﴾ مجمع البحرين وهو واسع مختلف الوسع، وكذا ساحله ولا ترى عدوة من أخرى، لكن الله ﷻ بيَّن له الموضع بشأن الحوت، وصخرة إذا وصلها ينام من عياء ويتوسَّدها ﴿**قَالَ لِفَتَاهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا**﴾ ما نأكل صباحا قبل الزوال أو بعده قبل العصر ﴿**لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا**﴾ عطف بيان لـ«سَفَر» أو بدل، أو ضمَّن معنى الحاضر فيكون نعتا ﴿**نَصَبًا**﴾ مفعول «لَقِينَا» أي تعبا.

(قصص) ويروى أنَّ موسى عليه السلام لم ينصب حتَّى جاوز الموعد الذي حدَّه الله تعالى، وسار الليلة والغد إلى الظهر، فلعلَّه تكون الإشارة إلى مسيره من محلِّ الصخرة، وأبعاض السفر كلُّها سفر، وهذا المسير أشدُّ إتعابا له مِمَّا قبله، وذلك أنَّ رجاء المطلوب يقرِّب البعيد، والخيبة تبعد القريب كذا قيل، وفيه أنَّ هذا يثبت لو كان له شعور بالخيبة عن القصد.

﴿قَالَ أَرَآيْتَ إِذَ اوَيْنَآ﴾ أخبرني ما دهاني إذا أوينا ﴿إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ هي التي رقد عندها موسى، وهذا عند بحر طنجة ألا ترى قصَّة وجود حوت كالمأكول في بحرها، وألا ترى أنَّ في ذلك المغرب مدينة يقال لها مدينة الجدار، وغير ذلك مِمَّا تذكره المغاربة وشهر أنَّ ذلك عند بحر الشام، ويقال: إنَّ الصخرة هي التي دون نهر الزيت سمِّي لكثرة أشجار الزيت على شاطئه.

ويروى أنَّهما خرجا من الشام إلى جهة أرمينية فانتهيا إلى الصخرة التي قال الله لموسى: إنَّك تجد عندها العبد الصالح الذي تطلبه، وَلَمَّا انتهيا إليها توسَّدها ونام، فاضطرب الحوت بمسِّ ماء الحياة فدخل البحر بمرأى فتاه، وشفق أن يوقظه ونسي بعد يقظه ولم يشتدَّ حفظه لكثرة ما عاهد عند موسى من أمثال ذلك.

﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ إذ أوينا إلى الصخرة أي نسيت شأن الحوت الذي جعل لي علامة ﴿وَمَآ أَنسَانِيهِ إِلاَّ الشَّيْطَانُ﴾ وقوله: ﴿أَنَ اذْكُرَهُ,﴾ بدل اشتمال من الهاء، والمُنْسي هو الله ﷻ، وإنَّما نسب الإنساء إلى الشيطان هضما لنفسه كأنَّه قصَّر فخدعه الشيطان مع أنَّه مستغرق القلب في أمر الله، ولم يتحمَّل هذا الاستغراق مع مراعاة شأن الحوت لنقصان البشر طبعا.

﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ, فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ والحقُّ أنَّ هذا من كلام الله، وفاعل «اتَّخَذَ» ضمير موسى، والهاء له أو للحوت أو كلاهما للحوت، سبيلا عجبا كأنَّه نفس العجب، أو معجوبا به، وهاء «سَبِيلَهُ» للحوت ويجوز عوده لموسى، و«فِي الْبَحْرِ» متعلِّق بـ«اتَّخَذَ» و«سَبِيلَ» مفعول أوَّل و«عَجَبًا» ثان، أو «اتَّخَذَ» له مفعول واحد، أو ثانيه «فِي الْبَحْرِ» و«عَجَبًا» حال أو مفعول مطلق، أي اتِّخاذًا عجبا ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ ذلك الذي ذكرت من أمر الحوت هو الذي كُنَّا نطلبه.

﴿فَارْتَدَّا﴾ رجعا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ مواضع أقدامهما التي جاء منها ﴿قَصَصًا﴾ مفعول مطلق لحال محذوفة، أي يقصَّانها قصصا، أو قاصِّين لها قصصا، أو حال أي قاصِّين ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ عند الصخرة، وقيل: في مدخل الحوت إلى البحر ﴿ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ ينبغي لمن قرأ هذه الآية أن يقول: «اللهمَّ آتنا رحمة من عندك، وعلِّمنا من لدنك علما».

(قصص) والعبد المذكور هو الخَضِر، بفتح الخاء وكسر الضاد، أو إسكانها أو بكسرهما أو بكسرها وإسكان الضاد، أو أبو العبَّاس بَلْيا بفتح فإسكان وقصر أو مدٍّ، وقيل: إبليا، وقيل: اسمه عامر، ويضعف القول إنه أحمد بأنه لم يسمَّ أحد بأحمد قبل سيِّدنا محمَّد ﷺ، وعن الضحَّاك: إنَّ الخضر ابن آدم، وعن سعيد بن المسيِّب إنَّ أمَّه رومية وأباه فارسيٌّ، وقيل: إنَّه ابن فرعون موسى، وهو ضعيف، وعن كعب الأحبار: إنَّه ابن عاميل، وقيل: ابن العيص، وقيل: ابن كليان بفتح الكاف وإسكان اللام، وعن وهب بن منبِّه: إنَّه ابن ملكان ـ بذاك الوزن ـ بن فالغ بن عامر بن شالخ بن أرفخشد، بن سام بن نوح، [قلت:] **ولا أعرف صحَّة شيء من هذه الأقوال**، وصحَّح النووي فيما يظهر من عبارته أنَّه بليا بن ملكا ونسب للجمهور وشهر أنَّه موسى.

وزعم بعض أنَّه إلياس، وبعض أنَّه اليسع، وبعض أنَّه ملك، ولقِّب بالخضر، لِمَا روي عن رسول الله ﷺ: **أنَّه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتزُّ من خلفه خضراء**[1]، وعن مجاهد: لأنَّه إذا صلى اخضرَّ ما حوله، وعن عكرمة:

١- أخرجه **البخاري** في كتاب أحاديث الأنبياء (٢٧) باب حديث الخضر مع موسى عليه السلام، رقم ٣٤٢١. **والترمذي** في كتاب التفسير (١٩) باب ومن سورة الكهف، رقم ٣١٥١.

لأنَّه إذا جلس في مكان اخضرَّ ما حوله، ولأنَّه كانت ثيابه خضرا، وعن السدِّي: لأنَّه إذا أقام بمكان نبت العشب تحت رجليه حتَّى يغطِّي قدميه، وقيل: لإشراقه وحسنه، والصحيح الأوَّل للحديث.

وصحَّ من حديث البخاري وغيره: أنَّهما رجعا إلى الصخرة، وإذا رجل مسجَّى بثوب ـ أي مغطًّى ـ جعل طرفه تحت رأسه، وطرفه تحت قدميه. وفي مسلم: أتيا جزيرة فوجدا الخضر قائما يصلِّي على طنفسة خضراء على كبد البحر أي خالص الماء، وذكر الثعلبي أنَّهما انتهيا إليه وهو نائم على طنفسة خضراء على وجه الماء مسجًّى بثوب أخضر، وقيل: إنَّ سبيل الحوت عاد حجرا فلمَّا جاءا إليه مشيا عليه حتَّى وصلا إلى جزيرة فيها الخضر.

وصحَّ أنَّه سلَّم عليه موسى حين انتهيا إليه، فقال الخضر: وأنَّى بأرضك السلام ؟ فقال: أنا موسى فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، وروى أنَّه لَمَّا سلَّم عليه وهو مسجًّى عرف أنَّه موسى فجلس، وقال: وعليك السلام يا نبيء بني إسرائيل، فقال موسى: وما أدراك بي ومن أخبرك؟ فقال: الذي أعلمك بي أما يكفيك أنَّ التوراة بيدك، وأنَّ الوحي يأتيك؟ فقال: إنَّ ربِّي أرسلني إليك لأتَّبعك وأتعلَّم من عندك.

ونكَّر «عَبْدًا» و«رَحْمَةً» و«عِلْمًا» للتعظيم، والرحمة: الوحي والنبوءة عند الجمهور على أنَّه نبيء، وقيل: رسول، وقيل: وليٌّ، وقيل: الرزق الواسع، وقيل: العزلة عن الناس وعدم الحاجة إليهم، وقيل: طول الحياة مع الصِّحَّة، والعلم: علم الغيب بتكليم الملَك، أو بإشارته المعبَّر عنها بالنفث، كقوله ﷺ : «**إنَّ روح القدس نفث في روعي أنَّه لن تموت نفس حتَّى تستكمل رزقها فاتَّقوا الله**

=

من حديث أبي هريرة.

وأجملوا في الطلب»[1] والإلهام من هذا وملك الإلهام للأنبياء وغيرهم، أو بتعليم الله بلا واسطة بل يلقي في قلبه.

وعلم الخضر بإيحاء الله على لسان الملك، أو بإشارة الملك من الله دون النطق، والأوَّل هو الوحي الظاهر، والثاني يسمَّى نفثا، أو بالإلهام، وقيل: الإلهام من الثاني وله ملك يسمَّى ملك الإلهام ولا يختصُّ بالأنبياء.

وكلُّ ذلك غير علم الحروف. ويجوز تعاطي غير الوحي مِمَّا لا يخالف الشرع، وقد ندم ابن عَبَّاس عن تركه علم التنجيم الذي لا يخالف الشرع، وقال: إنَّ الناس عطَّلوني بالمنع عنه.

وكأنَّه قيل: ما جرى بينهما ؟ فقال الله ﷻ : **﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلَ اَتَّبِعُكَ﴾**...إلخ استفهم مع أنَّ الله ﷻ أرسله إليه للتعلُّم، بل طلب التعلُّم منه فأجابه، فجرى على سنن مريد التعلُّم من الطلب والخضوع، أي هل تبيح لي أن أتَّبعك.

(لغة) **﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾** قال الأصوليُّون: تأتي «عَلَى» للشرط كما هنا، قيل: وفي قوله تعالى **﴿يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ﴾** (سورة الممتحنة: ١٢) وفي قوله: **﴿عَلَىٰٓ أَن تَاجُرَنِي﴾** (سورة القصص: ٢٧) وهو حقيقة عند الفقهاء، وتردَّد السبكي في وقوعه في كلام العرب، والصحيح وقوعه، قيل: ولم يذكره النحاة وهو في آية هذه السورة، قلت: هو داخل في الاستعلاء المجازي، وليس معنى حقيقيًّا لها، وزعم السرخسي أنَّه حقيقة وليس كذلك، كأنَّه قيل: هل أتبعك بانيا على أن تعلِّمني مِمَّا علِّمت رشدا ؟ أي علما

١- روى **ابن ماجه** ما يقاربه لفظا في كتاب التجارات، باب الاقتصاد في طلب المعيشة رقم٢١٤٤، من حديث جابر بن عبد الله.

ذا رشد، وهو إصابة الخير.

(نحو) وهو مفعول ثان، وثاني «عُلِّمْتَ» محذوف أي عُلِّمْتَهُ، ويجوز أن يكون الثاني محذوفا منعوتا بقوله: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ أي بعضا ممَّا علِّمت، فـ«رُشْدًا» بدل من البعض، أو مفعول مطلق لمحذوف مستأنف، أي أرشد رشدا، أو مفعول لأجله لـ«أَتَّبِعُكَ» أي لأكون رشيدا.

ولا إشكال في تعلُّم موسى مع كثرة علمه بالتوراة وغيرها من الخضر الذي هو دونه، لأنَّ أعلم الناس من يجمع علم غيره إليه، ولاختلاف العلمين. روى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي، عن ابن عَبَّاس عن رسول ا لله ﷺ : «**إنَّ الخضر قال: يا موسى إنِّي على علم من ا لله تعالى علَّمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من ا لله تعالى علَّمكه ا لله سبحانه لا أعلمه**»[1] ومعنى قوله تعالى : «لي عبد أعلم منك» أنَّ الخضر أعلم من موسى بعلم الحقيقة، ولموسى علم بعض الحقيقة، كما أنَّ للخضر ما يكفي من علم الشريعة، قال السيوطي: ما جمعت الشريعة والحقيقة إلاَّ لنبيئنا ﷺ ، ولم يكن للأنبياء إلاَّ أحدهما، على معنى: ما جمعت على الوجه الأكمل إلاَّ له ﷺ ، ولا يخفى تبليغه الشريعة، وأمَّا تبليغه الحقيقة فقد يكون منه لبعض المستعدِّين، تأمَّل.

[قلت:] ويظهر لي وجه آخر هو أنَّ المراد بكون الخضر أعلم أنَّ علم الحقيقة أدخل في حقيقة العلم من غيره، فيتمُّ الكلام ولو لم يكن لموسى شيء من علم الحقيقة البتَّة.

١- رواه **البخاري** في كتاب العلم، باب ما يستحبُّ للعالم إذا سئل... رقم١٢٢. ورواه **مسلم** في كتاب الفضائل، باب فضائل الخضر عليه السلام ، رقم ٢٣٨٠. ورواه **الترمذي** في كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة الكهف، رقم٣١٤٩. من حديث ابن عَبَّاس.

﴿قَالَ﴾ له الخضر ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ مَّا، وهو نكرة في سياق النفي تَعُمُّ ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ أكَّد نفي الصبر بالجملة الاِسميَّة و«إِنَّ» وبإيقاعه بـ«لَنْ» فإنَّ نفيها أكيد، وبنفي الاستطاعة للصبر فإنّه أوكد من نفي الصبر، كما ينهى عن القرب إلى الشيء في مقام النهي عن الشيء، فإنَّ القرب والاستطاعة مِمَّا يتوقَّف عليه الفعل، فنفيهما أوكد من نفيه، وتنكير الصبر لئلاَّ يبقى شيء مَّا منه.

(أصول الدين) والآية دليل على أنَّ الاستطاعة مع الفعل لا قبله كما هو مذهبنا ومذهب سلف قومنا، كما أشار إليه إبراهيم الكوراني[1]، وقالت المعتزلة: إنَّ الاستطاعة قبل الفعل لا معه، وكذا قال الأَشعَرِيَّة وكما قال الفخر، إذ لو كانت قبله لكان نفيها كذبا، وأنا أقول: تطلق معه وتطلق أيضا قبله، كما يقال لفلان طاقة على كذا ولو قبل فعله، وكما وردت في الحج قبله ولا فرق، وكيف يتخلَّف الأمر بين الحجِّ وغيره.

وحاصل ذلك أنَّها بمعنى: يثقل الصبر على موسى كما يقال: لا يستطيع أن يرى فلانا، وليس هذا خروجا عن الظاهر كما يتوهَّم، وذكر بعض أنَّه لا دليل في الآية إذ ليس المراد إلاَّ نفي للصبر بنفي الاستطاعة التي يتوقَّف هو عليها وهذا موجود حصلت قبله أو معه. و«خُبْرًا» مفعول به لـ«تُحِطْ» لأنَّه في معنى تدرك، أو مفعول مطلق لتضمُّن «تُحِطْ» معنى المعرفة، أو تمييز للهاء، أي ما لم تحط بخبره، أو لم يحط به خبرك، لأن معتادك علم الظاهر وهو حالك، وهو

١- إبراهيم بن الحسن الشهرزوري الكوراني، برهان الدين أبو إسحاق، فقيه شافعيٌّ محدِّث، ولد بشهراز، رحل في طلب الحديث فسمع بالشام ومصر والحجاز وسكن المدينة، وتوفي بها سنة ١١٠١ هـ. قيل: له نيِّف وثمانون مؤلَّفا، منها: «تفسير القرآن الكريم» وغيرها. عادل نويهض: معجم المفسِّرين، ج١، ص١١.

مناف لظاهر علم الحقيقة، فتنسبني إلى السفه والمنكر، [قلت:] فإنَّ **شأن الصالح أن يشتدَّ إذا رأى ما خالف الحقَّ ولا يملك نفسه** ولا سيما نبيء شريعة، ولا سيما مع حدَّتك بالطبع حتَّى جررت إليك أخاك بلحيته ورأسه.

وهذا إن علم الخضر بأنَّه فعل ذلك، أو علم أنَّه سيفعله وذلك في الأوَّلين، وأمَّا الثالث فلا إنكار شرعي فيه، لأنَّ ترك أخذ الأجرة مباح لا معصية بل طاعة لمن نواها. وذُكر في الأخبار أنَّ موسى جرَّ الخضر برجله ليلقيه في البحر فتذكَّر وندم. ﴿**قَالَ**﴾ موسى ﴿**سَتَجِدُنِيَ إِن شَآءَ اللهُ صَابِرًا**﴾ على ما أرى منك مخالفا لمعتادي، ولا أتعرَّض لك ﴿**وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا**﴾ عطف على «صَابِرًا»، لأنَّ المعنى: ستجدني صابرا وتجدني لا أعصي لك أمرا، أو على «سَتَجِدُنِي...» فالمعنى قال: «سَتَجِدُنِي...» وقال: «لَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا»، ولا تنسحب عليه المشيئة في هذا الوجه، وعلى كلٍّ يكون «لَكَ» حالا من «أَمْرًا»، أو الأوَّل أولى لأنه أوثق لقلب الخضر، ولأنَّ المشيئة مسلَّطة فيه على الصبر وعدم العصيان فَلِذَلك قدَّمها على «صَابِرًا» ولم يعقِّبه بها إذ لو أعقبها به لتوهَّم أنَّها مسلطة على الصبر فقط، ولا يخفى أنَّ المشيئة تقييد، فلو شاء الله لم يصبر وعصى لا تبرُّكٌ، إذ هو في الآية غير متبادر منه، ولا يلزم الكذب على التقييد، لأنَّ المعنى: إن شاء الله صبرت ولم أعص لك أمرا، وإن شاء الله لم أصبر ولم أعص بلا عمد بل نسيانا، وليس كما قيل: إنَّ الثانية والثالثة عمد فإنَّه خطأ حاشاه، بل غلب عليه حال الظاهر، فكان ينسى، والنسيان في الأخيرتين عند بعض.

وقال ابن حجر: الأولى نسيان والثانية شرط والثالثة عمد، وقيل: الثانية عمد والثالثة فراق، والحقُّ أنَّ الكلَّ نسيان. والمراد بالأمر: واحد الأمور، أو طلب الفعل وطلب الترك، فشمل النهي لأنَّه طلب الترك.

﴿قَالَ فَإِن اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْئَلَنِّي عَن شَيْءٍ﴾ فعلته أو تركته ﴿حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ عطف بالفاء على كلام موسى تفريعا عليه، أكّد عليه في ترك السؤال مطلقا ولو عن حكمة فعل أو ترك، فكيف بمعارضة أو مناقشة، ومعنى ﴿أُحْدِثَ...﴾: أبتدئك ببيانه، أي لا تنكر عليَّ بلسانك ولو أنكر قلبك، أو توقَّف عن الإنكار لعلمك أنَّ ما أفعله حقٌّ، فقبل أن أحدِّثك تسكتُ، وبعد التحديث لا وجه للسؤال بعد البيان.

﴿فَانطَلَقَا﴾ موسى والخضر، ولم يذكر يوشع لأنّه تابع لموسى، وقيل: ردَّه موسى إلى بني إسرائيل. قال البخاري ومسلم وغيرهما: إنّهما مشيا على الساحل فطلبا أهل سفينة مرَّت عليهما أن يحملوهما فعرفوا الخضر فحملوهما بلا كراء، وذكر ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس أنّهم ظنُّوا أنَّهما لصوص، وكان الموضع مخوفا، فأبوا فقال كبيرهم: أرى رجالا عليهم النور لأحملنّهم فحملهم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ «الـ» للحقيقة إذ لا عهد بها، ولا يصحُّ الاستغراق، وهي سفينة جديدة قَوِيَّة أحسن ما يكون، ويقال: كانت صغيرة تحمل من عدوة إلى عدوة، وهو مناسب لأن تكون في بحر طنجة فهي تحمل من عدوتنا هذه إلى عدوة أندلس. [قلت:] وكنت أقول "الأندلس" بـ«الـ» ثمَّ تذكَّرت أنه لا وجه لـ«الـ» لأنّه عَلَم، فلا وجه لـ«الـ» إلاَّ تكلُّف تضمّن معنى جزيرة. والمشارقة يقولون: في بحر الشام، وأنَّها تحمل إلى أيلة. ولَمَّا طلعا فيها جاء عصفور حتَّى وقع على حرف السفينة ونقر في البحر وقال له الخضر: ما نقص علمي وعلمك من علم الله تعالى إلاَّ مثل ما نقص هذا العصفور من البحر، وهذا تمثيل إذ لا ينقص من علم الله تعالى شيء والبحور تنفد، وعلم الله لا ينفد.

وعـدَّى «رَكِبَـا» بـ«فِـي» لتضمُّـن الركـوب معنـى الدخـول، وانظـر هـل ذكرت شيئا في قوله تعـالى وعَجَّلَ: ﴿وَقَـالَ ارْكَبُـواْ فِيهَـا﴾ (سورة هـود: ٤١)[1].

وخرقها بقلع لوح منها بالقادوم، وقيل: لوحين مِمَّا يلـي المـاء، وقيـل وتـد فيهـا وتدا أيضا، ويروى أنَّها لَمَّا صارت في لجِّ الماء أخذ منقابا له فنقبها وأخـذ لوحـا وأصلحها به، وقيل: حين شارفت الأرض ويجمع بأنَّه عزم في اللجَّة أو ابتدأ فيها ولم يتمَّ حتَّى شارفت أرض العدوة أو أرض جزيرة نزلوها أو لم ينزلوها، ومعنى ما يلي الماء: ما يقرب منه بحيث يدخلها ويُقدَر على علاجه، أمَّا في أسـفلها فـلا يُقدَر على إصلاحها إلاَّ بقدرة من الله له، أو بكفِّهِ الماء له. وعلى كلٍّ حال قـال له موسى عليهما السلام: قوم حملونا بغير نول عمـدت إلى سـفينتهم فخرقتهـا ! ﴿**قَالَ أَخَرَقْـتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا**﴾ وذُكر أنَّه خرقها وأهلها فيها، وذكر بعضٌ أنَّهـم خرجوا فتخلَّف فيها ليخرقها ومعه موسـى. ومعنـى الإغـراق مـع هـذا أنَّهـم إذا ركبوا فيها غرقوا إذ كانت بخرقه، ولو أصلحها يدخلها المـاء قليـلا شيئا فشيئا، وإن خرقها وهم فيها فهم لم يشعروا بأنَّه يخرقها بأن خرقها في موضـع لا يرونـه وليسوا فيها.

(قصص) وروى عبد بن حميد ومسلم وابن مردويه حديثا أنَّه خرج مـن كان فيها وتخلَّف ليخرقها، فقال له موسى: تخرقها لتغرق أهلهـا ؟ والمضـارع في عبارة موسى لاستحضار الصورة، أو عزم على الخرق فلامه موسـى بالمضـارع، وَلَمَّا خرق لامه بالماضي، وقد يمكن أنَّـه حيـن الشـروع في الخـرق لم يـروه ولا رأوا خرقه على أنَّه كالجنِّيِّ يظهر إذا أراد ويختفي إذا أراد بإقدار الله عَجَّلَ له على ذلك، فلم يره إلاَّ موسى.

١- انظر: تيسير التفسير، ج٦، ص٣٩٨.

(قصص) ولفظ أبي العالية عن حمَّاد عن شعيب: إنَّ الخضر عبد لا تراه إلاَّ عين من أراد الله تعالى أن يريه إيَّاهُ، واللام للعاقبة لا للتعليل لأنَّه يحسن الظنَّ بالخضر، وهو ولو غضب يستحضر أنَّ الخضر وليٌّ لله أعلم منه.

(قصص) ومعنى ﴿نُكُرًا﴾ تنكره العقول ولم أهتد إلى وجهه، ويجوز التعليل بأن نسي ولايته وأعلميَّته لشدَّة ما حدث عليه مِمَّا يخالف ظاهره علم الأحكام، واشتدَّ غضبه وشدَّ عليه ثيابه حتَّى نسبه لقصد الإغراق والمنكر، وحتَّى قيل: جرَّ الخضر ليلقيه في البحر، وقال: أردت أن تهلكهم فستعلم أنَّك أوَّل هالك، وكلَّما ازداد غضبا استعرَّ البحر، وكلَّما سكن كان البحر كالدهن، ويوشع يقول له: ألا تذكر العهد الذي جعلت على نفسك.

﴿لَقَدْ جِئْتَ﴾ أتيت وفعلت ﴿شَيْئًا اِمْرًا﴾ بكسر الهمز كسرا نقل إلى تنوين «شَيْئًا»، بمعنى أمرا عظيما غير مألوف ﴿قَالَ﴾ له الخضر ﴿أَلَمَ اَقُلِ اِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا﴾ ؟ توبيخ لموسى عليه السلام، فرجع إليه حلمه واعتذر كما قال ﷻ: ﴿قَالَ لاَ تُوَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ بنسياني لوصيَّتك أن لا أسألك حتَّى تحدث لي ذكرا، كأنَّه تحقَّق عنده أنَّ نسيانه أمر محقَّق عند الخضر، وإلاَّ قال: إنِّي نسيت فلا تواخذني بنسياني، أو اختصر له ذلك فعبَّر له بعبارة واحدة.

والنسيان ضروريٌّ لا اختياريٌّ، والباء للتعدية وإنَّما المؤاخذة على ما يوصل إليه من ترك التشمُّر، وموسى متشمِّر لكنَّه غلبه تشمُّرٌ معتادٌ له قديم في أمر الشرع، ويجوز أن تكون سببيَّة مراعى فيها السبب البعيد وهو ترك التشمُّر، ولولاه لم يكن النسيان، ويجوز تعلُّقها بالنهي كأنَّه قال: اترك المؤاخذة لنسياني، والنهي أمر بالترك، كما يجوز تعليق الباء في حرف النفي في قوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (سورة القلم: ١١) أي انتفى بنعمة ربِّك الجنون عنك. و«مَا» مَصدَرِيَّة كما رأيت، ويجوز أن تكون اسما، أي بشيء نسيته، أو بالذي

نسيته وهو الوصية، فيقدَّر مضاف أي: بترك ما نسيته، لأنَّ المؤاخذة بترك الوَصِيَّة لا بها، وقد لا يقدَّر لأنَّ الوصية سبب للمؤاخذة إذ لولاها لم تكن المؤاخذة، أو لأنَّ النسيان بمعنى الترك.

﴿وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنَ اَمْرِي عُسْرًا﴾ مفعول ثان أي لا تدخل عليَّ أمرا عسرا وهو الصعوبة، ومعنى أمري متابعتي لك فإنّي أحبُّ اتّباعك وتيسيره بالمسامحة وترك المناقشة، أو ﴿اَمْرِي﴾: نسياني.

﴿فَانطَلَقَا﴾ فقبل عذره وخرجا من السفينة فانطلقا يمشيان على الساحل، وهنا يبعد أن يكون البحر بحر طنجة لأنّهما إذا جاوزاه عرضا وقعا في أرض أندلس، فلا تكون القرية تلمسان أو مثلها من مغربنا، هذا ولا جدار فيها أو في مثلها في هذه الأرض إلاّ بأن يرجعا في سفينة إلى هذه الأرض، وهو غير مذكور في الكتب وبعيد.

﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلاَمًا﴾ مع عشرة غلمان يلعبون وهو أحسنهم وأنظفهم، اسمه كما قال البخاري "جيسور" بالجيم، وروي بالحاء المهملة، أو "جنبتور"، غير بالغ عند الجمهور لقول موسى: ﴿نَفْسًا زاكِيَةً﴾ وقيل: بالغ، سنُّه عشرون سنة كما أخرجه ابن أبي حاتم عن سعيد بن عبد العزيز، والشابُّ يسمَّى غلاما ولو كان ابن عشرين، بل قيل: أصله بعد البلوغ لأنّه من الغلمة، وذلك يتمُّ بعد البلوغ فيكون تسمية من لم يبلغ غلاما مجازًا لعلاقة الأَوْل بمعنى أنَّه يؤول، ومن قال بالغا قال: إنَّ زكاته أنَّه بريء من قتل نفس يقتل بها ﴿فَقَتَلَهُ,﴾ [قيل:] بأن قلع رأسه بيده من أعلاه أو أضجعه فذبحه أو ضرب رأسه بالجدار، أو رضّه بحجر أو ضربه برجله أو أدخل إصبعه في سرَّته فاقتلعها ومات في ذلك كلّه، ويبعد الجمع بأنه فعل ذلك كلّه لأنّه زيادة تعذيب، أو إحداث بالميِّت إلاّ أن يقال: فعل ذلك تعجيلا عن تعذيبه في الموت ﴿قَالَ﴾ له موسى ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا

زَاكِيَةً﴾ عن الذنوب إذ لم تبلغ، كما فسَّر ابن عَبَّاس ﷺ الزكـاة بصغـر السـنِّ تفسيرا باللازم، أو لم تحـدث موجـب قتـل، واستـدلَّ بعـض علـى بلوغـه بقولـه تعالى: ﴿**بغَيْرِ نَفْسٍ**﴾ لأنَّ الطفل لا يقتل بمن قتل بل الدية على عاقلته، وإن أُمِـر فعلى آمـره، وأجـاب الجمهـور بـأنَّ المراد ذكـر غيـر نفـس توجـب القصـاص، والصبيُّ كذلك لا نفس توجب قتله بقتلها.

وإنَّما ذكر القصاص لأنَّه أنسب بالمقـام، أو أنَّ شـرعهم قتـل الصبيِّ القـاتل ولا سيما إن كان مراهقا.

(فقه) وقد اختلف أصحابنا في أحكـام المراهـق المختـار أنَّهـا أحكـام الصبيِّ، وذكر البيهقيُّ أنَّه كان في شرعنا قتل الصـبيِّ القـاتل قبـل الهجـرة، وقـال السبكي: قبل أُحُد ثمَّ نسخ، وهكذا كمـا قيـل: إنَّ التكليـف كـان بـالتمييز ثـمَّ نسخ بالاحتلام، كما قال ﷺ لعليٍّ وهو ابن ثمان سنين «**أسلم**» فقيـل: تكليفـا بالتمييز، أو أمر باعتقاد الإسلام والعمل به.

﴿**لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا**﴾ تنكـره العقـول والشـرع، وهـو أشـدُّ مـن خـرق السفينة لأنَّه قتل حاضر باشره، وخرق السفينة تحتمل معه السلامة ولم يباشر فيـه قتلا. وزعم بعض أنَّ الإمر ـ بكسر الهمزة ـ أشدُّ من النكر فلعلَّ وجهه أن قتـل نفوس كثيرة بالإغراق أشدُّ من قتل واحدة، اعتبر المآل ولو احتمل السلامة، وفي هذا القول تنزُّل من الأقوى وهو الإمر إلى القويِّ وهو النكر، ثمَّ الضعيـف وهـو ترك الأجرة، والتنزُّل غير لازم، بل الآية علـى ترتيـب الوجـود لا تـنزُّل فيـه ولا ترقِّي، وَمِمَّا زاد موسى شدَّة الإنكار أنَّ الخضر لَمَّا رأى الغـلام قتلـه و لم يمهلـه، ولو مضت مدَّة لاحتمل له موسى أنَّه رأى منه الخضر ما لم يره هو.

﴿**قَالَ**﴾ الخضر ﴿**أَلَمَ اَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا**﴾؟ زاد «لَـكَ» زيادة في التوبيخ على السؤال قبل أن يحدث له ذكرا.

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ﴾ مِمَّا تفعله ﴿بَعْدَهَا﴾ بعد هذه القتلة أو المرَّة أو المسألة ﴿فَلاَ تُصَاحِبْنِي﴾ لا تكن صاحبي بل اتركني، وعلَّل ذلك بقوله: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ وجدت لنفسك عذرا في هجرتي من جهتي، والعتاب متوجِّه عليَّ لا عليك إذ خالفتك مرَّة بعد أخرى، قال رسول الله ﷺ: **«رحم الله أخي موسى لو صبر لرأى العجائب»**[1] ويروى: **«رحمة الله علينا وعلى موسى لو صبر على صاحبه لرأى العجب لكن أخذته من صاحبه ذمامة فقال ذلك»**[2].

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اِسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا

١- أورده **الزبيدي** في الإتحاف: ج١، ص٣١٧. و**العراقي** في المغني: ج٤، ص٢٨.

٢- رواه **مسلم** في كتاب الفضائل (٤٦) باب ما جاء في فضائل الخضر عليه السلام، رقم١٧٢. ورواه **الحاكم** في مستدركه، كتاب تواريخ المتقدِّمين من الأنبياء والمرسلين، رقم ٤٠٩٦/١٠٥. من حديث أُبي بن كعب بنفس المعنى.

فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

تتمّة قصّة موسى مع الخضر

(٢)

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ قيل: تلمسان، وقيل: قرية في الجزيرة الخضراء من أندلس، روى القولين بعض المشارقة، ولعلَّ المراد أنَّها قرية في أرض هذه العدوة تقابل الجزيرة الخضراء من عدوة أندلس، وقال الجمهور: القرية أنطاكية، وهو مرويٌّ عن ابن عبَّاس ﷺ، وروى ابن أبي حاتم من طريق قتادة أنَّها برقة وهي على المشهور في المغرب الأدنى إلى المشرق، وقيل: قرية بأرض الروم وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه أنَّها بأجروان، فاختار بعض أنَّها بنواحي أرمينية، وأخرج ابن أبي حاتم عن محمَّد بن سيرين أنَّها أبلَّة بشدِّ اللام، وقيل: ناصرة على الساحل تنسب إليها النصارى، **ولا يوثق بشيء من ذلك،** قال رسول الله ﷺ: «**أتيا أهل قرية لئاما**».

﴿اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ نعت «قَرْيَةٍ» وجواب «إِذَا»: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذتَّ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ وقال أبو البقاء وغيره: جواب «إِذَا» هو قوله: ﴿اسْتَطْعَمَآ﴾ وقوله: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذتَّ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ مستأنف، والمختار أنَّه نعت وجواب «إِذَا» ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ...﴾. ولم يقل: استضافا لأنَّهما أرادا مطلق الإطعام وبما أمكن لا خصوص الإضافة والميل إلى بيت أحد.

ورأيت منذ خمسين عاما في زمان الشبيبة أبياتا للصلاح الصفدي[١] يسأل فيها السبكي[٢] وهي في شرح الدماميني[٣] على المغني الذي ألَّفه في الهند الذي يقول فيه قال: أقول أبياتا في السؤال عن تكرير ذكر «أهل» إذ لم يقل: فانطلقا حتَّى إذا أتيا أهل قرية استطعماهم، ونصُّها:

أَسَيِّدنا قاضي القضاة ومن إذا ... بدا وجهه استحى له القمران

ومن كفُّه يوم الندى ويراعه ... على طرسه بحران يلتقيان

ومن إن دَجَت في المشكلات مسائل ... جلاَّها بفكرِ دائم اللمعان

رأيت كتاب الله أفضل معجز ... لأفضل من يهدي به الثقلان

ومن جملة الإعجاز كون اختصاره ... بإيجاز ألفاظ وبسط معان

ولكنَّني في الكهف أبصرت آية ... بها الفكر في طول الزمان عناني

وما هي إلاَّ «استطعما أهلها» فقد ... نرى استطعماهم مثله ببيان

فما الحكمة الغرَّاء في وضع ظاهر ... مكان ضمير إنَّ ذاك لَشَانِي

فأَرْشِد على عادات فضْلِكَ حيرتي ... فما لي لها عند البيان يَدان

فأجابه السبكي بأنَّ استطعما أهلها نعت لـ«قَرْيَة» لا جواب لـ«إِذَا» لأنَّ كونه جوابا لـ«إِذَا» يوهم أنَّ قصدهما كلَّه أو معظمه الأكل، وليس كذلك بل

١- صلاح الدين الصفدي خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، كثير التصانيف الممتعة، ولد في صفد بفلسطين وإليها ينسب، تعلَّم بدمشق فعانى صناعة الرسم فمهر بها، ثمَّ ولع بالأدب وتراجم الأعيان، له زهاء مائتي مؤلَّف، توفي سنة ٧٦٤هـ. الأعلام للزركلي، ج٢، ص٣١٥.

٢- السبكي هو محمَّد بن عبد البر يحيى، قاض، عالم بالعَرَبِيَّةِ والأدب، مفسِّر من فقهاء الشَّافِعِيَّة من أهل مصر، عاش في مصر والشام وتولَّى فيهما مناصب رفيعة. توفي سنة ٧٧٧هـ. معجم المفسِّرين، ج٢، ص٥٤٤.

٣- انظر ترجمته في: ج٢، ص٢٦٩.

قصدهما كلّه إظهار عجائب إعظاما لله ﷻ، ولا نعت لـ«أهل» لأنّه يوهم أنَّ القصد بيان حال الأهل من حيث هم هم، ولا يكون للقرية أثر في ذلك، وليس كذلك، فإنّا نجد بَقِيَّة الكلام مشيرا إليها نفسها.

قلت: وفي هذا التعليل نظر لأنَّ أهلها جرى لهم ذكر في قوله: ﴿اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ وفي قوله: ﴿فَأَبَوْاْ أَنْ يُّضَيِّفُوهُمَا﴾ بل وفي قوله: ﴿لَتَّخَذْتَّ عَلَيْهِ أَجْـرًا﴾ لأنَّ أخذ الأجر عنهم لا عن قريتهم، ولا فرق بين جريان الذكر للقرية وهم في أنَّ ذكر أحدهما بالذات والآخر بالعرض، وأجاز الأوجه الثلاثة، واختار نعت القرية وأجاز كون الأهل الثاني غير الأوَّل، أو بعض من الأوَّل وبعض من غيره، فكان الإظهار، فإنَّ من أتى قرية يلتقي أوَّلا ببعضهم ثمَّ بالبعض الآخر، فقد تشير الآية إلى أنّهما استقصياهم أو جلّهم فأبوا، **وللبقاع تأثير في الطباع**.

ويجوز أن تكون نكتة التكرار التحقير لهم بذكرهم باسم الأهل مرَّتين، مع وصفهم بالإباء، إذا أردت تقبيح عمرو بتأكيد قلت: عمرو بخيل عمرو جبان، وكون المعرفة عين الأولى هو الأصل والكثير لا واجب، ولذا صحَّ أن يكون الثاني غير الأوَّل، أو يقال: الأهل الأوَّل البعض والثاني أعمُّ، إذ في ابتداء دخول القرية لا يمكن إتيان أهلها، ولا سيما أنّه روي أنّهما دخلاها عند غروب الشمس فذلك مرور على بعض، والأكثر صبحا.

روي أنّهما يمشيان على مجالسهم يستطعمانهم، ولو جيء بالضمير لفهم أنّهما استطعما البعض، وقيل: الأهل الأوَّل الجميع، وإتيانهم الوصول إليهم والحلول فيهم، والثاني البعض وسؤالهم كلّهم متعذّر، والظاهر أنّهما سألا بعض الرجال. وعن أبي هريرة: أطعمتهم امرأة من بربر إذ امتنع الرجال فلعنا رجالهم ودعوا لنسائهم، والله أعلم بصحَّة ذلك. واختار بعض أنّهما استطعما الرجال المعتبرين بظاهر حالهم فأبوا، وغيرهم أولى بالإباء بحسب المعتاد، والأهلان واحد.

وذكر بعض أنَّه أعيد الظاهر لئلاَّ يلتقي ضميران وهذا مِمَّا يذكر[1] ليرد لكثرة ذلك في القرآن وغيره، ومن ذلك ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ (سورة الكهف: ٥٢) وقوله: ﴿فَأَبَوْاْ اَنْ يُّضَيِّفُوهُمَا﴾، ولا مانع من أن يكون «اسْتَطْعَمَا» جواب «إِذَا» بأن ذكر الله واقعتهما على ترتيبها في الوجود، ويعلم من خارج أنَّ مقصودهما بالذات ليس الطعام، مع أنَّه جرى ذكر الأهل أكثر مِمَّا جرى ذكر القرية، فانظر قوله: ﴿فَأَبَواْ﴾ وقوله: ﴿يُضَيِّفُوهُمَا﴾ وقوله: ﴿لَتَّخَذتَّ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ فبان الأخذ عنهم لا عنها وقوله: ﴿لِغُلاَمَيْنِ﴾ وقوله: ﴿لَهُمَا﴾ وقوله: ﴿أَبوهُمَا﴾ وقوله: ﴿أَشُدَّهُمَا﴾ وقوله: ﴿يَسْتَخرِجَا﴾ وقوله: ﴿كَنزَهُمَا﴾ وقوله: ﴿رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ فإنَّ الرحمة للناس لا للقرية ألا ترى أنَّه يبعد معنىً: «حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذتَّ عَلَيْهِ أَجْرًا»، ولو اعتبر ما بينهما واعتبر أنَّ المقصود بالذات قوله: ﴿لَتَّخَذتَّ﴾ لأنَّه كالسؤال الذي نهاه عنه واعتبار هذا الأخير هو العمدة في جواب السبكي، بل جعْلُه نعتا ضعيف، لأنَّ الأصل في النكرة لمن علم وجود مضمونها وخفي عنه تمييزه، فتقيَّد له بالنعت، والمخاطب بالآية لا معرفة له بها البتَّة ﷺ، ثمَّ بعد مضيٍّ نحو خمسين عاما وجدت جوابا لبعضهم هكذا:

لأسرار آيات الكتاب معاني تدقُّ فلا تبدو لِكُلِّ معاني
وفيها لمرتاض اللبيب عجائب سنا برقها يعنو له القمران
إذا بارق منها لقلبي قد بدا هممت قرير العين بالطيران
سرورا وإبهاجا وصولا على العدا كأنِّي على فوق السماك مكاني
فما الملك والأكوان ما البيض ما القنا وعندي وجوه أسفرت بتهاني
وهاتيك منها قد أبحتك سرَّها فشكرا لمن أولاك حسن بياني

١- كذا في النسخ، ولم يَتَّضِح لنا المراد، فتأمَّل.

أرى "استطعما" وصفا على "قرية" جرى وليس على "أهل" فذاك وزاني
صناعتنا تقضي بأن استتار ما يعود إليه ماله من مكان
ويضعف أنه جواب وأوَّل الثلا ثة هذه بحسن سباني
ورضت به فكري إلى أن تمخضت به زبدة الأحقاب منذ زمان
وإنَّ حياتي في تموج أبحر من العلم في قلبي يمدُّ لساني

وأجاب بعض نظما بقوله:

سألت لماذا «استطعما أهلها» أتى عن استطعماهم إن ذاك لشأني
وفيه اختصار ليس ثمَّ ولم تقف على سبب الرجحان منذ زمان
فهاك جوابا رافعا لنقابه يصير به المعنى كرأي عيان
إذا ما استوى الحالان في الحكم رجِّح الضمير وأَمَّا حين يختلفان
فقد كان في التصريح إظهار حكمة كرفعة شأن أو حقارة جاني
كمثل أمير المؤمنين يقول ذا وما نحن فيه صرَّحوا بأمان
وهذا على الإيجاز والبسط جاء في جوابي منثورا بحسن بيان

﴿فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ أن ينزلوهما ويميلوهما إليهم من ضاف السهم عن الهدف مال عنه إلى جانب، وضافت الشمس مالت إلى الغروب، والإباء أشدُّ الامتناع ولذلك لم يستغن عنه بقولك: فلم يضيِّفوهما، ولا يخفى أنَّ الاستطعام طلب الطعام على وجه الضيافة، مثل أن يقولا: إنَّا غريبان فأطعمونا، والغريب يُضيَّف، أو أن يقولا: إنَّا غريبان فضيِّفونا، ولذلك قال: ﴿فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ ولو كان طلبهما بلا ذكر ضيافة أو تلويح إليها لقال: فأبوا أن يطعموهما، ومع ذلك لم يقل الله عنهما: استضافا، ولو قال: أضيفونا، وإن لم يذكر الضيافة علموا أنَّهما ضيفان، بل قال: استطعما لأنَّ مقصودهما الطعام فقط، لا الإيواء إلى بيت أو دار.

وفي «أَبَوَا اَنْ يُّضَيِّفُوهُمَا» تشنيع ليس في " أبوا أن يطعموهما " لأنَّ الكريم قد يغفل عن السائل أو يردُّه ولا يعاب عليه، مثل ما يعاب عليه إذا ردَّ الوارد ضيفا، ولا يردُّ الضيف إلاَّ اللئيم، ومن أعظم ما تهجو به العرب البخيل قولهم: فلان يطرد الضيف، ودونه يحرم الضيف، وشرُّ القرى التي لا يضاف فيها الضيف، ولا يعرف فيها لابن السبيل حقُّه.

وذكر بعض أنَّ أهل تلك القرية لَمَّا سمعوا نزول الآية أتوا إلى النبيء ﷺ بحمل من ذهب، وقالوا: «خذه، وقل أَتوا أن يضيِّفوهما»، بالمثناة الفوقية بدل المحوَّدة، وقيل: أتوا في زمان عليٍّ، **ولم يصحَّ شيء من ذلك**، ولو صحَّ لكان أخبث لهم من الشحِّ إذ طمعوا أن يبدِّل النبيء ﷺ أو عليٌّ القرآن، ولو بالدنيا وبإسلام أهلها كلِّهم.

وعطف على «أَتَيَا» بقوله: ﴿**فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا**﴾ على الشارع بأن التجآ إليه في ليلة باردة إذ لم يجدا مأوى، [قيل:] طوله إلى السماء مائة ذراع عن وهب بن منبه، ومائتا ذراع عن الثعلبي، وعلى الأرض خمسمائة ذراع، وعرضه خمسون يمرُّون تحته خائفين ﴿**يُرِيدُ أَنْ يَّنقَضَّ**﴾ ينفعل من القضِّ بمعنى الكسر، والمراد: السقوط بسرعة، والسقوط من لازم الانكسار، أو من القَضَّة وهي الحصى الصغار يقال طعام قضض إذا كان فيه الحصى، والمعنى: يريد أن يكون حصى بالتفتُّت ومن لازم ذلك أن يسقط، أو أفعلَّ بشدِّ اللام من النقض، وفيه أنَّ اِفْعَلَّ بشدِّها في الألوان والعيوب كـ"اِحْوَلَّ" بشدِّها، ويضعف أن يقال: الانقضاض ملحق بالعيوب لأنَّه ليس موضوعا بالذات للعيب.

(بلاغة) ونسبة الإرادة إلى الجدار وإسناد الإرادة إلى الجدار مجاز عقليٌّ، لأنَّ إرادة الشيء سبب لقربه وملزوم لقربه، فالمراد: قرب وقوع الجدار، أو

استعارة، بأن شبَّه قرب السقوط بالإرادة لجامع الميل، أو شبَّه الجدار بالإنسان أو الحيوان الآخر ورمز إلى التشبيه بلازم الحيوان أو الإنسان وهو الإرادة.

وفي أصول الفقه أنَّ محمَّد بن داود الأصبهاني[1] منع المجاز في القرآن فردَّ الضمير إلى الخضر، أو موسى أو الجدار على أنَّ الله خلق فيه الإرادة **وذلك تكلُّف**، وقال أبو حيَّان: لا يصحُّ عنه إنكار المجاز ولو صحَّ عن أحد إنكار المجاز في القرآن لقلنا: إنه أهل لأن يكون للحوافر والأظلاف مجازًا. وينافي إرادتهما أن ينقضَّ قوله تعالى:

﴿**فَأَقَامَهُ,**﴾ إلاَّ أن يُتكلَّف أنَّ الخضر أراد هدمه ثمَّ ظهر له أن يصلحه، وأمَّا موسى فلا وجه لإرادته أن ينقضَّ، وعن أُبيٍّ بن كعب أنَّه قرأ رسول الله ﷺ : «يريد أن ينقضَّ فهدَّمه ثمَّ قعد يبنيه». وعن ابن عبَّاس وابن جبير: أقامه بمسحه بيده، وقيل: أقامه بعمود عمَّده، وقال مقاتل سوَّاه بالشيد.

﴿**قَالَ**﴾ موسى ﴿**لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذتَّ عَلَيْهِ**﴾ أي على إقامته بالمسح أو بالتعميد، أو بالبناء بعد الهدم، أو بالتحصيص ﴿**أَجْرًا**﴾ لا يقال هذا مانع من كون الإقامة بالمسح إذ لا تستحقُّ الأجرة لسهولتها، ولا سيما أن يكون الطالب نبيئا لأنَّا نقول: يحلُّ طلب الأجرة ولو كثيرة على عمل ولو يسيرا، ولو كان يسره بقدرة إلهيَّة غير جارية على المعتاد.

١- هو محمَّد بن داود بن علي الظاهري صاحب المذهب، العلاَّمة البارع ذو التصانيف أبو بكر، فكان أحد من يضرب به المثل بذكائه، وكان يجتهد ولا يقلِّد أحدا، مات سنة ٢٩٧هـ. تهذيب سير النبلاء، ج١، ص٥٠٩.

والمتبادر أنَّ قُوَّة نفس موسى ضعفت فلم يبق له السؤال إلاَّ بهذه العبارة، واتَّخَذَ: افتعل، من تَخِذَ أدغمت تاء تخذ في تاء افتعل، وقيل: افتعل من أخذ أبدلت همزته تاء وأدغمت في تاء افتعل.

حثّه موسى عَلَيْهِ السَّلامُ على أخذ الأجرة لأنَّ إقامته عمل كبير، وهما محتاجان ولا سيما قد حرموهما من الإطعام، حتّى كأنَّه سأله لِمَ لَمْ تأخذ الأجر؟ وقد شرط أن لا يسأله حتّى يحدثه ذكرا، وقد شرط على نفسه إن سأله ثالثة أن لا يصاحبه، فقال له الخضر ما ذُكر في قوله تعالى:

﴿قَالَ﴾ له الخضر ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ وذلك أنَّ قوله: ﴿لَوْ شِئْتَ...﴾ بمعنى: إنِّي عالم بأنَّك أهل للأجر على عملك فلم لا تأخذها؟ فهو لازم الفائدة لا مجرد إخبار بأنَّه لو شاء لأخذ الأجر إذ لا فائدة في هذا، ويبعد ما قيل: إنَّه قال ذلك للخضر تعريضا بأَنَّ إقامته فضول بما لم يطلب منه، مع احتياجهما وحرمانهم.

وإنَّما فارقه الخضر على هذه الثلاثة ولم يصبر له لثقل الاعتراض عليه، مع أنَّ موسى عقد على نفسه الفرقة عليها، ولأنَّ هذه غير منكر لأنَّ ترك الأجرة إحسان بخلاف الأُولَيَين فظاهرهما منكر، ولأنَّ الثالثة طلب لنفسه والأوليين لله كما روي عن ابن عَبَّاس، ولو قيل: إنَّ هذا لا يصحُّ عنه لجلالتهما عن تمحُّض طلب الدنيا.

والإشارة إلى الفراق المذكور في قوله: ﴿فَلاَ تُصَاحِبْنِي﴾ أي هذا فراق في ذهني موافق للذي ذكرت، أو إلى الزمان الحاضر، أي هذا الوقت وقت فراق، أو الاعتراض أي سبب فراق بيني وبينك. وإعادة الجارِّ في العطف على المجرور المتَّصل هي الفصحى، وإجراء الكلام عليها للتأكيد، إذ لو

قال: هذا فراق بيننا لصحَّ، وذلك من إضافة المصدر إلى الظرف اتّساعا وقرَّرها ابن الحاجب[1] بفي.

ويقال: بالمعنى لا بالوقوع تحقيقا أن يقال له حين أنكر خرق السفينة: أين تدبيرك وأنت في التابوت ملقى في البحر؟ وكسرت ألواح التوراة بإلقائها ؟ وحين أنكر قتل الغلام قد قتلت القبطي بوكزة، وحين أنكر إقامة الجدار بلا أجر قد رفعت الحجر عن البئر وسقيت لبنتي شعيب بدون أجر، وقد قيل: إنّه خاطب موسى بذلك مرَّة عند إرادة الفراق، [قلت:] ولا يصحُّ ذلك، قيل: إلاَّ إن قيل: قال بالمعنى.

(وصية الخضر لموسى) ولَمَّا أراد الفراق قال للخضر: أوصني، فقال: **«كن نفَّاعا لا ضرَّارا، وبشَّاشا لا غضبان، ودع اللجاجة، ولا تمش في غير حاجة، ولا تعيِّر امرءً بخطيئته، وتعلَّم العلم للعمل به لا للتحدُّث به»** وقال: ادع لي، فقال: «يسَّر الله عليك طاعته».

﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَاوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ التأويل: ردُّ الشيء إلى مآله، والمراد هنا المؤول إليه وهو العاقبة، والمآل، و«عَلَيْهِ» متعلّق بـ«صَبْرًا» قدِّم عليه ـ ولو كان معمول المصدر لا يتقدَّمه ـ للفاصلة.

(بلاغة) وفي التعبير بـ«مَا لَمْ تَسْتَطِعْ» دون «ما فعلت» أو «ما رأيت» تعريض بعتاب موسى، وللتنبيه على أن يتقوَّى لِمَا يلقى إليه من التأويل، وذلك بلا طلب من موسى لكن ليزول همُّ موسى وليحسن الظنَّ بالخضر، وقيل:

١- هو الإمام العلاَّمة المقرئ الأصوليُّ الفقيه النحوي أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر الكردي المالكي صاحب التصانيف، ولد سنة ٥٧٠ هـ، درَّس بجامع دمشق وتخرَّج به الأصحاب توفي سنة ٦٤٤ هـ. تهذيب سير أعلام النبلاء، ج٣، ص٢٦١.

أمسكه بثيابه وقال: لا أفارقك أو تخبرني بما فعلت من الخرق والقتل والإقامة، فقال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ...﴾.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ التي خرقت ﴿فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾ عشرة ضعفاء في النفس، لا يردُّون ظالما عنهم، وخمسة منهم ضعاف بدنا بالمرض اللازم لهم سواء كانوا ذوي مال أم لم يكونوا.

(فقه) فلا حجَّة في الآية لمن يقول: إنَّ المسكين من له شيء لا يكفيه، ولا على من يقول: إنَّ المسكين لا يملك شيئا أصلا، لأنَّ هذه السفينة عارية في أيديهم، أو يعملون فيها بأجرة، لَكِنَّ الظاهر أنَّها لهم فالمسكين من له ما لا يكفيه ويمكن أن ينزلوا منزلة ما لا شيء له أصلا.

﴿يَعْمَلُونَ﴾ بها ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ لمعيشتهم، وإسناد العمل إليهم حكم على المجموع لأنَّ العمل للخمسة الأصحَّاء فقط، لا للخمسة الزمنى أيضا، أو لأنَّ عملهم عمل للزمنى أيضا لشركتهم ﴿فَأَرَدتُّ أَنَ اَعِيبَهَا﴾ بالخرق فقط لِئَلاَّ يرغب فيها الملك المتغلّب عليهم فيأخذها، لأنَّه لا يأخذ المعيبة، ولم أرد إغراق من فيها كما توهَّمت أو تخوَّفت، وذلك لغلبة القيام بالحكم الظاهر عليه، ولذلك لم يقل: فأعبتها، وهذا على أنَّ اللام في ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ تعليل وعلى أنَّها للعاقبة يكون المعنى: أردت أن أعيبها فقط ولم أرد وجها يوصل إلى الإغراق بعد.

﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ معنى الوراء هنا التغلُّب هكذا لا خلف ولا قدَّام، كما تقول: كيف أقيل ومن روائي مسير نصف يوم إلى البلد الذي توجَّهتُ إليه؟ تريد الشدَّة لا قدَّام ولا خلف، وقيل: بمعنى أمام، كما قرأ به ابن عَبَّاس تلاوة وتفسيرا، أو «وَرَآءَ» اسم للجهة التي يوارى بها الشخص من خلف أو

قدَّام، وقيل: هو مصدر إذا أضيف إلى الفاعل أريد بـه المستور، وإذا أضيـف إلى المفعول أريد به الساتر، ويردُّه ﴿ارْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ﴾ (سورة الحديد: ١٣) فإنَّه أضيف إلى المفعول والمراد به الخلف وهو المستور، وقيل: الملك خلفهم يدركهم ويمرُّ بهم، أو يكون رجوعهم عليه، واسمه هدد بن بدد، وقيل: جلندى بن كرك ملك غسان، وقيل: مفواد بن الجنلدي بن سعيد الأزدي، وكان بأندلس، وفيه أنَّ هذا في عُمان لا في المغرب إلاَّ إن ملكها في الجَاهِلِيَّة.

﴿يَاخُذُ﴾ لنفسه تملُّكا، وقيل: يستعملها ويردُّها ﴿كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحة ولو كان يأخذ المعيبة أيضا لم يخرقها الخضر، وإنَّما خرقها لئلاَّ يأخذها، وقرأ أُبيٌّ: «كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ» تلاوة أو تفسيرا ﴿غَصْبًا﴾ مفعول مطلق نوعي لـ«يَاخُذُ» بتضمُّن معنى يغصب، والغصب نوع من الأخذ، أو مفعول مطلق لـ«يغصب» محذوفا، أي يأخذ كلَّ سفينة غاصبا لها غصبا، أو «غَصْبًا» حال بمعنى غاصب، ومصاحب غصب، فـ«غَصْبًا» مفعول مطلق مؤكِّد.

وعن الربيع بن أنس[1] إنَّ الخضر بعد أن سلمت من الملك الكافر قال لأصحابها: أردت لكم الخير وإن كان بكسر، فشكروه وأصلحها لهم كما كانت، وموسى حاضر للقول والإصلاح، وا لله أعلم بصحَّة ذلك.

وقدَّم ﴿فَأَرَدتُّ أَنَ اَعِيبَهَا﴾ على ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ...﴾ لِئَلاَّ يتوهَّم أنَّ ضمير النصب في «أَعِيبَهَا» لكلِّ سفينة لقربه لكن توهُّما ضعيفا، ولأنَّ اعتراض موسى في خرقها الذي يعيبها، وللإيذان بأنَّ السبب الأقوى في عيبها بالخرق هو المسكنة لا الغصب، فإنَّه ليس يمنع عن الملك السفن مطلقا، وا لله أعلم.

١- هو الربيع بن أنس البكري البصري ثمَّ الخرساني، محدِّث مفسِّر، من أهل البصرة، هرب منها إلى مرو خوفا من الحجَّاج، روى عن أنس والحسن وغيرهما، توفي سنة ١٣٩هـ. معجم المفسِّرين، ج١، ص١٨٩.

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾ الذي قتلت ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ﴾ [قيل:] أبوه كازير وأمه سهوى ﴿مُومِنَيْنِ﴾ وهو كافر، وكان التكليف متعلّق بالتمييز وهو مميز ثمَّ نسخ إلى الحلم، فيكون معنى قول موسى: ﴿نَفْسًا زَاكِيَةً﴾ أنَّه لم تقتل نفسا ولا فعلت موجب قتل، وكذا يكون المعنى على أنَّه بالغ إذ لم ير منه موجبا إلاَّ أنَّه من أين رأى براءته البتَّة، لعلَّ الخضر رأى منه الموجب.

ثُمَّ إنَّه إن كان غير بالغ أو غير مميِّز فمعناه أنَّه إن بلغ كفر أو إن ميَّز، وفي صحيح مسلم: «**إنَّ الغلام طبع يوم طبع كافرا**»[1]، وجاء الحديث «**إنَّ أطفال المشركين والمنافقين في الجنَّة**»[2]، فما حال الصبيِّ؟ فأجيب بأنَّهم في الجنَّة إلاَّ من استثناه الوحي.

وأولى من هذا أن يجاب بأنَّه لم يجئ النصُّ أنَّه في النار، بل جاء الطبع على الكفر، ففي قتله النجاة منها إذ لم يبلغ أو لم يميِّز، ومعنى أنَّه كافر أنَّه إن بلغ كفر.

﴿فَخَشِينَآ أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ الخشية أشدُّ الخوف، وإرهاقه إيَّاهُمَا: الطغيان والكفر وإدخال ذلك عليهما، أو الخشية العلم، والطغيان ظلم العباد، والكفر الإشراك، أي خشيت أن لا ينصفا منه لمظلومه ولا منه لإشراكه لشدَّة حبِّهماه، وأن يتَّبعاه على طغيانه وشركه، وأن يدنِّس إيمانهما.

وفي شرح البخاري: الخشية العلم، أي علمنا أنَّه لو بلغ لدعاهما إلى الكفر فيجيبانه لفرط حبِّهماه؛ أو خشينا أن يربِّياه ويحسنا إليه مع كفره بعد بلوغه، أو

١- رواه **مسلم** في كتاب القدر (٦) باب معنى «كلُّ مولود يولد على الفطرة...»، رقم ٢٩(٢٦٦١) من حديث أُبي بن كعب.

٢- انظر الأحاديث التي وردت في هذا الموضوع في هذا الجزء في تفسير الآية رقم١٥ من سورة الإسراء، ص١٤٤.

أن يدخل عليهما ضمان أموال ورقاب، كما روي أنَّه كـان يفسد، وروي أنَّه يقطع الطريق ويحلف لهما أنه ما فعل فيحميانه عن طالبه.

وأجاز الزمخشريُّ أن يكون ذلك من كلام الله، فيكون «خَشِينَا» بمعنى كرهنا، كما ثبت في مصحف ابن مسعود، وقراءة أبي «فَخَافَ رَبُّكَ» فيقدَّر فقال الله: خشينا، فالفاء من الحكاية، وفي هذا ضعف مع ضعف أنه ليس من جواب الخضر على تعرُّض موسى له.

﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ أي طلبنا أن يبدِّل. وإرادة الشيء سبب لطلبه وملزوم له، والمراد: تعويض الله لهما عنه ولدا خيرا منه ﴿زَكَوٰةً﴾ طهارة من الذنوب والأخلاق الرديئة، ولزم من ذلك أن يكون «خَيْرًا»: دينا، كما فسَّر ابن عَبَّاس رضي الله عنه زكاة بدينًا، تفسيرا باللازم. و«مِنْ» ليست تفضيليَّة لأنَّ الغلام لا حسن فيه فضلا عن أن يكون هذا أحسن منه، بل متعلِّقة بمحذوف نعتا لـ«خَيْرًا». وخير: اسم تفضيل خارج عن التفضيل، أو بمعنى ضدُّ الخبث، أو تعلَّق بـ«يُبَدِّل»، أو يبقى على التفضيل على فرض أنَّ فيه حسنا مَّا، أو يدَّعيان فيه حسنا، أو فيه حسن الطهارة من الذنوب لطفوليَّته، والبراءة بحسب الظاهر مِمَّا يعاب إن كان بالغا، فزكاة من هو زكيٌّ في الحال والمآل والظاهر والباطن أولى.

﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ رحمةً، خارجٌ عن التفضيل أيضا، إذ لا رحمة في الغلام، فمعناه قريب الرحمة، أو باق عليه على فرض أنَّ فيه رحمة، أو يدَّعيانها فيه.

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عَبَّاس أنَّهما أبدلا جارية ولدت نبيئا، وقال الثعلبي: أدركت يونس بن متَّى فتزوَّجها نبيء فولدت نبيئا هدى الله به أمَّة، وفي رواية ابن المنذر عن يوسف بن عمر أنَّها ولدت نبيئين، وعن ابن

عَبَّاس وجعفر الصادق: ولدت سبعين نبيئا، واستبعده ابن عطيَّة بأَنَّ كثرة الأنبياء لا تعرف إلاَّ في بني إسرائيل، وهذه ليست منهم، وفيه أنَّها لَعَلَّهَا منهم، وإنَّه إذا صحَّت الرواية لم يعتبر الاستبعاد، وفي العادة أنَّ الجارية أبرُّ وأرحم بأبويها من الغلام، وقيل: أبدلهما غلاما مؤمنا.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر ابن أبي حاتم عن عطيَّة أنَّ المعنى: هما به أرحم منهما بالغلام، أي أحبُّ إليهما لزيادة حسن خلقه وخَلقه، أو زيادة أحدهما، [قلت:] وهذا القول لا يناسب التعرُّض على الخضر في قتله مع براءته من موجبه.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ﴾ الذي أقمت ﴿فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ﴾ أصرم وصريم ﴿يَتِيمَيْنِ﴾ مات أبوهما وهما غير بالغين، ويتم الآدميِّ بموت الأب وابن أمِّه والحيوان بموتها، والطير بموتهما، وفي الحديث: «**لا يُتم بعد بلوغ**»[1]. ولا دليل على أنَّهما بالغان وأنَّهما سمِّيا يتيمين باعتبار ما مضى. ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ هي القرية المذكورة فيما مرَّ، ذكرت هنا بلفظ المدينة إظهارا للاعتداد بها لصلاح أبويهما وليتمهما ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ, كَنزٌ لَّهُمَا﴾ تحت أساسه بني عليه، وذلك أحفظ له، وحقيقة للتحتية، وأمَّا جانبه مِمَّا يليه فدون ذلك في الحفظ ومجاز. وهو مال مدفون من ذهب وفضَّة كما في البخاري في التاريخ، والترمذي والحاكم وصحَّحه من حديث أبي الدرداء، وبه قال عكرمة وقتادة.

(فقه) وأصل "كنز" مصدر استعمل بمعنى مكنوز، ولا يخفى أنَّه حلَّ لمن تقدَّم [من الأقدمين] الكنز وأنَّه حرِّم علينا، وهو من حلال لأنَّ أباهما كما

١- رواه **أبو داود** في كتاب الوصايا، باب ما جاء في متى ينقطع اليتم، رقم ٢٨٧٣، بلفظ «احتلام» بدل «بلوغ». من حديث علي بن أبي طالب.

وصفه الله صالح، والمذموم من كنوز ما لم تؤَدِّ منه الحقـوق ، وقـد قيـل: إنّـه لا يقال لِمَا أدَّيت منه كـنز شرعا، قـال ﷺ : «**كـلُّ مـال لا تـؤدَّى زكاتـه فهـو كنز**»[1] فنقول: المراد فهو الكنز المذموم في [سورة] براءة [آية ٣٤]، ومـا أدّيـت منه فليس كنزا مذموما بل كنز حلال، ومن قـال الكـنز حـرام مطلقـا قـال: إنّـه حلال لمن قبلنا إن كان تؤدَّى حقوقه.

روى الطبراني عـن أبي الـدرداء: «**أحلَّـت لهـم الكنـوز وحرِّمـت عليهـم الغنائم، وأحلَّت لنا الغنائم وحرِّمت علينـا الكنـوز**» ومثلـه لعبـد الـرزَّاق وابـن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة، فلا يعجبنَّ الرجل فيقول: ما شأن الكنز حلَّ لمن قبلنا وحرِّم علينا فإنَّ الله تعالى يحلُّ من أمره ما يشاء ويحرِّم ما يشاء، وهي السنن والفرائض تحلُّ لأمَّة وتحرَّم على أخرى.

وأخرج الحاكم وصحَّحه عن ابن عَبَّـاس: «إنَّـهُ ما كان من ذهب ولا فضَّة ولكنَّه كان صحف علم». وروى هذا أيضا عن ابن جبير، وأخرج ابن مردويـه من حديث عليٍّ عن رسول الله ﷺ والبزار عن أبي ذرٍّ كذلـك، والخرائطي[2] عن ابن عَبَّـاس موقوفا: «إنَّه كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه: عجبت لمن يؤمـن بالقدر كيف يحزن ؟ وعجبت لمن يؤمـن بـالرزق كيـف يتعـب ؟ وعجبـت لمـن يؤمن بالموت كيف يفرح ؟ وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل ؟ وعجبت

١- رواه **البيهقي** في الشعب: ج٤، ص٨٢. و**الهندي** في الكنز، ج٨، ص٢٩٤، رقم١٥٧٦٤. من حديث ابن عمر.

٢- هو الحافظ المصنِّف أبو بكر محمَّد بن جعفر السامرَّائي الخرائطي صاحب كتاب «مكارم الأخلاق» وكتاب «مساوئ الأخلاق» وكتاب «اعتـلال القلـوب». قـال الخطيـب: كـان حسن الأخبار مليح التصانيف، قيل: مات بيافا سنة ٣٢٧ هـ. تهذيـب سير أعـلام النبـلاء، ج٢، ص٨٥.

لمن يعرف الدنيا وتقلّبها كيف يطمئنُّ إليها؟، لا إله إلاَّ الله محمَّد رسول الله ﷺ».

وعن عطاء عن ابن عَبَّاس: إنَّه مكتوب في وجه منه: «بسم الله الرحمن الرحيم عجبت...» وفي وجه: «أنا الله لا إله إلاَّ أنا وحدي لا شريك لي خلقت الخير والشرَّ فطوبى لمن خلقته للخير وأجريته على يديه، وويل لمن خلقته للشرِّ وأجريته على يديه» ولا يجمع بأنَّ الكنز كان ذلك كلّه لأنَّه خلاف الظاهر، ولأنَّ ابن عَبَّاس قال: «ما هو من ذهب ولا فضَّة».

﴿**وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا**﴾ اسمه كاشح وأُمُّهما دهنا، وقيل: ليس بالأب الأدنى بل العاشر، وعن جعفر الصادق: الأب السابع.

(فقه) وأفادت الآية على الأقوال أنَّ صلاح الآباء يفيد العناية بالأبناء، وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن أبي حاتم عن خيثمة أنَّه قال عيسى عليه السلام: «**طوبى للذرِّيَّة المؤمن ثمَّ طوبى لهم كيف يحفظون من بعده**» وتلا خيثمة هذه الآية. وعن وهب: إنَّ الله تعالى ليحفظ بالعبد الصالح القبيل من الناس. ويروى إنَّ من صلاحه السياحة ووضع الناس أمانتهم عنده فيردَّهما كما هي، وغير ذلك من أعمال الصلاح.

﴿**فَأَرَادَ رَبُّكَ**﴾ مالكك ومدبِّرك، نبَّهه على وجوب الانقياد وعدم المناقشة في أمر الله، وعاتبه على ذلك ولذلك لم يقل فأراد ربُّنا ﴿**أَنْ يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا**﴾ قوَّتهما بالبلوغ وكمال العقل، وهو ما بين ثماني عشرة وثلاثين، وهو مفرد بوزن الجمع مثل ءانك، ولا ثالث لهما، وإن شئت فقل: جمع لا واحد له من لفظه بمعنى قوَّاتهما.

(صرف) ومعنى قول سيبويه: جمع شدَّة أنَّه بمعنى قُوَّة، يقال: بلغ الغلام

شدَّته أي قوَّته، فمراده أنَّه جمع على غير قياس، لأنَّ "فعلة" لا يجمع على "أفعل"، وقيل: جمع شد ككلب وأكلب، والمراد: أنَّ القياس ذلك، ولم يرد أنَّ شدًّا ورد بمعنى القُوَّة، كما يقال: أبابيل جمع أبول، أو أبيل، أو أبال، مع أنَّه لم تسمع هذه المفردات، والمراد: إنَّ القياس أن يكون مفردات له.

﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ من تحت الجدار ولو انقضَّ قبل ذلك لظهر الكنز وأخذه غير أهله قهرا أو سرقة، ولو أخذه اليتيمان قبل بلوغ أشدِّهما لضيَّعاه وكان وصيُّهما عالما به لكنَّه غاب، وهذا [ردٌّ] على موسى إذ قال: إقامة هذا الجدار بدون أن تطلب إليها فضول وتبرُّع على من حرمونا **﴿رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾** النصب على التعليل لـ«أَرَادَ» لا لـ«يَسْتَخْرِجَا» لعدم اتِّحاد الفاعل لأنَّ الراحم الله والمستخرجين غيره، إلاَّ عند من لم يشترط الاتِّحاد.

(نحو) أو «رَحْمَةً» من المبنيِّ للمفعول فيكون الاتِّحاد بين النائب والألف إذ هما هما، لأنَّهما المستخرجان المرحومان أيضا، وأجيز أن يكون حالا من ألف «يَسْتَخْرِجَا» بتأويل: مرحومين، أو تعليلا لمحذوف على حذف مضاف، أي فعلت ذلك إرادة رحمة من ربِّك، أو رجاء رحمة من ربِّك.

﴿وَمَا فَعَلْتُهُ, عَنَ امْرِي﴾ أي عن رأيي، وقد يدلُّ على أنَّه نبيء، أي ما فعلته عن أمري بل عن وحي **﴿ذَٰلِكَ﴾** أي ما ذكر من العواقب، أو من البيان، ولعظمها أشار بالبعد **﴿تَاوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾** تستطع حذفت التاء تخفيفا بحذف إحدى المتقاربين التاء والطاء في آخر الكلام، كما أنَّ العياء قد لحقهما بالعتاب، وكما أنَّ موسى يفارق الخضر وبقي الخضر منفردا كما بقيت الطاء، ولم يكن ذلك في الأوَّل لعدم موجب التخفيف وهو العياء، وإنَّما حصل

التكرير بالأخير فخفّف.

(بلاغة) ولا يخفّف لفظ «ذَلِكَ» عن هذا فيقال ذاك كما خفّف استطاع بحذف التاء تلويحا بأنَّ موسى قد خفَّ ما ثقل عليه ببيان الخضر، أو حذفت كما يصغّر الاسم أو يرخّم للترحُّم، ولعظمها أشار بالبعد، وهنا أنجز الموعود، وفذلكة لِمَا مرَّ قيل: أضمر في «خَشِينَا» لَمَّا فرق الواحد تلويحا أو تحقيقا بأنَّ الأبوين كرها معه، أو جمع نفسه مع الله بمعنى كرهنا، أو مع الله والوالدين.

(فقه) وفي ذلك جمع الله وغيره في ضمير، وهو لا يجوز، فإنّه لَمَّا قال الخطيب من العرب بين يديه ﷺ : «من يطع الله ورسوله ﷺ فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى» قال ﷺ : «**بئس الخطيب أنت**»[1] أي لجمع الله تعالى ورسوله في ضمير يعصهما، ويقال: قد ورد في القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَآئِكَتَهُ, يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيءِ﴾ (سورة الأحزاب: ٥٢) ويحتمل الحذف أي إنَّ الله يصلّي وملائكته يصلُّون، وفي قوله ﷺ في الإيمان: «**أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مِمَّا سواهما**»[2] بجمع «الله ورسوله» في المستتر في «أحبَّ» وفي الهاء من «سواهما»، [قلت:] فالجمع جائز لوروده.

وقيل: لعلّه قال: «بئس...» لوقفه على «يعصهما»، ويردُّه لفظ مسلم وأبي داود والنسائي عن عديٍّ بن حاتم ﷺ : «**بئس خطيب القوم أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله**» وقال الخطابي: يكره الجمع ولا يحرم.

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٥، ص٣٠٤.

٢- رواه **البخاري** في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم ١٦. ورواه **مسلم** في كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتَّصَفَ بهنَّ وجد حلاوة الإيمان، رقم٤٣. من حديث أنس.

(فقه) وكلام الغزالي يشير إلى التحريم وعلى الكراهة فقد تكره في مقام تلك الخطبة المذكورة لأنَّها بحضرة المشركين، والإسلام غضٌّ طريٌّ، ولا تكره في مقام حيث لا محذور ككلام الخضر، وخصَّ بعضهم الكراهة بغير النبيء ﷺ، فتجوز في القرآن بالأولى، وفي شروح البخاري **جوازه في كلام الله ورسوله وكراهته في غيره في مقام دون مقام**، والله أعلم، وهذا هو المختار.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾

قصَّة ذي القرنين ويأجوج ومأجوج

﴿**وَيَسْئَلُونَكَ**﴾ يا محَمَّد سؤال امتحان ﴿**عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ**﴾ أي عن شأنه، كما يدلُّ له الجواب في الآية. السائلون قريش بتلقين اليهود، وقيل: اليهود كما روي عن السدِّيِّ، وأكثر الآثار يدلُّ على أنَّ الآية نزلت بعد سؤالهم، فالمضارع لتنزيل الماضي منزلة الحاضر، لأنَّ في سؤالهم إِيَّاهُ مع ما شاهدوا من أمره ﷺ نوع غرابة، أو للاستمرار على السؤال إلى أن أجابهم.

عن عقبة بن عامر[1] جاء نفر من أهل الكتاب بالصحف أو الكتب فقالوا: استأذن لنا على رسول الله ﷺ لندخل، ففعلت فقال ﷺ: «**ماهم يسألوني عَمَّا لا أعلم ؟ لا أعلم إلاَّ ما علَّمني ربِّي**» ثمَّ قال: «**إيتوني بوضوء**» فتوضأ فركع في مصلاَّه من بيته ركعتين فسرَّ وجهه، وقال: «**أدخلهم ومن بالباب من أصحابي**» فأدخلتهم فقال ﷺ: «**إن شئتم أخبرتكم بما جئتم للسؤال عنه**».

(قصص) [قلت:] ولا يصحُّ ما قيل إنَّ ذا القرنين مَلَك وإنَّ عمر سمع في منى قائلا: يا ذا القرنين، فقال: ما لكم وأسماء الملائكة ؟ وإن صحَّ فالمراد إنَّ هذا الاسم من أسماء الملائكة لا تسمُّوا به ولو سمِّي به من قبلكم، وقيل: رجل صالح عالم حكيم مهيب ملَّكه الله الأرض ولا يدرى من هو، وقيل: لأنَّه انقرض في عمره قرنان من الناس، وعن عبيد بن يعلى: لأنَّ في رأسه قرنين كالظلفين وهو أوَّل من لبس العمامة لبسها ليسترهما، وقيل: لأنَّ لتاجه قرنين.

١- عقبة بن عامر الجهني أبو عبس المصري، كان عالما مقرئا فصيحا شاعرا كبير الشأن، شارك في فتح دمشق وشهد فتح مصر ووليها لمعاوية مات سنة ٥٨ هـ وقبر بالمقطم. تهذيب سير أعلام النبلاء، ج١، ص٧٣٠.

وعنه ﷺ : «**إنَّه طاف قرني الدنيا غربها وشرقها**» وعن قتادة ويونس بن عبيد: لأنَّ له غديرتين، وقيل: لأنَّه سخّر له النور والظلمة يهديه النور قدَّامه إذا سرى وتمتدُّ الظلمة وراءه، وقيل: لأنَّه دخل النور والظلمة، وقيل: لأنَّه رأى في نومه كأنَّه صعد وأخذ بقرني الشمس، وقيل: لأنَّه لشجاعته ينطح أقرانه.

(قصص) وقيل: هو فريدون بن أثقيان وهو مسلم يؤيَّد بالوحي أعطى ابنه أبرج العراق والهند والحجاز وأعطاه التاج، وابنه سلم الروم وديارَ مصر والمغرب، وابنه ثور الصين والترك والمشرق، ووضع لكلٍّ قانونا يحكم به وسمِّيت قوانينهم سياسة بمعنى سي إيسا أي ثلاثة قوانين، وسلطنته خمسمائة عام.

ويردُّ هذا أنَّ الله ﷻ أخبرنا بسفر ذي القرنين أنَّه سافر وذاك لم يسافر بإجماع أهل التاريخ، وإنَّما مهَّد له الأرض كاوهُ الأصبهاني الحداد الذي مزَّق به الله ملك الضحاك، إلاَّ أن يثبت له ما يذكر للإسكندر، ولا يبالى بعدم ذكر المؤرِّخين.

(قصص) وقيل: هو إسكندر اليوناني بن فيلسوف، وقيل: قلفيص، وقيل: قليص، وقال ابن كثير: هو ابن فيليس بن مصريم بن هرمسا بن ميطون بن رومي بن ليطى بن يونان بن يافت بن نونه بن شرخون بن نونط بن يوفل بن رومي بن الأصغر بن العزيز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. وسرير ملكه مقدونيا غرب القسطنطينية المحمية، بينهما خمسة عشر يوما، وهو الذي غلب دارا الأصغر واستولى على الفرس وكان مولده في السنة الثالثة عشر من ملك دارا الأكبر، وزعم بعض أنَّه أبوه.

وروي أنَّ أباه جمع له ملوك الروم والمغرب وقهرهم وانتهى إلى المحيط وعاد إلى مصر وبنى الإسكندرية والمدن الكثيرة، ودخل الشام وقصد بني إسرائيل وقصد البيت المقدس وذبح فيه، وملك الدنيا ومات بشهرزور من العراق، وقيل:

مات برومية المدائن، وحملوه في تابوت من ذهب إلى الإسكندرية وعمره اثنان وثلاثون سنة، ومدَّة ملكه اثنتا عشرة سنة، وقيل: عمره ستٌّ وثلاثون ومدَّة ملكه ست عشرة.

فالمراد بذي القرنين الإسكندر، **وهو الصحيح** كما ذكره الله ﷻ بالتمكين، ولا ينافي ذلك أنَّه تلميذ أرسط الحكيم خمس سنين بأمر أبيه، لأنَّه تعلَّم منه ما يجوز و لم يتَّبعه على كفره، كما تلمذ الشافعي وأحمد على أبي حنيفة وخالفاه، وتلمذ الشافعي على مالك وخالفاه وتلمذ أحمد وأبو حنيفة على مالك أيضا والأشعري على المعتزلة وخالفهم، ورئيس المعتزلة على الحسن البصري وخالفه، وأرسطو على أفلاطون وخالفه.

وذَبْحُه في بيت المقدس دليل على إقراره با لله، بل قال له الحكماء: نسجد لك، فقال: لا يجوز السجود لغير بارئ الكلِّ.

وقيل: هو الإسكندر الرومي وهو متقدِّم على اليوناني بكثير، ويقال له ذو القرنين الأكبر، واسمه مرزبان بن مرديه من ولد يافت بن نوح، وكان أسود وقيل: اسمه عبد ا لله بن الضحاك، وقيل: مصعب بن عبد ا لله بن قينان بن منصور بن عبد ا لله، وذكر بعض المحقِّقين أنَّ الإسكندر الرومي والإسكندر اليوناني يطلقان على غالب دارا الأصغر.

والذي عليه الكثير أنَّ المسمَّى بالإسكندر عند الملوك اثنان بينهما نحو ألفي سنة، وإنَّ أوَّلهما هو المراد بذي القرنين، ويسمِّيه بعضهم الرومي وبعضهم اليوناني، عمره ألف سنة وستمائة، وقيل: ألفا سنة، وقيل: ثلاثة آلاف، **ولا يَصِحُّ من ذلك شيء.**

(قصص) وقيل: ذو القرنين هو أبو كرب بن عمير بن أفريقس الحميري، وهو الذي افتخر به تبع اليمني إذ قال:

قد كان ذو القرنين جدِّي مسلما ملكا علا في الأرض غير مفنَّد
بلغ المغارب والمشارق يبتغي أسباب ملك من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها في عين ذي خلب وثأط حرمد

واختاره بعض، لأنَّ الأذواء كانوا من اليمن كذي المنار وذي نواس وذي رعين وذي يزن وذي جدن. ويقال: اجتمع مع إبراهيم خليل الله في مَكَّة المشرَّفة وتعانقا. وروي أنه أسلم على يده وطاف معه بالكعبة وثالثهما إسماعيل عليه السلام. وروي أنَّه حجَّ ماشيا فلمَّا سمع إبراهيم عليه السلام به تلقَّاه وأوصاه بوصايا. وروي أنَّه أتي بفرس فقال: لا أركب في بلد فيه خليل الله، فسخَّر الله له الأسباب والسحاب وبشَّره إبراهيم بذلك، فكانت له السحابة تحمله وعساكره وآلاتهم إذا أراد الغزو.

(قصص) وذكر بعض أنَّ ذا القرنين هو شُمَّر بن فرقس ويقال: شمريرعش لارتعاش فيه، فقيل: إنَّ أباه أفريقس غزا نحو المغرب في أرض البربر حتَّى أتى طنجة ونقل البربر من فلسطين ومصر والساحل إلى مساكنهم في المغرب، وبنى إفرِيقيَّة وعمره مائة وأربع وستون سنة، ودخل العراق والصين وقلع سمرقند وهو معرب شمركند، وقال ابن قتيبة: عمره مائة وسبع وثلاثون، وقال المسعودي: ثلاث وخمسون، وقيل: سبع وثمانون، وقيل: هذا المكنى أبا كرب تبع الأوسط الذي قال:

شهدت على أحمد أنَّه نبيء من الله باري النسم
فلو مدَّ عمري إلى عمره لكنت وزيرا له وابن عم

وكان كثير الغزو فأغروا ابنه حسانا فقتله.

واختار بعض المتأخّرين أنَّ ذا القرنين الإسكندر بن فيلسوف غالب دارا ويقال له اليوناني والرومي، وشهر بالحكمة دون النبوءة، وفي بعض الأعصار السابقة يسمَّى النبيء حكيما، وقد قيل: إنَّ الخضر نبيء وإنَّه وزير ذي القرنين، ومعنى كونه وزيرا له أنَّه مدبِّر أمره.

(سبب النزول) وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي أنَّ اليهود قالوا للنبيء ﷺ: إنَّما تذكر إبراهيم وإسماعيل وعيسى والنبيئين لأنَّك سمعتهم مِنَّا فأخبرنا عن نبيء لم يذكره الله في التوراة إلاَّ في مكان واحد، قال: ومن هو؟ قالوا: ذو القرنين، فنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ و«مِنْ» للابتداء، أو للتبعيض والمراد: من أخباره، والتبعيض أولى، وإن أرجعنا الضمير إلى الله تعيَّن الابتداء، وتعلَّقت بـ«أَتْلُو»، ويجوز تعليقها بمحذوف حال من «ذِكْرًا»، كما إذا جعلت للتبعيض وردَّت الهاء لـ«ذِي الْقَرْنَيْنِ»، والسين للتأكيد والتحتم كأنَّه قال: لا أترك التلاوة كقوله:

سأشكر عمرا إن تراخت منيَّتي أيادي لم تمنن وإن هي جلَّت

لا للاستقبال لأنَّه ذكر عقب ذلك بقوله:

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الاَرْضِ﴾ جعلنا له قدرة وَقُوَّة على التصرُّف في الأرض من حيث التدبير والجنود والهيبة والوقار، ومكَّنه بلا لام: جعله قادرا، وقيل: مكَّنا له النبوءة، وقد روى أبو الورقاء عن علي أنَّه نبيء، وعليه مقاتل والضحاك، وسأل ابن الكواء عليًّا فقال: ليس نبيئا بل عبد صالح أحبَّ الله فأحبَّه، ونصح له فنصحه، وهو مذهب الجمهور، وتوقَّف بعضهم.

روى عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصحَّحه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: **«ما أدري أُتبَّع كان لعينا أم لا، وما أدري أذو القرنين كان نبيئا أم لا، وما أدري الحدود كَفَّارَة لأهلها أم لا»**[1] فلعلَّه ﷺ علم بعد ذلك أنَّه نبيء أو غير نبيء كما في رواية، [قلت:] وأمَّا تُبَّع فعلم بعد ذلك أنَّه مؤمن ونهى عن سبِّه، وأنَّ الحدود كفَّارة لمن تاب.

﴿وَءَاتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه في سلطنته وغيرها **﴿سَبَبًا﴾** طريقا يوصله إليه من علم وقدرة وآلة، و«مِنْ» للبيان والمبيَّن «سَبَبًا» ويقدَّر مضاف أي: من أسباب كلِّ شيء، أو للابتداء أو للتعليل فلا يقدَّر مضاف **﴿فَأَتْبَعَ﴾** فأراد بلوغ المغرب فاتَّبع **﴿سَبَبًا﴾** يصله به **﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾** منتهى الأرض من جهة المغرب ساحل البحر المحيط الغربي، وفيه الجزائر الخالدات ينبت فيها الزعفران وغيره بلا حرث، ومنها يؤخذ الأطوال والأعراض.

وهل المغرب أفضل من المشرق؟ ولذلك ابتدأ به ذو القرنين ولقربه منه، وللحركة الشمسية وذلك قول المغاربة، وقال المشارقة: المشرق أفضل قال السيوطي: لا أقطع بتفضيل إحدى الجهتين على الأخرى لتعارض الأدلَّة، والخلاف في غير مَكَّة والمدينة وبيت المقدس فالثلاثة أفضل إجماعا.

﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ذات حمأة وهي الطين الأسود، يقال: حمئت البئر تحمأ إذا كثر حمأتها، سأل معاوية كعب الأحبار: أين تجد الشمس تغرب في التوراة؟ فقال: سل أهل العزيمة فإنَّهم أعلم بها، وأمَّا أنا فإنِّي أجدها

١- رواه الحاكم في «مستدركه» كتاب الإيمان: ج١، ص٩٢، رقم ١٠٤/١٠٤. من حديث أبي هريرة.

تغرب في التوراة في ماء وطين، وأشار بيده نحو المغرب، فقال ابن حاضر: عندي ما يؤيِّدك، فقال ابن عَبَّاس: وما هو؟ قال: قول تبع في ذي القرنين:

فرأى مغيب الشمس عند غروبها في عين ذي خلب وثَأْطٍ حرمد

قال ابن عَبَّاس: ما الخلب ؟ قال: الطين، قال: فما الثأط؟ قال: الحمأة، قال: ما الحرمد؟ قال: الأسود، فأحضر ابن عَبَّاس غلاما يكتب ذلك.

ومعنى غروبها في عين حمئة أنَّها تغرب عندها في رأي العين، أو تغرب فيها بالتوهُّم كما ترى تطلع من البحر أو الأرض، وتغرب في أحدهما، والعين الحمئة: البحر، فإنَّه عند ا لله كالقطرة.

(فنك) وزعم بعض أنَّها تغرب من الماء شتاء في الليل فيكون سخنا لطول اللبث بخلاف ليل الصيف، والحقُّ أنَّها لا تزال في السماء تغيب عن موضع وتطلع على موضع، ومعنى سجودها عند العرش في الحديث سجودها وهي جارية في موضع مخصوص تحت موضع مخصوص من العرش، لأنَّ العرش محيط بالأرض كلِّها، وهي أبدا تحته، أو شبَّه غاية انحطاطها كلَّ ليلة بالسجود وذلك الانحطاط هو مستقرُّها.

[قلت:] ولا يصح ما قيل: إنَّها تسجد تحت العرش فوق السماوات السبع تسرع سرعة الملائكة، وترجع إلى موضعها في وقت الفجر لأنَّ العيان ينكر ذلك، **ومعاينة شأنها صريح في بطلان ذلك كما يأتي قريبا بعض ذلك،** بل الخليل رصدها في منارة الإسكندرية فرأى الشفق الأبيض ينتقل من حيث غربت من موضع إلى موضع في المغرب والشمال والمشرق حتَّى طلعت من المشرق، وا لله قادر.

(فنك) ومعنى مسيرها تحت الأرض أنَّ الأرض حالت بينها وبين أصحاب كُلِّ ليل وسترتها وهي أكبر من الأرض بأضعاف فيما قيل، وفي بعض

الآفاق تبقى الشمس ظاهرة ستّة أشهر وتغرب عنها ستّة أشهر كما في أفق عرض تسعين، وتغيب مقدار ساعة ويظهر نورها من قبل الشرق في بعض العروض كما في بلغار، وذكر ابن عساكر أنّه ﷺ قال: «**سخونة الماء شتاء لطول مكث الشمس في الأرض في الليل، وإذا كان الصيف أسرعت فيبرد الماء**» وا لله أعلم بصحّة الحديث في هذا.

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ عند تلك العين على ساحل البحر، لباسهم جلود السباع وطعامهم ما يلقيه البحر وهم ناس لا يحصيهم إلاّ ا لله، أو قوم من ثمود يسكنون جابرسا وبالسريانية جرجيا[1]، والجمهور على أنّهم كافرون، وقيل: بعضهم مؤمنون.

﴿قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ أي تعذّبهم بالقتل من أوّل الأمر **﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾** أمرا ذا حسن أو أمرا حسنا بفتح السين أو نفس الحسن بالإسكان، وهو أن لا تقتلهم حتّى تدعوهم إلى ا لله ﷻ فيأبوا. واستُدِلَّ بالآية على أنّه نبيء، وأجيب بأنّ القول بواسطة ملك أو نبيء ذلك العصر، أو بإلهام، واعترض بأنّه لا يجترئ على القتل بالإلهام، قلت: بلى لأنّ صاحبه يتوثّق به، وأمّا أن يستدلّ على الجواز بذبح إبراهيم ولده فلا، لأنّ رؤيا الأنبياء وحي. و لم يقل: وإمّا أن تدعوهم تلويحا بتفضيل الدعاء إلى ا لله على القتل أوّل مرّة بأن ذكره بلفظ الحسن.

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ نفسه بالإشراك بعد دعوتي **﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾** بالقتل بنحو السيف، ويبعد ما قيل: بجعلهم في قدر نحاس ويوقد تحتها، إلاّ أنّ قوله «نعذّب» يناسبه لأنّ القتل المنجز لا تعذيب فيه، والنون له ولمن معه وليس يعظّم

١- لا تنس أنّ الشيخ يعتمد كثيرا فيما يذكر على الأقدمين فيما مضى وما يأتي مِمّا هو بعيد.

نفسه مع أنّه يعد أن يباشر ذلك كلّه بنفسه، أو الحكم على المجموع لأنّهم القاتلون دونه، لا له و لله، لأنّه لا يجمع الله وغيرُه في ضمير على ما مرَّ قريبا. ﴿**ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ, عَذَابًا نُكْرًا**﴾ بالنار في الآخرة، ويعد أن ينازع في ﴿عَذَابًا نُكْرًا﴾ «نُعَذِّبُهُ» و«يُعَذِّبُهُ» حذف ضميره من الأوّل المهمل، والمعنى: نعذّبه عذابا نكرا بجعله في قدر نحاس ويعذّبه الله عذابا نكرا بالنار، وفي قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِ﴾ دون إليك ما يقوّي أنّه ليس ذلك إيحاء إليه بل كلام جرى بينه وبين مخلوق كنبيء أو بعض قومه، وقد زعم بعض أنَّ التقدير: «قلنا: يا محمّد، قال جنده: يا ذا القرنين إمّا أن تعذّب ...»، فحذف ذلك لظهور أنّه ليس نبيئا، وزعم بعض أنَّ القائل علماؤه ونسب القول إلى الله مجازا، وكلا القولين تكلّف بلا داع.

﴿**وَأَمَّا مَنَ ـ امَنَ**﴾ بالله وحده ﴿**وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾ عملا صالحا تبعا لدعوتي و لم يصرَّ على كفره ﴿**فَلَهُ, جَزَآءً الْحُسْنَىٰ**﴾ في الدارين على إيمانه وعمله الصالح، والمقصود: المثوبة الحسنى، أو الفعلة الحسنى، أو الجنّة الحسنى، أو الدرجة الحسنى. والإضافة للبيان، أي جزاء هو الحسنى، أو يقدَّر: جزاء الأفعال الحسنى التي فعلها، أو جزاء مثل ما يستحقّه من عمل عمله.

﴿**وَسَنَقُولُ لَهُ, مِنَ اَمْرِنَا**﴾ والضميران لذي القرنين ومن معه من المسلمين، لا له و لله على ما مرَّ، والمعنى: مِمَّا نأمر به ﴿**يُسْرًا**﴾ قولا ذا يسر، أو نفس اليسر مبالغة، وهو أن يكلّف بما لا صعوبة فيه، وقيل: المراد بالتعذيب القتل وبالإحسان الأسر، فمن أصرَّ على كفره بعد دعوته فإن شاء أحسن إليه بالأسر وأبقاه حيًّا، فيكون ذو القرنين قد زاد في الجواب قوله: ﴿وَأَمَّا مَنَ ـ امَنَ...﴾.

[قلت:] ويظهر لي على أنَّ فيهم مؤمنين أن يكون المعنى: إمَّا أن تعذّب من تجده منهم كافرا وإمَّا أن تتّخذ فيهم حسنا بإبقاء من تجده مؤمنا وتحسن إليه، ولذلك لم يقل: إمَّا أن تعذّبهم.

﴿ثُمَّ اَتَّـبَعَ سَبَبًا﴾ طريقا من المغـرب إلى المشـرق راجعـا **﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَـغَ مَطْلِعَ الشَّـمْسِ﴾** أي موضـع طلوعهـا مـن أوَّل معمـور الأرض، بلغـه في مـدَّة يسيرة تسهيلا من الله، كما قال الله ﷻ: ﴿وَءَاتَيْنَـاهُ مِن كُـلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾، وزعم بعض أنَّه بلغه في اثني عشرة سنة.

[قلت:] والآن بدا لي أن أقول معميا[١] وعلم الغيب لله:

لَويل مضاب عن ثمـــان بأربـع سوى فرحة من مؤمن وجحود

كذا لاح لي والله بالغيب أعلم فـذا سـاحل لمؤمن وكـنود

ومضى من ذلك مقدار وبقي نحو عشرين.

﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ قال رسول الله ﷺ: «**﴿سِتْرًا﴾: بناءً، لم يبن فيها قطٌّ، كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا سربا لهم حتَّى تزول الشمس**»[٢] رواه الحسن عن سمرة بن جندب، وعنه عن سمرة بن جندب عن رسول الله ﷺ: «**إنَّ أرضهم لا تحمل البناء فإذا طلعت الشمس تغوَّروا في المياه، وإذا غابت خرجوا يتراعون كما تراعى البهـائم**»[٣] وقيل: الستر اللباس، وهم قوم من الزنج عراة، وقيل: من الهند. وعن مجاهد: مـن لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشـمس أكثر مـن أهـل الأرض. وعـن وهب بن منبه: إنَّهم منسك.

١- كذا في النسخ لعلَّه مغيِّبا.

٢- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢٧٣. وقال: أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة، عن ابن جريج.

٣- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢٧٣. وقال: أخرجه الطيالسي والبزار في أماليه وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن.

قلت: ظاهر الآية العموم فلا بناء يسترهم ولا لباس، فيكون قوله ﷺ: «بناءً» تمثيلا لا حصرا، ولا نسلّم أنَّ السرب والبناء ليسا من الستر المتعارف، وقول ابن عطية: الظاهر أنَّ المراد في الآية إثبات تأثير الشمس فيهم غير متبادر.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أمر ذي القرنين المفصَّل في الآيات من شأن أهل المغرب وأهل المشرق كذلك، ووجه التشبيه أنَّ الإخبار كالعيان، وقيل: الكاف زائدة وفائدة لفظ «ذَٰلِكَ» تعظيم الأمر، أو أمره في أهل مطلع الشمس مثل ذلك الأمر الصادر منه في أهل المغرب من التخيير والاختيار، أو وجدها تطلع وجدانا ثابتا كذلك الوجدان الذي وجدها به حين تغرب في عين حمئة، أو لم نجعل لهم سترا جعلا ثابتا كذلك الجعل الذي تفضَّلنا به عليكم من اللباس والبناء الفاخرين، أو سترا ثابتا كستركم، وكلاهما لا يتبادر، أو وجدها تطلع على قوم ثابت مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليهم في الكفر والحكم، أو حتَّى إذا بلغ مطلعها مثل ذلك البلوغ الذي بلغ مغربها.

﴿وَقَدَ اَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من الجنود والآلات والأسباب وما لاقى وقاسى في أثناء السير إلى أن بلغ، فالأمر أكثرُ وأعظمُ مِمَّا ذكرنا لكم، ولا يحيط به إلاَّ الله، فهذا تعظيم بعد التعظيم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أو هذا تعظيم للسبب الموصل إلى مطلع الشمس ﴿خُبْرًا﴾ علما بظاهر ذلك وباطنه الخفي.

﴿ثُمَّ اَتَّبَعَ سَبَبًا﴾ معترضا بين المغرب والمشرق من مطلع الشمس إلى الشمال ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السُّدَّيْنِ﴾ الجبلين يسمَّى الجبل والحاجز سدًّا لأنَّه سدَّ فجًّا من الأرض أو سمِّيا سدَّين لأنَّهما جاورا السدَّ الذي بناه فباعتبار ذلك بعد بنائه على ظاهره، وباعتباره قبل بنائه من مجاز الأوْل.

(لغة) والسُّدُّ بالضمِّ: الشيء الحاجز، وهو قول الخليل وسيبويه إنّه الاسم، وقول ابن إسحاق: إنّه ما رأته عيناك، وقول عكرمة وأبي عمرو بن العلاء وأبي عبيدة: إنه ما كان من خلق الله، والمفتوح عمل السُّدِّ، وهو قول الخليل وسيبويه: إنّه المصدر، وقول ابن إسحاق: إنّه ما لا تراه عيناك لأنَّ العمل لا يرى وإنّما يرى العامل، وقول عكرمة وأبي عمرو وأبي عبيدة: إنّه عمل البشر، وأجاز الكسائي الفتح في الحاجز كما تدلُّ له قراءة الفتح.

(قصص) و«بَيْنَ» مفعول لـ«بَلَغَ»، أو يقدَّر: بلغ ما أراده بين السُّدَّين، وهما فيما يقرب من عرض تسعين في منتهى الشمال، وقد وصل إليهما رجل بأمر الواثق بزاد، وأمر بمراعاة من يصلهم من أهل الممالك إيَّاهُ حتّى يصله، وأعانه في ذلك صاحب السرير وهو سلطان المسقو [أي الإسكيمو]، وجرى في أرض منتنة وأنفذوا معه رائحة لا بدَّ منها لداخل تلك الأرض، ووصل ووجد عنده قوما يقرأون القرآن ولغتهم عَرَبِيَّة، ووجد هناك بَقِيَّة ما يبنى به من لبن الصخر المنجور والحديد ووراءه طرائق، [قلت:] ولا بأس بذلك، وثقاة المؤرِّخين ضعَّفوه وكذَّبه بعض المحقِّقين.

وروى ابن جرير وابن مردويه عن أبي بكرة الثقفي[1] أنَّ رجلا قال: يا رسول الله قد رأيت سدَّ ياجوج وماجوج، قال: انعته لي، قال: كالبرد المَحَبَّر طريقة حمراء وطريقة سوداء، قال: قد رأيته، والظاهر أنّه رآه في اليقظة لا النوم، وقولهم: إنّهم يقرؤون القرآن وإنَّ لغتهم عَرَبِيَّة لا يردُّه قوله تعالى:

١- أبو بكرة الثقفي الطائفي مولى النبيء ﷺ اسمه نفيع بن الحارث، تدلّى في حصار الطائف ببكرة وفرَّ إلى النبيء ﷺ وأسلم على يده وأعلمه أنّه عبد فأعتقه. سكن البصرة وكان من فقهاء الصحابة، وأمُّه سميَّة فهو أخو زياد بن أبيه لأمِّه. مات سنة ٥١ هـ. تهذيب سير أعلام النبلاء، ج١، ص٨١.

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ لأنَّ الذين لغتهم ذلك بعد رسول الله ﷺ بعد بناء السدِّ وما ذكره الله قبل بنائه لا يكادون يفقهون قولا من لغة ذي القرنين وجنوده لغرابة لغتهم.

وأجاز بعض أن يكون القول الفهم مطلقا ولو بالإشارة أو ما من شأنه أن يقال، ليشمل الإشارة ونحوها. ونفي "كاد" كغيرها، فمعنى "كاد يفعل": قرب أن يفعل، ومعنى "ما كاد يفعل": ما قرب أن يفعل، وقد يفعل بعد قربه، وقد لا يفعل. و﴿دُونِهِمَا﴾: ما يلي غير أرض ياجوج وماجوج. والقوم: الترك أو غيرهم، قيل: سمِّي الترك لأنَّهم من داخل ما سَدَّ، غابوا فسدَّ المحلَّ عنهم لا قوم من الجنِّ كما قيل، والمراد على كلِّ حال بكونهم لا يكادون يفقهون تعسُّر فهمهم جدًّا لا امتناعه بالكلِّية لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ﴾ أي ولو بإشارة، ويحتمل أنَّهم قالوا بواسطة مترجمهم مِمَّن جاورهم، ويقرِّب له الفهم عنهم على التجوُّز في الإسناد، ويدلُّ له أنَّ في مصحف ابن مسعود: «وقال الذين من دونهم»، أو أفهمه الله ﷻ كلامهم فيكون ذلك من الأسباب التي هيَّأها الله له.

﴿يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ﴾ من ولد يافت بن نوح، عند وهب بن منبه وغيره، وكثير من المتأخِّرين، وقيل: سار يافت إلى المشرق فولد له جومر وينرش وأشار وإسقويل ومياشح، فمن جومر السقالبة والروم وأجناسهم، ومن مياشح العجم، ومن أشار ياجوج وماجوج، فجاء ذو القرنين فبنى السدَّ وبقوا خارجين.

وروى عبد الرزاق عن قتادة أنَّ ياجوج وماجوج اثنان وعشرون قبيلة، بنى ذو القرنين السدَّ على إحدى وعشرين، وكانت واحدة خارجة للغزو فبقيت خارج السدِّ، وسمِّيت الترك، وقيل: ياجوج من الترك وماجوج من الديلم، وقيل: من الجيل.

وجاء الحديث أنَّهم من ولد نوح الطَّيْلاَ وعن أبـي هريرة عن رسول الله ﷺ : «**ولد لنوح ثلاثة: سام وحام ويافث، ولد لسام العرب وفارس والروم، وولد لحام القبط والبربر والسودان، وولد ليافث ياجوج وماجوج والترك والصقالبة**»، وفي السفر العاشر من السفر الأوَّل من التوراة أنَّ ياجوج من ولد يافث.

(لغة) واللفظان عجميَّان منعا الصرف للعلميَّة والعجمة، وقيل: عربيَّان فمنعهما للعلميَّة وتأنيث القبيلة، وياجوج يفعول وماجوج مفعول، وألفهما عن همز كما هَمَزَهُما عاصم والأعمش ويعقوب، وهو لغة أسد، من أجيج النار أو من الأجَّة وهو الاختلاف أو شدَّة الملوحة أو من أجَّ الظليم إذا أسرع، وقيل: الألف زائدة من يَحَجْتُ ومَجَجْتُ، قال قطرب: ياجوج فاعول من أليج وماجوج فاعول من المجِّ.

﴿**مُفسِدُونَ فِي الاَرْضِ**﴾ بأنواع الفساد كالقتل والتخريب وأخذ الأقوات، يخرجون أيَّام الربيع فلا يدعون رطبا إلاَّ أكلوه ولا يابسا إلاَّ حملوه، ﴿**فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا**﴾ بسبب إفسادهم، كما دلَّت عليه الفاء.

(لغة) والخرْج: الجعل، وأصله مصدر، يطلق على ما يعطى على الرؤوس أو الأرض كالخراج، وقيل: الخرج على الرؤوس والخراج على الأرض والشجر والبناء، وقيل: الخرج ما تبرَّعت به والخراج ما لزم، وقيل: الخرج ما يخرج مرَّة والخراج ما يتكرَّر.

﴿**عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سُدًّا**﴾ يمنعهم عن الوصول إلينا، ﴿**قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي**﴾ مكَّنني فأدغمت نون مكَّن في نون الوقاية أي ما جعلني فيه ربِّي قَوِيًّا من الملك والمال والأسباب ﴿**خَيْرٌ**﴾ من الخرج الذي تريدون جعله لي.

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ كالعمل والبناء والحمل على الظهور والدوابِّ، قيل: وكالآلات وزُبر الحديد، وقد يدخل هذا في المال. والتسبُّب بالفاء عائد إلى عدم قبوله خرجهم، المعنى: أعينوني بِقُوَّةٍ فقط لأنَّ مالي أعظم، أو إلى خيريَّة ما مكَّنه الله فيه.

﴿اَجْعَلْ بَيْنَكُمْ﴾ قدَّمه على قوله ﴿وَبَيْنَهُمْ﴾ مطابقة لقولهم: ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ﴾، ومراعاة لإظهار كمال العناية بمصالحهم، كما راعوها في قولهم: ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ﴾، ولإظهار كمالها كرَّر الظرف إذ لو قال بينكم ردما بخطابهم وخطاب ياجوج وماجوج بالكاف تغليبا للمخاطب على الغائب لجاز ﴿رَدْمًا﴾ سدًّا حاجزا قَوِيًّا جدًّا وهو أوثق من مطلق السدِّ كما قال ابن عَبَّاس: هو كأشدِّ الحجاب، فقد وفَّى لهم بأفضل ما طلبوا وكذا شأن الملوك، وأصله سدُّ الخلل مطلقا، وقيل: سدُّ الثلمة بالحجارة.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ قطع الحديد جمع زبرة كغرفة وغرف، وذلك من زبرت الكتاب جمعت حروفه، وزبرة الحديد جمعت فيها أجزاء منه، وطلب إيتاء الزبر لا ينافي أنَّه لم يقبل منهم شيئا لأنه أراد آتوني بزبر الحديد أشترها منكم، أو أراد ناولوها إيَّاي، وهي من مالي ومال الله فهذا من الإعانة بالقُوَّةِ، [وَأَمَّا أن تقول: الإيتاء بزبر الحديد عَلَى طريق العارية فلا يجزئ في الجواب، لأَنَّ ذَلِكَ إعانة بالمال لا بالقُوَّةِ وحدها. ولا يقال: أراد بالخرج المال الكثير المقاوم أو المقارب لِمَا يعمل لهم من النفع وَأَمَّا ما قلَّ فلا بأس به ودخل في «قُوَّةٍ» وأراده فيها، لأَنَّا نقول: الزُّبَر غير قليل، لأَنـَّهَا أعظم ما يحتاج إِلَيْهِ السدُّ وأغلى، وَلِذَلِكَ لم يذكر الصخر والحطب، وقد يكون زبر الحديد مرادا عملها له من ماله ومال الله][1]، وقد تكون مستثناة كأنَّه قال: لا أحتاج إلى مالكم إلاَّ زبر

١- ما بين معقوفين إضافة من الطبعة العمانية.

الحديد وقوَّتكم، وقد يكونون أرادوا بالخرج ما يستمرُّ على الدوام كالخراج المضروب على الناس، أو على أرضهم مثلا لا ما ينقطع كالزبر.

وهنا حذف تقديره: فآتوها إيَّاهُ فجعل يبني ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ**﴾ حتَّى صار ما بين الجبلين من بنائه مساويا لهما في العلوِّ. وضمير «سَاوَىٰ» للسدِّ المفهوم أي ساوى السدُّ الهواء المقابل للجبلين بينهما من الأرض إلى فوق، فلزم مساواة الجبلين ولو كان لذي القرنين لقال: سوَّى بشدِّ الواو وأجازه بعضٌ، والمشهور أنَّ الصدف الجانب من الجبل.

﴿**قَالَ**﴾ ذو القرنين للعملة ﴿**انفُخُواْ**﴾ بالكيران في زبر الحديد المسطرة مع الصخر بين الجبلين، وهنا حذف تقديره: فجعلوا ينفخون ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ**﴾ صيَّره ﴿**نَارًا**﴾ كنار في الحرارة واللون، والضمير في «جَعَلَ» لذي القرنين مجازا، لأنَّ الجاعل العملة، وأسند الجعل إليه لأنَّه العمدة والآمر أو يقدَّر مضاف أي جعل عملته والهاء للمنفوخ فيه.

﴿**قَالَ**﴾ للذين يتولَّون أمر النحاس وإذابته أو للنافخين ﴿**ءَاتُونِي**﴾ أعطوني من المتولِّين أمر النحاس أي صيِّروا القطر آتيا أي حاضرا ﴿**أُفْرِغْ عَلَيْهِ**﴾ أي على المنفوخ فيه ﴿**قِطْرًا**﴾ نحاسا مذابا عند الجمهور، أو رصاصا مذابا أو حديدا مذابا.

(نحو) ومفعول «ءَاتُونِي» محذوف، أي آتونيه بردِّ الهاء للقطر بجواز عود الضمير للمتأخِّر في التنازع، و«قِطْرًا» مفعول «أُفْرِغْ»، ولو كان هو المفعول لـ«ءَاتُونِي» لقيل: أفرغه، ولا مانع من جعله مفعولا به لـ«ءَاتُونِي» وحذف ضميره من «أُفْرِغْ» وأسناد قول «ءَاتُونِي» والإفراغ إلى ذي القرنين كإسناد الجعل إليه.

وهنا حذف تقديره: فآتوه القطر فأفرغه عليه، والتصق بعض ببعض، فصار جبلا صلدا، فجاء ياجوج وماجوج وقصدوا أن يعلوه أو ينقبوه أو امتثلوا أمره ﴿فَمَا اسْطَاعُواْ﴾ ما استطاعوا فحذفت التاء تخفيفا عن ملاقاة متقاربين ﴿أَنْ يَّظْهَرُوهُ﴾ أي أن يعلوه لملاسته ولعلوٍّ، مائتي ذراع أو ألفا وثمانمائة ذراع ﴿وَمَا اسْتَطَاعُواْ لَهُ, نَقْبًا﴾ لصلابته وتغلُّظه، حتّى قيل إنّه قدر خمسين ذراعا، وأساسه بلغ الماء ومن صفاته ما قيل: إنَّ امتداده على الأرض مائة فرسخ.

وتمام ذلك الغلظ والطول وسلامة النافخين والعاملين مع ذلك مع كثرة النار وتقاربها بالقدرة الإلهِيَّة أو بآلات يسِّرت له لا يتفطّن لها اليوم كما نرى الآن أعمالا عجيبة لا طاقة لنا بها. و«لَهُ» حال من «نَقْبًا» أو مفعول به لـ«نَقْبًا» بلام التقوية، قدِّم للفاصلة. ثبت التاء لأنَّ النقب أشدُّ من الظهور، ولأنّه يتكرَّر بخلاف الظهور فإنّه يوئس منه بلا تجريب، وا لله أعلم.

ولعلَّ وراء الجبلين بحر أو لا سفن لهم أو الجبلان أملسان طويلان لا ينقبان ولا يظهران كالسدِّ، ويروى أنّهم ينقبون كلَّ يوم منه فيجدونه صبحا مردودا فيه إلاَّ قليلا يبقى، وإذا حضر الأجل للخروج ألقى ا لله على لسان أحدهم: إن شاء ا لله تعالى نفذناه فيجدوه غير مردود فينفذوه فيخرجوا.

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَّبِّي﴾ شكر ا لله في قلبه على هذه النعمة أو خاطب به الحاضرين مِمَّن كان ياجوج وماجوج يضرُّونهم ومن غيرهم، وهذا أولى، لأنَّ فيه الدعاء إلى ا لله، ولأنَّ فيه تحبيب ا لله إلى خلقه.

والإشارة إنّما هي إلى السدِّ لحضوره، ولقوله: ﴿جَعَلَهُ, دَكًّا﴾ فإنَّ هاءه للسدِّ، فهو أولى من كونها للتمكين من بنائه ومن تقدير مضاف أي بناء هذا، ومن كون الإشارة إلى السدِّ بمعناه المصدري. ومعنى كون ذلك رحمة أنّه أثر

رحمة، وبالغ بجعله نفس الرحمة، وذلك رحمة لمجاوريه وسائر العباد ومجاوروه أعظم رحمة به وإذا جعلت الإشارة للتمكُّن فكون التمكُّن رحمة باعتبار أنَّه سبب، وفي الإخبار بأنَّه «رَحْمَةٌ مِن رَّبِّي» تلويح بأنَّه إحسان إلهيٌّ لا طاقة للبشر عليه عادة. وفي ذكر الربِّ تربية معنى الرحمة.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي وقت وعده، وإسناد المجيء إلى الوعد مجازٌ، وإسناده إلى وقته حقيقةٌ، أو الوعد بمعنى الموعود وهو وقته، أو وقوعه فلا حذف مضاف ولا مجاز في الإسناد، والمراد بوقت ذلك يوم القيامة، وقيل: وقت خروج ياجوج وماجوج، عَلِمَهُ من نبيءٍ أو غيرِه أو إلهامٍ، ولا يساعده كلام الله. والمراد: مجيئه مع ما معه من خروج ياجوج وماجوج، والدجَّال، ونزول عيسى عليه السلام، وطلوع الشمس من مغربها، لا وقوعه فقط.

﴿جَعَلَهُۥ﴾ ربِّي ﴿دَكًّا﴾ صيَّره دكًّا أي مدكوكا مسوًّى بالأرض أو نفس الدكِّ مبالغة. وعلم ذي القرنين بهذا الجعل من تمام علمه بمجيء الساعة بإخبار نبيء أو غيره، أو إلهام أو من كتاب حزقيال إذ من مبادئها دكُّ الجبال الشامخة. أو ﴿دَكًّا﴾: كالشيء المدقوق كالمطحون، وفي الكلام حذف أي: يستمرُّ إلى آخر الزمان فإذا جاء وعد ربِّي جعله دكًّا.

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ ثابتا لا محالة، أي وعده المعهود، أو كلُّ ما وعد، فيدخل ذلك المعهود أوَّلاً. وهذا آخر كلام ذي القرنين ذيَّل به قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ مؤكِّدا له.

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن

ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾

حالة الخلائق بعد انهدام السدّ وعاقبة الكفّار يوم القيامة

﴿**وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ**﴾...إلخ من كلام الله صدّق به كلام ذي القرنين، كما إذا أمر سلطان رجلا بذكر شيء للناس فذكره وصدّقه السلطان بكلام يعقبه ويؤكّده.

والترك بمعنى الجعل، والهاء للخلق، والعطف على «جَعَلَهُ دَكًّا»، و«يَوْمَئِذٍ»: يوم إذ جاء الوعد بمجيء بعض مبادئه، والموج: الاضطراب شبّه بموج البحر حتّى إنّه يختلط الجنّ والإنس والوحش من شدّة الهول، ولأنّ الجنّ تعرف أنّ الإنس أعرف منهم فيطلبون منهم معرفة ما شأن هذا الهول، والوحش مع نفرتها ترى الإنسان أولى بأن تلتجئ إليهم من ذلك الهول.

أو الهاء للناس خاصّةً، يموج بعضهم في بعض بخروج ياجوج وماجوج فزعا، ويجوز أن يكون هذا أيضا من كلام ذي القرنين أي صيّرنا الناس يموج بعض في بعض حين تمّ السدُّ تعجُّبا منه، أو صيّرنا ياجوج وماجوج يموج بعض في بعض داخل السدِّ لا مخرج لهم منه.

ويجوز على أنَّه من كلام الله ﷻ أن تكون الهاء ليأجوج ومأجوج يموج بعض في بعض عند خروجهم مزدحمين في البلاد، واختاره أبو حيَّان.

(قصص) ومن حديث النَّواس بن سمعان: «ثمَّ يأتي عيسى عليه السلام قوما قد عصمهم الله من الدجَّال، فيمسح وجوههم ويحدِّثهم بدرجتهم في الجنَّة، فبينما هم كذلك أوحى الله ﷻ إليه: إنِّي قد أخرجت عبادا لي لا يُدان لأحد أن يقاتلهم، فاخرج بعبادي إلى الطور، فيخرج يأجوج ومأجوج فينشفون الماء ويتحصَّن الناس عنهم في بيوتهم، ويضمُّون إليهم مواشيهم، فيشربون ماء العيون كلِّها، فيمرُّ آخرهم فيقول: كان هنا ماء، ورأس الثور أو الحمار يومئذ خير من مائة دينار، ويقولون: فرغنا من أهل الأرض فلنقاتل أهل السماء فترجع نشابهم بالدم، فيرغب عيسى والمؤمنون في إهلاكهم فيصبحون موتى بدودة في أعناقهم موت نفس واحدة، بلا حسٍّ يسمع، ويطلب المسلمون رجلا يخرج ليخبرهم فيخرج مسلم وطَّن نفسه على الموت فيبشِّرهم أنَّ الله أهلك عدوَّهم، فيخرجون بدوابِّهم وتسمن من لحمهم، ويعمُّ الأرض نتنهم وزهمهم، ويعمُّ أهل الأرض دخان من السماء، أو ريح من اليمن تشبهه ثلاثة أيَّام، ويرسل الله طيرا كالبخت تلقيهم في البحر ويغسل الله الأرض بمطر كالزلفة، وتُنبت الأرض ما لم تُنبت حتى تُشبع العصابة رمانة ويستظلُّون بقشرها، وترويهم اللقحة ويوقدون من سلاحهم سبع سنين».

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ نفخة البعث لأنَّها وعيد لِلكُفَّارِ، ولقوله: ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ والصور قرن قيل: دارته السماوات والأرض، كلُّ روح في ثقبة، قال أبو سعيد الخدري: قال

رسول الله ﷺ : **«كيف أنعم وقد التقم صاحب القرنِ القرنَ وحنا جبينه وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ»**[١].

وقيل: الصور جمع صورة أو اسم جمعها، قال القرطبي: من أنكر الصور كمن أنكر العرش، وأجمعوا أنَّ النافخ إسرافيل، وذكر القرطبي أنَّ معه ملكا آخر نافخا. والهاء للخلق يجمعهم ـ بعد فنائهم وتفتتهم ـ في أرض واحدة للحساب. وتنكير «جَمْعًا» و«عَرْضًا» للتعظيم، وعرْضُ جهنَّمَ: إظهارها بحيث يراها الكافر ويسمع حسَّها وزفيرها، وخصَّهم بالذكر لأنَّهم المعاقبون بها. و﴿يَوْمَئِذٍ﴾: يوم إذ جمعنا الخلائق.

﴿الذِينَ كَانَتَ اَعْيُنُهُمْ﴾ بصائر قلوبهم وهم في الدنيا **﴿فِي غِطَآءٍ﴾** في خذلان أو قساوة شبيه بالجسم الغليظ الذي يغطِّي **﴿عَن ذِكْرِي﴾** آياتي المؤدِّية لأولى الأبصار المتدبِّرين فيها إلى ذكري بالتوحيد والطاعة والنفور عن المعصية، وذلك إطلاق للمسبَّب وإرادة السبب، ومن لم يتذكَّر بالآيات فكأنَّه أعمى، أو الذكر: ما أنزل على الأنبياء، أو القرآن.

﴿وَكَانُواْ﴾ مع ذلك **﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾** إذعانا للحقِّ، وذلك تشبيه لهم حيث لا ينتفعون بما سمعوا من الشرع بمن هو أصمُّ، ويجوز أن يقدَّر: سمعا لذكري المذكور أوَّلاً بنفسه، وأمَّا أن يقدَّر هنا: لذكري ويراد به ما لم يرد أوَّلا فلا يجوز، إذ لا دليل عليه، مثل أن يراد أَوَّلاً الموعظة وهنا القرآن كما قال ابن هشام في المغني: «الدليل اللفظي لا بدَّ من مطابقته للمحذوف معنى، فلا يصحُّ أن يقال زيد ضارب وعمرو أي وعمرو ضارب على أنَّ الضرب الأوَّل بالمعنى المعروف والثاني بمعنى مسافر».

١- رواه **الترمذي** في كتاب صفة القيامة (٨) باب ما جاء في شأن الصور، رقم ٢٤٣١. **وأبو نعيم** في الحلية: ج٣، ص١٨٩. من حديث أبي سعيد الخدري.

﴿افَحَسِبَ الذِينَ كَفَرُواْ أَنْ يَّتخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِـي أَوْلِيَآءَ﴾ أكفروا بي فحسب الذين كفروا بي، وحسبوا بمعنى ظنُّوا، وقيل: العطف على مذكور وهو ﴿كَانَتَ اعْـيُنُهُمْ...﴾ أو كانوا، ولا ينافيه لأنه لا تقريع على تعاميهم وتَصَامِّهم لأنهما نزِّلا منزلة الضروريِّ، لأنَّا نقول: الاختيار والتشبيه مع ذلك مراعان، والاستفهام توبيخ واستقباح.

و«عِبَادِي» نحو عيسى والملائكة وعزير، والإضافة للتشريف، وعلى تشريف الله سبحانه لهم بنوا عبادتهم، وقال قتادة: الملائكة، والعموم أولى، وعن ابن عَبَّاس: الشياطين، وهو ضعيف لا يصحُّ عنه، وعن مقاتل: الأصنام، وهو ضعيف لأنه لا دليل على تخصيصها، ولأنَّ الأصل أن لا يطلق العبد على غير العاقل، وقال بعضهم: المراد العقلاء وغيرهم كالأصنام، وفيه ما ذكرت وأنَّ الأصل عدم التغليب.

(نحو) والإضافة في هذه الوجوه بمعنى الملك لا للتشريف، و«أَوْلِيَاءَ» بمعنى معبودين أو أنصارا من بأسي، وليست «أَنْ» مخفَّفة لنصب المضارع بحذف النون، و«أَنْ يَّتخِذُوا» في تأويل مصدر مفعول أوَّل لـ«حَسِبَ»، والثاني محذوف، أي أفحسب الذين كفروا اتِّخاذهم...الخ نافعا، أو دافعا للعذاب، أو نحو ذلك؟ وإنَّما لم يكف عن مفعولين لأنه ليس فيه ما أصله المبتدأ والخبر، كما في المخفَّفة ولا فيه ما يعلِّقه عن طلب مفردين نحو: علمت هل قام زيد.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ﴾ هيَّأنا وهو دليل على أنها مخلوقة قبل يوم القيامة، ويحتمل أنَّ المراد قضاؤها في الأزل، أو إثباتها في اللوح المحفوظ ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ أظهر مكان الإضمار ليذكر علَّة استحقاق جهنَّم وهي الكفر، و يقبِّحهم بذكره، وتعليق الحكم بمعنى المشتقِّ يوذن بعلِّية معنى ما منه الاشتقاق ﴿نُزُلاً﴾

شبَّهها بما يعدُّ للضيف من طعـام وشراب عكسـا، تحقـيرا لهـم وتلويحا بـأنَّ مـا حسبوه دخرا لهم من عبادة غير الله استحال عليهم خسارة وخزيا، وبأنَّها مـن حيث إنَّها دار لهم خسيسة، ولـو بضرب مـن الملائكـة ونحوه كالشـيء القليـل للضيف المعجَّل له به قبل ما يحتفـل لـه بـه بالنسبة إلى مـا يكـون فيهـا بعـد مـن الأنكال والأغلال وأنواع العذاب، وقال الزجَّاج: النزل موضع النزول، وكـذا روي عن ابن عَبَّاس، وقيل: جمع نازل وعليه فهو حال.

﴿قُلْ﴾ يا محمَّد للكافرين من قريش وغيرهم وأهل الكتاب وغيرهم ﴿هَـلْ نُنَبِّئُكُم﴾ النون له ﷺ مع المؤمنين، وفي كونها له مع الله أو معه ومع المؤمنين ما مرَّ. والاستفهام توبيخ لهم، وإن جعل للاستئذان تـنزيلا لـه منزلـة الاستفهام الحقيقيِّ كان تهكُّما بهم ﴿بِالاَخْسَرِينَ أَعْمَـالاً﴾ جمع التمييز مع أنَّه مصدر يصلح لكثير بلا جمع للدلالة على أنواع بأنَّها كلَّها شملها الخسـران، كما يجمع في غير التمييز أيضا تنبيها على الأنـواع مثل قولنا: كتاب البيوع، تنبيها على أنواع كالبيع المشهور والسلم والمحاولة والتولية.

(نحو) [قلت:] ولا نسلِّم أنَّ محلَّ إفراد التمييز ما إذا لم يكـن وصفا وإنَّه إذا كان وصفا أو بمعنى الوصف جمع أو ثنِّي أو أفرد بحسب ما هو فيه، ولا أنَّه هنا جمع عامل أو عمِل بكسر الميم بمعنى ذي عمـل كـلُّ ذلك لا يجوز، ونحو: شاهد وأشهاد غير قياسي، فلا يحمل عليه القرآن، ومجيء التمييز وصفا قليل فلا يحمل عليه ما له مندوحة عنه، وفارسا في [قولنا:] " لله درُّه فارسا "، خارج عن الوصفيَّة.

﴿الذِينَ ضَلَّ﴾ في الآخرة ﴿سَعْيُهُمْ﴾ أي عملهـم ﴿فِي الْحَيَـاةِ الدُّنْيَـا﴾ متعلِّق بـ«سَعْيُهُمْ» لأنَّ زمان السعي الدنيا وزمـان خيبة الثواب عليه الآخرة، و«الذِينَ» نعت أو بيان أو بدل أو منصوب المحلِّ على الذمِّ.

ولم يذكر الله عَجَلَّ أنّهم قالوا: أنبأنا ولا أنّه أنبأهم، ولا يقال أنبأهم بقوله: ﴿الذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ أي الأخسرون أعمالا هم الذين ضلّ سعيهم لأنّهم لا يعلمون من هم الذين ضلّ سعيهم، إلاّ أن يقال: لوّح لهم بِأَنـَّهُم الأخسرون أعمالا، وأنّهم ضلّ سعيهم فهموا ذلك أم لم يفهموا، والأولى إن كان قد أنبأهم أن يكون أنبأهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ الذِينَ كَفَرُواْ بِئَايَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِ﴾ لأنّهم يعرفون أنّهم كفروا بالآيات والبعث.

﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الواو للحال، وصاحب الحال «سَعْيُهُمْ»، أو الهاء من «أَنَّهُمْ»، والأوّل أدخل في بيان خطئهم. والإحسان: الإتيان بالعمل على الوجه اللائق، وهو حسنه الوصفي المستلزم لحسنه الذاتي.

﴿اولَئِكَ﴾ الأخسرون أعمالا الضّالُّ سعيُهم الحاسبون أنّهم يحسنون صنعا مبتدأ خبره هو قوله: ﴿الذِينَ كَفَرُواْ بِئَايَاتِ رَبِّهِمْ﴾ بدلائله الموصلة الجاهل إلى التوحيد من الأرض والسماء وسائر مخلوقاته والقرآن، وقيل: القرآن، ووجهه أنّه هو الذي كفروا به إذ لم يكفروا بنحو السماء وقد أقرُّوا أنّه الخالق، ومن اختار العموم فكأنّه راعى جحودهم لدلالتها على وجوب التوحيد، فكفرهم بها من حيث الدلالة. وذكر «رَبِّ» تلويحا بتقبيح كفرهم بمن هو ربٌّ، أي خالق ورازق ومنعم.

﴿وَلِقَآئِه﴾ كناية عن البعث والحساب، أو استعارة تمثيلية بأن شبَّه عدم الحساب والعقاب بالغيبة عن الموقف في الدنيا منهم، وحضورهم أحياء للحساب والعقاب بلقاء الشيء، أو ذلك من تقدير مضاف هكذا: ولقاء عذابه.

﴿فَحَبِطَتَ اَعْمَالُهُمْ﴾ لكفرهم كما تدلُّ عليه الفاء، والمراد: أعمالهم التي يرجون أنّها تنفعهم مِمَّا هو في نفسه طاعة كالصدقة أو معصية كعبادة غير الله عَجَلَّ. ﴿فَلاَ نُقِيمُ﴾ لأجل ذلك ﴿لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ كناية عن إلغائهم

وعدم اعتبارهم في شيء من الخير البتّة، كما أنَّ الأوساخ والمستقذرات لا تعتبر بالوزن، أو لا نقيم وزنا لأعمالهم لإحباطها حتّى لم يبق منها شيء وصارت كهباء منثور، والوزن عبارة عَمَّا يستحقُّ لشيء، وقال: لا نقيم لأنَّ وزن الله مقام لا شيء منه ناقص، وإذا كان منه شيء ما لم يكن إلاَّ على إقامة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من خزيهم ﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي الشأن ذلك، أو احذروا ذلك أو ذلك جزاؤهم عليه، أو به جهنّم، فحذف الرابط المضمر المجرور ولو لم يذكر مثله لعلمه من المقام، كما ذكر في قوله:

فالذي تدعي به أنت مفـــلح ....

أي مفلح به، ولا يتكرَّر هذا الضمير مع قوله: ﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾ وذلك كما تقول: هذا العقاب جزاء عمرو بكفره، لوقوع الكفر منه، فالباء الثانية بمعنى التعليل أو السببيَّة، والأولى للتعدية هذا إذا جعلنا «بِمَا كَفَرُوا» خبرا ثانيا، وإلاَّ فلا إشكال، ويجوز أن يكون «جَزَاءُ» بدلا وهو المراعى في الإخبار بجهنّم، أو «جَزَاؤُهُمْ» خبر «ذَلِكَ» و«جَهَنَّمُ» بدل «جَزَاؤُهُمْ»، والإشارة على هذا إلى جهنّم الحاضرة في الذهن، أو خبره قوله: ﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾ و﴿جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ معترضة.

(نحو) أو «جَزَاءُ» بدل من «ذَلِكَ» أو بيان، و«جَهَنَّمُ» بدل أو بيان من «جَزَاءُ» أو «بِمَا...» متعلّق بـ«جَزَاءُ» إلاَّ أنَّه مفصول بـ«جَهَنَّمُ»، وجاز لأنَّه مقصود بتأويل الفعل، و«مَا» مَصدَرِيَّة، أي بكفرهم واتِّخاذهم آيات الله ورسله هزؤا، كما قال عطفا عليه:

﴿وَاتَّخَذُواْ ءَايَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ نفس الهزء مبالغة، أو مهزوءا بها، أو هم بتغليب العقلاء. لم يقتصروا على الكفر بها بل زادوا الهزء. والآيات: كتبُ الله والمعجزات.

وعقَّب الله سبحانه الكفر وجزاءه بالإيمان وجزائه في قوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾

جزاء المؤمنين والدعوة إلى الإيمان وإخلاص العمل لله

﴿انَّ الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ با لله ورسوله وآياته على العموم، لأَنَّه كما قيل نزلت في طائفة مخصوصة، ولا سيما أنَّها نزلت في مقابلة عَامَّة الكفرة **﴿وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾** الفرائض والسنن والنفل، ومنها ترك المعاصي لله عَجَلَّ فإنَّه عمل. (أصول الدين) **﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾** بوعد الله في الأزل، أو في اللوح، أو صارت لتحقُّقها بعد كأنَّها مضت، وفي ذلك تلويح بأنَّها بمقتضى الرحمة الأَزَلِيَّة، بخلاف النار فبمجرَّد قضائه واختيارهم السوء، كما قال في حديث قدسيٍّ: «**سبقت رحمتي غضبي**»[1]. لم يقل: أعتدنا، لأنَّ ما اعتيد قد تمَّ وادُّخر، وخير الجنَّة لا يزال يزداد قبل الموت وبعده، وبعد الدخول فيها، كما ورد أنَّه: من فعل كذا لم تزل الملائكة تغرس له، ولأنَّ ما اعتيد قد لا يصل من ادُّخر له في الجملة، وما ثبت لأحد في القضاء واللوح لا يخطئه.

﴿جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ﴾ الجامع للعنب وغيره من الثمار كلِّها الملتفِّ الشجر، قال رسول الله ﷺ: «**إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنَّه وسط الجنَّة**

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٤، ص٢٢٣.

وأعلاها وفوقه عرش الرحمن ومنها تفجَّر أنهار الجنَّة»[١] رواه البخاري ومسلم وابن أبي حاتم عن أبي هريرة، وقال ﷺ : **«الجنَّة مائة درجة ما بين كلِّ درجتين ما بين السماء والأرض، والفردوس أعلى الجنَّة، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس»**[٢] رواه أبو عبيدة بن الجرَّاح. وعن كعب الأحبار: **«ليس في الجنَّة أعلى من جنَّة الفردوس، وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر»**[٣]. وصحَّ أنَّ أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش.

وإضافة جنَّات للفردوس للشبه ولكونهنَّ تحت جنَّة الفردوس أو حولها، لكن جنَّة الفردوس أعلى منهنَّ، فليست الآية فيمن يدخل جنَّة الفردوس بل في عَامَّة المؤمنين والجنَّات، أمَّا خاصَّتهم وَخَاصَّةً جنَّة الفردوس فمن خارج الآية، أو الجنَّات كلُّها فردوس، فالإضافة للبيان، والفردوس المخصوص معيَّن لأهله منهنَّ.

وأمَّا قوله ﷺ : **«إذا صلَّيتم عليَّ فاسألوا الله لي الوسيلة أعلى درجة في الجنَّة، لا ينالها إلاَّ رجل واحد، أرجو أن أكون أنا هو»**[٤] رواه أحمد عن أبي هريرة، فمعناه أنَّ الوسيلة في أعلى الفردوس الذي هو أعلى الجنَّات.

١- رواه **البخاري** في كتاب الجهاد والسير (٤) باب درجات المجاهدين في سبيل الله... رقم ٢٦٣٧. ورواه **الترمذي** في كتاب صفة الجَنَّة، باب ما جاء في صفة درجات الجَنَّة، رقم٢٥٣٢، مع تقديم وتأخير. من حديث أبي هريرة.

٢- أورده **السيوطي** في الدر، ج٤، ص٢٧٩. وقال: أخرجه النجاد في جزء التراجم عن عبيدة بن الجراح.

٣- أورده **السيوطي** في الدر: ج٤، ص٢٧٩. وقال: أخرجه ابن جرير وابن مردويه عن أنس بنفس المعنى وزيادة.

٤- رواه **أحمد** في مسنده، كتاب مسند المكثرين، رقم ٧٢٨١. وروى **الترمذي** مايقاربه لفظا في كتاب الفضائل، باب فضل النبيء ﷺ، رقم٣٦١٢. من حديث أبي هريرة.

﴿نُزُلاً﴾ هنَّ مع عظمهنَّ مثل ما يعجَّل للضيف قبل الاحتفال له، لأنَّهنَّ لا يزلن يزددن خيرا، وقيل: النزل المنزل. و«نُزُلاً» خبر ثان والأوَّل «لَهُمْ»، أو يعلَّق «لَهُمْ» بـ«كَانَتْ»، أو حال من «نُزُلاً» و«نُزُلاً» خبر، أو «لَهُمْ» خبر و«نزُلاً» حال من «جَنَّاتُ».

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ في تلك الجنَّات، حال مقدَّرة من الهاء في «لَهُمْ»، ولا يصحُّ أن تكون مقارنة لأنَّهم لَمَّا يدخلوها، والحكم بها لهم قبل كونهم فيها فلا تغفل، وقوله: ﴿لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ حال ثانية، أو حال من المستتر في «خَالِدِينَ». و«حِوَلاً» مصدر "حال" بمعنى تحوُّل، لا يطلبون تحوُّلا عنها إذ لا يسأمونها لأنها غاية الطيب، ولا يخطر في قلوبهم سواها، ولأنَّها تزداد خيرا، وأدناهم إذا لاقى أكبرهم ادَّعت نفسه أنَّه أكبر، إلاَّ رسل الله فلا يُدَّعى الفضل عليهم، ولا يصيبه تغيُّر لذلك.

﴿قُل﴾ للمؤمنين وغيرهم إن استبعدت عقولهم شيئا من أمر الجنَّة: إنَّ قدرة الله ﷻ تامَّة لا يعجز عن شيء، ومن ذلك كمال علمه.

روى الترمذي عن ابن عَبَّاس أنَّ حيي بن أخطب اليهودي قال: في كتابكم ﴿وَمَنْ يُّوتَ الْحِكْمَةَ...﴾ (سورة البقرة: ٢٦٩) وفيه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (سورة الإسراء: ٨٥) والحكمة العلم، فتناقضت الآيتان، الجواب ظاهر: هو أنَّ الخير الكثير قليل بالنسبة إلى الكلِّ. وقال بعض اليهود أيضا: تدَّعي العلم وعجزت عن علم الروح ما هو؟! فنزل: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم...﴾ مع أنَّ علم الروح مِمَّا لا يحتاج إليه في الدين.

﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ﴾ «الـ» للاستغراق، فشمل البحر المحيط والبحور الخارجة منه، وما لم يخرج منه ﴿مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ﴾ معلومات ﴿رَبِّي﴾ وكلُّ نبتة قلما

﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ عونا وزيادة، لأنَّ معلوماته لا تنتهي، **وذلك تمثيل لنا بما هو أقرب لأفهامنا**، فإنّه لا يفي بها سبعة أبحر ولا آلاف ألف وأكثر بلا نهاية عدد.

وذكر السبعة لأنَّ الناس يذكرونها في الكثرة، والمراد: لو جئنا بمثله فكيف لو لم نجئ بذلك؟ أو يقدَّر: لو لم نجئ ولو جئنا، والمراد: لنفد البحر وهي باقية إذ لا تنفد البتّة كائنا ما كان. و«مَدَدًا» تمييز، ووجهه أنَّ في الأبحر مددا أيضا إذ كلُّ جزء من ماء زيادة على ما قبله.

(بلاغة) وأظهر الكلمات والبحر لزيادة التقرير، وفي إضافة «رَبِّ» للياء والإظهار مع التكرير زيادة تفخيم للمضاف، وتشريف للمضاف إليه.

﴿قُلِ اِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لا أدري إلاَّ ما علَّمني ربِّي، ويكون الشيء الكثير قليلا بالنسبة إلى غيره، كما أنَّ القليل كثير بالنسبة إلى ما دونه فلا تناقض بين الآيتين اللتين ذكرتم.

(بلاغة) ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ من تلك الكلمات التي لا تنتهي ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ والحصر الأوَّل حصر موصوف هو رسول الله ﷺ على صفة هي كونه بشرا مماثلا لهم، قصر قلب تنزيلا لاقتراحهم منه ما لا يكون من بشر مثلهم منزلة من يدَّعي أنّه غير بشر، أو إنّه بشر غير مماثل لهم، أو قصر تعيين تنزيلا لهم لذلك منزلة من لا يدري أنّه بشر مثلهم، والحصر الثاني حصر موصوف هو الله ﷻ على الصفة هي الأُلوهِيَّة، قصر قلب تنزيلا لعدم إذعانهم إلى القرآن منزلة من يدَّعي عدم الأُلوهِيَّة، وقصر إفراد تنزيلا لذلك منزلة مدَّعي تعدُّد الإله، ولا بطلان لهذا لأنَّ المعنى الردُّ على من يقول تنزيلا إنَّ الله إله وهذه آلهة أيضا، لا إنَّ الواحد إلهان فلا تهم.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ﴾ يطمع في حصول ما فيه مسرَّة في المستقبل ﴿لِقَآءَ رَبِّهِ﴾ لقاء ثواب ربِّه، أو حسن لقائه، أي حسن البعث، أو لقاء ربِّه بخير منه ﷻ، أو الرجاء: الخوف، أي فمن خاف لقاء ربِّه بشرّ منه ﷻ كقوله:

إذا لسعته النحل لم يَرْجُ لسعها وحالفها في بيت نوب عوامل[1]

﴿فَلْيَعْمَلْ﴾ لذلك الطمع لينال مطموعه، أو لذلك الخوف لينجو من مخوفه ﴿عَمَلاً صَالِحًا﴾ ومن العمل ترك المعاصي لله تعالى فإنَّه عمل، وهكذا في غير هذه الآية حيث لم يذكر التقوى، أو نحوها مع الإيمان ﴿وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ كما تشرك عبدة الأصنام إيَّاهَا مع الله، وكما تشرك النصارى المسيح وأمَّه مع الله، وكما تشرك معه الشمس والقمر والنجوم عبدتها.

(أصول الدين) ويلتحق بذلك معنى لا حكما من قال: صفات الله غيره، قال ابن العربي: «ليس بين من يقول: صفات الله غيره ومن يقول: ﴿إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ﴾ إلاَّ تزيين اللفظ». ومن ذلك ترك العمل الصالح خوف أن ينسب إلى الرياء، ومن ذلك الرياء وهو الشرك الأصغر، وقد قيل: الآية في الشرك الجليِّ كشرك قريش واليهود والنصارى وعبدة الأوثان أو غيرها كالملائكة والجنِّ.

وعن ابن عبَّاس: نزلت في المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، فقيل: لو كان كذلك لقدَّم النهي عن عبادة غير الله عن الأمر بالعمل الصالح، وأجيب بأنَّه قدَّم العمل الصالح تفريعا على كونه إلها وأخَّر الشرك تفريعا على كون الإله واحدا، وقيل: التفريع على مجموع ما تقدَّم ولا يدفع الإشكال بهذا، إذ يقال لم يقدِّم في هذا التفريع النهي عن الشرك.

١- البيت في لسان العرب، ج٤، ص٢٨٥، مَادَّة: «دبر» نسبه لامرأة قالته لزوجها وأثبته بالخاء المعجمة في: «حالفها»، ولم يتَّضح لنا المعنى بالخاء المعجمة.

[قلت:] والأَوْلى تفسيرها بالإشراك عموما: الجليِّ والخفيِّ، ولو كان أكثر شيوعا في الجليِّ، وهذا أعمُّ فائدة ووعظا، ولا مانع منه، ولا يحسن تفسير ذلك بالرياء خاصَّة كما صنع سعيد بن جبير والحسن البصري، ويدلُّ لذلك تقديم العمل الصالح لكن لا مانع من التعميم مع ذلك التقديم، غايته تقديم ما هو الواجب على الموحِّد والمشرك، فإنَّه مخاطب بالفروع كالأصول على الصحيح.

(سبب النزول) وقال جندب بن زهير لرسول الله ﷺ: «إنِّي أعمل العمل لله تعالى فإذا اطُّلع عليه سرَّني» فقال: **«إنَّ الله تعالى لا يقبل ما شورك فيه»** فنزلت الآية تصديقا له ﷺ، فنقول: نزلت جوابا له وزجرا للمشركين، وإنَّما أجابه بذلك لعلمه أنَّ جندبا راءى فجعل فعله إشراكا وصدَّقته الآية، وزادت بالعموم، قال ﷺ عن ربِّه: **«أنا أغنى الشركاء، من عمل عملا أشرك فيه غيري فأنا بريء منه، وهو للذي أشرك»**[1] رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة.

وفي إحياء الغزالي: «من عقد عمله لله أوَّلاً على الإخلاص وحدث الرياء بعد تمامه لم يبطل عمله، أو قبل تمامه بطل»، قلت: ينافيه أحاديث دلَّت على أنَّه يبطل ولو حدث بعد عمله، كحديث جندب. وعنه ﷺ أنَّه قال لمن قال: يعجبني الاطِّلاَع على عملي: **«لك أجران أجر السرِّ وأجر العلانية»** وهذا محمول على أنَّ الرجل أعجبه الظهور من حيث أنَّه يقتدى به في العمل لا رئاء.

والله الموفق وهو المستعان

وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم

---

١ - تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٦، ص٣٥٧.

[تـمَّ بحمد الله وحسن عونه الجزء الثامن من تيسير التفسير، وبه تمام النصف الأول من القرآن الكريم، ويليه بحول الله الجزء التاسع، وأوَّله

تفسير سورة مريم]

الفهارس

الفهرس التفصيلي للمسائل الأصولية



الفهرس التفصيلي للمسائل الفقهية

فهرس لبعض مختارات الشيخ

فهارس عامة للموضوعات الفرعية

فهرس الآيات والعناوين الرئيسية

تفسير سورة الإسراء

تفسير سورة الكهف

التعريف بالمفسِّر*

• في سنة ١٢٣٧هـ/ ١٨١٨م بمدينة غرداية العريقة شمال صحراء الجزائر، وُلد الشيخ امحمَّد بن يوسف اطفيَّش.

• في سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م حفظ القرآن الكريم في بني يسجن ـ بلده الأصلي ـ واشتغل بحفظ المتون الدينيَّة واللغويَّة على يد شقيقه الأكبر إبراهيم اطفيَّش، وعلى غيره من مشايخ المنطقة، ونبغ في فروع الثقافة الإسلاميَّة نبوغا كبيرًا.

• في سنة ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م جلس للتدريس والتعليم في داره ببني يسجن، ثمَّ في مدينة بنورة لفترة من الزمن، ثمَّ عاد إلى بني يسجن وواصل نشاطه الدؤوب في معهده، وتولَّى مهمَّة الوعظ والإرشاد والفتوى في المسجد.

• منذ سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م قاوم الاستعمار الفرنسي عند دخوله إلى وادي ميزاب، وتولَّى إحباط خططه وتصرُّفاته. وله زيارات ميدانيَّة للدعوة والإرشاد والتعليم إلى جميع قرى وادي ميزاب.

• في سنة ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م زار البقاع المقدَّسة للمرَّة الثانية، وفي طريقه زار جامع الزيتونة بتونس، وجامع الأزهر بالقاهرة، واستمع لعلمائها،

* انظر تفاصيل ترجمته في مقدِّمة الجزء الأوَّل من هذا التفسير.

وألقى دروسا في الحرم المدني، تشريفا وتقديرا له من علمائه.

• له مراسلات هامَّة إلى علماء عصره جاب بها الشرق والغرب، وترك في كلِّ فنٍّ تأليفا أو أكثر يشهد له بالتفوُّق والإتقان.

• تخرَّج في معهده عدد كبير من الدعاة والقضاة والعلماء، وإليه يرجع الفضل الكبير في بثِّ الوعي الديني، ونشر الروح العلميَّة في هذه الربوع وفي غيرها بأبحاثه وتآليفه القيِّمة، وبتفانيه في التدريس والتعليم.

• في سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م اختاره الله إلى جواره في مركز نشاطه ببني يسجن، رحمه الله وأرضاه وجعل الجنَّة مثواه.

ص.ب: ٦٦٨ - الرمز البريدي: ١١٣ - مسقط - سلطنة عُمان

رقم الإيداع : ٣٢٤ /٢٠٠٥ م

المطابع الذهبية ش.م.م/٢٤٦٩٩٩٧٢